

القرآن والمبشرون

تأليف
محمد عزة دروزة

المكتب الإسلامي



القرآن والمبشرون

تأليف

محمد عزة دروزة

المكتب الإسلامي

الطبعة الثالثة
١٣٩٩ - ١٩٧٩

المكتب الإسلامي
للطباعة والنشر

بيروت : ص.ب ٣٧٧١ـ هاتف ٤٥٠٦٣٨ ـ برقيًا: إسلاميًا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ـ هاتف: ١١١٦٣٧ ـ برقيًا: إسلامي

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۞

سُورَة التوبة (٣١-٣٢) « صدق الله العظيم »

فصول ومواد الكتاب

١ـ مقدمة الكتاب . وفيها بحث في دواعي تاليف الكتاب وتنبهات على مايقع فيه المبشرون من سوء فهم وسوء استيعاب للقرآن .

٢ـ الفصل الاول

التوارة والانجيل وأسفار العهد القديم والعهد الجديد في القرآن والواقع .

اولاً : وصف لاسفار العهد القديم وتاريخها ومحتوياتها

ثانيا : وصف لاسفار العهد الجديد وتاريخها ومحتوياتها .

ثالثا : تنبه على مايقع فيه المبشرون من سوء فهم وسوء تأويل لاحاديث تدوين القرآن.

٣ ـ الفصل الثاني

اولاً : مسألة كتابية القرآن وكتابية الدعوة الاسلامية في العهد المكي .

ثانيا : زعم الانقلاب الشامل للنبي صلى الله عليه وسلم واساليبه في العهد المدني .

ثالثا : مزاعم في صدد صفة الرسول عليه السلام وتنبيه على ما في هذه المزاعم من سوء فهم وسوء تأويل للنصوص القرآنية .

رابعا : زعم قومية الدعوة الاسلامية وعروبتها دون عمومها ولكونها ليست انسانية ولا عالمية

خامسا : زعم بدائية الدعوة الاسلامية وسلبيتها وكونها عملية ولا أخلاقية .

سادسا : مزاعم متنوعة في نظم القرآن .

سابعا : صفات المسيح وامه عليهما السلام في القرآن .

ثامنا : حالة اليهود والنصارى في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

قرأت في صيف سنة ١٩٦٨ أربعة كتب مطبوعة في مطبعة حريصا البولسية في لبنان لمبشر سمى نفسه (الأستاذ الحداد) [١] بعنوان مشترك هو (دروس قرآنية) مع عناوين أخرى لكل كتاب ، والأول يحمل الرقم (١) وعنوانه الخاص (الإنجيل والقرآن) وعدد صفحاته (٤٢٢) ، والثاني يحمل الرقم (٢) وعنوانه الخاص (القرآن والكتاب) وعدد صفحاته (٢٧٩) والثالث يحمل الرقم (٣) في نفس عنوان الثاني ويظهر أنه تتمة له ، لأن أرقام صفحاته بدأت بالرقم ٢٨٠ ، واستمرت إلى ١٠٧٦ فيكون عدد صفحاته (٧٩٦) ، والرابع يحمل الرقم (٤) وعنوانه (نظم القرآن والكتاب) وصفحاته (٢٠٢) .

وقد كتب الخوري لكل من كتبه الأربعة مقدمة بريئة الظاهر ، وفيها دعوة إلى التفاهم وتبادل الثقة بين المسلمين والنصارى ، لأنهم يدينون بدين كتابي متحد المصدر والمبادىء والأهداف .

غير أنه حشا كتبه بأقوال وبيانات وروايات وتحليلات عن القرآن ومحتوياته ونظمه ولغته وترتيبه . وعن شخصية النبي محمد ﷺ وسيرته ورسالته

---

(١) علمت أن اسمه الكامل يوسف الياس الحداد ، ويلبس بزة الخوارنة المسيحيين .

وصلتها بأهل الكتاب ، وبتحديد أكثر باليهودية والنصرانية وكتبها فيها الغريب العجيب المذهل من التخرص والتعسف والتجني والمجازفة وتحريف الكلام واللعب بالألفاظ ، وعدم التورع عن أقوال فيها افتراء وسوء أدب نحو القرآن ورسول الله وكتّاب وحيه وأصحابه الأولين وتابعيهم ونسبة الدس والزيادة في القرآن إليهم .

والخوري مطلع على كتب تفسير المسلمين وما كتبه علماء وكتّاب المسلمين من كتب في مختلف العصور أيضاً ، ويستشهد أحياناً كثيرة بما جاء فيها ، غير أنه جرى على بتر ما ينقل واللعب فيه حيث يهمل تتمات مهمة كما ظهر لي يقيناً بما نقله عن كتبي « القرآن المجيد » و « عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة » و « سيرة الرسول ﷺ » التي ينقل عنها كثيراً حيث أورد روايات منها أوردتها فيهـا للتفنيد ، فرواها دون تفنيدي لها وحيث أورد بعض شروحي وتعليقاتي على بعض المواضيـع ناقصة أو مبتورة ، وفعل مثل هذا إزاء كتب اسلامية أخرى . وقد جرى كذلك على إبراز أقوال وروايات ضعيفة وإهمال ما في موضوعها من أقوال وروايات قوية مما ثبت لي من المقارنة بين ما نقله عن بعض المصادر الإسلاميـــة وبين ما ورد في هذه المصادر .

ومما جرى عليه أنه حين يستشهد بالآيات القرآنية ـ وهو يفعل هذا كثيراً ـ يقتطع آية من سياق أو جملة من آية ويهمل أو يغفل بقية السياق أو الآية مع أنه يكون في ما أهمله وأغفله توضيح أو تتمة أو استدراك بسبيل تأييد ما يريد زعمه من أفكار ودعاو وأحكام ، وكثيراً ما يفعل مثل ذلك في إيراد آية أو جملة في سورة وإهمال ما في السورة الأخرى من توضيح أو تتمة أو استدراك متجاوزاً بهذا وذلك ما هو مقرر طبيعي من التكامل والترابط القرآني[1] .

---

(١) سيأتي التنبيه عليها في مناسبتها .

كذلك مما جرى عليه أنه يجازف مجازفة عجيبة بل يجرأ جرأة عجيبة فيها كثير من التنطع والتنطع في تأويل الآيات والعبارات القرآنية وإهمال ظروفها ومقاماتها بدون سند ولا منطق ، ودون أي اهتمام بما يقوله المفسرون وعلماء اللغة والقرآن أو يوردونه في صددها من أقوال وحجج وروايات قوية وصحيحة ، وأنه يتصيد تأويلات لبعض المفسرين وأقوالاً لبعض المؤلفين يظنها متساوقة مع هواه ومزاعمه فيبرزها ويهمل غيرها مما هو أقوى منطقاً أو سنداً أو حجة أو شهرة . وحيثما يفحمه النص القرآني ولا يستطيع تحريف معناه وألفاظه ومقامه يبادر إلى وصفه بأنه مدسوس أو مزيد أو مقحم .

— ٣ —

وهو يستهدف من كل ذلك تبشيراً مسيحياً من ناحية ، وتوهيناً للقرآن والرسالة المحمدية من ناحية ، مناقضاً بذلك مقدمات كتبه التي ظن أنها قد تكون طعماً للقارىء وستاراً يستر بها هواه وهدفه مع أنه لا يلبث أن يظهر أنه ستار شفاف لا يستر شيئاً حيث يصدق عليه قول من قال :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

أو :

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها ... عند التقلب في أنيابها العطب

وفي كتبه أقوال وتبجحات ودعاو كثيرة عن التوراة والإنجيل وما يسميه « الكتاب المقدس » الذي يعني مجموعة أسفار العهد القديم والعهد الجديد . وكثيراً ما يدير أقواله على اعتبار أن القرآن يعترف بالتوراة والإنجيل وان ما فيهما حجة له ولأهل الكتاب على القرآن والمسلمين .

— ٤ —

كل ما تقدم مع ما كنت أطلع عليه من مثله في كتب المبشرين والمستشرقين جعلني أكتب هذه البحوث لأشرح فيها مدى مفهوم التوراة والانجيل في القرآن ثم في الواقع ، ومدى مفهوم وواقع أسفار العهد القديم

والعهد الجديد أولاً ، ولأرد ثانياً على المزاعم والدعاوى والأقوال والتأويلات والافتراضات والتنطعات التي يسوقها بقصد التجريح والتهوين والتشكيك والتي يزعم أنه يستند فيها إلى القرآن وعلماء المسلمين ، وأوضح الأمر على وجهه الحق الصحيح في كل ذلك إن شاء الله دون أن أقصد جدلاً مقابلاً لأني أعرف أن ذلك لا طائل منه مع الخوري الحداد وأمثاله الذين يتخذون الجدل والمماحكة واللعب بالألفاظ ديدناً ومهنة ، وإنما بقصد إظهار الحق والحقيقة والدفاع عنها وتنبيه أهل القرآن اليها ، وتذكير من أراد أن يتذكر من غيرهم ، ولا سيما أن الرسالة المحمدية القرآنية رسالة انسانية عامة رشحها الله تعالى لتكون دين الإنسانية العام بنص آيات عديدة أوحى الله بها في سياق الرد على الكفار من أهل الكتاب والمشركين الذين انبروا للصد عنها ومناوأتها محاولين اطفاء نور الله وانطوى فيها من المبادىء والأحكام والقواعد والتلقينات ما فيه استجابة وحل لكل مطلب إيماني واجتماعي وشخصي وسياسي وسلوكي بما فيه كل سعادة البشر ورقيهم وعزتهم وأمنهم وسلامتهم وحريتهم حيث يكون الدفاع عنها خدمة للبشرية كافة .

ولقد كان من توفيق الله وتسديده أن صار ما كتبناه بحوثاً مفيدة في حد ذاتها لأي قارىء في صدد محتويات القرآن ونظمه وترتيبه ولغته ، وفي صدد شخصية الرسول ﷺ وسيرته ، وفي صدد سيرة انتشار الاسلام بين العرب وسائر الناس ، وفي صدد التوراة والانجيل وأسفار العهد القديم والجديد .

ونحن نعرف أن علماء كثيرين من المسلمين في القديم والحديث كتبوا ردوداً على مزاعم متنوعة للقسس والرهبان من النصارى والأحبار من اليهود والمبشرين المستشرقين المحرفين الكلام عن مواضعه بسبيل الاعتراض على عقائد المسلمين وتأييد عقائدهم ، غير أن الخوري الحداد نحا في كتبه منحى جديداً وجعل القرآن سنداً له في ما كتبه لصالح أهل الكتاب وكتبهم وبخاصة النصارى وضد القرآن ورسول القرآن وأهل القرآن ، فصار من

المفيد والواجب أن يكتب هذا الكتاب للرد فيه على ذلك المتحي الجديد .

- ٥ -

ولقد تعرض القرآن الكريم والرسول محمد ﷺ العظيم ودين الاسلام والمسلمين لمناوئات ودسائس كثيرة منذ فجر الدعوة من قبل فئات متنوعة وبخاصة من قبل بعض رجال الدين اليهودي والنصراني على ما حكته آيات القرآن الكريم ثم روايات السيرة والتاريخ في مختلف الأدوار والأقطار ، ولكن الله تعالى الذي رشح الإسلام كما قلنا ليكون دين البشرية العام وليظهره على الدين كله أحبط وما يزال يحبط تلك الدسائس والمناوءات . وينصر دينه ويعزّه ويأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون مما عبرت عنه سورة الصف هذه (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) وآيات سورة التوبة هذه : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ

ليُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ . يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ كَثِيراً مِنَ الأحْبَارِ والرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أمْوَالَ النَّاسِ بالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَهَا في سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) . والآية الأخيرة صريحة بأنها تحتوي مشهداً عيانياً واقعياً بما كان يبذله كثير من الرهبان والأحبار من المناوءات والصد عن الإسلام بسبيل الاحتفاظ بمنافعهم المادية ...

- ٦ -

والحوري الحداد وأمثاله أذكى من أن يجهلوا أنهم أعجز من أن ينالوا من القرآن والرسالة الإسلامية ورسولها العظيم ، وهم يعرفون أن كفار مكة قبل أن يؤمنوا وكفار اليهود والنصارى الذين غلبت عليهم أنانياتهم ومنافعهم فعموا عن نور الحق عن محمد قد قالوا من الأقوال عن القرآن والنبي ورسالته أكثر مما يقوله الحوري وأمثاله مواجهة لصاحب الرسالة . وقد رواه القرآن عنهم بدون أي تحرج ، لأنه لا يقوم على أي أساس صادق وصحيح وأتفه وأهون من أن يثير حرجاً وإشكالاً ، ورده عليهم رداً ساحقاً ثم استمر القرآن ينزل ، واستمر رسول الله يضطلع بمهمته العظمى بكل عزيمة وتصميم وتأييد من الله تعالى حتى أظهر الله دينه على الدين كله في جزيرة العرب ، وأخذ يمتد في حياته إلى ما وراءها وانتشر بعده في مشارق الأرض ومغاربها ، وفاق في انتشاره كل دين ، وما يزال مستمراً في الانتشار ومتفوقاً على غيره في كل مجال ومنافسة . وليس تفوق الذين يعتنقون بعض الأديان الأخرى على المسلمين عدداً ناقضاً لذلك ، لأنه ناتج عن الوراثة والبيئة وحسب وليس من التنافس بينها وبينه .

- ٧ -

والحوري وأمثاله أذكى كذلك من أن يظنوا أنهم بمثل هذه الكتب

يستطيعون أن يؤثروا على المسلمين ويشككوهم في قرآنهم ورسولهم ودينهم وهم يقرأون في القرآن كثيراً من مثل أقوالهم وتنطعاتهم وما حكاتهم والرد القوي الساحق عليها ، بل هم يعرفون أن هذه الكتب لن يكون لها رواج وقواء بين جمهور المسلمين ، والمتبادر أنهم إنما يكتبونها بقصد تشويه القرآن والرسالة المحمدية وتهوينها في نظر بني ملهم إبقاء لهم على ما هم عليه ليظلوا مطايا لهم يركبونها وبقراً يحلبونها ومدرار منافع ومآرب يجنونها كما وصفت آية التوبة أمثالهم الأقدمين (إنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحبَارِ والرُّهبَانِ لَيأكُلُونَ أَموَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ) .

وهم فيما نعتقد في نفس الوقت عملاء ومطايا للحاقدين من رجال الدول الغربية الاستعمارية الدينيين والسياسيين التي كان وظل أسلافهم يتضامنون مع أسلافهم ضد الاسلام والمسلمين منذ حركة الفتح الاسلامي الأول ثم في الحروب الصليبية ثم في المحاولات الاستعمارية الحديثة والتي كانت وما تزال ترى في الاسلام والمسلمين القوة الطاردة لها من الشرق والمناضلة ضدها كل ما أرادت أن تتسلط على بلادهم وتستعمرها فتبذل جهودها المتنوعة وتحرك عملاءها ومطاياها من رجال دين وسياسة لتحطيم هذه القوة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

ولكن هذه القوة ستظل بإذن الله أقوى منهم جميعاً ، ولسوف يغلب الحق فيها على كل باطل ويبدد نور هداها ظلمات الجهل والضلال والغفلة والضباء في أوساط هذه الملل عاجلاً أو آجلاً حتى يصدق ويتحقق وعد الله والله لا يخلف وعده (فأمَّا الزَّبَدُ فَيَذهَبُ جفَاءً وأمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمكُثُ في الأرْضِ) وان مثل الكلمة الطيبة ـ وهي كلمة الحق ونور الهدى الاسلامي ـ كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وإن مثل الكلمة الخبيثة ـ وهي كلمة الضلال والباطل

والكفر برسالة خاتم النبيين محمد ﷺ وبقرآنه الذي هو خاتم كتب الله والمهيمن عليها - كالشجرة الخبيثة ليس لها في الأرض قرار، وتجتث منها بأوفى قوة وجهد [1] .

- ٨ -

وكم يحز في النفس ويثير فيها أشد مشاعر الحزن والاشمئزاز أن يستنفذ الخوري الحداد وأمثاله من أذكياء ونبهاء الكتابيين جهودهم الزائفة التي لا يسندها حق ولا منطق ولا عقل ولا نص في الصد عن الدين الإسلامي وتجريح قرآنه ونبيه العظيمين متمسكين بالقشور دون اللباب، وبالعرض دون الجوهر، غير متورعين عن البذاءة والغثاثة والصغار والافتراء، ولا متأثرين بتقدم الأدب الانساني والحضارة الانسانية والتفكير الانساني، ولا مرتدين عن المكابرة والمماراة والمماحكة والخروج عن نطاق الأدب والحق والمنطق، ولا منصاعين للحق والمنطق والضمير، ولا سيما أنهم يعرفون أن الرسالة الاسلامية متفقة في المصدر والمبادىء والأصول مع ما يعتقدون من كتب الله ورسله، وأنها تحترمها وتدعو إلى وحدة الله تعالى وتنزيه وإلى جماع مكارم الأخلاق، وأسباب سعادة البشر في الدنيا والآخرة . وكان الأولى بهم والاحجى أن يحذوا حذو من شاهدوا أعلام النبوة عياناً من بني ملتهم وفرحوا وابتهجوا وآمنوا وصدقوا وبكوا وخشعوا لتحقيق وعد الله في صدد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وقرآنه الذي يجدونــــه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل على ما حكاه القرآن في آيات عديدة منها هذه الآيات :

١ - (وإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً

---

(١) اقرأ آيات سورة إبراهيم ٢٤ — ٢٧ وآية سورة المائدة ٤٨ .

أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ ..) (آل عمران : ١٩٩) .

٢ – (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالمُؤْتُونَ الزَكَاةَ وَالمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء : ١٦٢] .

٣ – (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ) [المائدة : ٨٣ – ٨٦] .

٤ – (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) [الرعد : ٣٦] .

٥ – (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) [الإسراء : ١٠٧ و ١٠٨] .

وإذا كانوا لايستطيعون أن يتفلتوا من رواسبهم ويتغلبوا على أنانياتهم ومآربهم ويروا نور الحق الساطع السني في الدعوة الإسلامية وقرآنها وسيرة رسولها كما فعل الذين حكت الآيات موقفهم الرائع العياني فإن عليهم على الأقل أن يرعووا عن محاولاتهم الفاجرة العاجزة .

والسلام على من اتبع الهدى ، والله أكبر والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

٥ رجب ١٣٨٩

١٩٦٩/٩/١٥

دمشق الشام

المؤلف

الفصل الأول

التوراة والانجيل وأسفار العهد القديم والجديد في القرآن والواقع

- ١ -

إن الحوري يستشهد بالقرآن على صحة التوراة والانجيل وأسفار العهد القديم والأناجيل المتداولة التي يسميها هو ومن على ملته «الكتاب المقدس» وعلى عدم طروء تبديل وتحريف عليها وعلى عدم احتمال ذلك، ويعول على ذلك في مقارناته ودروسه القرآنية تعويلاً لايثبت على نقد وتمحيص، وفيه كثير من المفارقات والنقائض، فصار من الواجب بدء الكتاب بفصل نشرح فيه الأمر على ضوء القرآن والواقع .

إن من أهم ما يورده الحوري في صدد دعـــاويه المذكورة من آيات القرآن هو هذه الآيات :

١ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَه حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُون بِهِ .) [البقرة : ١٢١] .

٢ - وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولئِكَ بِالمُؤْمِنِينَ . إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا

بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون .. [المائدة : ٤٤ - ٤٦] .

٣ - ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون .. [المائدة : ٦٥ و ٦٦] .

٤ - (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ..) [المائدة : ٦٧] .

ونعلق تعليقاً عاماً وعاجلاً ، وهو أن كل ما يمكن أن تعنيه وتفيده هذه الآيات هو أن التوراة والإنجيل اللذين ذكر القرآن أن الله تعالى أنزلها وآتاهما موسى وعيسى عليهما السلام كانا موجودين في أيدي اليهود والنصارى في زمن النبي ﷺ ، ثم ندخل في التفصيل فنقول :

- ٢ -

أولاً - في صدد التوراة وأسفار العهد القديم :

١ – إن كلمة (التوراة) عبرانيـة تعني التعليم أو الشريعة ، وهي معربة بصيغة عربية فصحى ، والمتبادر أن التعريب سابق لنزول القرآن ، وأن اللفظ القرآني جـاء كما كان مستعملاً قبل نزول القرآن للدلالة على الكتاب الذي احتواه التعليم ، أو الشريعة الموسوية الموحاة من الله تعالى .

٢ – إن كلمة (التوراة) وردت في القرآن ثماني عشرة مرة ، واحدة في سورة مكية ، وباقيها في سور مدنية ، ومنها ما فيه دلالة صريحـة على أن القصد منها هو كتاب الشريعة الموسوية المنزل من الله تعالى كما ترى هذه الآيات :

آ – كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. [آل عمران : ٩٣] .

ب – آيات المائدة ٤٣ – ٤٥ و ٦٥ و ٦٦ و ٦٨ التي أوردناها قبل .

ومنها ما جاء في سياق الجدل مع اليهود في ملة إبراهيم عليه السلام ، أو في سياق ذكر كتب الله المنزلة إطلاقاً ، أو في سياق حكاية قول عيسى عليه السلام بأنه مصدق للتوراة كما جاء في الآيات التالية :

آ – نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ .. [آل عمران : ٣-٤] .

ب – يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ .. [آل عمران : ٦٥]

ت – وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. [الصف : ٦] .

ومنها ما جاء في خطاب رباني مطلق في صدد تعليم عيسى عليه السلام التوراة بالإضافة إلى الإنجيل أو خطاب رباني لعيسى عليه السلام في الصدد نفسه كما جاء في هذه الآيات :

آ - وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ .. [آل عمران : ٤٨] .

ب - إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ .. [المائدة : ١١٠] .

ومنها ما جاء في آية احتوت تقريراً بأن صفات النبي ﷺ مكتوبة فيه وتنويهاً بالذين يتبعونه ، لأنهم يجدونه مكتوباً فيه ، كما ترى في آية سورة الأعراف المكية هذه وهي التي قلنا : إنها المرة الوحيدة التي ورد فيها ذكر التوراة في السور المكية : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الأعراف:١٥٧) .

ومن الجدير بالتنبيه أن كلمة التوراة لم ترد في القرآن مقرونة بذكر موسى عليه السلام ، وأن ما جاء مقروناً باسمه هو ألفاظ (الكتاب) و (الألواح) كما ترى في الآيات التالية :

آ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ .. [البقرة : ٨٧] .

ب - وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ

على بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ .. [الأنعام : ٩١] .

ت – وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسى إِمَاماً وَرَحْمَةً . [هود : ١٧].

ث – وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ . وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ .. [هود : ١١٠] .

ج – وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ .. [الأعراف : ١٤٥] .

ح – وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ أخَذَ الألْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ .. [الأعراف : ١٥٤] .

ويلحظ أن وصف (هدى ونور) الذي وصفت به التوراة في آية سورة المائدة (٤٤) قد وصف بها (الكتاب) أيضاً كما جاء في آية سورة الأنعام (٩١) حيث يمكن القول : إن الكتاب يعني التوراة .

– ٣ –

وواضح من الآيات القرآنية أن المقصود القرآني من كلمة (التوراة) هو الكتاب المنزل من الله تعالى على موسى عليه السلام المحتوي للمبادىء والتعليمات والتشريعات والأحكام والحدود الربانية . واستعمال اللفظ مفرداً يسوغ القول إنه كتاب واحد وإن كان لا يمنع هذا أن يكون ذا فصول عديدة .

هذا في حين أن المتداول اليوم والذي يسمى (التوراة) ويسمى أيضاً باسم (العهد القديم) هو مجموعة ضخمة من أسفار عديدة منفصل بعضها عن بعض ، وبأسماء مختلفة ، وعددها عند فريق من الكتابيين النصارى

(الطبعة البروتستانتية) تسعة وثلاثون وعند فريق آخر منهم (الطبعة الكاثوليكيــة) ستة وأربعون[1] وهي عائدة إلى حقب عديدة بدءاً من تاريخ خلق الكون وآدم وحواء ونوح وطوفانه وأولاده وأنسـابهم إلى إبراهيم وذريته إلى موسى وبعـده إلى أوائل عصر عيسى عليهم السـلام . وأسلوبها مزيج من السمة الدينية والتاريخية ، منها ما تغلب عليـه السمة الدينية التي منها التشريع والوصايا والأحكام والطقوس والأوامر والنواهي الأخلاقية والاجتماعيـة والأسرية والإنذار والتبشـير والابتهال والتسبيح والحكمة والمواعظ ، ومنها ما تغلب عليه السمة التاريخية وأولها (سفر التكوين) وهو الذي يحتوي خبر خلق الكون وآدم وحواء ونوح وإبراهيم وأولادهم ، وليس فيه دلالة على أنه من وحي الله تعالى ، وإن كان فيـه حكاية كلام منسوب إلى الله وحكاية لما كان من اتصالات بين الله والأنبياء المذكورين فيه ! وليس فيه دلالة على أنه من تبليغ موسى أو إملائه أو تبليغ وإملاء شخص آخر !. وفيه ما قد يفيد أنه كتب بعد موسى وبأسلوب الحكاية ! وبأقلام عديدة لما فيه من تناقض ، وفيه أقوال وأفعال ووصايا ومواقف منسوبة إلى الله وأنبيائه يتنزهون عنها ، ومن ذلك على سبيل المثال سماح الله لنسل إبراهيم وإسحاق ويعقوب بتدمير وإبادة شعوب أرض كنعان وغيرها والاستيلاء على بلادهم وأملاكهم بالقوة والدم ، وحرمان بكر إبراهيم وأولاده الآخرين وحرمان بكر إسحاق من إرث أبويهم لحصره في بني إسرائيل ، واحتيال يعقوب على أبيه ، ومضاجعة أحـد أبناء يعقوب وهو

---

(١) هناك من يحصر تسمية (التوراة) بالأسفار الخمسة الأولى من أسفار العهد القديم وهي أسفار التكوين والخروج والأحبار والعدد وتثنية الاشتراع . انظر تاريخ سورية للمطران الدبس الجزء ٢ المجلد ٣ ص ١١٠ - ١١٦ والمشهور أن طائفة السامرة لا تعترف إلا بهذه الأسفار وتسميها التوراة أيضاً .

من الأسباط لإحدى زوجات أبيه ، ومضاجعة بنات لوط مع أبيهم الخ الخ .
وفي هذا السفر وعود منسوبة إلى الرب لإبراهيم وإسحاق ويعقوب في صدد ملك أرض كنعان وغيرها فيها تضارب وتناقض واستدراكات ، فقد ذكر في إصحاحه الثاني عشر أن الرب قال لإبراهيم حينما قدم إلى أرض كنعان لأول مرة — والمستفاد من عبارات السفر والأسفار الأخرى أن أرض كنعان هي القسم المتوسط من فلسطين — (لنسلك أعطي هذه الأرض) وقال له في تجلٍّ ثان كما جاء في الإصحاح الثالث عشر (انظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً إن جميع الأرض التي تراها لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد) فتطور القول من قسم من فلسطين إلى جميع فلسطين ، ثم جاء في الإصحاح الخامس عشر (في ذلك اليوم بت الرب مع إبراهيم عهداً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض من مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات) وفي الإصحاح السابع عشر تراجع عجيب حيث جاء فيه معزواً إلى الرب خطاباً لإبراهيم (وأعطيك أرض غربتك لك ولنسلك من بعدك جميع أرض كنعان ملكاً مؤبداً وأكون لهم إلهاً) . وبعد ولادة إسماعيل جاءت إبراهيم بشارة بولادة إسحاق في الإصحاح (١٧) وجاء مع البشارة عن لسان الرب أن عهده في صدد تمليك الأرض يكون لإسحاق ونسله من بعده دون بكره إسماعيل ، وفي الإصحاح ٢٥ خبر تزوج إبراهيم من زوجة جديدة اسمها قطورة وولادة أولاد له منها وقد جاء في السفر أن إبراهيم أعطى جميع ماله لإسحاق فقط مع هبات عابرة لأولاده الآخرين دون تمليك أرض . وفي نفس الإصحاح خبر مباركة الله لإسحاق دون غيره من إخوته — وفي الإصحاح (٢٦) خبر تجلي الرب لإسحاق وقوله له إنني أعطيك ولنسلك هذه الأرض) . وفي الإصحاح (٢٧) خبر احتيال يعقوب على أبيه الذي شاخ وعمي وتقديمه نفسه بأنه بكره عيسو لأن إسحاق طلب من عيسو أن يصنع له طعاماً من صيده ليباركه وخبر

مباركة إسحاق ليعقوب على اعتبار أنه عيسو وقوله له بأنه يكون سيداً على إخوته ويسجد له بنو أمه ، ولقد عرف إسحاق الحيلة ولكنه قال لعيسو : إن أخاه قد أخذ البركة والعهد دونه . وفي الإصحاح ٢٨ خبر تجلي الرب ليعقوب وقوله له (أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق والأرض التي أنت قائم عليها لك أعطيها ولنسلك ويكون نسلك كتراب الأرض وتنمو غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً) وهكذا يكون السفر قد سجل ملك أرض كنعان تارة وملك أراض شاسعة أخرى من شرقها وجنوبها وشمالاً تارة لإبراهيم ، وهو الجد الثالث الأعلى لبني إسرائيل ثم استدرك فسجل اختصاص إسحاق ابنه دون سائر أبنائه ودون بكره إسماعيل بذلك ، وهو الجد الثاني لبني إسرائيل . ثم استدرك فسجل اختصاص يعقوب ابن إسحاق دون ابنه الثاني بذلك بطريق الاحتيال ، ثم يثبت ذلك بعد انكشاف الاحتيال . وكلّ هذا من دون ريب مفتعل لاختصاص بني إسرائيل دون غيرهم . و (إسرائيل) هو الاسم الثاني ليعقوب مما يتنزه الله عنه ، ومتأثر بما وقع من أحداث بعد خروج بني إسرائيل من مصر وطروئهم أرض فلسطين وسيرة حياتهم فيها .

ولقد جاء في الإصحاح (٢٦) من هذا السفر مثلاً (ذكر أبي مالك ملك فلسطين في جرار) في سياق خبر سكنى إسحاق بن إبراهيم في أرض هذا الملك . كما ذكر في هذا الإصحاح عبارة (الفلسطينيون) أكثر من مرة ، وسكنى إسحاق تخمن في القرن التاسع عشر قبل الميلاد . والجماعات التي عرفت بالفلسطينيين وصارت فلسطين تدعى باسمهم إنما طرأت على جنوب فلسطين من جزر البحر الأبيض المتوسط في القرن الرابع عشر قبل الميلاد وقد ذكروا مراراً في الأسفار الأخرى في سياق النضال بينهم وبين بني إسرائيل بعد ما طرأ هؤلاء على فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، فالتسمية متأثرة بالواقع ، والسفر يكون قد كتب في هذا الظرف ،

أي : بعد أحداث إبراهيم وإسحاق ويعقوب وذريتهم في فلسطين التي ذكرت في السفر بنحو سبعة قرون ...

وفي الإصحاح (٤٠) من السفر حكاية قول ليوسف وهو أنه خطف من أرض العبرانيين ، والأرض التي خطف منهـا يوسف لم تكن تعرف بأرض العبرانيين وإنما بأرض كنعان ، ولم يكن فيها في ظرف وجود يوسف فيها من العبرانيين إلا يعقوب وذريتـه ، وصارت تعرف بأرض العبرانيين مرة وبأرض إسرائيل مرة بعد ما طرأ بنو إسرائيل على فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، ويكون في هـذا المثال ما في المثال السـابق من دلالة على تأثر كتابة سفر التكوين بوقائع وأحداث بني إسرائيل بعـد خروجهم من مصر ، وكون هذا السفر قد كتب بعد الأحداث المذكورة فيـه بقرون عديدة . ولو أردنا الاستقصاء لأوردنا أمثلة أخرى ولكنا نكتفي بما تقدم .

وهذا لا يمنع أن يقال : إن ما جاء في هذا السفر من أحداث قديمة هو ذكريات كانت متداولة فيها الغث والسمين والخيال والحقيقة والصدق والكذب ، ولا يبعد أن يكون بعضها منقولاً عن مخطوطات ونقوش قديمة عيناً أو محرفة وزيادة أو نقصاً .

وفي هذا السفر عبارة صريحة تدل دلالة قاطعة على تأثر تدوينه ومدونيه بأحداث بني إسرائيل حينما طرأوا على أرض كنعان ونشب العداء والحرب بينهم وبين الكنعانيين . ففي إصحاحه التاسع ما يلي : (ابتدأ نوح يحرث الأرض وغرس كرماً ، وشرب من الخمر فسكر ، وتكشف داخل خبائه ، فرأى حام أبو كنعان سوءة أبيه ، فأخبر أخويه وهما خارجاً . فأخذ سام ويافث رداءً وجعلاه على منكبيهـا ومشيا مستدبرين فغطيا سوأة أبيهـما وأوجههما إلى الوراء وسوأة أبيهما لم يرياها ، فلما أفاق نوح من خمره علم ما صنع به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان . عبداً يكون لعبيد اخوته .

وقال تبارك الرب إله سام : وليكن كنعان عبداً له . يرحب الله ليافث يسكن في أخبية أخيه سام ، ويكون كنعان عبداً له) ويستفاد من وصف حام بصفة (ابنه الصغير) أنه لم يكن تزوج وولد له كنعان ، وكنعان ليس هو على كل حال الذي رأى سوأة نوح ، وهو ليس ولد حام الأوحد بل هو رابع ولد له بالترتيب حيث ذكر قبله كوش ومصرايم وفوط كما جاء في الإصحاح العاشر من السفر ، فتسجيل السفر اللعنة على كنعان غير المذنب وغير الوحيد من أبناء حام والذي لم يكن قد ولد بعد يدل دلالة قاطعة على ما ذكرناه .

وهذا السفر يذكر أن إبراهيم الذي هو حسب ما ورد فيه جد بني إسرائيل من ذرية سام . فيكون التسجيل المذكور من هذه الناحية توكيداً للافتعال من حيث إن فيه تسجيلاً لدعاء نوح بأن يكون كنعان عبداً لسام . .

ويأتي في الترتيب بعده أسفار (الخروج) و(الأحبار) الذي يسمى أيضاً باسم (اللاويين)[١] و (العدد) و (تثنية الاشتراع) . وهي عائدة إلى حقبة حياة موسى ، وتتضمن حكاية أحداث هذه الحقبة مع كثير من التشريعات والتعليمات والوصايا الأخلاقية والاجتماعية والقضائية والأسرية والمعاشية والصحية والطقسية والكهنوتية والإنذارات والتبشيرات بأسلوب الحكاية أيضاً ، وسفر (الأحبار) وحده مقصور على التشريعات والتعليمات والوصايا والإنذارات والتبشيرات المذكورة والأخرى مزيجة من ذلك ومن التاريخ ، وليس فيها ما يفيد أنها من إملاء موسى ، أو أنها كتبت في عهده ، بل فيها ما يفيد أنها كتبت بعده ، وبأقلام عديدة ، وفي أزمنة مختلفة ، وتأثرت

---

(١) (الأحبار) تعني الكهان . وكهان بني اسرائيل هم حسب النصوص محصوران في سبط لاوي الذي ينتسب موسى وهرون اليه . ولذلك سمي هذا السفر باسم اللاويين أيضاً . وكهان بني اسرائيل من نسل هرون لأن موسى لم يعقب .

بالوقائع والاحداث بعد موسى، واختلطت الحقائق فيها بالخيال والمبالغات والمفارقات والاكاذيب، ونسب فيها إلى الله ورسله ما يتنزهون عنه من أقوال وأفعال ووصايا ومواقف.

ومن ذلك على سبيل المثال الامر بتدمير وإبادة شعوب أرض كنعان والاستيلاء على بلادهم ونهب حلي المصريين، وعدم قبول بعض الشعوب في دين الله، وانحرافات دينية وأخلاقية وسلوكية منسوبة إلى موسى وهارون وداود وسليمان، وحصر النواهي والأوامر والتشريعات في بني إسرائيل وإباحة مخالفتها مع غيرهم الخ الخ.

ولقد جاء بعض ما في بعضها مكرراً في البعض الآخر مع كثير من التباين أحياناً زيادة أو نقصاً أو عبارة أو موضوعاً، وفي بعضها المتأخر ما ليس في البعض الآخر المتقدم مما فيه الدلالة الحاسمة على أنها كتبت بأقلام عديدة، وفي أزمنة مختلفة واستقى كتابها مادتهم من مصادر مختلفة من روايات وذكريات متداولة على الالسن، ومن مخطوطات ومنقوشات قديمة متباينة، فيها الغث والسمين والحقيقة والخيال والصدق والكذب والمبالغات والخرافات. ولقد جاء مثلاً في الإصحاح الثاني عشر من سفر العدد هذه العبارة (وكان موسى رجلاً حكيماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الارض) في سياق خبر معاتبة أخيه وأخته له، ولا يمكن أن يكون كاتب هذه العبارة وبالتالي كاتب السفر قد كتبها إلا بعد موسى بمدة ما، ولقد جاء في الإصحاح الاخير من سفر تثنية الاشتراع ذكر موت موسى ودفنه في الوادي في أرض مؤاب وقد قال الكاتب بعد ذلك (ولم يعرف قبره إلى يومنا هذا) حيث يفيد أن كتابة الجملة وبالتالي كتابة السفر إنما كانت بعد وفاة موسى بمدة طويلة. ولقد ورد في الإصحاح (١٧) من هذا السفر هذه العبارة (إذا دخلت الارض التي يعطيك الرب إلهك وملكتها وسكنت فيها فقلت أقيم علي ملكا كسائر الامم الذين حولي فأقم

عليك ملكاً يختاره الرب إلهك ... الخ) وهذا حادث وقع فعلاً بعد موت موسى بنحو مئتي سنة ونتيجة لما وقع على بني إسرائيل من غزوات وضربات وبعد مراجعات ومجادلات بينهم وبين كاهنهم الاكبر صموئيل ، وإنذار هذا إياهم وتحذيره لهم على ما ورد في سفر صموئيل الاول الذي تسميه الطبعة الكاثوليكية الملوك الاول مما فيه في الحقيقة تسجيل للحادث بعد وقوعه ، ومما يدل على أن السفر قد كتب بعد وقوع الحادث بمدة ما .

وفي الإصحاح الأول من سفر العـدد حكاية أمر الله لموسى باحصاء المعدودين من الذكور (أي الذين يصح تجنيـدهم للحرب كما هو المستفاد من سياق الكلام) من أبناء العشرين فما فوق من ابناء بني إسرائيل الذين خرجوا معه من مصر إلى سيناء باستثناء سبط لاوي الذي لا يدخل في الاحصاء لانه مكرس للكهانة ولا يجند ، وقد بلغ هذا العدد ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين ، فإذا أضفنا إلى هذا الرقم ثلثه على الاقل للذين هم دون العشرين من الذكور ثم إذا أضفنا إلى الحاصل مثله للاناث وإذا قدرنا عدد أفراد سبط لاوي بالمقارنة مع عدد الأسباط الأخرى بمائة الف على الاقل ظهر أن عـدد بني اسرائيل الذين خرجوا من مصر إلى سيناء مليون وثمانمائة الف .

والمبالغة الكبيرة في هذا الرقم صارخة يجعل كذبه أمراً يقينياً بالنسبة لسكان الأرض عامة ، ولسكان مصر خاصة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ويبرز الخيال الواسع في تأليف السفر .

ولقد ورد في سفر الأحبار مثلاً إنذار بما وقع فعلاً على بني إسرائيل بعد موسى بمدة طويلة من غزوات وضربات خارجية ، ومن إجلاء وتشتيت شمل بين الأمم ، ومن وعـد بتحنين قلب الرب وإرجاعهم مرة أخرى ، وجمع شملهم بعد التبديد والتشتيت ، وهو ما تم فعلاً بعد السبي مما لا يعقل

أن يذكر إلا بعد وقوعه ، ومثل هذا الانذار متكرر في سفر تثنية الاشتراع أيضاً .

ويأتي بعد الأسفار الخمسة مما السمة التاريخية عليه غالبة أسفار يوشع والقضاة وراعوث وصموئيل الأول وصموئيل الثاني (السفران الأخيران يسميان في الطبعة الكاثونية) (الملوك الأول والملوك الثاني) والملوك الأول والملوك الثاني (وهذان يسميان في الطبعة المذكورة الملوك الثالث والملوك الرابع) وأخبار الأيام الأول وأخبار الأيام الثاني وعزرا ونحميا واستير وطوبيا ويهوديت (والسفران الأخيران من زوائد الطبعة الكاثوليكية وترتيبها قبل سفر استير) وسفر المكابيين الأول وسفر المكابيين الثاني (وهذان الأخيران من زوائد الطبعة الكاثوليكية وهما في الترتيب آخر أسفار العهد القديم) . وتؤرخ هذه الأسفار سيرة بني إسرائيل من بعد موسى إلى ما بعد سبي بابل إلى زمن الحكم اليوناني قبل الميلاد المسيحي . وقلنا : إن السمة التاريخية غالبة عليها لأنها لا تخلو بدورها من سمة دينية وعظية وإنذارية !. ونشاط أنبياء وتبليغاتهم عن الله تعالى الخ . وتمتزج الحقائق فيها بالخيال والمبالغات والمفارقات والأكاذيب ، وفيها دلالات كثيرة على أنها كتبت بعد مدة من الأحداث والوقائع المذكورة فيها ، وأنها تأثرت بها ، وأنها كتبت بأقلام متعددة ، وفي أزمنة مختلفة ، ولقد جاءت حكاية الأحداث في بعضها مباينة لما جاء في بعض آخر أو مناقضة له ، أو زائدة عليه أو ناقصة فيه مما يدل على ذلك ، بل وفي بعضها ما ذكر في أسفار التكوين والخروج والعدد مع نقص وزيادة ومباينة ، وكل هذا يسوغ القول : إن كتابها استقوا مادتهم من مصادر مختلفة متباينة قد يكون منها الروايات المتداولة على الألسن ، ومخطوطات قديمة فيها ما فيها من غث وسمين وكذب وصدق وحقيقة وخيال وخرافة ، ولقد جاء في الإصحاح الثالث من أخبار الأيام الأول مثلاً سلسلة أسماء ملوك يهوذا إلى آخرهم ،

وفي الإصحاح التاسع منه ما فعله نبوخذ نصر ملك بابل الذي قتل صدقيا آخر ملوك يهوذا (وسبي يهوذا إلى بابل لأجل خيانتهم) . وفي الإصحاح السادس والثلاثين من سفر أخبار الأيام الثاني هذه الجملة (وفي السنة الاولى لكورش ملك فارس نبه الرب روح كورش فأطلق نداء في كل مملكته قائلاً : إن الرب أعطاني جميع ممالك الأرض وأوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا) مما فيه دلالة قاطعة على أن سفر أخبار الايام الأول كتب في نهاية دولة يهوذا ، والثاني بعد السبي ، ولقد ذكر سفر الملوك الثاني (الرابع في الطبعة الكاثوليكية) سيرة ملوك دولتي اسرائيل ويهوذا إلى نهايتها ، بما في ذلك نسف نبوخذ نصر لدولة يهوذا ، وسبي اليهود إلى بابل كما ذكر بعض أحداث جرت بعد السبي أو عقبه مما فيه دلالة قاطعة على أنه كتب بعد نهاية دولة يهوذا فضلاً عن احتمال كتابته بعد السبي وهو ما نرجحه . ولما كان هذا السفر هو امتداد واستمرار لسيرة ملوك دولتي إسرائيل ويهوذا التي بدء بها في السفر الأول ، فالكلام المذكور ينسحب على هذا ايضاً كما هو المتبادر .

ولا تخلو الأسفار الاخرى من التي تؤرخ بعض أحداث ما قبل السبي من دلائل وقرائن مماثلة تسوغ القول : إنها كتبت بعد السبي مثلها .

والأسفار العائدة إلى حقبة ما بعد السبي قد كتبت بأسلوب الحكاية ، وليس فيها دلالة على أنها كتبت بإملاء أو أقلام الاشخاص التي تحمل أسماءهم ، والمتبادر أنها كتبت بأقلام كتاب آخرين بعد موت هؤلاء الاشخاص بمدة ما ، وقد يكون الكتاب قد استقوا مادتهم من الروايات المتداولة أو من مخطوطات قديمة ، فأدى ذلك إلى امتزاج الحقيقة بالخيال والصدق بالكذب والمبالغات في هذه الأسفار .

وإلى جانب هذه الأسفار أسفار عديدة أخرى تعود كذلك إلى حقبة ما بعد موسى وإلى ما بعد السبي ، أو إلى أوائل عصر المسيح تغلب

عليها السمة الدينية بأسلوب الابتهالات والتسبيحات والمواعظ والحكم والإنذار والتبشير والرؤى على ألسنة أصحابها الذين يغلب أن يكونوا أنبياء ، وهي المزامير والأمثال والجامعة ونشيد الاناشيد ، ونبوءة أشعيا ، ونبوءة أرميا ، ومراثي أرميا ، ونبوءة باروك (وهذا من زوائد الكاثوليكية) ، ونبوءة حزقيال ، ونبوءة دانيال ، ونبوءة هوشع ، ونبوءة يوئيل ، ونبوءة عاموس ، ونبوءة عوبيديا ، ونبوءة ميخا ، ونبوءة نحوم ، ونبوءة حبقوق ، ونبوءة صفينا ، ونبوءة حجامى ، ونبوءة زكريا ، ونبوءة ملاخي) ومعظمها أو كلها رؤى رآها أصحابها في منامهم أو في يقظتهم ومع سمتها الغالبة المذكورة ، فإنها تمثل ناحية هامة من تاريخ وحياة بني إسرائيل السياسية والاجتماعية والثقافية ، وفي بعضها ندب وعويل على ما حلّ في بني إسرائيل . وتنديد بأخلاقهم وانحرافاتهم السابقة والراهنة بأسلوب قارع .. وتناقض مع ذلك بتبشيرهم بالعلو ، وإنذارات قاصمة بل شتائم قارعة للأمم والبلدان التي سلطها الله عليهم بسبب انحرافاتهم على ما ذكرته الأسفار المذكورة أيضاً ، وهذا من تناقضاتها ، وفيها ما يدل على أنها كتبت بعد موت أصحابها بمدة طويلة بأقلام كتاب آخرين من ذكريات ومسموعات ومحفوظات متداولة ، وأنها تأثرت بالاحداث التي وقعت بعد الاشخاص المنسوبة إليهم ، فلا يصح أخذها على حالتها ، ويجب ملاحظة كل ذلك أثناء النظر فيها .

ولقد ورد مثلاً في الإصحاح الخامس والاربعين من سفر نبوءة أشعيا الذي يستفاد من عباراته أنه عاش في عهد ملوك يهوذا (عزيا ويوثام وأحاز وحزقيا) اسم كورش ملك الفرس الذي تغلب على مملكة بابل ، وفيه هذه الجملة خطاباً لسبي اليهود في بابل الذين سباهم إليها نبوخذ نصر (اخرجوا من بابل واهربوا من أرض الكلدانيين) مما فيه الدلالة القطعية على أن هذا السفر كتب بعد السبي وبالتالي بعد وفاة أشعيا المنسوب إليه بمدة طويلة ، وزيد عليه ما لا يمكن أن يكون أشعيا كتبه أو قاله .

ولقد ورد في سفر حزقيال الذي يستفاد منه أنه من رجال سبي بابل ، وعاش ومات في السبي تنديدات قارعة بأخلاق بني إسرائيل وأحوالهم وانحرافاتهم قبل السبي وفي أثنائه ، وتذكير بما سلطه الله عليهم من هوان وشتات واضطهاد وتدمير بسبب ذلك ، وفيه في الوقت نفسه تنديد بالامم التي سلطها الله عليهم ، وإنذارات قارعة لها ، وتقرير بأن الله سوف يعيد بني إسرائيل إلى تخومهم الاولى في أرض ميعاد آبائهم ، ويجمع شتاتهم ، ويرأف بهم ، وينصرهم بما فيه تناقض واضح . ولقد عاد بعض المسبيين فعلاً بعد موت حزقيال بمدة ما ، وتطورت أحوالهم ، وصار لهم كيان جديد حيث يرجح أن هـذا التناقض أثر من آثار ما أثاره التطور الجـديد في بني اسرائيل بعد العودة من السبي ، وأن أقلاماً أخرى بعد السبي قد لعبت دوراً في صياغة السفر ، أو في تجديد صياغته .

ولا تخلو الاسفار الاخرى من مثل ذلك وأكثر حيث يمكن القول : إنه دخل تحريفات متنوعة على هذه الاسفار المنسوبة إلى أنبياء من بني إسرائيل لغـــايات سياسية . ومن بين الاسفار العائدة لما بعد موسى سفران لا يبدو لهما صلة بتاريخ وحياة بني إسرائيل وهما سفرا (أيوب) و (نبوءة يونان) . والاول يتضمن سيرة النبي أيوب المذكورة في القرآن بإشارات خاطفة ، ولكنها متطابقة إجمالاً وقد قال عنه السفر : إنه كان في أرض عوص ، والثاني هو سـيرة يونان بن امتاي في نينوى ، وهو على الارجح النبي يونس المذكورة سيرته في القرآن بإشارات خاطفة ومتطابقـة إجمالاً مع ما جاء في هذا السفر ، والآثار الإسلاميـة تسميه (يونس بن متى) والكلمتان تعريب لكلمتي (يونان ابن امتاى) .

وهناك سفران آخران فيهما مواعظ وحكم . وهما (الحكمة) و (يشوع ابن شيراخ) وهما من زوائد الطبعة الكاثوليكية ، ولا يبدو فيهما ما يدل على أن لهما صلة بحياة وتاريخ بني إسرائيل .

وحتى سفر المزامير الذي هو ابتهالات ودعوات لا يخلو من دلائل على أن منه ما تأثر بأحداث وقعت بعد عهد داود بمدة طويلة .

- ٤ -

وواضح من كل ما تقدم أن اسم (التوراة) المذكورة في القرآن ، والتي يلتزم المسلمون بالإيمان بأنها من كتب ربهم ، أو الكتاب الذي آتاه الله لموسى عليه السلام لا يمكن أن يصدق على مجموعة أسفار العهد القديم ، ولا على أي سفر منها .

ولقد جاء في الإصحاح (٢٤) من سفر الخروج أول الأسفار الاربعة العائدة إلى حقبة موسى عليه السلام ، والذي فيه خبر رسالته إلى فرعون وخروج بني إسرائيل من مصر وحياتهم في سيناء هذه العبارة :

بعد ذكر خبر صعوده إلى الطور وتلقيه كلام الله (فجاء موسى وقص على الشعب جميع كلام الرب وجميع الأحكام فأجابه الشعب بصوت واحد وقالوا : جميع ما تكلم به الرب نعمل به ، فكتب موسى جميع كلام الرب ، وبكر في الغداة ، وبنى مذبحاً في أسفل الجبل ، ونصب اثني عشر نصباً لاثني عشر سبط إسرائيل ، وبعث فتيان بني إسرائيل فأصعدوا محرقات ، وذبحوا ذبائح سلامة من العجول للرب ، فأخذ موسى نصف الدم وجعله في طسوت ورش النصف الآخر على المذبح ، وأخذ كتاب العهد ، فتلا على مسامع الشعب ، فقالوا : كل ما تكلم الرب به نفعله ونأتمر به ، فأخذ موسى الدم ورشه على الشعب ، وقال : هو ذا دم العهد الذي عاهدكم الرب به على جميع هذه الأقوال) . ولقد ذكر سفر توراة موسى ثلاث مرات في سفر تثنية الاشتراع وهو رابع الأسفار التي تؤرخ حقبة موسى ، وفيه تكرار لكثير مما جاء في الأسفار السابقة ولا سيما التاريخية مع الإنذار والتبشير وبقصد التذكير كما فيه تشريعات لم تذكر في تلك الأسفار . ولقد جاء في إصحاحه السابع عشر هذه العبارة : (إذا دخلت الأرض

التي يعطيك الرب إلهك وملكتها وسكنت فيها من هنا الأصل فقلت : أقيم علي ملكاً كسائر الأمم حولي ، وجلس على عرش ملكه ، فليكتب له نسخة من هذه التوراة في سفر من عند الكهنة اللاويين ، ولتكن عنده يقرأ فيها كل يوم من أيام حياته لكي يعلم كيف يتقي الرب ويحفظ كلام هذه الشريعة) وفي إصحاحه (٣١) هذه العبارة : (وكتب موسى هذه التوراة ، ودفعها إلى الكهنة بني لاوي حاملي تابوت العهد) ثم هذه العبارة (ولما فرغ موسى من رقم كلام هذه التوراة في سفر بتمامه أمر اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا هذا السفر ، واجعلوه إلى جانب عهد الرب إلهكم في التابوت ، فيكون ثم عليكم شاهداً ، لأني أعلم تمردكم وقسوة قلوبكم ، فإنكم وأنا في الحياة معكم اليوم قد تمردتم على الرب فكيف بعد موتي) .

فهذه النصوص تفيد قطعاً أن موسى عليه السلام كتب تبليغات الله ووصاياه وتعاليمه في كتاب اسمه التوراة ، وسلمه للكهنة ليضعوه في تابوت العهد ، وهذا التابوت صندوق كان يحفظ فيه الآثار المقدسة ، ويوضع في المعبد على ما هو المتبادر .

وعهد الرب المذكور آنفاً في عبارة السفر يمكن أن يكون ألواح الحجارة التي كتب الله عليها بعض وصاياه على ما جاء في سفر الخروج حيث جاء في إصحاحه (٢٤) (قال الرب لموسى : اصعد إلى الجبل ، وأقم هنا حتى أعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم) وفي إصحاحه (٣١) هذه العبارة (ولما فرغ من مخاطبة موسى على طور سيناء دفع إليه لوحي الشهادة لوحين من حجر مكتوبين بإصبع الله) وفي إصحاحه (٣٢) هذه العبارة (ثم انثنى موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده ، لوحان مكتوبان على جانبيهما . من هنا ومن هناك . كانا مكتوبين ، واللوحان هما صنعة الله ، والكتابة هي كتابة الله منقوشة على اللوحين) وقد ذكر هذا الإصحاح خبر غضب موسى حينما رأى العجل

الذي صنعه بنو إسرائيل في غيابه ، ورميه اللوحين وكسرهما في أسفل الجبل وفي الإصحاح (٣٤) من هذا السفر خبر أمر الله لموسى بأن ينحت لوحين كالأولين ليكتب عليهما الكلام الذي كان على اللوحين الأولين اللذين انكسرا ، ففعل وصعد إلى الجبل ، وأقام عند الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء ، فكتب على اللوحين (كلام العهد الكلمات العشر) ونزل وهما في يده .

وواضح من العبارات أن اللوحين هما غير سفر التوراة الذي كتبه موسى وفيه كلام الله الذي سمعه ، وأنهما سميا العهد ، ووضعا في التابوت ، وسمي بتابوت العهد وأن ذلك كان قبل أن يكتب موسى كلام الله الذي سمعه في سفر التوراة ، فلما كتبه أمر بوضعه مع الألواح في التابوت .

وفي الإصحاح الثامن من سفر الملوك الأول (الثالث في الكاثوليكية) ما يفيد أن سفر التوراة قد فقد قبل سليمان حيث ذكر أنه لم يكن في تابوت العهد الذي نقله سليمان من مدينة داود إلى المعبد الجديد الذي أنشأه إلا اللوحان الحجريان .

ولقد ذكر في إصحاحات سفر صموئيل الأول المسمى في الطبعة الكاثوليكية الملوك الأول أن الفلسطينيين هاجموا الإسرائيليين في زمن الكاهن الأكبر عالى في عهد القضاة ، وضربوهم وهزموهم ، وأخذوا تابوتهم ، وبقي عندهم سبعة أشهر ، ثم أعادوه إليهم على عجلة تجرها بقرتان ، لأنهم ابتلوا بالبواسير ، وظنوا أن ذلك بسبب أخذهم تابوت إله إسرائيل . وقد أشير إلى هذه الحادثة إشارة مقتضبة في آيات سورة البقرة هذه (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ

عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَرُونَ تَحْمِلُهُ المَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٢٤٦ - ٢٤٨) فمن المحتمل أن يكون السفر قد فقد من التابوت في هذا الظرف حيث يكون الفلسطينيون قد فتحوه فعبثوا فيه ، ولم يبق فيه إلا اللوحان .

ومن العجيب أن الإصحاح الثاني والعشرين من سفر الملوك الثاني - الرابع في الطبعة الكاثوليكية - ذكر خبر العثور على سفر التوراة في بيت الرب أثناء ترميمه في زمن الملك يوشيا ملك يهوذا حيث جاء فيه : إن الملك أرسل كاتبه إلى الكاهن الأكبر حلقيا لدفع أجور العمال ، وان الكاهن قال للكاتب : إني وجدت سفر التوراة في بيت الرب ، ودفع السفر للكاتب فقرأه ، وأتى به إلى الملك ، فأخبره الخبر ، وقرأه له) . والخبر كما قلنا عجيب ، لأن السفر كان في تابوت العهد ، ولما فتح التابوت لم يكن فيه ، فهل يكون حلقيا هو كاتب السفر من جديد من ذاكرته ، أو من قراطيس كانت متداولة ، أو كان لديه نسخة عنه ، وقد ذكر في الإصحاح أن الخبر أثار الملك حتى مزق ثيابه فرحاً ، وأقام احتفالات عظيمة في مناسبته .

ولقد جاء في الإصحاح السابع من سفر عزرا الذي يؤرخ طرفاً من حقبة عودة جماعة من المسبيين من بابل إلى أورشليم أن عزرا كان كاتباً

ماهواً في توراة موسى التي أعطاهـا الرب إله إسرائيل ، فبذل له الملك ارتخشستا كل ما طلب ، وأصعده إلى أورشليم ، وأمره بإقامة حكم إلهه ، وشرائع إلهه وشريعة الملك ، ثم جاء في الإصحاح الثامن من سفر نحميا الذي يؤرخ كذلك طرفاً من الحقبة المذكورة آنفاً ان الشعب العـائد اجتمع في ساحة المعبد ، وطلب من عزرا إحضار سفر توراة موسى ، فأحضره ، وأخذ يتلوه أمام الجماعة . ولا يمكن الجزم بما إذا كان عزرا كان يحفظ التوراة غيباً ، وكتب السفر من ذاكرته أم كان يحتفظ بنسخة من التوراة التي يمكن أن تكون نسخة من التوراة التي قال حلقيا الكاهن : إنه وجدها في بيت الرب .

ولقـد قلنا : إن آيات البقرة (١٢٩) وآل عمران (٩٣) والمائدة (٤٣ – ٤٥) و (٦٦ – ٦٨) والأعراف (١٥٧) التي أوردناها قبل تسوغ القول : إن التوراة المنزلة على موسى عليه السـلام التي فيها أحكام الله ووصاياه كانت متداولة في أيدي اليهود في زمن النبي ﷺ .

وقد تكون هي التي ذكر خبر وجودها في زمن الملك يوشيا في سفر الملوك الثاني ، وخبر تلاوتها من قبل عزرا في سفر نحميا أو نسخة عنها ، فظلت متداولة إلى زمن النبي ﷺ .

وبديهي أنها شيء غير أي سفر من أسفار العهد القديم المتداولة اليوم ، ولم تصل إلى عهدنا حيث تكون فقدت أثناء ما كان يقع على اليهود من ضربات وتشريد ، وكان فقدها نهائياً [1] .

---

(١) هناك مصادر قديمة ذكرت ما كان يتعرض له كتب وقراطيس اليهود الدينية من مصادرة وتحريق . نقل عنها المطران الدبس بعض الأحداث من هذا الباب في كتابه تاريخ سورية (المجلد الثالث والجزء الثاني) من ذلك أنـه نشب مرة مناوشـات بين اليهود والحامية الرومانية في زمن القيصر اغسطوس فنهب الرومان الهيكل ودنسوه ، وأحرقوا ما فيه من أوراق . ومن ذلك أن الوالي الروماني في عهد القيصر كلود سير حملة لمطاردة اليهود في القرى وأن أحد الجنود عثر على أسفار موسى فحرقها على مرأى الجمهور اليهودي .

ولقد قلنا قبل : إن في أسفار الخروج والعدد وتثنية الاشتراع تبليغات ووصايا كثيرة متنوعة مبلغة من الله تعالى لموسى ، وإن سفر الأحبار قاصر على ذلك ، وان كلها أو جلها جاء بأسلوب الحكاية ، وبينها تباين في الأسلوب والعبارات ، وفي بعضها ما ليس في الآخر ، وفيها أقوال وأفعال منسوبة إلى الله ورسوله يتنزهان عنها بحيث يمكن القول : إن كتابها استقوا ما كتبوه من مصادر متنوعة ، وان كل واحد كتب ما كتبه مستقلاً عن الآخر ، وفي ظرف وزمن غير الآخر ، وإنهم لم ينقلوا ما فيه من تبليغات لموسى عليه السلام معزوة إلى الله تعالى من سفر توراة موسى مباشرة ، وبحيث يمكن القول : إن ما جاء فيها مما يجوز أن يكون في أصله من هذا السفر قد سجله كتابها من روايات ومحفوظات ومدونات شيبت بما ذكرناه من تباين وتناقض واختلاف وتحريف ، ولا يمكن والحالة هذه اعتبارها بديلة عن توراة موسى المفقودة التي هي وحدها التي يحترمها المسلمون وفيها أحكام الله ووصاياه المبلغة لموسى بدون تناقض وتباين ومفارقات وتحريفات . ولا يصح تبعاً لذلك من الوجهة العلمية والواقعية إطلاق اسم (التوراة) عليها ومن قبل المسلمين بنوع خاص ، ففي هذا الإطلاق تجوز كبير فضلاً عن التجوز الأكبر في إطلاقه على مجموعة أسفار العهد القديم .

ونستطرد إلى القول : إن في القرآن قرائن عديدة تساعد على القول : إن الأسفار الخمسة الأولى من أسفار العهد القديم المتداولة اليوم وأسفاراً أخرى مما يأتي بعدها في الترتيب والتي فيها سيرة بني إسرائيل بعد موسى كانت موجودة في أيدي اليهود في زمن النبي ﷺ .

ومن هذه القرائن التشابه بين ما ورد في القرآن من قصص خلق آدم وحواء ، وخروجهما من الجنة وابني آدم ونوح وإبراهيم ولوط ويعقوب

ويوسف وإخوته وبين ما ورد من ذلك في سفر التكوين[1] .

ومن ذلك التشابه بين ما ورد في القرآن من قصص موسى وفرعون وسيرة بني إسرائيل في حياة موسى ، وبعض الشرائع الموسوية وبين ما ورد في أسفار الخروج والأحبار والعدد وتثنية الاشتراع[2] .

ومن ذلك التشـابه بين ما ورد في القرآن من قصص أيوب ويونس وبين ما ورد من ذلك في سفري أيوب ويونان[3] .

ومن ذلك ما ورد في القرآن من قصص طالوت الذي تسميه الأسفار (شـاوول) وجالوت وداود وسليمان وحروب بني اسرائيل مع جالوت وقومه وإقامة بني إسرائيل ملكاً لهم ، وقصة الخصمين مع داود بسبب فتنة افتتن بها ، وملك سليمان وزيارة ملكة سبأ له ، ورسالة النبي إلياس في

---

(١) قصة آدم جاءت في سورة البقرة والأعراف والحجر والاسراء وطه وص . وقصة ابني آدم في سورة المائدة . وقصص نوح وإبراهيم ولوط ويعقوب ويوسف وإخوته وردت في سوره البقرة وآل عمران والأنعـام والأعراف ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر والنحل ومريم والأنبيـاء والمؤمنون والشعراء والصافات والذاريات والقمر ونوح بأساليب متنوعة حسب ما اقتضته حكمة التنزيل ورأته وافياً للقصد الذي نزلت له والذي هو التمثيل والتذكير والوعظ والإنذار والتبشير والعبرة . وبكلمة أخرى تدعيم الرسالة المحمدية وليس للسرد التاريخي .

(٢) قصص موسى وفرعون وبني اسرائيل وردت في سور البقرة وآل عمران والأعراف ويونس وهود والإسراء ومريم وطـه والشعراء والنمل والقصص والسجدة والزخرف والجاثية والدخان والطور والقمر والنازعات ، في نطاق الأساليب والمقاصد المذكورة آنفاً .

(٣) قصص أيوب ويونس وردت في سور يونس والأنبياء والصـافات وص والقلم في النطاق والأساليب المذكورة كذلك ...

صدد عبادة البعل والإشارة إلى تدمير دولتي اليهود[1] . وبين ما ورد من ذلك في أسفار صموئيل والملوك وأخبار الأيام . وليس ما يمنع أن تكون الأسفار الأخرى المتداولة اليوم مما كان متداولاً بين أيديهم في زمن النبي ﷺ بطبيعة الحال ، ويمكن القول بجزم أن مزامير داود كانت من جملة ذلك ، لأن القرآن قد ذكرها باسم الزبور[2] .

على أن هناك أشياء كثيرة وردت في القرآن من هذه القصص ولم ترد في الأسفار المتداولة ، ومنها ما ورد في القرآن والأسفار متغايراً في الجزئيات ، بل وفي الصور المهمة معاً ، فليس في سفر التكوين مثلاً ما ورد في القرآن من أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم ، وعصيان إبليس ، والموسوس لآدم وحواء في الجنة هو الحية في حين أنه في القرآن إبليس ، وليس في هذا السفر ما في القرآن من قصص إبراهيم مع قومه وتخريبه لأصنامهم ، ونظرته في النجوم ، وحجاجه مع قومه ، ومحاولتهم إحراقه في النار ، وإسكانه بعض ذريته عند بيت الله المحرم ، أي : مكة ، واشتراك إبراهيم وإسماعيل في بناء الكعبة .

وليس في هذا السفر ما في القرآن من محاورة بين نوح وابنه الكافر ، وعدم ركوب هذا في السفينة وغرقه ، ومحاورة نوح مع الله تعالى في ذلك .

وليس في السفر ما في القرآن من تمزيق امرأة العزيز قميص يوسف ، ولا كلام النسوة ، ودعوة امرأة العزيز إياهن وتقطيعهن أيديهن .

وليس في أسفار الخروج والعدد وتثنية الاشتراع التي فيها قصص

---

(١) هذه القصص وردت في سور البقرة والإسراء والأنبياء والنمل والصافات وص في نطاق الأساليب والمقاصد المذكورة .

(٢) ذكر الزبور ككتاب آتاه الله لداود في سورتي النساء والإسراء . وسفر المزامير ينسب جل المزامير لداود .

موسى وفرعون وبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر وحياتهم في سيناء ما في القرآن من خبر سحرة فرعون ، والتقاف الثعبان لحبالهم وعصيهم وسجودهم وإيمانهم ، ومحاورتهم مع فرعون ، ولا غرق فرعون وجنوده حينما خرجوا لمطاردة بني إسرائيل ، والقرآن يذكر أن الشخص الثاني الذي أراد موسى أن يبطش به هو عدو في حين أن سفر الخروج يذكر أنــــه عبراني .

والقرآن يذكر أن الذي صنع العجل لبني اسرائيل هو السامري في حين أن هذا السفر يذكر أنه هارون ، والقرآن يذكر موقفاً لمؤمن من آل فرعون ، وموقفاً آخر لناصح نصح موسى بالخروج وليس هذا وارداً في أي سفر ، والقرآن يذكر أن بنات رجل مدين اثنتان في حين أن هذا السفر يذكر أنهن سبع ، وليس في أي سفر ما ورد في القرآن من محاورة بين فرعون وهامان لأجل بناء صرح ليطلع إلى إله موسى .. وليس في هـذه الأسفار ما ورد في القرآن من خبر أمر موسى قومه بذبح البقرة ومحاورته معهم ، ولا أمر الله لهم بدخول الباب سجداً ، ومخالفتهم لهذا الأمر ، ولا خبر عدوانهم في السبت ومسخهم قردة ، وليس في الأسفار التي تذكر قصص داود وسليمان ما ورد في القرآن من تسخير الله الشجر والطير والحديد لداود ، وتسخير الريح والجن والطير لسليمان ، ولا قصة الهدهد ولا كتاب سليمان لملكة سبأ وإسلامها ، وإحضار عرشها بلمحة البصر من قبل الذي عنده علم من الكتاب ، ويلمح بعض الفروق في جزئيات ما ورد في القرآن وما ورد في سفري يونان وأيوب أيضاً .

ونذكر هـذه الأمثال من قبيل التمثيل لا الاستقصاء ، فهناك نقاط وأمور كثيرة أخرى في صدد آدم وابنيه ونوح وإبراهيم ولوط ويوسف وإخوته وموسى وفرعون وبني إسرائيل وداود وسليمان وطالوت وردت

في القرآن ولم ترد في الأسفار ، أو وردت في القرآن مباينـة قليلا أو كثيراً لما ورد في الأسفار .

ونحن نعتقد أن ما ورد في القرآن ، ولم يرد في الأسفار المتداولة ، أو ورد فيها مبايناً لما ورد فيه قد ورد في أسفار أخرى كانت متداولة بين أيدي اليهود لم تصل إلينا ، وهـذه ظاهرة تثبتها الأسفار المتداولة التي ورد فيها أسماء أسفار عديدة ليست بين الأسفار المتداولة .

ففي الإصحاح (١٢) من سفر أخبار الأيام الأول مثلا هذه الجملة (وأمور رحبعام الأولى والأخيرة أما هي مكتوبة في أخبار شمعيا النبي وعدّو الرائي) . وفي الإصحاح (١٠) من سفر يوشع هذه الجملة (فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس هذا مكتوباً في سفر ياشر) وفي الإصحاح (١١) من سفر الملوك الأول — الثالث في الكاثوليكية هذه الجملة (وأما بقية أخبار سليمان وجميع ما عمل ووصف حكمته فهي مكتوبة في سفر أخبار سليمان) . وفي الإصحاح التاسع من سفر أخبار الأيام الثاني هذه الجملة (وبقية أخبار سليمان الأولى والأخيرة مكتوبة في كلام ناثان النبي ونبوءة أخيا الشيلوني ورؤى عدو الرائي) . وفي الإصحاح (٢٧) من أخبار الأيام الأول هذه الجملة (ولم يدون العدد في سفر أخبار الأيام للملك داود) .

فأسفار شمعيا وعدّو وياشر وأخبار سليمان وناثان وأخيا وأخبـــار الأيام للملك داود ليست بين الأسفار المتداولة اليوم ، يضاف إلى هذا أن كثيراً ما جاء في أسفار الملوك هذه الجملة (وبقية أمور الملك . فلان .. أما هي مكتوبـة في سفر أخبار الأيام لملوك يهوذا أو لملوك إسرائيل) وليس بين الأسفار ما يحمل هذه العناوين ، وليس في أسفار أخبار الأيام المتداولة شيء مما أريد إرجاع الكلام إليه ، والعبارة تفيد أنه كان لكل ملك من ملوك دولتي يهوذا وإسرائيل أسفار باسم أسفار ملوك إسرائيل وأسفار ملوك

يهوذا ، وأخبار أيام ملوك إسرائيل ، وأخبار أيام ملوك إسرائيل .

وفي الجزء الضخم من أجزاء كتب الحوري الحداد المرقم برقم (٣) الذي فيه استعراض لجميع سور القرآن تنبيهات كثيرة إلى أن ما ورد في القرآن مما لم يرد في الأسفار ، أو ورد فيه مباينا لما ورد فيها قد ورد في كتاب التلمود ، أو في أجزاء تفسير اليهود للتلمود ، والأسفار المعروفة باسم مدراش كما ورد في القرآن .

والمعروف يقيناً أن التلمود كتب بعد الميلاد المسيحي وقبل بعثة النبي ﷺ ، والكتب الأخرى منها ما كتب في هذه الحقبة ، ومنها ما كتب بعدها . وعلى كل حال فالمتبادر أن يكون كتابها قد استقوا ما أوردوه مما هو متطابق مع القرآن ومباين للأسفار المتداولة من أسفار وقراطيس وروايات قديمة . ولقد كان القرآن يتلى علناً ويسمعه اليهود ، ولم يرو أنهم اعترضوا ، أو كذبوا ما ورد في القرآن مما لم يرد في الأسفار المتداولة اليوم ، أو ورد فيها مباينا لما ورد فيه مما فيه قرينة أو دلالة على أنهم يسمعون أموراً متداولة بينهم ، أو مذكورة في قراطيس عندهم ، بل وفي القرآن شهادة لهم صراحة ولأهل الكتاب والعلم الذين هم من عدادهم بصحة القرآن وكونه منزلاً من الله تعالى وفرحهم به وإيمان من استطاع أن يتفلت من عقده ومآربه منهم بالقرآن ، والنبي ﷺ كما جاء في هذه الآيات :

١ - وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .. [آل عمران : ١٩٩] .

٢ - لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ

وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أولئك سَنُؤْتِيهِم أَجْراً عَظِيماً .. [النساء : ١٦٢] ،

٣ ـ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ .. [الأنعام : ٢٠] (١)

٤ ـ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .. [الأنعام : ١١٤] .

٥ ـ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ .. [الأعراف : ١٥٧] .

٦ ـ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ .. [الرعد : ٣٦] .

٧ ـ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ، وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً .. [الإسراء : ١٠٧ ـ ١٠٩] .

٨ ـ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ .. [القصص : ٥٢ و ٥٣] .

٩ ـ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. [العنكبوت : ٤٧] .

وفي الآيات فضلًا عن دلالتها التي أوردناها دلالة على أن أهل الكتاب الذين منهم اليهود سمعوا من القرآن ما يتطابق مع عقائدهم ، وكونه

---

(١) هذه الآية في سلسلة في حق اليهود .

يدعوهم إلى الإيمان به وبالرسول الذي أنزل عليه ، فاستجابوا وآمنوا .

وعلى كل حال فما تقدم يسوغ القول : إن أسفاراً وقراطيس كثيرة فقدت ولم تصل إلينا وليس هذا شأن سفر التوراة وحده .

- ٦ -

ولقد تصدى الخوري في كتبه بأساليب ومناسبات عديدة ومتنوعة بدءاً من كتابه رقم ١ لمسألة التحريف والتبديل في التوراة والانجيل ليرد بذلك على المسلمين الذين يقولون : إن اليهود والنصارى حرفوا أو بدلوا فيها استناداً إلى آيات قرآنية عديدة منها ما يلي :

١ ـ أفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كلامَ اللهِ ثمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعلَمُونَ .. [البقرة : ٧٥] .

٢ ـ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ .. [البقرة : ٧٩] .

٣ ـ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ .. [البقرة : ١٥٩] .

٤ ـ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدَى وَالعَذابَ بِالمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلى النَّارِ . ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتابَ بِالحَقِّ وَأَنَّ الَّذِينَ

اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ .. [البقرة : ١٧٤-١٧٥] [1] .

٥ - وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . [آل عمران : ٧٨] [2] .

٦ - مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ .. [النساء : ٤٦] .

٧ - فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . [المائدة : ١٣] .

٨ - يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ .. [المائدة : ١٥].

٩ - يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ .. [المائدة : ٤١] .

١٠ - وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً .. [الأنعام : ٩١] .

---

(١) و (٢) الآيتان من سياق في حق اليهود.

وقال كلاماً طويلاً متكرراً خلاصته : إن التوراة[1] كلام الله ، والقرآن صريح بأن كلام الله لا يبدل حيث جاء في سورة الأنعام هـذه الجملة : (وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ الله .. الآية ٣٤) وهذه الجملة : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ .. الآية ١١٥) وفي سورة الكهف هذه الآية : (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ .. ٢٧) فيكون التحريف فيها مستحيلاً بنص القرآن ، وإن القرآن قد نوه بالتوراة وما فيها من نور وهدى ، وطلب من اليهود إقامتها ، وقال لهم : إنهم ليسوا على شيء حتى يقيموها كما جاء في آية سورة المائدة ٤٤ و ٦٨ ونوه بالذين يتلونها حق تلاوتها في آية سورة البقرة ١٢١ وإن كل هذا يدل على أنهـــا كانت في زمن النبي كما أنزلها الله بدون تحريف وتبديل .

ومما قاله : إن القرآن أمر النبي باستشهاد أهل الكتاب ، وبإعلان التطابق بين القرآن والكتب المنزلة على أنبياء الله السابقين والتي كانت في أيـدي أهل الكتاب ، فلا يمكن أن يكون ذلك لو كان القرآن يريد أن يقول : إن ما في أيديهم منها محرف ، ثم صرف كلمة (التحريف) المنسوب إلى اليهود إلى معنى تحويل وتأويل الآيات التوراتيـة بغير معناها وقصدهـا الصحيحين ..

- ٧ -

وتعليقاً على ذلك نقول :

١ ـ إن (كلمات الله) التي في آيات الأنعـام والكهف لا تعني كلام الكتب الإلهية أو ألفاظها ، وإنما تعني تقدير الله وحكمه وقضائه ، وقد كنا نظن أن هذا لا يغيب عن الحوري .

---

(١) كلامه يشمل التوراة والإنجيل ، ونحن هنا نديرالكلام على التوراة فقط .

٢ - إن البشر هم الذين يكتبون ألفاظ وحروف كتب الله تعالى على القراطيس والرقوق ، ويحفظونها في صدورهم ، ولا يمكن أن يكابر عاقل في جواز وقوع أخطاء منهم حينا يكتبونها ، وحينا يقرؤونها من حفظهم ، فيبدلوا ويغيروا فيها سواء أكان ذلك بقصد أم بغير قصد ، وهذا ما يقع لكل الناس في كل وقت من مسلمين ونصارى ويهود وغيرهم ، وقد وقع منا كثيراً على كثرة ما قرأنا القرآن ، وحفظناه وكتبناه ، ولا بد من أنه وقع للخوري ، وكنا نظن أن هذا لا يغيب عنه ، ولا يخل هذا في حقيقة بقاء كلام الله تعالى المنزل على رسله في كتبه محتفظاً بصحته حكماً ولو أخطأ الناس في كتابة ألفاظه على الورق والقراطيس ، وفي تلاوته من ذاكرتهم ، وبدلوا وغيروا فيه .

٣ - إن كلمة (التحريف) في أصلها تعني تغيير وتبديل الحروف والألفاظ ، ومع ذلك فمن الممكن التسليم بصواب القول : إنها قد تكون بمعنى صرف الكلام عن حقيقة مداه ، وتأويله بغير القصد الحق الصحيح ، غير أن هذا ليس ذا جدوى في الصدد الذي يساق فيه بعد الواقع المشروح في الفقرة السابقة الذي لا يمكن أن يكابر فيه عاقل ، والذي يسوغ التقرير بحتم بأن كلمات التوراة يمكن أن يخطىء كاتبوها حينا يكتبونها على الورق ، وقارئوها حينا يتلونها من ذاكرتهم فيغيروا ويبدلوا .

٤ - ولقد سلمنا استدلالاً مما في بعض الآيات القرآنية بأن التوراة التي احتوت ما بلغه الله لموسى من وصايا وتشريعات موجودة في زمن النبي ﷺ ، وقد نوه القرآن بها حقاً ، ووصفها بأن فيها نوراً وهدى ، وطالب بالاحتكام إليها ، وطالب اليهود بإقامتها والتزام ما فيها ، ونوه بالذين يتلونها حق تلاوتها ، وكل هذا قد يفيد أنها كانت في زمن النبي بدون تحريف وتبديل .

ويجعلنا هذا متفقين في ذلك مع الحوري الذي يذكره في معرض التدليل، ويكون استشهاد القرآن بها وبأهلها في محله .

غير أن هذا ليس من شأنه أن يمنع أن يكون اليهود في زمن النبي وقبله كانوا حيناً ينسخون التوراة من أصلها، وحيناً يتلونهـا من ذاكرتهم يخطئون في كلمات كثيرة، أو ينسونها، أو يحفونها أو يكتمونها، وكل هذا قرره القرآن عنهم، ولا ينبغي أن يكون أي محل للشك في أن ذلك كان نتيجة لوقائع ومشاهد يقينية .

على أن سفر توراة موسى مفقـودة فيكون الكلام في أمره هو في صدد شيء لم يعد موجوداً مهما كان من أمر، ولم يعد إثبات صحته وعدم تحريفه وتبديله موضوع نظر وجدل إثباتاً ونفياً .

- ٨ -

ولقد تساءل الحوري بعد أن توهم بغباء وصفاقـة أنه أثبت استحالة تحريف وتبديل التوراة استناداً إلى القرآن الذي قرر أن لا مبدل لـكلمات ربه وهي من كلام الله عما إذا كان هناك تحريف وتبديل في الكتاب المقدس . وهذا الاصطلاح حديث على كل حال، ويطلقه النصـارى على مجموعة أسفار العهد القديم، ومجموعة أسفار العهد الجديد معاً المتداولة بين الأيدي اليوم، وقد حاول أن يسحب ما قاله من استحالة التحريف والتبديل في التوراة التي كانت موجودة في زمن النبي ﷺ والذي فنـــدناه على الكتاب المقدس الذي منه مجموعة أسفار العهد القديم، وكرر ما ساقـه بسبيل إثبات عدم تحريف التوراة، وكلامه يفيد بصراحة أنه يقصـــد الأسفار المتداولة، وقد زاد على ذلك قوله - وهذا يؤيد القصـد - إن هذه الأسفار كانت مكتوبة على رقوق قديـمة قبل النبي بمدة طويـلة، وإنها قد طبعت نقلاً من الرقوق طبقاً لأصلها فلا يمكن أن يكون قد قد طرأ عليها تبديل أو تحريف، أو زيادة أو نقص في زمن النبي وقبله

وبعده ، وجميع نسخها التي وصلت إلى عندنا متماثلة وهذا يدعم ذلك .

وجواباً على هذا التساؤل نقول : إن شأن هذه الأسفار ليس كشأن التوراة أصلاً وواقعاً ، فالتوراة قد كتبها موسى عليه السلام حسب ما تلقاها من الله تعالى ، وسلم سفرها للكهان ليوضع في تابوت العهد ، وظل هذا السفر ينسب إليه ، ويسمى باسمه في حين أن الأسفار كما قلنا قبل : قد كتبت بأقلام مجهولة متعددة في أزمنة مختلفة .

وقد كتبت بعد الأحداث التي سجلت فيها بمدة طويلة ، وفيها كثير من التباين والتناقض ، والمبالغات والمفارقات والأكاذيب ، وقد نسب فيها إلى الله ورسله ما يتنزهون عنه .

وما جاء فيها مما هو من تبليغات الله تعالى لموسى عليه السلام ليس منقولاً من سفر توراة موسى بدليل ما فيها من هذه الصفات ، فلا يكون ذلك بديلاً عن هذا السفر ، وما جاء فيها منسوباً إلى الأنبياء الآخرين وإلى الله تعالى عن طريقهم ليس من إملائهم ، وفيه من تلك الهنات الشيء الكثير أيضاً ، وقوله : إنها كانت مكتوبة على رقوق قديمة قبل النبي ﷺ بمئات السنين ، وإن المطبوع منها هو نسخة مطابقة لهذه الرقوق التي لاتزال موجودة ، ولم يطرأ عليها تبديل وتحريف ، لا يفيد إلا إثبات كون التشويهات والهنات التي هي عليها كانت قديمة بقدم الرقوق ولا يمنع في ذات الوقت أنه كان هناك قراطيس وأسفار لم تصل إلينا - وهو ما يقوم الدليل القطعي عليه من نصوص الأسفار ذاتها - ولا يمنع أنه كان نسخ عديدة للأسفار التي وصلت إلى عهدنا بينها تباين وتناقض ، فتداولت جميعها على ما فيها من ذلك ، ثم ضاع بعضها أو انطمر أو أبيد قصداً ، فظلّ ما وصل إلى عهدنا منها ، فطبع طبقاً للأصل الذي كان في تلك الرقوق القديمة على علاته وثغراته . وتداول نسخ عديدة للكتاب الواحد في زمن الخط قبل الطباعة ، ووقوع أخطاء من النساخ طفيفة أو كبيرة ، وسقوط شيء من النسخ ، وضياعه

أمور واقعية ، والأمثلة على ذلك لاتحصى في المخطوطات العربيـــة وغير العربية ، ولقد عثر أخيراً على مخطوطات قديمة في أحد كهوف البحر الميت منها بعض فصول من سفر أشعيا قال الخبراء الذين قارنوها مع فصول السفر المتداول المطبوع أن بينها فروقاً كثيرة .

وهناك حقائق مشهورة واقعية لاتتحمل مراء تتمثل في فروق ومباينات وزيادات ونقص في نصوص وعدد الاسفار المطبوعة التي تتداولها طوائف اليهود والنصارى . من ذلك مابين ما يتداوله ويعترف به السامريون الذين يدينون بالدين الموسوي ، وما يتـداوله ويعترف به اليهود وما يتداوله ويعترف به طوائف اليهود المختلفة ، وما بين ما يتداوله ويعترف به طوائف النصارى المختلفة . حيث يثبت بعضهم ما ينكره الآخر ، وحيث يوجد في بعض مالا يوجد في الآخر ، وحيث يرد في بعض ما يتعارض مع الآخر ، ومعنى هذا أن الرقوق القديمة المنقولة عنها متباينة ، فطبع ما وصل منها إلى زمن الطباعة متبايناً أصلًا وترجمة .

ولقد اقتبس الإمام ابن قيم الجوزية وهو من رجـال القرن الثامن الهجري ومتوفى سنة (٧٥١ هـ) أي قبل ستة قرون وثلث في كتابـه « دليل الحيارى » فقرات عديدة من أسفار دانيال وأشعيا حرفياً ، لأنه وضعها بين أقواس ، وفيها بشارات قوية الصراحة ببعثة النبي محمد ﷺ ، وهذه الفقرات ليست موجودة حرفياً في الأسفار المذكورة في نسخـة (الكتاب المقدس) الموجودة في يدنا المطبـوعة في المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٥١ م ولا يمكن أن يكون الإمام قد اخترعها أو حرفها ، وليس من تفسير لذلك إلا أنه كان هناك نسخ عديدة لهذه الأسفار في بعضها ما ليس في الآخر ، وأن مانقل عنه الإمام قد باد أو أبيد .

وفي نسخة (الكتاب المقدس) المذكورة آنفاً أسفار عديـدة ليست موجودة في نسخة (الكتاب المقدس) المطبوعة في المطبعة البروتستانتية

وغير معترف بها بالتالي عند البروتستانت حيث يوجد في الأولى أسفار طوبيا ويهوديت والحكمة ويسوع بن سيراخ ونبوءة باروك وسفرا المكابيين. وليست هذه موجودة في الطبعة البروتستانتية وفيها كذلك أسفار فيها فصول غير موجودة في نفس الأسفار الموجودة في النسخة البروتستانتية ، وفيها فصول يذكر في رأسها أن أصلها العبراني قد ضاع ، وأنها منقولة عن ترجمة يونانية له ، أو أنها غير واردة في النسخة العبرانية ، ولا في نسخة أحد من المترجمين ، وإنما وردت في النسخة العامية .

وفي كل ذلك أمثلة مؤيدة لما قلناه يمكن أن يجد المستقصي أمثلة أخرى من بابها [1] .

وكل ما تقدم يجعل تشميل تعبير (الكتاب المقدس) الذي يطلقه النصارى على مجموعة أسفار العهدين القديم والجديد لجميع ما جاء في أسفار العهد القديم غير أمين ، وفيه تجوز كبير ، ويجعل محاولة الخوري نفي التحريف والتشويه والإبادة والضياع عنها متهافتة .

وهذا القول لاينقض ما قلناه قبل من احتمال صحة نسبة بعض ما جاء في بعض هذه الأسفار إلى الله ورسله ، غير أن هذا لايسوغ إطلاق ذلك التعبير على جميع محتويات الأسفار كما هو المتبادر .

وفي القرآن آيات عديدة تعكس على ما يتبادر منها بقوة ما كان في نصوص الأسفار التي كان اليهود يتداولونها في زمن النبي ، سواء منها التي وصلت إليها أم لم تصل من تباين وتناقض وتشويه ، وما كان بينهم نتيجة لذلك من اختلاف على النصوص والتأويل من شكوك وتعدد مذاهب

---

(١) في المجلدين الثالث والرابع من تاريخ سورية للدبس أمثلة كثيرة على ما طرأ على أسفار العهد القديم والعهد الجديد من طوارىء واضطراب وترجمات عن أصول مفقودة .

وتنازع كان يصل أحياناً إلى القتال [1] ، وما كان من تلاعبهم فيها حيث كانوا يخفون مايريدون ويظهرون ما يريدون وفقاً لأهوائهم ، ويحاولون تقديمها بصفتها كتب الله ، ولم تكن كذلك .

ومن هذه الآيات ما مر إيراده وهي آيات البقرة ٧٥ و ٧٩ و ١٥٩ و ١٧٣ - ١٧٦ وآل عمران ٧٨ والنســـاء ٤٤ والمائدة ١٣ و ١٥ و ٤١ والأنعام ٩١ ومنها هذه الآيات :

١ - كانَ النّاسُ أُمَّـــةً واحدةً فبعَثَ اللهُ النّبيِّين مُبَشّرينَ ومُنْذِرينَ وأنزَلَ معَهُمُ الكِتابَ بالحَقِّ ليَحكُمَ بيْنَ النّاسِ فيما اخْتَلَفُوا فيهِ وما اخْتَلَفَ فيهِ إلا الّذينَ اوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهم البيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الّذينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيه مِنَ الحَقِّ بإذْنِه واللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ .. [البقرة : ٢١٣] .

٢ - تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَع بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وآتَيْنا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البيِّناتِ وَأيَّدْناهُ بِرُوحِ القُدُسِ وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البيِّناتُ ولكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اخْتَلَفُوا وَلكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ .. [البقرة : ٢٥٣] .

٣ - أَلَمْ تَرَ إلى الّذينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكّي مَنْ يَشاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتيلاً . انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرونَ على اللهِ

---

(١) والفتن والحروب الدموية التي كانت بين الصدوقيين والفريسيين في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد نتيجة للخلافات والتأويلات المذهبية دليل على ذلك . انظر كتاب يوسيفوس اليهودي المكتوب في القرن الأول بعد الميلاد وانظر كتابنا « تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم » الطبعة الجديدة ص ٣٣١ وبعدها .

الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً .. [النساء : ٤٩ و ٥٠] .

٣ ـ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .. [يونس : ٩٣] .

٤ ـ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ .. [هود : ١١٠] .

٥ ـ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .. [المؤمنون : ٥١ ـ ٥٣] [1] .

٦ ـ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .. [النمل : ٧٦ و ٧٧] .

٧ ـ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ .. [الشورى : ١٣و١٤] .

ولا يمكن أن تكون هذه الآيات إلا صورة صادقة عيانية تعكس

---

(١) هذه الآيات جاءت تعقيباً على الأنبياء نوح وموسى وهارون وابن مريم والإشارة إلى غيرهم عليهم السلام .

ما كان عليه أمر الأسفار التي كان يتداولها اليهود من اختلاف وتناقض وتباين وتحريف .

ويؤول الخوري كما قلنا قبل عبارات التحريف في الآيات القرآنية بمعنى صرف نصوص الكتب عن مقصدها الحق الصحيح ، ومع أن الكلمة في أصلها هي بمعنى تغيير وتبديل الحروف والألفاظ ، فإن وصف اليهود بها بالمعنى الذي يريد تأويلها به يعني فيما يعنيه أنهم كانوا يختلفون في فهم النصوص ، ويحاولون تأويلها تأويلاً بعيداً عن الحق والصواب ، وقد يصح أن يقال : إنهم كانوا يدونون هذه التأويلات المحرفة في قراطيس ، ويتداولونها ، وأسفار التلمود والمدراش هي من هذا الباب على الأرجح .

على أن في آيات من هذه الآيات صراحة لا يجوز المكابرة فيها حيث تفيد أنهم كانوا مختلفين في النصوص وفيما بين أيديهم من أسفار ، وكانوا في شك منها ، وكانوا يخفون ويكتمون منها ما يشاؤون ، ويبدون ما يشاؤون وفق أهوائهم ، وينسبون كتباً ليست من كتب الله وكلاماً ليس من كلام الله إلى الله كذباً وافتراء وخداعاً وهو مـــا ينطبق على معظم الأسفار المتداولة اليوم .

ومن عجيب أمر الخوري أنه يحاول الاستناد إلى القرآن ، وهو يقرأ آيات القرآن التي أوردناها وبخاصة آيات البقرة ٧٩ وآل عمران ٧٨ ، ثم لا يبالي أن يفعل ما حكى القرآن أن اليهود كانوا يفعلونه ، فيقدم هذه الأسفار ككتب إلهية وككلام إلهي ، وينعتها بالكتاب المقدس ..

— ١٠ —

ومن طرائف الخوري وصف كُتّاب الأسفار المتداولة بكتّاب الوحي ! والمتبادر أنه اقتبس هذا من تاريخ الوحي النبوي المحمدي الذي يذكر أنه كان للنبي ﷺ كتّاب وحي يكتبون ما يوحى إليه من قرآن فور نزوله

وفي الاقتباس مفارقة عجيبة ومقارنة متهافتة ، فكتّاب الأسفار الخمسة

الأولى كتبوها بعد موسى بمدة طويلة وليست من إملائه ، وهذا شأن الأسفار الأخرى التي كتبت بعد الأحداث التي تضمنتها وموت الأشخاص المنسوبة إليهم بمدة طويلة ، كذلك على ما نبهنا عليه من قبل ، وقد دونوها من محفوظات الناس ومسموعاتهم المتداولة أجيالاً بعد أجيال ، وربما من قراطيس أخرى وصلت إليهم ولم تصل إلينا ، وشيبت بالخيال والمفارقات والمبالغات والمتناقضات والأكاذيب على الله ورسله ، فكيف يصح لعاقل أن يصفهم بأنهم كتاب الوحي قياساً على كتّاب وحي النبي ﷺ الذين إنما كانوا يدونون ما يوحى إلى النبي فوراً .

- ١١ -

ونتكلم الآن عن الإنجيل فنقول :

١ ـ إن الكلمة يونانية معربة ومعناها ، البشارة ، والمتبادر أن التعريب والاستعمال للدلالة على كتاب النصارى المقدس كانا سابقين لنزول القرآن .

٢ ـ إن الإنجيل قد ذكر في القرآن اثني عشرة مرة ، وقد جاء ذكره مقروناً بعيسى عليه السلام في بعضها ، وفي الآيات التي ذكر فيها مقروناً باسمه صراحة بأن الله تعالى آتاه له وعلمه إياه كما ترى في الآيات التالية :

آ ـ وَيُعَلِّمُهُ[1] الكِتَابَ والحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ وَرَسُولاً إلى بَني إِسْرائيلَ .. [آل عمران : ٤٨ ، ٤٩] .

ب ـ وَقَفَّيْنا على آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى ونورٌ وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ [المائدة : ٤٦] .

ت ـ إِذْ قالَ اللهُ يَاعِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ

---

(١) الضمير عائد إلى عيسى عليه السلام الذي ذكر قبل هذه الآية باسم المسيح .

وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوراةَ والإِنجيلَ .. [المائدة : ١١٠] .

وفي سورة آل عمران آيات ذكر فيها أن الإنجيل (أنزل) كما ترى فيما يلي :

آ – نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الفُرْقانَ .. [آل عمران : ٣ ، ٤] .

ب – يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوراةُ وَالإِنجيلُ إلا مِنْ بَعْدِهِ أفلا تَعْقِلونَ .. [آل عمران : ٦٥] .

وفي سورة مريم آية تحكي قول عيسى عليه السلام بأن ربه آتاه الكتاب ، وجعله نبياً ، وهي : (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً .. : ٣٠) .

وفي سورة المائدة آيات تنسب الإنجيل إلى أهله كما ترى فيما يلي :

آ – وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجيلِ بِما أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فأولئكَ هُمُ الفَاسِقونَ .. ٤٧ .

ب – وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوراةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ .. ٦٤ ، ٦٥ .

ت – قُلْ يا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلى شيءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُم .. ٦٨

– ١٢ –

وتقتضي هذه النصوص أن الإنجيل كتاب واحد أنزله الله ، أو أوصى

به ، أو علمه لنبيه عيسى عليه السلام ، فيه تبليغات وأحكام ووصايا ربانية ، هذا في حين أن النصارى اليوم يعترفون ويتداولون أربعة أناجيل هي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، ويسمون المجلد الذي يضمها مع سفر اسمه (سفر أعمال الرسل) وأربع عشرة رسالة من بولس إلى أهل بلاد عديدة وأشخاص وإلى العبرانيين ، ثم رسائل بطرس ويوحنا ويعقوب ورؤيا يوحنا باسم العهد الجديد . مع اعترافهم بأسفار العهد القديم في نصوص يتداولونها وضمهم إياها مع أسفار العهد الجديد باسم جامع هو (الكتاب المقدس) .

وهناك خلاف في عدد رسائل العهد الجديد وأصحابها عدا الأناجيل الأربعة حيث إن الطبعة البروتستانتية لا تثبت بعضها ولا تعترف به في حين أن الطبعة الكاثوليكية تثبتها جميعها وتعترف بها ، والنصارى يعولون على هذه الرسائل تعويلًا لا يقل عن الأناجيل ، لأن فيها شرحاً للعقائد والتعاليم النصرانية التي لم ترد في الاناجيل بصراحة وقطعية .

ونريد هنا أن نقتصر في البحث على الأناجيل لان اسم الإنجيل هو المذكور في القرآن ومتداول في الواقع ، وهذا فرق مهم بالنسبة للتوراة ، فليس هناك كما قلنا قبل سفر اسمه التوراة ، وقد كان وفقد ، وتداول هذا الاسم وإطلاقه على أسفار العهد القديم أو بعضها من باب التجوز ويزيد في قوة هذا الفرق أن اسم الإنجيل كشيء منسوب إلى عيسى عليه السلام ورد في بعض الأناجيل التي يعترف بها النصارى على ما سوف نذكره بعد .

- ١٣ -

والأناجيل الأربعة صريحة بأنها كتبت بعد عيسى عليه السلام لتحتوي قصة حياته ورسالته وتعاليمه وأقواله ونهايته ، وبأنها كتبت بعد توفيه بمدة ما ، وهناك من يذكر أنها كتبت خلال ستين سنة بين سنة ٣٧ و٩٨

بعد الميلاد .

وهناك أولاً خلاف في ظـروف ولغات وأشخاص كتاب الأناجيل الاربعة ، ومـتىّ صاحب أول الاناجيل من تلامذة المسيح أو حوارييه الاثني عشر على ما تذكره الروايات التي تذكر أيضاً أنه كتب إنجيله بعد ١٢ سنة من توفي المسيح بالعبرانية ، وفي رواية بالسّريانية ، ثم ترجم إلى اليونانية ، وظلت الترجمة اليونانية هي المعروفـــة دون الأصل المفقود حتى ظن أن اليونانية هي الأصل الوحيد له ، وبعض الروايات تذكر أن الذي ترجمه إلى اليونانية هو يوحنا .

ومرقس صاحب ثاني الاناجيل تلميذ لبطرس في رواية ، ومن الرسل الاثنين والسبعين الذين انتدبهم السيد المسيح للبشارة في رواية . ومما تذكره الروايات أنه كتب انجيله في روما حينما رحل اليها مع بطرس ، وقـــد كتبه باليونانية مع بعض عبارات باللاتينية ، وتروي بعض الروايات أن كاتب إنجيله هو بطرس نفسه ، وقد عزاه إليه .

ولوقا صاحب الإنجيل الثالث طبيب من انطاكية ، وقد كتب إنجيله باليونانية لينقل الى صديق له اسمه ثاوفلس ما سمعه من سيرة المسيح . ويوحنا صاحب الإنجيل الرابع مختلف في شخصيته حيث يروى أنه يوحنا بن زبدي أحد تلامذة المسيح الاثني عشر أو حوارييه كما يروى أنه شخص آخر ، وقد كتب إنجيله في آخر حياته وبعد الأناجيل الثلاثة الأولى .

وبين الأناجيل الأربعة تطابق ما في كثير من الأقوال المعزوة إلى عيسى عليه السلام وتعاليمه وسيرة حياته ومعجزاته مع اختلاف في الصيغة والأسلوب والعبارات . غير أن بينها اختلافات عديدة أيضاً ، ففي بعضها ما ليس في بعض آخر ، وفي بعضها ما يتباين مع ما في البعض الآخر ، وهـــذا وذاك ملموحان في الأحداث والجزئيات والكليات ، وفي بعضها ما يلمح بقوة أنه من بنات الخيال او التوهم أو شيب بكثير من المبالغة ،

حتى إن بعض الباحثين يقطعون بكذب بعض محتوياته أو على الأقل بأنها من تزيينات الأوهام . ويبدو من كل هذا أن كتابها سجلوا ما كتبوه من الروايات والمسموعات والمنقولات والتوهمات التي يقع فيها عادة مباينات ومناقضات وزيادة ونقص ، ومبالغة وكذب مقصود وغير مقصود وخداع رؤية وسماع ، ولو كان العهد قريباً ، وليس فيها أية دلالة على أن سيئاً مما فيها من إملاء عيسى عليه السلام مباشرة ، وألوهية عيسى مثلاً لم تذكر بصراحة إلا في إنجيل يوحنا ، وقد لحظ دارسو هذا الانجيل بخاصة آثار الفلسفة اليونانية الجديدة فيه ، وهذا ما جعلهم يتوقفون في رواية كون كاتبه هو يوحنا الحواري بن زبدي ، ويذهبون إلى أنه شخص يوناني من القرن الثاني متأثر بتلك الفلسفة .

وعلى كل حال فالتباين والتناقض والمبالغة والتوهمات فيما جاء في الأناجيل الأربعة من أقوال وأفعال وصور وأحداث يجعل قول من يقول إنها كتبت بإلهام الله في غير محله البتة ، لأن الله تعالى لا يمكن أن يلهم الشيء وضده ونقيضه والكذب والخيال والأوهام .

وإلى ما تقدم فإن هناك روايات تذكر أن عدد الأناجيل كثير ، والعدد الذي نذكره يتراوح بين العشرين والسبعين .

ومن الأناجيل التي قرأناها غير الأربعة إنجيل برنابا ، وبرنابا ذكر في الأسفار الملحقة بالأناجيل الأربعة كأحد رسل المسيحية بعد المسيح مباشرة ، ومن الأناجيل التي قرأنا خبرها أناجيل **الطفولة والولادة ومريم وإنجيل السبعين** وإنجيل **مرقيون** وإنجيل **ديصان** وإنجيل **التذكرة** وإنجيل **سرين** .

ولقد كان النصارى فرقاً عديدة ، فكان لكل فرقة إنجيل يختلف عن إنجيل الفرقة الأخرى قليلاً أو كثيراً .

ومن الجدير بالذكر أن الأناجيل الأربعة التي يقال : إنها كتبت بين سنتي ٣٧ و ٩٨ لم يذكر خبرها أي أثر تاريخي قبل سنة ٢٠٠ م ثم أخذت

المصادر تذكرها ، غير أنه ليس هناك ما يثبت علمياً أن النصوص المتداولة هي نفس النصوص التي كتبت لاول مرة بقطع النظر عما بينها من تناقض تباين وما فيها من هنات وثغرات .

والنصارى يقولون عن غير الأناجيل الأربعة : إنهـا منحولة ودخيلة ومزورة ، وقالوا عن إنجيل برنابا : إنه مزور في زمن الإسلام أو بقلم مسلم على ما قرأناه في بعض كتبهم ، ولم نطلع على أقوال لهم عن زمن الأناجيل الأخرى التي يصفونها بتلك الاوصاف ولا عن واضعيها ومزوريها وكيفية ذلك .

وفي القرآن أمور عن عيسى عليه السلام ليست واردة في الأناجيل الأربعة على ما سوف نشرحه بعد ، ونعتقد أنها كانت واردة في أناجيل أخرى حيث يمكن القول : إن من تلك الاناجيل ما كتب قبل الإسلام وفي إنجيل برنابا تطـابق كثير مع ما ورد من ذلك في القرآن ، وقول النصارى : إن هـذا الإنجيل مزور بقلم مسلم لا يحل المشكلة ، لان ما في القرآن منه يقتضي أن يكون مكتوباً في مدونات سابقـة على القرآن كما هو المتبادر .

ولقد قرأنا في بعض كتب الخوري الحداد أن من جملة الأناجيل المنحولة إنجيلًا آخر لمى فيـه مباينات كثيرة لانجيله المعترف به ، حيث يبدو من هذا أنه كان للأناجيل المعترف بها أيضاً نسخ عديدة فيها مباينات لنسخ أخرى منها وبخاصة للمعترف بها التي استقرت العقائد والمسلّمات النصرانية عليها ، ومن المحتمل أن يكون للأناجيل الاخرى مثل ذلك .

ولقد مرت النصرانية والنصارى بدور اضطراب واضطهاد عصيب في كنف الامبراطورية الرومانية التي كان لها السلطان في فلسطين وبلاد الشام ومصر وشمال أفريقية والأناضول والأقسام الشرقية الجنوبية من أوروبا مدة ثلاثة قرون . ولا شك في أنه كان لذلك أثر في اضطراب الروايات

والكتابات عن حياة المسيح وأقواله وأفعاله ونهايته .

ولقد ذكرت بعض المصادر القديمة التي تعود إلى القرن الثاني بعد الميلاد أنه وقع تبديلات كثيرة في الأناجيل التي كان يتداولها النصارى الأولون . بل إن في بعض رسائل بولس إشارة إلى أن هناك من كان يحاول تحويل انجيل المسيح ويقلبونه ويحرفونه [1] .

وحينما نشب خلاف بين علماء ورجال الدين المسيحي في القرون الأربعة الأولى ـ واستمر لما بعدها وما يزال ـ في صدد المسيح وأمه وروح القدس والله عز وجل والأقانيم الخ ، وصاروا فرقاً عديدة ، وأخذوا يتراشقون بالتهم ، ويكذب بعضهم بعضاً صار لكل فريق أناجيل وقراطيس مباينة للأخرى ، وصار كل فريق يقول : إن ما في يد الفريق الآخر من ذلك مزور ومحرف على ما سوف يأتي شرحاً أوفى له في مناسبة أخرى

وعلى كل حال فإن الواضح مما تقدم أن الأناجيل الأربعة المتداولة المعترف بها لا يمكن أن يصدق عليها ، ولا على أي واحد منها تسمية الإنجيل القرآنية والوصف الذي وصف القرآن الإنجيل به ، ولا يصح أن ينسب أي منها لله والمسيح ، ويجب أن يظل يذكر اسم مؤلف كل إنجيل مع إنجيله منسوباً اليه .

- ١٤ -

على أن آيات سورة المائدة ٤٧ و ٦٥ و ٦٧ وسورة الأعراف ١٥٧ التي أوردناها قبل قد تفيد أن الإنجيل الذي آتاه الله عيسى وعلمه إياه ، وأنزله عليه ، وفيه أحكامه وتعاليمه ووصاياه والذي أمر القرآن أهله بالحكم بما جاء فيه ، وقال لهم : إنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا أحكامه مع ما أنزل الله إليهم كان موجوداً في أيدي النصارى حين نزول القرآن .

ولقد جاء في الإصحاح الأول من إنجيل مرقس هذه العبارة (وبعد

---

(١) انظر الإصحاح الأول من رسالة بولس إلى أهل غلاطيه في العهد الجديد .

ما أسلم يوحنا أتى يسوع إلى الجليل ليكرز بانجيل ملكوت الله قائلاً قد تم الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل) . وفي الإصحاح السادس عشر من هذا الإنجيل هذه العبارة (قال لهم ـ أي المسيح عليه السلام ـ اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها) . وجاء في الإصحاح الأول من رسالة بولس إلى أهل روما هذه العبارة (فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي بأني لم أزل أذكركم) . وجاء في الإصحاح التاسع في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنتوس هذه العبارة (بصرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوماً ، وهذا أنا أفعله لأجل الانجيل) ولقد أشرنا إلى ما جاء في رسالة بولس إلى أهل غلاطيه وهذا نص ما جاء في صدد انجيل المسيح (إني أعجب كيف تنتقلون هكذا سريعاً عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر وإن لم يكن انجيل آخر لكن قوماً يبلبلونكم ويريدون أن يقلبوا انجيل المسيح) .

فهذه العبارات تفيد أنه كان هناك انجيل منسوب إلى الله وإلى عيسى . كان عيسى يبشر به فعلاً . ومن الجائز أن يكون ظل موجوداً متداولاً إلى زمن النبي ﷺ ، وأنه هو الذي كان القرآن يعنيه ، وما دام أنه لا يوجد الآن إنجيل يصدق عليه وصف القرآن ، فلا مناص من القول : إنه قد فقد في ظرف ما كما فقد سفر توراة موسى الذي كان موجوداً هو الآخر يقيناً بنصوص الأسفار ، ثم بنصوص القرآن كما ذكرنا قبل .

ولقد يكون في الأناجيل المتداولة المعترف بها أشياء مما تلقاه عيسى عليه السلام من ربه ، أو احتواه الإنجيل الذي آتاه الله ، وعلمه إياه ، وأنزله عليه ، غير أنها لا يمكن أن تكون من وجهة نظر القرآن والمنطق والواقع بديلة عنها ، لأنها ليست هو أولاً ، ولأن فيها ما لا يمكن أن

يكون من ذلك الانجيل ، ومن ذلك على سبيل المثال سيرة عيسى عليه السلام منذ ولادته إلى نهايته ، وليس فيها إلى ذلك أشياء كثيرة وردت في القرآن ، ويقتضي أن تكون في ذلك الانجيل . ومن ذلك على سبيل المثال عدم ورود أوصاف الرسول النبي الأمي بصراحة في أي منها وهو ما ذكرت آية سورة الأعراف (١٥٧) أن النصارى يجدونها مكتوبة عندهم في التوراة والانجيل . ومن ذلك ما ذكر في آيات قرآنية عديدة بصراحة قاطعة بأن عيسى عبد الله ونبي من أنبيائه ، وأنه جاء مبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، وداعياً إلى عبادة الله وحده ربه ورب العالمين جميعاً كما ترى فيما يلي :

١ - لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ .. [المائدة : ٧٢] .

٢ - قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً . وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً . وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً . وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً .. [مريم : ٣٠ - ٣٣] .

٣ - وَلَمَّا جَاءَ عِيسى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعونِ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ .. [الزخرف : ٦٣ و ٦٤] .

٤ - وَإِذْ قَالَ عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا

سِحْرٌ مُبِينٌ .. [الصف : ٦] .

وقد يكون في الأناجيل المتداولة المعترف بها عبارات يمكن تأويلها بما يتفق مع التقريرات القرآنية الواردة في هذه الآيات ، غير أنها ليست صريحة صراحة قاطعة ، والنصارى يؤولونها تأويلًا يجعلها غير متفقة مع هذه التقريرات .

- ١٥ -

وفي القرآن قرائن قد تدل على أن الأناجيل المتداولة اليوم ، والمعترف بها كانت موجودة في أيدي النصارى بالاضافة إلى إنجيل الله المنزل على عيسى الذي كان يبشر به ، ويدعو اليه ، ومن ذلك قصة بشارة زكريا ومريم التي وردت في إنجيل لوقا دون غيره بيحيى عليه السلام للأول والمسيح عليه السلام للثانية ، والمطابقة لما ورد من ذلك في سورتي آل عمران ومريم مطابقة كبيرة . فقد جاء في الإصحاح الأول من الانجيل المذكور (كان في أيام هيرودوس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيّا وامرأته من بنات هارون اسمها اليصابات ، وكانا كلاهما بارين أمام الله سائرين في جميع وصايا الرب وأحكامه بغير لوم ، ولم يكن لهما ولد لأن اليصابات كانت عاقراً ، وكانا كلاهما قد تقدما في أيامهما ، وبينما كان يكهن في نوبة فرقته أمام الله أصابته القرعة على عادة الكهنوت أن يدخل هيكل الرب ويبخر ، وكان كل جمهور الشعب يصلي خارجاً في وقت التبخير ، فتراءى له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور ، فاضطرب زكريا حين رآه ووقع عليه خوف ، فقال له الملاك : لا تخف يازكريا فإن طلبتك قد استجيبت ، وامرأتك اليصابات ستلد ابناً فتسميه يوحنا ، ويكون لك فرح وابتهاج ، ويفرح كثيرون بولده ، فإنه يكون عظيماً أمام الرب ، ولا يشرب خمراً ولا مسكراً ، ويمتلىء من الروح القدس ، وهو في بطن أمه ، ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم ، وهو يتقدم أمامه

بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء ، والعصاة إلى حكمة الأبرار ، ويعد الرب شعباً كاملاً ، فقال زكريا للملاك : بم أعلم هذا فإني أنا شيخ وامرأتي قد تقدمت في أيامها ؟ فأجاب الملاك وقال له : أنا جبريل الواقف أمام الله ، وقد أرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا ، وها إنك تكون صامتاً فلا تستطيع أن تتكلم إلى يوم يكون هذا ، لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في أوانه . وكان الشعب منتظرين زكريا متعجبين من إبطائه في الهيكل ، فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ، فعلموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل ، وكان يشير إليهم ، وبقي أبكم ، فلما تمت خدمته مضى إلى بيته . ومن بعد تلك الأيام حبلت اليصابات امرأته ، فاختبأت خمسة أشهر قائلة : هكذا صنع بي الرب في الأيام التي نظر إلي فيها ليصرف عني العار بين الناس . وفي الشهر السادس أرسل الملاك جبريل من قبل الله إلى مدينة في الجليل تسمى ناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل اسمه يوسف من بيت داود واسم العذراء مريم ، فلما دخل اليها الملاك قال : السلام عليك يا ممتلئة نعمة ، الرب معك مباركة أنت في النساء ، فلما رأته اضطربت من كلامه ، وفكرت ما عسى أن يكون هذا السلام ، فقال لها الملاك : لا تخافي يا مريم ، فإنك قد نلت نعمة عند الله ، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً ، وتسمينه يسوع ، وهذا سيكون عظيماً وابن العلي يدعى وسيعطيه الرب الإله عرش داود أبيه ، ويملك على آل يعقوب إلى الأبد ، ولا يكون لملكه انقضاء ، فقالت مريم للملاك : كيف يكون هذا وأنا لا أعرف رجلاً ؟ فأجابها الملاك وقال لها : إن الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظلك ، ولذلك فالقدوس الموعود منك يدعى ابن الله ، وها إن اليصابات نسيبتك قد حبلت هي أيضاً بابن في شيخوختها وهذا الشهر هو السادس لتلك المدعوة عاقراً ، لأنه ليس أمر غير ممكن لدى الله . فقالت مريم :

ها أنا أمة الرب فليكن لي بحسب قولك)[1] . وفي سورة مريم هذا الفصل (كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً . وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً . يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً . قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً . قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً . يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً . وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً . وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً . وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً . وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً . قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ

---

(١) النص من الطبعة الكاثوليكية لسنة ١٩٥١ .

وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً . ١ ـ ٢١) . وفي سورة آل عمران هذه الآية (إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .. ٤٥) وهي متطابقة مع كلام الملاك لمريم ومن ذلك معجزات إحياء الموتى ، وشفاء العميان والبرص المذكورة في الأناجيل الأربعة ، وفي سورتي آل عمران والمائدة ، وقد ورد في السورة الأولى (وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ والتَّوراةَ وَالإِنْجِيلَ . وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. ٤٩) ومن ذلك استجابة الحواريين لدعوته المذكورة في سورة آل عمران والمائدة والصف وفي الأناجيل أيضاً . ومن ذلك عشرات الآيات الواردة في الأناجيل الأربعة التي تحكي أقوالاً عن لسان عيسى عليه السلام متطابقة إجمالاً وصراحة حيناً وضمناً حيناً مع ما حكته عن لسانه آيات عديدة في سور عديدة مكية ومدنية من كونه إنما أرسل من قبل الله ، وأنه يدعو إلى الله وحده ربه ورب الناس جميعاً ، وأن الصالح هو الله وحده ، وأن ما يفعله ويقوله هو ما أمره الله به ، وأنه لا يفعل ولا يقول شيئاً لم يأمره الله بـه . وأن الناس يجب أن يصلوا إلى الله وحده ، وأن يتجهوا إلى الله وحده ، وأن يطلبوا ما يريدون من الله وحده . برغم ما يحاول النصارى صرفها عن معانيها المتطابقة مع روح الآيات القرآنية ، وتأويلها بما يتطابق مع عقائدهم ومسلّماتهم المستقرة نتيجة لقرارات المجامع المقدسة التي أخذت تنعقد من حين لآخر منذ أواسط القرن الرابع بعد الميلاد في ظل الامبراطورية الرومانية بعد اعتناق ملوكها

للنصرانية ، والتي كانت تنعقد لبحث الاختلاف في تأويل الأناجيل وفي شخصية عيسى عليه السلام والروح القدس والأب الذي كان ينجم بين علمائهم (١) .

- ١٦ -

وفي القرآن تقريرات وأقوال عديدة عن عيسى عليه السلام وحياته ومعجزاته ليست واردة في الأناجيل المعترف بها ، ومن ذلك طلب الحواريين من عيسى أن يلتمس من الله إنزال مائدة من السماء والمحاورة التي جرت بينه وبينهم مما حكته آيات سورة المائدة هذه (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحداً مِنَ الْعَالَمِينَ .. ١١٢ - ١١٥) ومن ذلك إلجاء المخاض مريم إلى جذع النخلة وشكواها والمحاورة بينها وبين ابنها الوليد والمحاورة بينها وبين قومها مما حكته آيات سورة مريم هذه (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً . فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً . وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً .

(١) سيأتي مزيد من الشرح لهذه المسألة .

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا . يَا أُخْتَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا .. ٢٣ - ٢٩) . ومن ذلك ما حكته آيات سورة آل عمران من نذر أم مريم لما في بطنها ، وكفالة زكريا لمريم ، وما كان يجده عندها من الرزق واختصامهم على كفالتها كما ترى فيها (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٥ - ٣٧) و (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٤٤) . ومن ذلك ما ذكرته آية آل عمران ٤٩ التي أوردناها آنفاً ، والتي حكي فيها قول الله تعالى لمريم أن عيسى يكلم الناس في المهد ، وأنه يخلق من الطين كهيأة الطير فينفخ فيه ، فيكون طيراً بإذن الله ، وينبئهم بما يأكلونه وما يدخرونه .

والذي نعتقده أن ما ورد في القرآن مما لم يرد في الأناجيل المتداولة اليوم ، أو بما لم يرد فيها بصراحة قطعية قد ورد في قراطيس وأناجيل كانت متداولة في أيدي النصارى أو بعض فرقهم ، وضاعت أو أبيدت فيما ضاع أو أبيد .

فآيات القرآن كانت تتلى جهرة على الناس ، ويسمعها النصارى ، وقد آمن الذين سمعوها مباشرة من النبي ﷺ بالنبي والقرآن ، واعترفوا بأن

ما يسمعونـه حق ، كما جاء في آيات عديدة ، منها ما ذكر فيها النصارى بصراحة ، ومنها ما ذكر فيها أهل العلم وأهل الكتاب الذين كان النصارى من عدادهم ، ومنها آيات مكية ، ومنها آيات مدنية كما نرى فيما يلي :

١ – وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ .. [آل عمران : ١٩٩] .

٢ – وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ .. [المائدة ٨٢ و ٨٣ و ٨٤] .

٣ – الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . [الأنعام : ٢٠] .

٤ – أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ .. [الأنعام : ١١٤] .

٥ – الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ .. [الأعراف : ١٥٧]

٦ – والَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ .. [الرعد : ٣٦] .

٧ – قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً [1] . وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً .. [الإسراء : ١٠٧ – ١٠٩]

٨ – وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ [2] يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ [3] .. [القصص : ٥١ – ٥٥] .

---

(١) المتبادر أن هذه الجملة بسبيل حكاية تقرير أهل العلم أن الله قد وفى بوعده فأرسل محمداً الذي بشر به عيسى عليه السلام والذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل كما ذكر في آية سورة الصف « ٦ » وآية سورة الأعراف « ١٥٧ » .

(٢) الضمير عائد إلى القرآن الذي ذكر في السياق الذي قبل الآيات اقرأ آيات القصص ٤٨ – ٥٠ .

(٣) المتبادر المستلهم من هذه الجملة أن الكتابيين الذين نرجح أنهم نصارى حينما أعلنوا تصديقهم وإيمانهم بالنبي والقرآن عاتبهم كفار قريش أو وبخوهم فأجابوهم بما أجابوهم دون مبالاة بقوة الكفار وضعفهم ، وهذا يجعل القول إن هذه الآيات مكية هو الأوجه خلافاً لبعض الروايات التي تذكر أنها مدنية .

٩ - وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ[1] [العنكبوت : ٤٣] .

والأناجيل الأربعة تذكر أن عيسى عليه السلام قد صلب ومات ثم قام ، ولكن القرآن ينفي ذلك في هذه الآيات (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً . بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً[2] .. [النساء : ١٥٧ و ١٥٨].

وآخر الآية الأولى من الآيتين يفيد بقوة أن هـذا الأمر كان في زمن النبي ﷺ ممتـداً إلى قبله موضوع جدل وشك بين فرق النصـارى وأن الوهم والظن كانا من أسس ما يروى من ذلك .

وهذا الأمر من الأمور الخلافية الهامة بين القرآن والأناجيل الأربعة .

---

(١) الضمير عائد إلى الكتاب الذي أنزل الله على محمد كما هو المتبادر .

(٢) يحاول الخوري الحداد تأويل نفي القرآن لصلب عيسى وقتله بأنـه بسبيل تكـذيب ما تخيـله اليهود ، أو شبه لهم بأنهم لاشوا وجود المسيح بالمرة وليس بسبيل تكذيب صلبه وقتله فعلاً ، لأنه قام حياً بعد موته ودفنه وارتفع إلى السماء ، وجلس على يمين الله على ما جاء في العبارة الانجيلية ، ويقول : إنه بهذا يتم التوفيق بين عبارة آيات النساء وعبارة آية آل عمران (إني متوفيك ورافعك إلي ... ٥٤) والمحاولة متهافتة ، فالمفسرون مجمعون على أن النفي هو نفي للحادث من أصله ، وتقرير كون الذي وقع عليه الحادث غير المسيح الذي شبه لهم أنه هو ، وهذا الفهم الإسلامي ليس موضع أي خلاف من لدن النبي صلى الله عليه وسلم ، ونفي الصلب والقتل معاً مما يدعمه ، أما آية آل عمران فتأويلها : أن الله رفعه بعد توفيه في الدنيا ، وليس من ضرورة لأن يكون ذلك بالصلب والقتل المذكورين . وبهذا التأويل يكون توافق بين الآيتين .

ونعتقد أن ما قرره القرآن من هذا الأمر ، ومن الأمور الأخرى التي ذكرناها قبل قد ورد في القراطيس والأناجيل التي لم تصل إلينا ، وكانت متداولة في زمن النبي ﷺ .

وفي إنجيل برنابا تطابق كبير مع ما ورد في القرآن . وإذا سلمنا جدلاً أن هذا الإنجيل مزور فيبقى ما في القرآن من تقريرات قائمة تدل على أنها كانت واردة في قراطيس وأناجيل كانت متداولة في أيدي النصارى على كل حال .

والمتبادر أن النصارى رأوا أن يستقروا على الأناجيل الأربعة التي كانت أو صارت أكثر انسجاماً مع المسلمات والعقائد التي استقروا عليها نتيجة المجامع المقدسة مع تأويل مالا ينسجم معها تأويلاً فيه التوفيق مع ذلك ، ويهملوا ويبيدوا ما استطاعوا مما يصفونه بالدخيل والمنحول والمزور ، وما كان فيه مطابقة صريحة لما جاء في القرآن عن عبودية عيسى لله وكونه نبياً من أنبيائه ، وكونه إنما دعا إلى الله وحده ربه ورب جميع الناس ، وتبشيره من بعده برسول اسمه أحمد وتبليغه مما أوحى اليه الله من صفات هذا الرسول ، وتسجيله لها في الإنجيل الذي آتاه الله وعلمه إياه .

- ١٧ -

ويطبق الحوري أقواله التي أوردناها في بحث التوراة في صدد كون التوراة كلام الله ومن المستحيل أن يكون طرأ عليها تبديل وتغيير بنص القرآن الذي يقرر أن لا مبدل لكلمات الله ، وكون ما جاء في القرآن من عبارات التحريف لاتعني تبديلاً حرفياً ، ولكون استحالة التبديل شاملة للكتاب المقدس الذي منه الأسفار المتداولة اليوم ولا سيما أنها منقولة عن رقوق قديمة مكتوبة قبل بعثة النبي ﷺ بمئات السنين على الإنجيل ، ومن ثم على الأناجيل الأربعة التي يعترف بها النصارى التي هي من جملة كتابهم المقدس .

وما قلناه في صدد كل ذلك في الفقرات ٦ و ٧ و ٨ يقال بتمامه في صدد الإنجيل والأناجيل وأقوال الحوري المائل الشامل ، ويحسن بالقارىء أن يعيد قراءة هذه الفقرات .

فمن جهة أن الحوري تمحل في تأويل معنى (لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله الوارد في القرآن وهو في الوقت نفسه لايمنع أن يخطىء البشر بقصد أو بغير قصد في كتابة كلام الله حينما يكتبونه على الورق ، أو في تلاوته حينما يتلونه من ذاكرتهم ، ولا يخل هذا ببقاء كلام الله في كتبه محتفظاً بحقيقة صدقه وصحته ، ومن جهة أن إنجيل الله أو إنجيل عيسى الذي كان موجوداً إلى زمن النبي ﷺ على ما تلهمه آيات القرآن هو غير الأناجيل المتداولة التي ليست بديلة عنه ، وهو مفقود غير موجود فلم يبق طائل ، ولا معنى للتصدي لإثبات تبديل وتحريف فيه أو نفيه ، ومن جهة أن في الأناجيل المتداولة التي يعترف بها النصارى والتي هي من جملة (الكتاب المقدس) حسب اصطلاحهم المستحدث تبايناً واختلافاً وثغرات ، وفيها مالا يتطابق مع القرآن من زيادات ونقص ، وكونها طبق أصل الرقوق القديمة لايثبت إلا أنها كانت على حالتها الحاضرة منذ القديم ، ولا يمنع أنه كان هناك غيرها فيه تطابق مع القرآن ، ولا يمنع أنه كان منها نسخ متغايرة متباينة أيضاً وضاع كل ذلك ، أو أبيد فلم يبق إلا المتداول المعترف به أو الذي يقال عنه : إنه مزور مثل إنجيل برنابا .

ونقول بالإضافة إلى ماتقدم : إن من المتبادر أن هذه الآيات القرآنية .

١ – كانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ .. [البقرة : ٢١٢] .

٢ - تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .. [البقرة : ٢٥٣] .

٣ - وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً .. [النساء : ١٥٧] .

٤ - وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ .. [المائدة : ١٤ و ١٥] .

٥ - ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ .. [مريم : ٣٤ - ٣٧] .

٦ - شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ

رَبِّكَ إلى أَجلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . [الشورى : ١٣ و ١٤] .

٧ ـ وَلَمَّا جَاءَ عِيسى بِالبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ .. [الزخرف : ٦٣ ـ ٦٥] .

٨ ـ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .. [الحديد : ٢٧] .

نقول : إن هذه الآيات تعكس كما هو المتبادر ما كان في نصوص الأناجيل التي كان يتداولها النصارى في زمن النبي ﷺ ما وصل إلى عهدنا منها وما لم يصل ـ باستثناء إنجيل عيسى عليه السلام ـ من تباين وتناقض واختلاف وتشويه ، وما كان نتيجة لذلك بينهم من اختلاف في التأويل ، وشكوك وظنون وتعدد مذاهب وتنازع يصل إلى حد الاقتتال ، وما كان من تلاعب فيها حيث يخفون ما يريدون إخفاءه ، ويظهرون مايريدون إظهاره ، ولا يمكن أن تكون هذه الآيات إلا صورة صادقة عيانية لما كان عليه أمر الأناجيل والأسفار والقراطيس التي كان يتداولها النصارى .

ولقد سمع النصارى الذين كانوا في بيئة النبي ﷺ وبعض من جاء من الخارج من وفودهم القرآن ، والتقوا بالنبي ﷺ ، وآمنوا وصدقوا بالقرآن والرسالة المحمدية ، واعترفوا أن ما يسمعونه هو الحق المتطابق لما عرفوه ، وأن رسالة الرسول محمد ﷺ هي تحقيق لما وعد الله على ماحكته الآيات

العديدة التي أوردناها في الفقرة (١٥) ، فسقطت كل حجة يتبجح الخوري وأمثاله ، وكل تمحل يتمحلونه عناداً ومكابرة وغباء .

ولقد شمل كلام الخوري الذي أوردناه في بحث التوراة من أن كتاب أسفار العهد القديم هم كتاب وحي لكتاب الأناجيل المتداولة وملحقاتها الأخرى في العهد الجديد ، ولقد علقنا على هذه الدعوى المتهافتة في بحث التوراة فنكتفي بهذه الإشارة دون الإعادة .

ونقول هنا ما قلناه في بحث (التوراة) وهو أن كل ما تقدم في هذا البحث يجعل تشميل تعبير (الكتاب المقدس) لجميع ما احتوت الأناجيل الأربعة المتداولة اليوم في صورتها الموصوفة غير أمين ، وفيه تجوز كبير ، ويجعل محاولة الخوري نفي التحريف والتشويه والإبادة والضياع متهافتة ، ولا ينقض هذا ما قلناه في سياق الكلام وهو احتمال صحة نسبة بعض ما احتوته الأناجيل إلى الله تعالى ورسوله عيسى عليه السلام ، فإن هذا لا يسوغ تشميل ذلك التعبير لجميع ما فيها .

- ١٨ -

ولقد قرأنا في ملحق لجريدة النهار البيروتية المؤرخ في ١٩٦٥/١/١ بحثاً بتوقيع الأب يوسف دره ينطوي على زعم طريف ومضحك ، وقرأنا تفصيلاً أوسع لهذا الزعم في الكتاب رقم (٢) من كتب الحداد [1] (الكتاب القرآن) وخاص بالأناجيل ، وفاقع الطرافة والغرابة جداً ، وفيه من المفارقة أشد مما في اقتباس اصطلاح (كتاب الوحي) وإطلاقه على كتاب الأناجيل ، فقد أورد الحداد بعض الأحاديث المروية عن النبي

---

(١) اسم الخوري الحداد هو الأب يوسف ، ولا ندري هل هو نفسه صاحب مقال ملحق النهار ، ونحن نرجح ذلك لأن ما جاء في كتاب الخوري الحداد تفصيل لما جاء في الملحق .

ﷺ التي فيها خبر نزول القرآن على سبعة أحرف ، وأورد بعض أقوال المفسرين وعلماء القرآن التي لايستند كثير منها بل أكثرها إلى إسناد وثيقة متصلة بالنبي أو علماء أصحابه وتابعيهم ، ولا تعدو أن تكون من باب الاجتهاد والتخمين الشخصي ، والتي من جملتها أن المسلمين اختلفوا في كتابة المصحف في زمن عثمان ، ثم اتفقوا على كتابته على حرف واحد وإسقاط أو إهمال ماعداه ، فتمسك الحوري بهذا القول على غموضه ، وترك الأقوال الموضحة له ، ثم حمّله مالم يحمله وقال فض فوه : إنهم بذلك أضاعوا علينا معرفة ماكان في الحروف الستة الأخرى من مباينات ومناقضات واختلافات بالنسبة إلى الحرف الذي أثبتوه ، واقتصروا عليه في حين أن الأنجيل نزل على أربعة أحرف تمثلت في أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، ولم يكن فيها مايخشاه النصارى من تناقض وتباين فاحتفظوا بها كما نزلت كشهادات متعددة على صحة الإنجيل ، ووحدة جوهره ، واتفاق معانيه مع اختلاف ألفاظه ، والشرع العالمي الديني والمدني لاتقوم صحته على شهادة واحدة ، وهكذا يكون لصحة الانجيل أربع شهادات بينما ليس للقرآن إلا شهادة واحدة[1] .

وهكذا تجر المفارقة في القياس إلى الزعم صراحة أو ضمناً إلى القول : إنه كان للقرآن سبع نسخ مختلفة في العبارات والترتيب والتبويب والألفاظ والسور والسياق والأحكام والمشاهد مثل الأناجيل الأربعة ، وينسى الهوى القائلين أن هذه الأناجيل ليست إلا ترجمة لحياة عيسى عليه السلام كتبها أناس بعده سماعاً ورواية ، وليس فيها ما يدل على أن فيها شيئاً من إملائه مثل القرآن الذي هو من إملاء النبي محمد ﷺ مباشرة ، وأنها ليست أربعة بل أضعاف أضعاف هذا العدد ، وأن هناك من الدلائل ما يدل على كونها

(١) العبارة الأخيرة جاءت في ملحق النهار .

أكثر من أربعة بصورة قاطعة وما يدل على أنها لم ترو كل ما ألقاه عيسى عليه السلام وبلغه ، ولا كل ما كان من مشاهد حياته ومعجزاته فضلاً عما فيها من الثغرات العديدة على مانبهنا عليه قبل بحيث يكون في ذلك الزعم سخرية بالعقول والحقائق وجرأة غبية على الحق والمنطق .

وهذا فضلاً عن أنه لم يقل أحد من المسلمين أن معنى نزول القرآن على سبعة أحرف هو اختلاف وتعدد في النصوص . والذي أجمع عليه أئمتهم أن ذلك كان لتيسير قراءة القرآن بأداء وهجاء وإملاء مختلف عن بعضه بعض الشيء حسب اختلاف قدرة الناس وقابلياتهم وبسبب اختلاف اللهجات والأداء عندهم ، وأن كبار أصحاب رسول الله رأوا أن يكتبوه بهجاء لغة قريش ولهجتها وإملائها ، لأنها اللغة التي نزل بها القرآن .

وإذا كان بعض العلماء أولوا معنى الأحرف السبعة باختلاف في الألفاظ مع اتفاق في المعاني ، فليس في أي مما روى عنهم أن هذا كان يعني أنه كان للقرآن أو ألفاظ القرآن نصوصاً عديدة ، وإنما الذي يعنيه أنه كان ترخيصاً بإبدال كلمة بكلمة في معناها على أن لا يكون فيها مضادة ولا مغايرة .

ونصوص الآحاديث المروية في صدد نزول القرآن على أحرف سبعة وروحها تؤيد كون القصد من ذلك هو تيسير قراءة القرآن حسب استطاعة القارىء ، وكل ما فيها هو ترخيص بتلاوة كلمة بدل كلمة بمعناها دون أضدادها وهذا ما استند إليه قول من قال بجواز اختلاف الألفاظ أو تأويل الأحاديث بذلك على ما ذكرناه آنفاً . وهذه هي الأحاديث المروية عن النبي ﷺ :

١ — روى الشيخان عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف » .

٢ — روى مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي بن كعب قال : أتى

جبريل النبي ﷺ ، فقال : «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لاتطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لاتطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعه : فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيّما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا » وفي رواية الترمذي ولفظه « ياجبريل إني بعثت إلى أميين ، منهم العجوز ، والشيخ الكبير ، والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط . قال : يامحمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف » .

٣ – روى الأربعة عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله أقرأنيها ، فكدت أن أعجل عليه ثم أمهلته حتى انصرف ، ثم لببته بردائه ، فجئت به رسول الله فقلت : يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها فقال : « أرسله . اقرأ يا هشام ، فقرأ القراءة التي سمعتها فقال رسول الله : هكذا أنزلت ، ثم قال لي : اقرأ فقرأت ، فقال : هكذا أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه » .

٤ – روى مسلم عن أبي بن كعب قال : كنت في المسجد فدخل رجل يصلي ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل رجل آخر ، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضيا الصلاة ، دخلنا جميعاً على النبي ﷺ فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل هذا فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما رسول الله ، فقرأ ، فحسّن النبي شأنهما ، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية ، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري ، ففضت عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرقاً ، فقال لي : « يا أبي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه أن هوّن على

أمتي ، فرد إليّ الثانية اقرأه على حرفين ، فرددت إليه أن هوّن على أمتي ، فرد إليّ الثالثة : اقرأه على سبعة أحرف ، فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها ، فقلت : اللهم اغفر لأمتي ، اللهم اغفر لأمتي ، وأخرت الثانية ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم » .

والخوري الحداد يهول في مدى الحديثين المرويين عن عمر وأبيّ في القرآت المخالفة لقرأتها التي سمعاها وفي جواب النبي ﷺ لهما ، ويستخرج من ذلك أن القرآآت كانت مختلفة اختلافاً كبيراً في النصوص أيضاً مع أن نصوص الحديثين وروحهما تلهمان بكل قوة أن الاختلاف إنما كان في الأداء واللهجة .

وهناك أحاديث من هذا الباب أقل رتبة ، وفيها بعض زيادات ، ولكن ليس فيها كذلك المعنى الذي يتخيله الخوري وأمثاله .

منها حديث رواه الإمام أحمد عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، على أي حرف قرأتم أصبتم فلا تماروا ، فإن المراء فيه كفر » وحديث رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبي طلحة قال : قرأ رجل عند عمر فغير عليه فقال : قرأت على رسول الله فلم يغير عليّ ، قال : فاجتمعا عند رسول الله ، فقرأ أحدهما على النبي فقال له : « أحسنت » قال : فكأن عمر قد وجد في نفسه من ذلك ، فقال له النبي : « إن القرآن كله صواب ما لم تجعل مغفرة عذاباً أو عذاباً مغفرة » وحديث رواه أبو يعلى عن المنهال قال : بلغنا أن عثمان قال يوماً وهو على المنبر : اذكر الله رجلاً سمع النبي قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، كلها شاف كاف » إلا قام ، فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا أن رسول الله قال ذلك ، فقال عثمان : وأنا أشهد معهم . وحديث رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، المراء في القرآن كفر ـ ثلاث مرات ـ فما

علمتم فافعلوا به وما جهلتم فردوه إلى عالمه » وفي رواية « أنزل القرآن على سبعة أحرف . عليماً حكيماً . غفوراً رحيماً » وحديث رواه أيضاً الإمام أحمد عن أبي بكرة ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ قال : « أتاني جبريل وميكائيل عليهما السلام فقال جبريل : اقرأ القرآن على حرف واحد ، فقال ميكائيل : استزده ، قال : اقرأ القرآن على سبعة أحرف ، كلها شاف كاف مالم تختم آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب برحمة » وزاد في رواية أخرى « كقولك : هلم وتعال » أي : كاستعمال لفظ : « هلم » بدلاً من لفظ « تعال » واللفظان في معنى واحد . وواضح أن كل ما يرخص به الحديثان هو إبدال كلمة بكلمة من بابها ومعناها وحسب ، وهما مع ذلك ليسا من الأحاديث الصحيحة .

وهناك أحاديث أخرى من باب هذه الأحاديث ومداها لم نر ضرورة لإثباتها ، لأن المقصود يحصل بما أوردناه .

ولقد روى ابن كثير عن ابن جرير الطبري قولاً جاء فيه : « إن الشارع رخص للأمة التلاوة على سبعة أحرف ، ثم لما رأى الإمام عثمان بن عفان اختلاف الناس في القراءة ، وخاف من تفرق كلمتهم جمعهم على حرف واحد وهو هذا المصحف الإمام ، وقد استوسقت له الأمة على ذلك بل أطاعت ، ورأت أن فيما فعله الرشد والهداية ، وتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعة منها له ونظراً منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر أهل ملتها حتى درست من الأمة معرفتها وانعفت آثارها ، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة فيها لدثورها وعفو آثارها إلى أن قال : فإن قال من ضعفت معرفته : وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله وأمرهم بقراءتها ؟ قيل : إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض ، وإنما كان أمر إباحة ورخصة ، لأن القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من تقوم بنقله الحجة ، ويقطع خبره العذر ، ويزيل

الشك من قراءة الأمة ، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين — إلى أن قال — فأما ما كان من اختلاف القراءة رفع حرف ونصبه وجوه ، وتسكين حرف وتحريكه ، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة ، فمن معنى قول النبي ﷺ « أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » بمعزل لأن المراء في مثل هذا ليس بكفر في قول أحد من علماء الأمة ، ولقد أوجب بالمراء في الأحرف السبعة الكفر كما تقدم » .

والخوري يستند في تقريراته بأن الأحرف السبعة هي نصوص متعددة ، وأن عثمان رضي الله عنه أسقط ستة منها ، وجمع الأمة على واحد منها فقط ، فضاعت على الناس معرفة ما بينها من تباين وتغاير على أقوال الطبري هذه ، ولكنه لاينقلها بتمامها . ومع أن روح الأحاديث ونصوصها تظل أقوى دلالة على أن المقصود بقراءة القرآن على سبعة أحرف هو تيسير القراءة على مختلف فئات الناس ، فإن كل ما أراد الطبري تقريره في ما قاله هو أنه كان اختلافاً في القراءة وليس تعدداً في النصوص فأريد جمع الناس على قراءة واحدة . ولا يمكن أن يكون قصد غيرها ، لأن هذا هو الذي يستفاد بصراحة من الاحاديث التي تروي ظروف كتابة مصحف عثمان والتي هي من الصحاح ، والتي لا بد من أن الطبري يعرفها . وقد ذكرت أن سبب كتابة مصحف عثمان هو اختلاف القراءة نتيجة للاختلاف في طريقة الكتابة ، وأنه أمر بكتابة المصحف بطريقة كتابة لغة قريش ، وأن مصحفه هو منقول في ألفاظه وآياته وترتيبه عن مصحف أبي بكر الذي كان على الترتيب الذي رتبه النبي ﷺ ، وأنه أبقاه على ترتيبه دون أي تغيير ، وهذه نصوص الاحاديث في ذلك .

١ — روى البخاري والترمذي عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ،

فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك[1] . فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان الرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وزاد الترمذي في روايته حيث جاء فيها « فاختلفوا في التابوت والتابوة فقال القريشيون بالاول وقال زيد بالثاني فرفعوا اختلافهم إلى عثمان فقال : اكتبوه بالتابوت فإنه نزل بلسان قريش »[2] وهذه الزيادة تدل بكل صراحة وقوة على أن الاختلاف إنما كان اختلافاً على طريقة الكتابة ، وليس على الألفاظ والنصوص فضلاً عن الترتيب .

٢ — روى البخاري عن عبد الله بن الزبير قال : قلت لعثمان (والّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَتَاعاً إلى الحَوْلِ غير إِخْرَاجٍ) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها قال : يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه عن مكانه[3] .

---

(١) في الحديث الصحيح المروي عن ظروف كتابة مصحف أبي بكر جاء هذا الخبر (فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر) انظر التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول ج ٤ ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ذكره ص ٢٩ و ٣٠ و ٣١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٦ .

والمقصود من الآية الأخرى هذه الآية من سورة البقرة أيضاً (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً) . وهـذه الآية في ترتيب السورة قبل الآية السابقة ، والحديث يفيد أن عثمان لم يجوّز أن لا يكتب في المصحف آية منسوخة[1] والتزم المصحف المرتب في زمن النبي ﷺ ، ولم يغير من ترتيبه شيئاً ، فلا يصح أن يظن ظان أن عثمان والحالة هـذه يمكن أن يكون أجاز إسقاط نصوص وألفاظ وإثبات نصوص وألفاظ .

٣ — روى الترمذي عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين ففرقتم بينهما ولم تكتبوا بينهما بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال[2] . ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد[3] فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله ، ولم يبين لنا أنها منها ، فلذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم فوضعتها في السبع الطوال . والحديث يفيد

---

(١) روى أبو داود عن ابن عباس (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج) قد نسخ بآية الميراث ، وأجل الحول بأربعة أشهر وعشراً . المصدر السابق ص ٥٦ .

(٢) المثاني اصطلاح يطلق على السور المتوسطة التي تقل آياتها عن المئة ، والمئين على السور المتوسطة التي آياتها مئة أو أكثر قليلاً ، والطوال على السور التي تزيد آياتها كثيراً عن المئة .

(٣) المقصود بذوات العدد التي تكون آياتها كثيرة جداً .

أن سورة الأنفال كانت توضع في زمن النبي ، وتقرأ في ترتيب المصحف قبل سورة براءة مباشرة ، وأن عثمان التزم ترتيب النبي ﷺ في السور كما التزمه في الآيات .

وهكذا يكون وعد الله المعجز المنطوي في آية سورة الحجر هذه (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) قد تحقق ، فمصحف عثمان الذي يتداوله المسلمون من لدن عثمان هو طبق مصحف أبي بكر ، وهذا المصحف قد جمع كل ما تركه النبي قرآناً غير منسوخ وغير مرفوع ، وهو مرتب وفق ترتيب النبي ﷺ آيات في سور ، وسور في ترتيب المصحف .

والروايات تذكر أن عثمان أرسل نسخاً من المصحف المنسوخ بالإملاء القرشي إلى الأقطار ، وأمر بالنسخ عنه وإحراق ما في أيدي الناس من مصاحف ، وفعل هذا بطبيعة الحال في المدينة أيضاً فتم ذلك ، ولو كان في أيدي المسلمين في المدينة ، وفي الأقطار الواسعة التي انتشروا فيها في عهده من مشارق الأرض ومغاربها مصاحف مباينة في الآيات والترتيب والكلمات لمصحف عثمان لظهرت ، في حين أنه لم يظهر مصحف ما مباين ، ولم يرو أنه كان في العهود التي بعده شيء من ذلك قط وعمال عثمان لا يمكن أن يكونوا قد مشطوا كل بيت في كل بادية وقرية ومدينة فأحرقوا ما كان فيه من مصاحف ، وما دام أنه لم يظهر مصاحف مباينة فيكون المسلمون قد أطاعوا أمر الخليفة طوعاً وديناً . ولا يمكن أن يكون هذا إلا إذا لم يكن بين مصحفه والمصاحف المتداولة مباينات في غير الإملاء والكتابة ، ولا سيما أن فريقاً غير يسير من أهل الأمصار بل ومن المدينة قد نقموا على عثمان ، وثاروا عليه وقتلوه ، وصارت بسبب ذلك حروب دموية بين علي وطلحة والزبير وعائشة ومعاوية رضي الله عنهم ، وامتدت آثارها إلى ما بعدهم ، فكان يقتضي أن يحتفظ المخالفون الناقمون على عثمان بمصاحفهم المباينة تديناً وإيماناً ..

وهذا يظهر تفاهة قول الخوري : إن عثمان لو لم يحرق المصاحف لكنا

وقفنا على كثير من المباينات في الآيات والألفاظ والترتيب . وإذا كان من شيء يحسن التنبيه إليه بالاضافة إلى ما تقدم ، فهو أن المتبادر أن ما جاء في بعض الأحاديث والأقوال السابقة من تسويغ إبدال كلمة بكلمة غير مضادة ومناقضة لها ، أو تقديم كلمة على كلمة بدون إخلال بالمعنى إنما هو بالنسبة لمن يتلو القرآن من ذاكرته ، وليس لمن يتلوه من المصحف ، فمصحف أبي بكر هو نفس ما تركه النبي ﷺ قرآناً بألفاظه ، وفي نفس ترتيبه للآيات والسور . ومصحف عثمان إنما كان نسخة عنه بطريقة كتابة قريش وصار هو الإمام الوحيد لجميع المصاحف ، فلم يبق محل للقول بسواغ تبديل كلمة بكلمة ، أو تقديم أو تأخير في التلاوة فيها ، ولم يبق محل للقول بسواغ الاختلاف في التلاوة الا في حدود القرآات السبع أو العشر التي هي أساليب قراءة مختلفة شيئاً ما بعضها عن بعض في الأداء وفي قراءة كتابة مصحف عثمان غير المنقط في أصله ، وعلى النحو الذي كتب في زمنه . وليست خلافات في الألفاظ فضلاً عن الآيات .[1]

ولقد أشار الخوري إلى ما في القرآن من آيات فيها ما يفيد وقوع نسخ وتبديل في القرآن ، وتساءل عما إذا كان هذا لا يتناقض مع نص آية الحجر والوعد القرآني بحفظ القرآن . وهذا تمحل متهافت ، ففي القرآن حقاً آيات قد تفيد ذلك مثل آية سورة البقرة هذه (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) وآيات سورة النحل هذه (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) . غير أن هذا ليس من شأنه أن يخل بذلك ، فالمقصود الرباني في آية سورة

---

(١) شرحنا ذلك في كتابنا « القرآن المجيد » اقرأ ص ١٢٦ — ١٠٠ .

الحجر ـ والله أعلم ـ هو حفظ القرآن المستقر غير المرفوع والمبدل بأمر الله ، وهو الذي تحقق .

وهناك رواية تذكر أن الحجاج كتب مصحفاً ، فضخم الحوري هذه الرواية ، وسماه (الإصدار الثالث للقرآن) ليوهم أن الحجاج غير وبدل في مصحف عثمان مع أن كل ما تفيده الرواية أن الحجاج أمر أو وافق على وضع نقاط للحروف وتصحيح كتابة بعض الألفاظ دون أي تبديل وتغيير في مصحف عثمان . ومع ذلك فالرواية غير وثيقة ، وقد كذبها جمهرة علماء القرآن وفندوها .[1] ويمكن أن يضاف الى ذلك أنه كان ناقمون ومحاربون كثيرون منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها للحجاج والدولة الأمويه ، ولا يمكن قطعاً أن يكون الحجاج وعمال دولة الامويين قد تتبعوا كل ما في أيدي المسلمين بما فيهم هؤلاء الناقمون المحاربون من مصاحف وأبادوها ، وحملوهم على مصحف الحجاج ، وليس هناك أي مصحف يخالف مصحف عثمان المتداول في ترتيبه وآياته وسوره .

ولقد قامت بعد دولة الامويين الشامية الدولتان العباسية والفاطمية ، وشمل سلطانها القسم الأعظم مما كان تحت حكم الامويين في المشـــرق والمغرب ، وكانت كلتاهما ناقمتين حاقدتين على الدولة الاموية والحجاج ومجتهدتين في تشويه سيرتهما وهـدم ما أسساه ، وكان من أهم ما يقتضي أن يفعلوه كشف ما زعم أن الحجـــاج فعله ، وإعادة الأمر الى نصابه ، ولم ترو الروايات شيئاً ما في هـذا الصدد ، وفي هذا تكذيب حاسم لذلك الزعم . والحوري يجعل كتاب « الإتقان » من مصادره الرئيسية في مسألة الأحرف السبعة ، وفي هذا الكتاب طائفة كبيرة من أقوال العلماء وتعليقاتهم في صدد ومدى أحاديث الأحرف السبعـة ، وبقطع النظر عن كون هـذه

---

(١) انظر كتابنا «القرآن المجيد» وكتاب « البرهان في علوم القرآن » للزركشي .

الأقوال والتعليقات لا تعـدو عن أن تكون اجتهادات شخصيـة ، فإن الخوري يبرز ويرجح منها مايكون متفقاً مع هواه ، وما قـد يفيد أن الاختلاف كان في الألفاظ والنصوص ، ويهمل منهـا ما هو متسق أكثر مع الأحاديث والمنطق ، ولقد قال : إن أكثر العلماء على أن الأحرف السبعة تعني اختلاف الألفاظ مع اتفاق المعاني ، وهـذا غـير صحيح . وكتاب « الإتقان » في متناول الجميـع ، وأكثر الأقوال الواردة فيه هي في توكيد معنى كون القصد من الأحرف السبعة هو التيسير بسبب اختلاف طرائق القراءة والكتابة .

وهذه طائفـة من أقوالهـم حيث جاء في أحدها : (إنـه ليس المراد بالسبعة حقيقـة العـدد ، بل التيسير والتسهيـل والسعة ، ولفظ السبعة يطلق على ارادة الكثرة في الآحاد كما يطلق لفظ السبعين على ارادة الكثرة في العشرات والسبعمأة على ارادة الكثرة في المئات) وهو ماقصده القرآن بهذه الألفاظ على ما تلهمه روح الآيات التي وردت فيها[1] ومن ذلك قول أحد العلماء (إن المراد وجوه قرآت الكلمة التي تحتمل كتابتها قرآات عديدة مثل كلمة « عبد الطاغوت » التي يمكن أن تقرأ ، أو يجوز أن تقرأ : «عبيدالطاغوت» ، أو «عبدة الطاغوت» . ومثل كلمة «كتب» التي يمكن أن تقرأ أو يجوز أن تقرأ : « كتاب» أو « كتب» . ومثل كلمة «علم» التي يمكن أن تقرأ أو يجوز أن تقرأ « عالم » . ومثل كلمة « بعد » التي يمكن أن تقرأ أو يجوز أن تقرأ « باعد » أو « بعّد » . ومثل كلمة « يعلمون » التي يمكن أن تقرأ عند فقدان القرنية بالياء أو التـاء في أولها . ومثل كلمة « يستيئس »

---

(١) من ذلك (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) و (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) . فالمتبادر أن المراد هو الكثرة . والله تعالى أعلم .

التي يمكن أن تقرأ أو يجوز أن تقرأ « يتبين » وأمثال ذلك ، لأن حروف المد لم تكن تكتب كلها مع الكلمات كما أن الحروف لم تكن تنقط .
ومن ذلك إجازة بعض العلماء تقديم وتأخير في الجملة مثل (وجاءت سكرة الموت بالحق) حيث يجيزون قراءتها « وجاءت سكرة الحق بالموت » ومثل (إن الله لايهدي من هو كاذب كفار) حيث يجيزون قراءتها « إن الله لايهدي من هو كافر كذاب » ومثل (يطبع الله على قلب كل متكبر جبار) حيث يجيزون قراءتها : « يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » ومن ذلك قول أحد العلماء : (إن الرخصة وقعت في الزمن الأول ، لأن أكثر الناس لم يكونوا يكتبون ويقرؤون ، ولم يكونوا يعرفون رسم الحروف ومخارجها) . ومن ذلك قول أحد العلماء (مايقع من اختلاف قراءة الإفراد والتثنية والتذكير والتأنيث وتصريف الأفعال من ماض ومضارع ومخاطب وغائب واختلاف الإعراب باختلاف المواقع هو الذي فيه الرخصة) ومن ذلك قول أحد العلماء (إن المقصود من الرخصة أداء الكلمة الصوتي من إمالة وترقيق وتفخيم وادغام وإظهار وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف وتليين دون تغيير في المعنى والصورة واللفظ) ومن ذلك قول أحد العلماء (إن المقصود هو الترخيص بقراءة الكلمة على وجهين أو ثلاثة أو سبعة تيسيراً وتهويناً) ومن ذلك قول أحد العلماء (إن المسلمين قد أجمعوا على تحريم إبدال آية بآية) ومن ذلك قول أحد العلماء (إن جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين قالوا : إن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة وأنها جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل متضمنة لها لم تترك منها حرفاً .) ومن ذلك

قول أحد العلماء (إن أصحاب رسول الله ﷺ لما رأوا أن الناس يختلفون في قراءة الكلمات أجمعوا على كتابتها على ما جاء في المصحف العثماني ، وعلى ماتحققوا أنه القرآن المستقر في العرضة الأخيرة ، وتركوا سوى ذلك ، وأن ما يقرأه المسلمون فيه هو الذي كان يقرأ في العام الذي قبض فيه النبي ﷺ ، وإن زيد بن ثابت الذي كتب مصحف أبي بكر كان كاتب وحي رسول الله ، وأنه شهد العرضة الأخيرة ، وكتبها لرسول الله ، وقرأها عليه ، وكان يقرىء الناس بها حتى مات ، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في تدوينه وجمعه ، وولاه عثمان كتابة المصاحف التي كانت طبقاً لمصحف أبي بكر وترتيبه) وقد ثبت بالحديثين المرويين عن عبد الله بن زبير وابن عباس عن عثمان رضي الله عنهم جميعاً أن ترتيب مصحف أبي بكر الذي نقلت عنه المصاحف التي نسخت بأمر عثمان كان ترتيب النبي ﷺ .

ونحن نعرف أن هناك روايات كثيرة تذكر أن آيات وسوراً كانت تتلى ولم تكتب في مصحف عثمان ، وأنه كان لبعض أصحاب رسول الله مصاحف مغايرة في ترتيب سورها لترتيب هذا المصحف ، وأنه كان لبعض أصحاب رسول الله مصاحف خلت من المعوذتين والفاتحة ، ومصاحف فيها سورتان اسم إحداهما الحفد وثانيتها الخلع ، ومصاحف فيها كلمات مباينة في مبناها دون معناها لما في هذا المصحف ، وأن النبي توفي ولم تكن الآيات مرتبة في السور والسور مرتبة في المصحف ، وأن كل هذا قد تم بعده في زمن أبي بكر ثم عثمان ، وإن آيات لم تكن موجودة زيدت وآيات كانت موجودة رفعت لأغراض سياسية .

ولقد اهتم الحوري لإبراز ذلك والارتكاز عليه وعلى الأقوال المرجوحة الأخرى ليدعم رأيه وهواه في حين أن كل تلك الروايات لم ترد في

كتب الأحاديث المعتبرة ، بل ولا الأقل رتبة من هذه الكتب ، وهناك أحاديث عديدة وثيقة الاسناد وواردة في الكتب المعتبرة تنفيها وتثبت أن القرآن كان يكتب فور نزوله ، وأن آياته رتبت في سورها وسوره في المصحف حسب المتداول في زمن النبي ﷺ وإرشاده ووحي ربه ، وان أبا بكر وكبار أصحاب رسول الله إنما حرروا النسخة تامة بعد انقطاع الوحي بوفاة النبي ﷺ احتوت كل ما تركه النبي قرآناً مستقراً غير منسوخ وغير مرفوع نقلاً عن القراطيس المكتوبة المرتبة في زمن النبي والمحفوظة في الصدور بنفس الترتيب النبوي لتكون إماماً يرجع إليه ، وأن مصحف عثمان قد كان مطابقاً لمصحف أبي بكر في ألفاظه وترتيب آياته وسوره ، وكل ما كان هو توحيد رسم الكلمات وإملائها وتهجيتها حتى يكون للمسلمين مصحف موحد ينقلون عنه . وقد أوردنا بعض الأحاديث الوثيقة ، وهناك أحاديث أخرى ، وهناك بالإضافة إليها دلالات قرآنية تؤيد ذلك تأييداً قويا ، وقد أوردنا كل ذلك في كتابنا القرآن المجيد[1] ولا يمنعنا من نقله إلا خشية التطويل .

ومن العجيب أن الخوري الحداد ينقل عن كتابنا ما أوردناه من الروايات المرجوحة دون الراجحة الوثيقة ، ولا يورد تعليقاتنا التي فندنا بها الروايات المرجوحة ، وانتهينا بها إلى الحقائق ، لأن ذلك لايوافق هواه الذي يبرزه ، ويركز عليه مهما كان متهافتاً وزائفاً

ومن العجيب مرة أخرى أن الخوري يسوق في كتبه كثيراً مما ورد

---

(١) ص ٥٢ — ١١٨ و ٢٦٥ — ٢٧٥ .

في كتابنا المذكور وفي كتابينا عصر النبي وسيرة الرسول ﷺ بسبيل تدعيم بعض تمحلاته ، ويبدو أنه يعول عليها كثيراً وإن كان يحرف أقوالنا عن مقاصدها على ما سوف نشرحه بعد . ويصفنا بأننا من أنفذ مفسري العصر الحديث للقرآن [1] . ولقد قرأ ولا شك ما أوردناه من براهين ودلائل وتعليقات وتوجيهات في صدد ما نحن فيه ، فيها على ما نعتقد المقنع لكل من يريد القناعة ، فكان عليه لو أراد الحق والحقيقة أن يقف عنده ، ولكنه لم يفعل ، لأنه لا يريد حقاً ولا حقيقة ، وإنما يريد الباطل والتمحل بسبيله . (قُلْ جَاءَ الحَقُّ وما يُبْدِئُ البَاطِلُ وما يُعيدُ) (وقُلْ جاءَ الحَقُّ وزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كانَ زَهُوقاً) صدق الله العظيم .

(١) نحن لا نذكر وصفه للاعتزاز ولكن لإلزامه وإفحامه .

الفصل الثاني

تمهيد

لا نريد أن نتعقب الحوري الحداد في كل ما أورده في كتبه ، فهذا أمر يطول ويمل من جهة ، ولا جدوى منه إزاء الحوري وأمثاله الذين يتخذون الجدل والمماحكة واللعب بالألفاظ والمكابرة التي يغذيها الهوى ديدناً بل مهنة ، وإنما نريد أن نقف عندما تصدى له من مسائل رئيسية متصلة بالقرآن الكريم والنبي ﷺ ، والرسالة الإسلامية وصلتهـا بأهل الكتاب وكتبهم متوهماً أو على الأصح موهماً قراءه أنه يستند فيما يسوقه إلى القرآن ، لنكشف عما وقع فيه من أخطاء وتخرصات وأوهام وافتراآت وغثاثة ووقاحة وسوء أدب في هذه المسائل .

فأولاً (كتابية القرآن والدعوة الإسلامية في العهد المكي)

– ١ –

لقد بدأ الحوري يتصدى لهذا الأمر في كتابه الأول ، وأورد فيه كثيراً من الآيات القرآنية للتدليل على ما أراد قوله ، ثم كرر ذلك في مناسبات عديدة وأساليب مختلفة في كتبه الأخرى .

ومحصل ما أراد قوله : إن الدعوة المحمدية كانت في العهد المكي كتابية إنجيلية توراتية مسيحية يهودية ، وإن القرآن نسخة عربية من الكتب السماوية السابقة المنزلة على الأنبياء السابقين ومقتبس منها ، وإنه كتابي توراتي انجيلي يهودي نصراني في موضوعه ومصادره وقصصه وجدله وإن

محمداً كان متأثراً الى أبعد الحدود باليهود والنصارى واليهودية والنصرانية والتوراة والانجيل والكتاب المقدس منسجما مع كل ذلك أشد انسجام حتى كأنه واحد منهم مع غلبة المسحة المسيحية . وان دعوته كانت قاصرة على مشركي العرب ، ولم تحمل طابع استقلال ذاتي عن الطابع التوراتي الإنجيلي إلا في آخر العهد المكي ، وكانت كل قوته واستشهاداته وجداله بالتوراة والإنجيل واليهود والنصارى ، وكان البروز في الدور الأول من هذا العهد الذي تمثله سور القرآن الأولى إلى الرابعة والأربعين التي هي سورة مريم للمسيحية ، ثم صار في الدور الثاني الذي تمثله سور القرآن من الخامسة والأربعين إلى السادسة والستين لبني إسرائيل ، ثم كان عهد الترددوالاستطلاع إلى الاستقلال عن أهل الكتاب في آخر العهد ، لأن يهود الطائف ردوه رداً غير جميل إلى أن استقر في المدينة ، فوجد طريقه المستقلة في التنزيل والدين ، وانقلب انقلاباً شاملاً كاملاً ، انقلاباً في الدعوة ، فقد دخلت السياسة الدين ، وانقلاباً في الداعية الذي أصبح رجل دولة وحرب ، وانقلاباً في طريقة الدعوة لقتال المشركين إلى أن يؤمنوا والكتابيين حتى يخضعوا للجزية ، وانقلاباً في الأسلوب حيث كان بالحكمة والموعظة الحسنة فصار بالقتال والجهاد . ولقد جمع الدين الكتابيين ومحمداً في مكة ففرقتهم السياسة في المدينة .

ويسوق الحوري على كل ما يزعمه آيات من القرآن ، ولكنه يؤولها تأويلاً متفقاً مع هواه مهما كان في تأويله تعسف وزيف وتمحل وتهافت وتناقض . ويأخذ آية ليدل بها على عهد ، ويجعل ما فيها دلالة شاملة لجميع السورة ، ويهمل آيات مكية فيها ما يظهر تعسفه وزيفه وتمحله وتناقضه وتهافته بغباء الشخص الذي يظن أن القرآن في يده وحده وهو مالك زمامه وتأويله فإذا ما ساق آية أو أولها كان في ذلك فصل الخطاب ، ولم يعد لغيرها ولغيره محل . وحينما يفحمه النص القرآني ولا يستطيع أن يتصرف

به بمثل ذلك يسارع إلى الزعم الوقح بأنه مدسوس أو مزيد أو مقحم، متوهماً أو على الأصح موهماً قراءه أنه يستنــــد في ما يسوقه ويقرره إلى القرآن .

- ٢ -

والحق المستلهم من القرآن المكي المدعم بالقرآن المدني ولا يتحمل أي مراء ولا مكابرة أن الله تعالى كان يرسل رسله إلى الأمم ، وينزل عليهم كتبه ليبينوا لهم طريق الحق والهدى والرشاد في شؤون الدين والدنيا فإذا ما انحرفوا عنها نتيجة اختلاف أصحاب النفوذ الديني والسياسي فيهم ومآربهم وبغيهم أرسل رسلًا آخرين لينذروا ويبشروا ويصححوا الانحراف ويدعوا إلى طريق الحق والرشاد .

ولقد كان موسى وعيسى عليهما السلام النبيين الرسولين الرئيسيين لليهود والنصارى من جملة هؤلاء الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله وأنزل عليهم كتبـه ، فانحرف أتباعهم بعدهم ، واختلفوا ، فاقتضت حكمـة الله وسنته إرسال سيدنا محمد ﷺ رسولاً جديداً على فترة من الرسل وأنزل عليـه كتاباً جديداً هو القرآن ، ليكون بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً لجميع الناس ومن جملتهم اليهود والنصارى الذين انحرفوا واختلفوا .

فالدعوة المحمدية هي حقاً وصدقاً دعوة كتابية لا على اعتبار أنهـــا توراتية انجيلية ، ولكن على اعتبار أنها مستندة إلى كتاب سماوي أوحى الله به إلى رسوله محمد ليدعو الناس جميعهم إلى الله وحده ويبشرهم وينذرهم ويبين لهم بوحي الله وتنزيله طريق الهـدى والحق والصلاح والرشاد في أمور الدين والدنيا ولتصحيح ما وقعوا فيه هم وأهل الكتاب السابقين من الجملة من انحرافات واختلافات بغياً بينهم ويهدي إلى الحق في ذلك كله .

كما جاء في آيات مكية ومدنية عديدة أوردنا معظمها في الفصل السابق مثل آيات البقرة ٢١٣ والمائدة ١٢ - ١٦ و ١٩ والأعراف ١٥٧ و ١٥٨ [١] ومنها آيات سورة النحل هذه (تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .. ٦٣ و ٦٤) .

وواضح من الآيات بكل صراحة وقطعية أن الرسالة المحمدية هي رسالة جديدة ذات شخصية مستقلة جاءت لدعوة الناس جميعاً ومن جملتهم اليهود والنصارى وتبشيرهم وإنذارهم ، وحل الخلافات ، وتصحيح الانحرافات التي وقعوا فيها ، وإن من التمحل والتهافت ، بل من الهراء أن يقال : إنها توراتية إنجيلية ، أو يهودية نصرانية ، أو منبثقة عن ذلك ، أو صورة منه استناداً إلى القرآن .

- ٣ -

يضاف إلى هذه الآيات آيات كثيرة جداً في القرآن المكي تسبغ الشخصية الذاتية المستقلة على القرآن وعلى الرسالة المحمدية ، وترشحها لاستيعاب الملل الأخرى من كتابية وغير كتابية ، ولتكون دين الانسانية العام الخالد بأسلوب قوي نافذ وحاسم ، وتكشف عما في دعوى الحوري من تمحل وتهافت كما ترى هذه السلسلة :

١ - قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ . [الأنعام : ١٩] .

---

(١) لم نر ضرورة لإعادة إثباتها ، ويحسن بالقارىء أن يقرأها ثانية أثناء قراءته هذا البحث من الفصل السابق ومن المصحف الشريف .

٢ – المص . كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ .. [الأعراف : ١ – ٣] .

٣ – الر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ .. [يونس : ١ و ٢] .

٤ – الر . كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ .. [هود : ١ – ٣] .

٥ – الر . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . [إبراهيم : ١] .

٦ – وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .. [النحل : ٤٣ و ٤٤] .

٧ – إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا .. [الإسراء : ٩] .

٨ – الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا . وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا .. [الكهف : ١ – ٥] .

٩ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ .. [الأنبياء : ٤٨ - ٥٠] .

١٠ - وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ .. [الأنبياء : ١٠٧]

١١ - تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا .. [الفرقان : ١] .

١٢ - إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .. [النمل: ٧٦و٧٧] .

١٣ - شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .. [الشورى ١٣ - ١٥] .

١٤ - وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ

بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فيما كانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ . ثُمَّ جَعَلْناكَ على شَرِيعةٍ مِنَ الأَمْرِ فاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ .. [الجاثية : ١٦ – ١٨] .

١٥ – ويسلك في هذه السلسلة آيات الأعراف ١٥٧ و ١٥٨ وآيات النحل ٦٣ و ٦٤ التي أوردناها قبلها . والآيات تمثل مختلف أدوار التنزيل المكي منذ عهد مبكر من العهد المكي .

ونحن إذ نورد هذه السلسلة على طولها ، ونشير إلى آيات أخرى من بابها أوردناها قبل ، فإنما نوردها لأن فيها نصوصاً معينة ، وإلا فإن القرآن المكي جميعه ومنذ بدء تنزيله إلى نهاية العهد المكي يعبر في كل فصل من فصوله وآية من آياته وسورة من سوره تعبيراً لا يمكن أن يتحمل أي مراء عن الشخصية المستقلة الجديدة للرسالة المحمدية القرآنية ، وهذا بديهي إلى درجة أن التنبيه إليه يكاد يكون من تحصيل الحاصل ، سواء أفي ما يوجه فيه الخطاب إلى النبي ﷺ ، أم إلى الناس على اختلاف فئاتهم ومللهم ومواقفهم ، وعلى اختلاف صور الخطاب ، أم ما فيه تقريرات متنوعة أخرى عن الكون ، والحياة الأخروية ، والمبادىء الإسلامية على اختلافها وتبشيراً وإنذاراً ، وترغيباً وتذكيراً . وتمثيلاً وموعظة وقصصاً .. الخ الخ . ويكفي المرء أن يستعرض السور المكية حسب ترتيب نزولها حتى تتبين له هذه الحقيقة الكبرى والبديهية .

والحوري الحداد يهتم كثيراً لإبراز ما في القرآن المكي من شهادات أهل الكتاب وأهل العلم للنبي ، واستشهادهم وأمر النبي بذلك على ما سوف نشرحه بعد ، وقد فاته أن هذا أيضاً تعبير عن شخصية الرسالة المحمدية القرآنية المستقلة وجدتها .

ويسوق الخوري آيات سورة الأنعام هـذه (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ١٥٤ - ١٥٧) . وآية سورة فصلت هذه (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ٤٤) وآية سورة الشورى هـذه (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ .. ٧) وآية سورة الأحقاف هذه (وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ .. ١٢) ويقول : إن القرآن نسخة عربية لما سبقه من الكتب وحسب ، ولانذار العرب فقط .

والقول الأول هذيان أكثر من أي شيء آخر ، ولا محصل له إلا قصد التقليل من شأن القرآن ككتاب جديد مستقل ، فالكلمة جمعت بين الجنس وليس بين المحتوى ، وكتب الله متطابقة في المصدر والمبادىء ، وهذا ما عنته جملة (مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) التي جاءت عن القرآن ،

وجاءت أيضاً عن الإنجيل في آية سورة المائدة هذه (وَقَفَّيْنَا على آثارِهِمْ بِعيسى بْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ٤٦) .

وفي سورة المائدة آيات مهمة جداً للدلالة على الشخصية القرآنية المختلفة في مداها ومحتواها مع التطابق في المصدر والمبادىء مع ما قبل كما ترى فيما يلي : (يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٥ و ١٦) و (وَأَنْزَلْنَا إلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٤٨) وجملة (وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ) تعني أن القرآن هو ضابط لصحة نسبة ما في أيدي أهل الكتاب من كتب منسوبة إلى الله ، أو من نسخ التوراة والإنجيل فما كان فيها متناقضاً في المبادىء والأصول مع القرآن لا تكون نسبته إلى الله صحيحة .

وآيات سورة النحل هذه (تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا

فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٦٣ و ٦٤) وآيات سورة النمل هذه (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ٧٦ و ٧٧) تحتوي نفس الدلالة .

وكل ما تقدم يثبت زيف قول الخوري الأول وتهافته . أما أن القرآن هو لإنذار العرب فقط ، فإن في القرآن المكي آيات كثيرة منها ما هو تحتوي تقريراً حاسماً بأن الرسالة المحمدية وقرآنها لإنذار جميع الناس من عرب وغير عرب بما فيهم أهل الكتاب ، وإذا كان في بعض الآيات تخصيص للعرب السامعين ، فهذا مما اقتضته مواقف الدعوة ، أو كون العرب أول من وجهت إليهم وخوطبوا بها .

- ٥ -

وفي القرآن المكي آيات عديدة تذكر ما وقع فيه أهل الكتاب من اختلافات وانحرافات ، وتعدد مذاهب وأحزاب بأسلوب فيه تنديد وتثريب أو تنبيه كما ترى في الآيات التالية :

١ - وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .. [يونس : ٩٣] .

٢ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ .. [هود : ١١٠] [1] .

---

(١) في سورة الأحقاف آية مماثلة لهذه الآية اقتضتها حكمة المناسبة والسياق في السورة .

٣ – إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.. [النحل: ١٢٤].

٤ – فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ. أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .. [مريم : ٣٧ و ٣٨][1].

٥ – فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا. إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا .. [مريم : ٥٩ و ٦٠][2].

٦ – إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ .. [الأنبياء : ٩٢ و ٩٣][3].

٧ – يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ

---

(١) هذه الآيات جاءت بعد آيات فيها قصة ولادة عيسى وخطابه لقومه عقب ولادته.

(٢) هذه الآيات جاءت بعد ذكر الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام.

(٣) هذه الآيات جاءت بعد ذكر الأنبياء موسى وهارون وإبراهيم وإسحق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وذي النون وزكريا ويحيى ومريم وابنها.

فرحون .. [المؤمنون : ٥١ - ٥٣] [(١)].

٨ - ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون . إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .. [السجدة : ٢٣ - ٢٥] .

٩ - فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم .. [الزخرف : ٦٥] [(٢)].

١٠ - ويسلك في هذه السلسلة آيات سورة الشورى ١٣ - ١٤ وسورة الجاثية ١٦ - ١٧ التي أوردناها قبل .

فالقول : إن القرآن والنبي والرسالة المحمدية كانت منسجمة مع اليهودية والنصرانية ، ومع اليهود والنصارى في العهد المكي وكأنها منهم لا يمكن أن يتسق مع عقل ومنطق وواقع والقرآن المكي يذكر في هذه الآيات ما كان عليه اليهود والنصارى من خلاف وانحراف وتعدد أحزاب وتقطع أمور ، والقول الحق والحالة هذه هو ما ذكرناه قبل ، وهو أن القرآن ومحمدا ﷺ رسالة ربانية جديدة جاءت لتصحيح ذلك وهداية الناس إلى ما هو الحق ، ومن جملتهم اليهود والنصارى .

- ٦ -

ومن الحق أن نذكر أن الحوري لم يفته ما في هذه الآيات من هدم لدعواه ، وإظهار ما فيها من زيف وتمحل ، فأنكر بعضها وتمحل في

---

(١) هذه الآيات جاءت بعد سلسلة أنبياء وإشارة إلى أنبياء آخرين بدون أسماء . ومن ذكرت أسماؤهم نوح وموسى وهارون وابن مريم وأمه .

(٢) هذه الآية جاءت بعد ذكر عيسى ورسالته ودعوته إلى عبادة الله وحده ربه وربهم .

بعضها ، وكان في بعض أقواله سيء النية والأدب ، شديد الصفاقة والغثاثة كما يبدو مما يلي :

١ ــ لقد قال في صدد آية النحل (١٢٤) : إنها والسياق التي قبلها والذي ذكر ملة إبراهيم مقحمتان على السياق ، لأنهـا تشير إلى خلاف وصدام بين النبي وبني إسرائيل وليس شيء من ذلك بينهما في الدور المكي ولأن ملة ابراهيم إنما كانت من شعارات المدينـة ، ولم تذكر في القرآن المكي .

والخوري كاذب في القولين ، فليس في الآية إشارة إلى صدام بين النبي وبني إسرائيل ، وإنما فيها تقرير لواقع انحراف واختلاف تاريخي لهم قبل البعثة وحسب ومثل هذا التقرير تكرر في القرآن المكي وملة إبراهيم ذكرت في آيات مكية أخرى منها آيات سورة الأنعام هذه (فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أكْبَرُ فَلَمَّا أفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمواتِ وَالأرْضَ حَنِيفاً وَمَا أنَا مِنَ المُشْرِكِين ٧٨و٧٩) وهذه (قُلْ إنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إبْراهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ ١٦١) .

٢ ــ وقال في صدد آيات سورة مريم ٣٤ ــ ٤٠ : إنها مقحمة على السياق من المدينة ، لأنها مخالفة للروي ، ونابية عن موقف القرآن المكي الودي العام نحو النصارى ، وكلام الخوري متهافت ، فقد جاءت الآيات بمثابة تعقيب على أقوال عيسى عليه السلام لقومه عقب ولادته حينما حملته أمه وأتت به إليهم المقررة لحقيقة شخصيته ورسالته ، فكان هذا سبب اختلاف الروي ، وفي النظم القرآني المكي أمثلة كثيرة لذلك ، وما فيها هو حكاية حال واقع النصارى بعد عيسى عليه السلام ، وتعدد أحزابهم في صدد شخصيته ورسالته مما كان مشهوداً مشهوداً قبل البعثة .

وفي استعمال الحوري لكلمة (ثانية) سوء أدب وسوء فهم من ناحية ثانية ، فمن سوء أدبه أنه يصف كلام الله بهذا الوصف ، ومن سوء فهمه أنه يصف بهذا الوصف أيضاً التنديد الذي احتوته الآيات بالذين كفروا برسالة عيسى عليه السلام وكانوا في كفرهم ظالمين ، وأن يعتبر ذلك موقفاً غير ودي إزاء النصارى ، ولقد قال : إنه موقف مناقض لموقف القرآن المكي الودي إزاءهم في حين أنه ليس في القرآن المكي مثل هذا الموقف الذي يزعم الحوري أن الآية تنقضه بصراحة . ويصل الحوري إلى ذروة غبائه حين يغفل عن أن موقف القرآن المدني إزاءهم أشد صراحة وقوة في باب الثناء والتنويه ، فليس في القرآن المكي مثل هذه الآية (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) التي جاءت في سورة المائدة المدنية ، ولا مثل هذه الآية (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) التي جاءت في سورة الحديد المدنية . ولا مثل هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) التي جاءت في سورة الصف المدنية . والحوري يقول : إن هذه الآيات من سورة آل عمران (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) في حق رهبان النصارى ، وهي آيات مدنية !.

٣ — وقال في صدد آيات سورة مريم ٥٩ ـ ٦٣ : إنها ملحقة إلحاقاً بالسورة في أزمنة مختلفة ، لأنه لم يكن خلاف بين أهل الكتاب والنبي في مكة ، وهذا كلام متهافت ، فليس في الآيات إشارة إلى خلاف بين النبي وأهل الكتاب ، وكل ما فيها إشارة إلى ما كان من حالة أمم الأنبياء المذكورين في سلسلة الآيات السابقة للآيات ، وانحرافهم بعد أنبيائهم ، وإضاعتهم الصلوات ، واتباعهم الشهوات ، وكان هذا واقعاً مشهوراً مشهوداً ، وكان تصحيحه والدعوة إلى التوبة منه من أهداف الرسالة المحمدية .

وقوله : إنها ملحقة في أزمنة مختلفة كذب وهذيان وسوء أدب ، لأنه يفيد أنها مزيدة على القرآن بعد النبي ﷺ ، وليس فيها مايتحمل مثل هـذا الزعم الكاذب الوقح قط ، حتى وليس فيها مايتحمل القول : إنها مما نزل وحياً في المدينة وألحق بالسياق بأمر النبي لو أردنا أن نحسن الظن في الخوري .

٤ — وقال عن آية سورة الأنبياء (٩٣) (نظن أنها مدسوسة هنا ، إذ لاشيء في السورة يستدعيها ، ويذكر جدلاً مع الكتابيين لا وجود له في مكة) . كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ فيه إن يقول إلا كذباً ، وسياق الآية يستدعي ذلك بكل قوة ، فقد جاءت بعد سلسلة الأنبياء وقصص ومواقف أمم بعضهم ، وبعد تنبيه رباني بأن أمة الأنبياء أمة واحدة والله هو ربهم الذي يجب عليهم أن يعبدوه وحده ، وكل هذا جاء في سلسلة الآيات السابقة للآية وهي الآيات (٤٨ ـ ٩٢) التي كان نص آخرها (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) فاقتضت الحكمة ذكر حالة أممهم من بعدهم وكانت حالة واقعية مشهودة مشهورة جاءت الرسالة المحمدية لتصحيحها وتقويمها ، وعبارة الآية بعد ليست

في صدد جدال بين النبي وأهل الكتاب ، والمقام لايتحمل أن تكون مقحمة حتى من العهد المدني ، فضلاً أن تكون مدسوســـة ، فض الله فم القائل .

ومن عجيب تخبط الحوري أنه قال في كتابه رقم (٣) تعليقاً على الآية في سياق استعراضه لسورة الأنبياء : (إن تقطع أمرهم شيعاً وأحزاباً لايمنع وحدة إيمانهم ووحدة أمة التوحيد ، حيث ينطوي في هذا اعتراف بما لايسعه عدم الاعتراف به من تلك الحالة الـــتي ليست الآية إلا في صدد تقريرها .

٥ – ونفس القول قاله الحوري في صدد آية سورة المؤمنون (٥٣) وجميع ما قلناه في الفقرة السابقة يقال هنا بتمامه سواء من حيث مناسبة الآية للسياق الذي احتوى سلسلة أنبياء . أم من حيث كونها ليست في صدد جدال مع أهل الكتاب ، وإنما هي في صدد بيان حالة أمم الأنبياء من بعدهم بما كان مشهوراً مشهوداً .

ومن عجيب تخبـــط الحوري قوله في كتابه رقم (٣) في سياق استعراضه لسورة المؤمنون عن هذه الآية (إنها تابعة للآيات التي بعدها وفي صدد المشركين ، وهو في قوله هذا متمحل متهافت فضلاً عن تخبطه ، لأن السياق منسجم ، وذكر مواقف المشركين جاء استطرادياً ، والضمير في (فتقطعوا) لايمكن أن يعود إلى ما بعدها وإنما يقتضي أن يعود إلى ماقبلها وهم أمم الأنبياء من بعدهم .

٦ – وقال في صدد آية سورة النمل ٧٦ : إنها مقحمة تقطع السياق ، وإنه لا خلاف في السورة مع بني إسرائيل . وهذا تمحل متهافت ، فالسياق منسجم كل الانسجام بها حينما يمعن فيه ، بل وفيه قرينة على صحة ورود الآية في مقامها ، وتدعيم لرسالة الرسول الاستقلالية كما ترى فيما يلي (فَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ إِنَّكَ عَلى الحَقِّ المُبِينِ . إِنَّكَ لا تُسْمِعُ

المَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَادِ العُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ) . وليست الآية في صدد خلاف بين النبي وبني إسرائيل ، وإنما فيها إشارة إلى ما وقع بين بني إسرائيل من اختلافات سابقة للبعثة ، وأشير إليها في آيات مكية أخرى مثل آيات سورة السجدة ٢٥ وسورة يونس ٩٣ التي أوردناها في السلسلة ، وقد أنسى الله الحوري أن ينكر هاتين الآيتين لتكونا شاهدتين على إفكه وتمحله .

٧ — وقال عن آية الشورى (١٤) : إنها مدنية مقحمة ، لأنها تقطع السياق ، وتحول الخطاب من المشركين إلى الكتابيين ولا جدل معهم في مكة .

وهذا أيضاً تمحل متهافت ، وفي الآية السابقة للآية هذه العبارة (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) من جملة ما وصى الله به أنبياءه وأتباعهم بالتبعية ، فصار من مقتضى الحال أن يأتي بقليل لما كان واقعاً مشهوراً من أممهم من بعدهم ، وهو ما احتوته الآية (١٤) التي نحن في صددها . ولقد جاء بعد هذه الآية ، هذه الآية (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ المَصِيرُ) وموضوع الخطاب في الآية هم أهل الكتاب أو ما وصفتهم الآية (١٤) بوصف (الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ) وقالت عنهم (لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) .

ومن عجيب تخبط الحوري أنه اعترف في كتابه رقم (٢) بمكية الآية وعائديتها إلى أهل الكتاب !

٧ — وقال عن آية الزخرف (٦٥) : إنها مدنية .

وهذا تمحل ، والسياق منسجم بها كل الانسجام ، والخلاف في أمر عيسى وتعدد الأحزاب فيه كان مشهوراً مشهوداً قبل البعثة في مكة مثل غيرها على السواء ، وقد حكت آيات سابقة لهذه الآية احتجاجات المشركين في أمره نتيجة لما كان واقعاً مشهوداً كما ترى في هذه الآيات (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ . الزخرف : ٥٧ ـ ٥٩) . فليس في توكيد ذلك وتقرير كون عيسى قد بلغ رسالة ربه بتمامها ، وكون ما عليه النصارى من اختلاف وتعدد أحزاب إنما كان بعده أي محل للتمحل والاستبعاد وزعم الإقحام وهذا الذي جاء قبل الآية (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) .

٩ ـ وقال عن آيات الجاثية ١٦ و ١٧ : إنها مقحمة للتخفيف من إطراء بني إسرائيل في الآية السابقة لها . وهذا هذيان وسوء أدب أكثر منه أي شيء آخر . فالاختلاف بين بني إسرائيل كان أمراً واقعاً مشهوراً وقد أشارت إليه آيات أخرى . والسياق منسجم كل الانسجام ولا يتحمل أي إقحام فضلاً عن أنه لم يكن في ذلك الوقت ورود لفكرة (التخفيف من إطراء بني إسرائيل) التي تم إيرادها من الخوري عن سوء أدبه ونيته . والآيات التي جاءت بعدها تتمة منطقية لها ومنسجمة بدورها مع السياق كل الانسجام وهي (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ . هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . الجاثية : ١٨-٢٠) .

ويلحظ أن الحوري ينطلق من تمحلاته من فهم خاطىء متعمد لمدى الآيات ، حيث يزعم أن النبي كان في العهـد المكي منسجماً متضامناً مع أهل الكتاب ، وكأنه واحد منهم ، ولم ينجم بينه وبينهم خلاف وجدال في حين أن الآيات حسب زعمه تشير إلى خلاف وجدال بينه وبينهم فيقتضي أن تكون والحالة هذه مدنية أو مقحمة أو مدسوسة أو مزيدة أو ملحقة في أزمنة مختلفة ، كبرت كلمات تخرج من فيه مرة ثانية .

والفهم الخاطىء المتعمد الذي وقع فيه هو أنه ليس في الآيات ما يفيد أنها بسبيل تسجيل خلاف وجـدال بين النبي ﷺ وأهل الكتاب باستثناء ما يمكن أن يكون من ذلك شيء في آية سورة الشورى (١٥) وإنما هي بسبيل حكاية واقع بأسلوب تقريري هادىء ، وهو الواقع الذي لا نعتقد أن الحوري يصل إلى درك إنكاره ونعني به ما كان عليه اليهود والنصارى من خلاف ونزاع وتعدد أحزاب وطوائف ومذاهب ، وما كان عليـــه طوائف اليهود وطوائف النصارى فيما بينها من مثل ذلك قبل البعثة ممتداً إلى أمد طويل ، وكان الأمر يصل بينهم إلى الاقتتال والمذابح مما سجلته آية سورة البقرة هـذه (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَـا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وآتَيْنَـا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَـاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .. ٢٥٣) ومما تواترت به كتب اليهود والنصارى القديمة .

ومع تنبيهنا إلى ما في آية الشورى (١٥) من احتمال كون فيها إشارة إلى خلاف بين النبي وأهل الكتاب ، فإنها تقرر ذلك تقريراً هادئاً ليس فيه

عنف ولا تهجم ، بل فيه أمر رباني بالوقوف منهم موقف العادل وبإعلان أن الله قد أمره أن يؤمن بكل ما أنزل من كتاب ، وفي هذا من الروعة والجلال ما يقصر ذوق الحوري وأدبه عن إدراك مداه والخشوع له .

وفي القرآن المدني آيات عديدة أيضاً تشير إلى ما كان من خلاف بين الطوائف اليهودية والطوائف النصرانية بنفس الأسلوب التقريري الهادىء لواقع ما كان الأمر قائماً مستقراً حيث يدعم القرآن بعضه بعضاً في ذلك . ولم يكن ذلك في سياق ما قام من خلاف وجدل بين النبي وبينهم كما ترى في هذه الآيات :

١ – وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .. [البقرة : ١١٣] .

٢ – ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ .. [البقرة : ١٧٦] .

٣ – آية البقرة ٢١٣ التي أوردناها في مطلع البحث .

٤ – آية البقرة ٢٥٣ التي أوردناها قبل قليل .

٥ – إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .. [آل عمران : ١٩] .

٦ – إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .. [آل عمران : ٥٥] .

٧ – وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا

جاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .. [آل عمران : ١٠٥]

٨ – آيات سورة المائدة ١٢ – ١٤ التي أوردناها في مطلع البحث .

٩ – أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .. [الحديد : ١٦] .

١٠ – وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُون . ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .. [الحديد : ٢٦ و ٢٧] .

– ٨ –

ولا يقف تواقح الحوري وسوء أدبه ونيته في زعم الدس ، أو الإقحام ، أو الزيادة ، أو الإلحاق عند الآيات المكية مثل التي مرت ، بل يقول بعض ذلك في صدد آيات مدنية أيضاً مثل آيات التوبة هذه (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ..) .

ولا يصرح الحوري بالجهة التي يتهمها بما يمليه عليه سوء أدبه ووقاحته ولا يستثني النبي ، فمن الممكن أن يكون النبي أو أصحابه الأولين أو المسلمين بعدهم أو جميعهم ، فإن وقاحته وسوء أدبه وصفاقته لا تقف عند حد من حدود المنطق والحياء والأدب . فعلى احتمال أنه قصد النبي ﷺ ،

فلا بد من فرض كون الخوري يعتقد أن الآيات التي أقحم عليها آيات أخرى أو دس عليها آيات أخرى أو زيد عليها آيات أخرى هي أصلاً وحي رباني نزل على رسول الله ، وليس له مناص من أن يعتقد والحالة هذه أن رسول الله لا يمكن أن يفتري على الله ، ويقحم أو يدس أو يزيد آيات ليست من وحي الله ، وعلى فرض اعتقاده أن كل الآيات مفتراة من النبي ، وأنه أقحم ما أقحمه أو دسه أو زاده استدراكاً لما سبق منه ، فيكون الخوري قد غفل في الحالتين عن عمد بدون ريب عن مدى القرآن في يقين النبي ﷺ في كونه وحياً من الله عز وجل ، وعما في القرآن من آيات نافذة إلى أعماق القلوب ، ومثيرة لأشد الرهبة في النفوس في تعظيم افتراء القرآن على الله تعالى بما يتمثل في الآيات التالية :

١ – لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً .. [النساء : ١٦٦] .

٢ – قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ . [الأنعام:١٩].

٣ - وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ .. [الأنعام : ٩٣] .

٤ – وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ مَا يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .. [الأعراف : ٢٠٣] .

٥ – وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ

أفَلا تَعْقِلونَ . فَمَنْ أظْلَمُ مِمّنِ افتَرى عَلى اللهِ كَذِباً أوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إنّهُ لا يُفلِحُ المُجرِمون .. [يونس : ١٥ – ١٧] .

٦ – أمْ يَقولُونَ افتَرى على اللهِ كَذِباً فإنْ يَشَأ اللهُ يَختِمْ على قلبِكَ ويَمحُ اللهُ البَاطِلَ ويُحِقُّ الحَقَّ بِكلماتِه إنّهُ عَليمٌ بذاتِ الصُّدُورِ .. [الشورى : ٢٤] .

٧ – أمْ يَقولُونَ افتَراهُ قُلْ إنِ افتَريتُهُ فلا تملكُون لي مِنَ اللهِ شَيئاً هُوَ أعلَمُ بِمَا تُفيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهيداً بَيني وَبَينَكُمْ وَهُوَ الغَفُورُ الرّحيمُ .. [الأحقاف : ٨] .

٨ – إنّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَريمٍ . ومَا هُوَ بِقولِ شاعِرٍ قليلاً مَا تُؤمِنُونَ . ولا بِقَولِ كَاهِنٍ قليلاً مَا تَذَكّرُونَ تَنزيلٌ مِنْ رَبِّ العَالمِين . ولَوْ تَقَوّلَ عَلينا بَعضَ الأقَاويلِ لأخَذنا مِنْهُ باليَمين . ثُمّ لَقَطَعْنا مِنهُ الوَتينَ فما مِنكُمْ مِنْ أحَدٍ عَنهُ حاجِزينَ .. [الحاقة : ٤٠ – ٤٧] .

فكان على الحوري أن يتأدب ويرجع إلى ضميره لو كان فيه أدب وضمير في نسبة زيادة على القرآن من قبل النبي ﷺ لم تكن وحياً من الله وافترائها إلى رسول الله .

وبالإضافة إلى ذلك كله ، فلقد كان على الحوري الذي يعتقد أن القرآن من وضع محمد وإنشائه أن يلحظ أنه كان في إمكان محمد أن يحسم الأمر فيقول ما يريد أن يقول دون حاجة إلى إقحام أو زيادة ، أو استدراك ، أو يثبت ما يريده بدون أن يكشف نفسه لنبهاء أو أغبياء آخر الزمان الحوري وأمثاله .

والقرآن بالنسبة لأصحاب رسول الله الأولين الذين يمكن أن يكون الحوري أراد نسبة الدس والزيادة والإقحام إليهم بعد النبي في نفس اعتباره بالنسبة للنبي من كونه وحي الله وكلامه المقدس الذي من واجبهم الديني الإيماني

أن يقفوا عنده، ويحافظوا عليه كما بلغه النبي لهم بحروفه وكلماته وأدائه وترتيبه . ومن كون مخالفة ذلك خروجاً من ربقة الإسلام إلى الكفر ، فكان على الخوري أن يتأدب إزاءهم أيضاً ، ولا ينسب إليهم الافتراء والدس على كتاب الله . وإذا لاحظنا أنه لم يكن في زمن النبي ﷺ وأصحابه الأولين قضية مثل القضية التي يثيرها الخوري وأمثاله ليشعروا - النبي وأصحابه - بضرورة إلى دفعها وسدها باقحام آيات أو دسها أو زيادتها ، بدت سوء نية الخوري وأمثاله وسوء أدبهم ووقاحتهم أكثر .

وهذا كله وارد بالنسبة لكل مسلم مخلص في دينه واعتقاده بأن القرآن وحي من الله تعالى من تابعي أصحاب رسول الله وتابعيهم .

ولا يرد هنا أن من المسلمين من أهل القرون الثلاثة الأولى من افترى على الله تعالى باختراع بعض الآيات وزيادتها وانقاصها ، فهؤلاء أمرهم معروف ، وهم مارقون من الدين ، وليسوا من المسلمين الأولين الذين كان القرآن قد حفظ في عهدهم كما بلغه رسول الله ومات عنه قرآناً في الصدور ، وفي الصحف على ما شرحناه في الفصل الأول ، وهذا فضلًا عن أن ما كان منهم من تزوير معروف مفضوح ، وإنما كان في أمور لا علاقة لها بما يزعمه الخوري وأمثاله . ولو حلّفنا الخوري بمسيحه وصليبه هل يجيز لنفسه وقلمه أن يزيد شيئاً على (كتابه المقدس) الذي ليس هو في حالته الواقعية إلا أسفاراً كتبها بشر من الروايات والمسموعات بعد زمن طويل من الأنبياء والأشخاص والجماعات التي حكيت فيها حياتهم وأقوالهم . وامتلأت بالمبالغات والمتناقضات وما يتنزه الله عنه ورسله من أقوال وأفعال ، لكان جوابه نفياً واستعاذة بالله من أن يفعل ذلك ، وليس هو إلا شخصاً عادياً لا يصل في ورعه وتقواه وخوف الله وإيمانه بكلماته إلى غبار نعال رسول الله وأصحابه الأولين وتابعيهم وتابعي تابعيهم الأطهار الأبرار ، وربما كان في ما يكتب مأجوراً ، ونحن نعتقد ذلك ، وهو على كل

حال كتب للنكاية والتجريح والتثريب والتشكيك عمداً ، وما يكتبه هو افتراء وبهتان وتمحل ثم لايتحرج ولا يخجل ويجيز صدور مثل ذلك من النبي ﷺ الذي كان على أعمق اليقين بأن القرآن من وحي الله ، وأن من واجبه أن يبلغه ويلتزمه حرفياً ويتبع ما يوحى إليه ، وأنه لايمكن أن يدخل عليه زيادة ولا نقصاً ولا تبديلًا أو صدور ذلك من أصحاب رسول الله الذين كان القرآن كذلك في اعتبارهم وتقديسهم ، ووجوب الوقوف عند كل كلمة وحرف منه كما بلغه لهم رسول الله ، أو تابعيهم أو تابعي تابعيهم أو كل مسلم مخلص الذين كان القرآن عندهم في ذلك الاعتبار .

— ٩ —

والحوري الحداد يسوق آيات كثيرة بسبيل التدليل على زعمه بأن النبي محمداً ﷺ في دعوته وفي مايتلوه من قرآن كان تحت تأثير اليهودية والنصرانية وكتبها وأهلها في العهد المكي حتى لكأنهم أهله وعماده وقوته ، ولكأنه واحد منهم على ما ذكرناه قبل . وفي كل مايسوقه تمحل وتهافت وتخرص ، وهو على عادته يقتطع بسبيل ذلك جملة من آية ، أو آية من سياق ، ويهمل الباقي ، أو يتمسك بنص ، ولا ينتبه أو يغفل أو يتغافل عما في السورة أو السور من نصوص أخرى فيها توضيح واستدراك وبكلمة ثانية يتغافل عن أن نصوص القرآن متكاملة يتمم بعضها بعضاً ، ويوضح بعضها بعضاً .

وقبل أن نستعرض الآيات التي يسوقها وننبه إلى مافي استنتاجاته منها وتعليقاته عليها من تمحل وتهافت وتخرص يحسن أن ننبه على أمر مهم له صلة بمدى الآيات التي يسوقها وغيرها من الآيات الكثيرة الواردة في صدد أهل الكتاب واليهود والنصارى وكتبهم . وهو أننا لسنا قطعاً بسبيل تجاهل كون الرسالة المحمدية كتابية ، فهي كتابية في مكة وظلت

كتابية في المدينة ، وهذه الحقيقة أو البديهية قائمة على كون السند الأقوى الرئيسي لها هو كتاب الله المنزل على رسوله شأنها في ذلك شأن الديانات الكتابية السابقة لها ، وبنوع خاص اليهودية والنصرانية القائمتين على كتابي الله عز وجل التوراة والإنجيل ، وكل مافي الأمر من ذلك تقرير كون القرآن متطابقاً في مصدره والمبادىء الرئيسية التي تضمنها ودعا إليها مع الكتب السابقة على مانبهت عليه آيات عديدة ، منها آيات سورة آل عمران هذه (الم اللهُ لا إله إلاّ هُو الحَيُّ القَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وأَنْزَلَ التَّوْراةَ والإنْجيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الفُرْقانَ) وهذا شيء وما ينطوي في مزاعم الحوري وأمثاله ومقاصدهم شيء آخر كما هو المتبادر ، بل إن الرسالة المحمدية ذات شخصية مستقلة في مداها وفي كتابها أكثر من المسيحية والإنجيل على اعتبار أن المسيحية هي امتداد لليهودية وأن الإنجيل لم يأت بتشريعات ، وإنما عطف على تشريعات التوراة وأقر معظمها ، وقد عزت الأناجيل المتداولة التي يعترف بها النصارى قول عيسى عليه السلام (ماجئت لأنقض الناموس) . وقد جاءت — الرسالة المحمدية — لتخفف مافي التشريعات اليهودية من إصر وأغلال بالإضافة إلى ماهدفت إليه من تصحيح الانحرافات والاختلافات التي ارتكس فيها أهل الديانتين على ماقررته آيات عديدة أوردناها سابقاً مثل آيات المائدة ١٢ — ١٦ و١٩ والأعراف ١٥٧ و ١٥٨ والنحل ٦٣ و ٦٤ والنمل ٧٦ و ٧٧ وجمعهم جميعاً تحت راية الرسالة الجديدة المصدقة لما بين يديها ولم يكن هذا في العهد المدني وحسب بل كان في العهد المكي ، بل ومنذ بدئه على مايفيده الآيات المكية المبكرة في النزول .

ولقد أعار القرآن المكي أهل الكتاب وكتبهم عناية كبيرة ، واستمر القرآن المدني على ذلك ، سواءاً في ما كان من إشادته بوحدة المصدر

والمبادىء الرئيسية ، أم من الاستشهاد بهم أم من الدفاع عن أسس ديانتهم ، أو من التنديد بما وقعوا فيه من انحرافات واختلافات ، أم في قصصهم ، أم في الجدل معهم وإقامة الحجة عليهم ودعوتهم إلى الحق والهدى المنطويين في الرسالة الجديدة والانضواء إليها .

ولقد كان هذا الاهتمام بالإضافة إلى أنه من طبيعة مهمة النبي التي هي رسالة الله ودعوته إلى الناس جميعاً وهم من الجملة من مقتضى الواقع من أمرهم وأمر العرب الذين كانوا أول المخاطبين بالدعوة والرسالة والقرآن .

فقد كان لكل من اليهود والنصارى كيان مؤثر بارز في الوسط العربي والذهن العربي حيث كان من اليهود الإسرائيليين جماعات كبيرة في الحجاز وبتعيين أدق في يثرب وطريقها إلى الشام ، وكان لهم حيز ممتاز ومركز خطير ، وكان العرب ينظرون إليهم بنظر التوقير والاعتماد ويعترفون لهم بالتفوق الثقافي ، وحيث كانت النصرانية سائدة في بقاع واسعة من المعمور ومن الجملة في البلاد المتصلة بدار الدعوة الإسلامية أي بلاد الشام ومصر والحبشة والعراق العربي وجزيرة الفرات وكان يدين بها في العراق والشام وجزيرة الفرات – وفلسطين والأردن ولبنان وسورية هي التي نعنيها ببلاد الشام – قبائل عربية صريحة ، وكان يوجد إلى إلى هذا كتلة كبيرة عربية صريحة في اليمن وجماعات كبيرة في مشارف الشام وطريق الحجاز. وجماعات أخرى في سواحل جزيرة العرب الشرقية يدينون بها ، وجماعات نازحة من البلاد المجاورة في مكة نفسها ، وكان العرب ينظرون إلى النصارى كذلك بنظر التوقير والاعتماد ، ويعترفون لهم بالتفوق الثقافي ، كل هذا جعل اليهودية والنصرانية ومصدريتها السماوية وكتبها وتاريخ أنبيائها ، وسيرة الأجيال السابقة من اليهود والنصارى وما كانوا عليه من أحوال متنوعة معروفة في الأوساط العربية الحجازية دار الدعوة الإسلامية ، ومصدراً مهماً لمعارف العرب الدينية وغير الدينية وبخاصة نبهائهم .

ولقد كانت جمهرة العرب الكبرى مشركين ، يعترفون بالله بصفته الخالق الرازق المدبر المحيط بكل شيء علماً وقدرة مع إشراك الملائكة معه بعقيدة أنهم بناته وذوات حظوة عنده على سبيل الاستشفاع[1] .

ولقد أخذ نبهاء منهم يرون في عقيدة الشرك سخفاً ، ويتجهون نحو الله وحده ، ومنهم من تنصر ، ومنهم من تهود تأثراً باليهود والنصارى ، ومنهم من رأى ما عليه اليهود والنصارى من خلاف وتعدد أحزاب ومذاهب

---

(١) في القرآن آيات كثيرة فيها تقرير لذلك ، منها هذه الآيات :

١ – ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَماذا بَعْدَ الحَقِّ إِلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلى الحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي الى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاّ أَنْ يُهْدَى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ .. [يونس : ٣١ – ٣٥] .

٢ – ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ . قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ .. [سبأ : ٤٠ – ٤١] .

٣ – ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾ .. [الزخرف : ٩] .

وشقاق وقتال وانحراف ، فأنفوا من ذلك ، بل عجب من ذلك المشركون بالملائكة أيضاً ، وكانوا يعتبرون أنفسهم أهدى منهم على ما حكته آيات سورة الزخرف هـذه (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ..) حيث رأوا أن عقيدتهم بالوهيـة الملائكة وكونهم بنـات الله وعبادتهم إياهم على سبيل الاستشفاع أكثر منطقياً من اعتقاد النصارى بألوهية المسيح وبنوته في الوقت نفسـه لله ، وصاروا يقسمون ان لو جاءهم نذير منهم بكتاب بلغتهم ليكونن أهدى منهم على ما جاء في آية سورة فاطر هذه (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَـذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْـدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُوراً واسْتِكْبَاراً في الأَرْضِ وَمَكْرَ

---

٤ ـ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ . أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَـلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ . أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ . وَجَعَلُوا المَلائِكَـةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَـادُ الرَّحْمنِ إِنَاثاً أَشَهِـدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسأَلُونَ . وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ .. [الزخرف : ١٥ ـ ٢٠] .

٥ ـ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمواتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى . إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى . وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً .. [النجم : ٢٦ ـ ٢٨] .

السَّيِّءِ وَلا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إلاّ بِأهْلِهِ .. ٤٢ و ٤٣)[1] وآيات سورة الأنعام ١٥٤ - ١٥٧ التي أوردناها في الفقرة (٤) فكان من حكمة اهتمام القرآن والرسالة الجديدة بأهل الكتاب مما يتصل بكل هذا الواقع من حيث إن اهتداءهم بالرسالة الجديدة سوف يفقد العرب تكأة وحجة ، ويجعلهم لا يرون مناصاً من الإنضواء إليها بدورهم .

ولقد كان تطابق الرسالة الجديدة مع الرسالتين الموسوية والعيسوية وكتابيهما في المنبع والمبادىء معقد أمل في تقبل اليهود والنصارى، وفي مقدمتهم من هم في الحجاز منهم الدعوة الجديدة وانضوائهم إليها في إخاء ديني عام قبل غيرهم ، وتكون جبهة قوية تحمل مشعل الهداية الإلهية لسائر البشر موحدة الأسس والأهداف والقوى والجهود ، وهي بعد لا تأتيهم بأسس جديدة ، ولا تكلفهم إنكار مقدساتهم ، بل جاءتهم بما عرفوا أنه الحق ، وبما هو متطابق مع ما عندهم ، وبأسلوب محبب فيه عناية فائقة بهم ، ورغبة في الاتحاد والتآلف معهم ، ولا سيما ان الفتن والخلافات كانت مشتجرة بينهم بين اليهود والنصارى ، وبين فرق اليهود أنفسهم ، وبين فرق النصارى أنفسهم أيضاً ، يكذب بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً ، وكان المفروض أن يكونوا قد سئموا ذلك ، وأن يروا في الدعوة الجديدة التي تصدق بما معهم ، وتحترمه حلاً لمنازعاتهم ومزيلاً لبلبلاتهم .

ولقد كان اليهود يعتقدون بوحدانية الله ورسالات الرسل عدا المسيح ، والقرآن دعا إلى الإيمان بالله وحده ورسالات رسله ، وذكر التوراة ونوه

---

(١) في الآيات صراحة أن عدم استجابتهم للدعوة المحمدية مع أنهم كانوا يتمنون أن يأتيهم نذير كان استكباراً ومكراً . وقد جاء في سورتي ص والزخرف آيات فيها تفسير لذلك وهي (ءَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا .. ٨ ص) و (قالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـذا القُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ .. ٣١ الزخرف) .

بما فيها من هدى ونور ، وامر باحترام الأنبياء الذين ذكروا فيها ومن جاء من أنبياء الله من بعد موسى . ولم يكن عليهم إلا خطوة الاعتراف بالمسيح على الوجه المقرر بالقرآن ، والتصديق برسالة محمد ﷺ ، والقرآن الذي أنزل إليه حتى تندمج اليهودية في الإسلام وتصبح معه في وحدة تامة . وقد عرفوا أنها حق ، وكانوا يستفتحون بهذه المعرفه على الكفار كما جاء ذلك في آيات عديدة مكية ومدنية منها هذه الآيات :

١ ـ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ .. [البقرة : ٨٩] .

٢ ـ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ .. [البقرة : ١٠١] .

٣ ـ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. [الأنعام : ٢٠] .

٤ ـ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ .. [الأنعام : ١١٤] .

٥ ـ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ .. [الأحقاف : ١٠] .

والنصارى يعتقدون بوحدانية الله مؤولة بالعقيدة التثليثية ، وبرسالات الرسل وبالتوراة وقدسيتها وشريعتها ، وأنبياء بني إسرائيل بعد موسى ، وقد ذكر القرآن الإنجيل ونوه بما فيه من هدى ونور ، وأسبغ على السيد المسيح وأمه وولادته هالة نورانية ، مع تصحيح العقيدة فيه حيث قرر أنه رسول كسائر الرسل ، وأن ولادته تمت بمعجزة ربانية كمعجزة خلق

آدم من تراب وولادة يحيى من أم عاقر وأب طاعن في السن ، ولم يكن عليهم إلا خطوة الرجوع عن تأليهه والاعتراف بنبوته وبشريته على النحو الذي جاء في القرآن ، ثم الاعتراف بالرسالة المحمدية والقرآن حتى يندمجوا هم الآخرون في الإسلام ، ويصبحوا مع المسلمين في وحدة واحدة

وهكذا تتوحد الديانات السماوية الثلاث تحت اسم عام مشترك وغير غريب عليها وهو (الاسلام) . وهداية كتاب مصدق بما بين يديه من الكتب ، ومتمم لها وهو القرآن ، ورسالة خاتم الأنبياء وهو محمد ﷺ الذي يؤمن بالله وكلماته وأنبيائه والذي بعثه الله على فترة من الرسل ليكون بشيراً ونذيراً ، ومنقذاً وهادياً لجميع الناس ، ومن جملتهم أهل الكتاب ، ليحمل المتوحدون مشعل الهداية للناس كما قلنا متحدين مندمجين في أخوة شاملة قوية متواصة دون أن يعاكس بعضهم بعضاً ، ويختلف بعضهم مع بعض ، ويصد بعضهم عن بعض ، ويكيد بعضهم لبعض ، وليكونوا القدوة المثلى لسائر الملل التي لم تستند إلى كتب ربانية ، ولا إلى رسالات رسل من الله تعالى ، والتي كانت واهية الأسس من الناحية الدينية ، ولم تكن لتصمد عند الجدل والتفكير أمام الحجج القرآنية الدامغة ، إذ يكونون بهذا التوحد والاندماج قوة كبيرة تزلزل عقائد تلك الملل السخيفة الواهية ، فلا تبقى لها قدرة على المقاومة والتحدي في حين يمكن أن يشتد تمسكها بها إذا وقف اليهود والنصارى من الدعوة الإسلامية موقف المنقبض المتصامم أو المعاند المكابر .

على أن هذا الفرض لم يبق نظرياً ، وذلك الأمل لم يخب ، فقد كان للدعوة القرآنية المحمدية القوية الواضحة النافذة إلى العقول والقلوب والتي تشع فيها نورانية الله وهدايته وأعلامه أثر إيجابي في اليهود والنصارى في حياة النبي ﷺ في مكة أولاً ، ثم في المدينة ، ثم بعد النبي في مختلف أنحاء الأرض على ما سوف نشرحه ونورد دلائله بعد

وعلى ضوء ذلك كله يجب فهم ما في القرآن من آيات في صدد أهل الكتاب واليهودية والنصرانية واليهود والنصارى .

- ١٠ -

والآن نأتي إلى استعراض الآيات والنقاط التي يسوقها ويثيرها الحوري:

١ – يورد الحوري آيات سورة الأعلى هذه (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) ويقول : إن القرآن يكرر ما جاء في الكتب السابقة ، ويفسر الحوري الكتب السابقة بالكتاب المقدس أو يستعمل هذا الاسم مرادفاً لها .

وهذا التعبير مستحدث كما قلنا قبل ، وقد أطلق مؤخراً على مجموعة أسفار العهد القديم والجديد التي وصفناها في الفصل السابق ، ويقصد الحوري أن يقول : إن محمداً قد اقتبس ما يتلوه من الكتب السابقة أو الكتاب المقدس وأنه يعترف بذلك .

وهذا تخرص بل هذيان ، وإقحام الكتاب المقدس في هذا المقام مضحك ، ولا سيما ليس في كتابه المقدس شيء يمكن أن يصفه بأنه من صحف إبراهيم عليه السلام .

وإذا كان يقصد أن سورة الأعلى التي فيها هذه الآيات ، فليس في كتابه المقدس ما في هذه السورة مادةً وأسلوباً ، والمقارنة كافية لإظهار تخرصه وزيفه ، وأين في كتابه المقدس (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى . سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى . وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى . فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى . سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى . وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ

الحَيَاةَ الدُّنْيا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّ هَـذَا لَفِي الصحُفِ الأُولى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسى) وموضوع الخطاب في السورة النبي نفسه والناس السامعون ، وفي هذا تدعيم للشخصية المستقلة للرسالة المحمدية في الوقت نفسه .

وإن كان يقصد أن الآيات شاملة لكل مافي القرآن فلا يمكن أن تعني أكثر من أن مافي القرآن مماثل لما في صحف إبراهيم وموسى ، وهذا مما يقرره القرآن حينما يقرر أنه مصدق لما بين يديه ، وليس في هذا مايخل بحقيقة وواقع ويقين وحي الله تعالى لنبيه بما أوحاه في القرآن إليه ، ولا بالشخصية المستقلة للقرآن والرسالة المحمدية ، ولا يقول : إنه تكرار لما في الصحف الأولى إلا ماجن أو غبي ، والسامعون يعرفون أن الله أنزل صحفاً على إبراهيم وموسى عليهما السلام ، فاقتضت الحكمة أن يقال لهم : إن ما في القرآن هو من نوع مافي تلك الصحف ، وإن الله الذي أنزل تلك الصحف أنزل القرآن أيضاً .

وهذا ما حوت تقريره آية سورة آل عمران هذه (نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ) . وفي الآية تثبيت وتدعيم للشخصية المستقلة للرسالة المحمدية والقرآن .

٢ - ولقد أورد الخوري آيات سورة النجم هذه (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . ألا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفى) وكرر كلامه . والآيات مثل سابقتها تحتوي تنبيهاً على أن الرسالة المحمدية تصدر من نفس المصدر وقرآن محمد يأتي من نفس المنبع وهو متطابق مع ما سبقه من صحف إبراهيم وموسى في المصدر والمبادىء وحسب .

٣ - ويقول الحوري (ويطلبون من النبي آية على صحة رسالته وصدق نبوته ، فيجيبهم أن آيته هو أن يبين لهم ما في الصحف الأولى) ويورد شاهداً على ذلك آية سورة طه هذه (وقالُوا لَوْلا يَأتِينَا بآيَةٍ مِنْ ربِّهِ أوَ لَمْ تَأتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأولى) ثم يعقب على ذلك بقوله : (إنه يكفيه أنه بلغهم تعليم الكتاب المقدس) ويستمر في التعقيب فيقول : (بل إنه يتحداهم بإيمانه بالصحف الأولى وكونه بسبب ذلك على الصراط السوي دونهم حيث قال لهم بعد ذلك : (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى) .

والتهافت في أقوال وتعقيبات الحوري واضح ، وليس في الآيات الأولى إلا تقرير التطابق بين ماجاء في القرآن وما جاء في الكتب السابقة ، والسامعون يعرفون خبر الكتب السابقة ، فلما طلبوا منه الآية كانت حجة القرآن عليهم أن هذه الآية ماثلة في التطابق بين ماجاء في القرآن وما جاء في الصحف الأولى . وليس من شأن هذا نفي شخصية الدعوة الجديدة القرآنيـــة المستقلة ، بل وفيه تدعيم لها ، وعكس ذلك الذي يقوله الحوري يكون عبثاً ، ولا يصح أن يفرض .

أما الآية الثانية ، فهي من قبل تحدي الواثق بأنه على الحق والصراط المستقيم دون خصومه ، وليس فيها ذلك المعنى الغث الغريب الذي يستخرجه الحوري ، وقد تكرر هذا بأساليب متنوعة ، ومن ذلك آية سورة الأنعام هذه (قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) وآية سورة يونس هذه (قُلْ يَا أيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إلَيْكَ وَاصْبِرْ

حَتّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ) وآيات سورة هود هذه (وَقُلْ لِلّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إنّا عامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إنّا مُنْتَظِرُون) وغيرها .

٤ – ويورد الخوري آيات سورة الشعراء هذه (وَإنّهُ لَتَنْزِيل رَبِّ العَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ . عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ . بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبينٍ . وَإنّهُ لَفِي زُبُرِ الأوّلِينَ . أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَني إسْرائيلَ) ويقول : (إن شهادتهم له هي حجته الكبرى إلى آخر حياته) .

والحجة الكبرى على الحقيقة هي في توكيد الآيات الأربع الأولى بأن القرآن تنزيل من الله نزل به الروح الأمين على قلب النبي لينذر به ، وفي هذا تقرير قطعي وتوكيدي لشخصية الرسالة المحمدية القرآنية المستقلة ، ولقد غفل الخوري عن هذه المعاني القوية في الآيات ، وغفل عن كون الضمير في (يعلمه) عائداً إلى القرآن ، إذ تقرر العبارة علمهم بأن القرآن نازل من الله تعالى تقرر بالتبعية تصديقهم وإيمانهم وانضواءهم إلى الدين الجديد ، لأن ذلك هو النتيجة المنطقية لذلك ، فيكون استشهاد القرآن بهم مؤسساً على شهادتهم الإيجابية الإيمانية بالقرآن ، وبالذي أنزل عليه القرآن ، وهذا المعنى والنتيجة قررتها آيات أخرى بأساليب متنـــوعة منها آية في سورة الأنعام السابقة في النزول لسورة الشعراء وهي هذه (أفَغَيْرَ اللهِ أبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الّذِي أنْزَلَ إلَيْكُمُ الكِتابَ مُفَصّلاً وَالّذِينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْلَمُونَ أنّهُ مُنَزّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ ..) .

والكلام بسبيل إقامة الحجة على العرب ، والعرب يعرفون أن علماء بني إسرائيل أهل لمعرفة ما إذا كان القرآن من الله أم افتراء أو اقتباس ، فاقتضت الحكمة هذا الاستشهاد الذي لاشك في أنه كان إيجابي النتيجة ، وكان مقترناً بإيمان الشهود بعد أن تيقنوا بالممارسة والمعاينة والمقارنة أنه من الله .

وليس في الآيات والحالة هذه شيء مما أراد الحوري التمحل به ، بل فيها تدعيم للشخصية المحمدية القرآنية المستقلة ، وإيذان بانضواء علماء بني إسرائيل المستشهد بهم تحت رايتها ، وهذا ما قررته بصراحة آية الأحقاف هذه (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُم إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) وآية سورة النساء هذه (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ..) وآية النساء هذه من سلسلة في حق اليهود ..

٥ – ويسوق الحوري آية سورة القمر هذه (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) وآية سورة القمر أيضاً هذه (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) ويفسر الزبر في الآيتين بكتب اليهود والنصارى ويقول (إن في ذلك إشارة جلية إلى أن مصدر تعليم النبي وإيمانه وقصصه مأخوذة من الكتب المقدسة التي تقدمته وما وظيفة القرآن سوى تذكير العرب بما جاء في الكتاب المقدس !) .

وفي هذا الكلام من السخف والهذيان أكثر مما في كلامه السابق ، فكلمة (الزبر) هنا تعني كتب أعمال الناس ، وفي جملة (وكل شيء فعلوه في الزبر) تفسير لذلك حيث تعني أن أعمالهم مسجلة مكتوبة عليهم في كتب أعمالهم وهو ماذكر معناه في آيات عديدة منها آية سورة الجاثية هذه (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٩) وسورة الإسراء هذه (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً .. ١٣ و ١٤) . وعلى احتمال أن تكون الآية الأولى في صدد الكتب السابقة ، فليس فيها شيء مما أراده الحوري أيضاً . وكل ما فيها سؤال

استنكاري فيه تحد للكفار عما إذا كان ما هم عليه مستمداً من كتب الله السابقة أو مستنداً إليه ، وقد كانوا يعرفون أن الله قد أنزل كتباً فيها هدى للناس إلى طريق الحق والخير .

٦ – ويورد الحوري آيات الإسراء هذه (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً . وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ١٠٧ – ١٠٩) ثم يقول (إن محمداً يعتمد ويتقوى ويطمئن بشهادة الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب له على موافقة تعليمه لتعليمهم . وإن أهل الكتاب فرحوا وازدادوا خشوعاً لموافقة القرآن لتعليمهم وقويت شوكتهم تجاه المشركين ، واطمأن محمد إلى تلك الموافقة وقدمها دليلاً على صحة رسالته وصدق نزول القرآن عليه ..) .

وتلاعب الحوري في الكلام وتحريفه إياه عن مواضعه بمثل هذه الصفاقة مما يثير عجب أي شخص يقرأه مهما كان بسيط الثقافة والبصيرة ، ثم يقرأ الآيات ويفهم مداها ، فالآيات قد احتوت مشهداً رائعاً من مشاهد إيمان أهل الكتاب بالقرآن ورسالة النبي بالناس بكل قوة وصراحة وقطعية ، وقررت أنهم رأوا في القرآن ورسالة الرسول تحقيقاً لوعد الله بذلك . فازداودوا إيمانـــاً وخشوعاً ، ولا يمكن أن يكونوا قد بقوا – كما يريد الحوري أن يوهم – على ملتهم السابقة ، لأن في ذلك تناقضاً صارخاً ، ولا يضير النبي بعد ذلك أن يكون موقفه أمام المشركين قد قوي بشهادتهم وإيمانهم ، بل هذا هو الواقع المنطوي في التحدي الذي في الآيات للكفار فإيمانهم وعدم إيمانهم سواء مادام أهل العلم والكتاب قد شهدوا شهادة الحق وآمنوا ، والمشركون يعترفون بتفوق أهل العلم والكتاب عليهم في المعارف والعقائد الدينية ، فيكون في ذلك إلزام وإفحام لهم .

ولقد كان النبي قوياً برسالته وتأييد الله له منذ بعثتـــه واستمر على ذلك ، وكل ماهنالك أن مدى دعوته ظل ضيقاً بسبب تأليب الزعماء والأغنياء ضده غيظاً من رسالته التي جاءت كقوة ضدهم . فشهادة أهل العلم والكتاب جاءت مؤيدة لقوته السابقة لهذه الشهادة وحسب ، ونقول في صدد قوله : إن شوكة أهل الكتاب قويت تجاه المشركين : إن عكس هذا هو الذي يمكن أن يكون حدث ، فإن شهادتهم للنبي وإيمانهم به وبالقرآن وخشوعهم وسجودهم من شأنه أن يعرضهم للخطر والتثريب ، ومعنى هذا أنهم لم يبالوا بذلك في موقف الحق الذي رأوا واجباً عليهم أن يقفوه ، ولقد حكت آيات في سورة القصص موقفاً مماثلا ، وحكت تعرض أهل الكتاب الذين وقفوه للملامة المشركين وتوبيخهم ، وحكت عدم مبالاتهم بذلك إزاء واجب موقف الحق عليهم وهي هذه (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ . ٥٢ - ٥٥) والآية الأخيرة صريحة الدلالة على الملامة والتثريب اللذين قوبل بهما الشاهدون بالحق المؤمنون من أهل الكتاب بالقرآن والنبي وعدم مبالاتهم بذلك [١] .

ومن الجدير بالذكر أن الروايات تذكر أن جل أهل الكتاب في مكة كانوا جالية نازحة من الخارج ضعيفة العصبية والوجود ، وكان

---

(١) بعض الروايات تذكر أن الآيات مدنية وليس لها سند وثيق ، والصورة التي تنطوي فيها وبخاصة التثريب المقدر أنه وجه إلى الذين آمنوا من أهل الكتاب لا يمكن إلا أن يكون من السور المكية والله أعلم .

أكثرهم صناعاً وأرقاء، فتعبير (قويت شوكتهم) ليس له أي معنى ، واحتمال التثريب والخطر الوارد هو المؤكد ، لأنهم بشهادتهم الإيجابية وإيمانهم يكونون قد تحدوا زعماء المشركين الأقوياء الذين كانوا يقودون حركة المعارضة والمناوأة ضد النبي ، وهذا ما أرادت تقويره الآيات وضمير (بـه) في الآية الأولى من آيات سورة الإسراء عائد إلى القرآن الذي ذكر في الآيات السابقة لها (وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) .

والمتبادر أن جملة (إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً) في آية الإسراء إيذان من القائلين بأنهم رأوا في النبي وقرآنه ما وعدوه من ذلك في كتبهم ، وما وجدوه فيها من صفات وأنباء عنها وهو ما حكته آية سورة الأعراف هذه (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) فسارعوا إلى الإيمان والتصديق خاشعين باكين ساجدين معلنين أنهم يرون في النبي والقرآن تصديقاً لوعد الله الحق .

وهكذا ينقلب دليل الحوري عليه ، وصدق الله العظيم (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .) .

٧ – ويورد الحوري آيات سورة فاطر هذه (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ . إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ

غَفُورٌ شَكُورٌ . وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ . ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ .. ٢٧ - ٣٢) ويقول (إن محمداً يثني على مؤمني أهل الكتاب وعلمائهم ، ويستجلب الثناء لنفسه وقرآنه من الكتاب - يقصد الكتب السابقة أو كتابه المقدس - ويستشهد بهم حتى ليخيل المرء أن صاحب هذا الكلام واحد منهم) .

وهذا الكلام مثل سابقه هراء وهذيان ، وقلب للكلام ، وتحريف له عن مواضعه بصفاقة وجرأة مع قلة أدب نحو رسول الله ﷺ .

والآيات جميعها في حق المؤمنين بالرسالة المحمدية والقرآن ، وكل ما فيها بالنسبة لأهل الكتاب هو جملة (مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) وصفاً للقرآن ، وهم الذين عنتهم الآية الأخيرة قطعاً ، لأنهم أهل الملة التي كانت ملة آخر الأنبياء وملة آخر كتب الله فصاروا هم ورثة كتاب الله .
والدليل القاطع على ذلك الجملة القوية على الذين كفروا وعلى المشركين التي جاءت بعدها والتي بدأت بهذه الآية (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) ولقد جاء قبل الآيات التي يوردها الحوري هذه الآيات (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ . وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالكِتَابِ المُنِيرِ) وهذه الآيات تفيد قطعاً قصد بيان الفرق بين الذين كذبوا رسول الله ، وبين الذين آمنوا به ، ويتلون كتاب الله ويرجون تجارة لن تبور) وبالتالي إنها دليل مقدم آخر على أن الآيات هي في صدد المؤمنين بالرسالة المحمدية والقرآن ،

وجملة (إنما يخشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ) هي في حقهم أيضاً ، فهم الذين علموا ما في كون الله من قدرة ربانية ، فاستشعروا بالخوف وآمنوا . حيث جاء قبل هذه الجملة ، هذه الجملة (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوابِّ وَالأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذَلِكَ إِنَّما يَخْشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ ..) .

٨ – ويورد الحوري آيات الأنعام التي جاءت بعد سلسلة الأنبياء بدءاً من إبراهيم وهي (وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِم وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ . ذَلِكَ هُدى اللهِ يَهْدي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ . أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ . أُولئِكَ الَّذِينَ هَدى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرى لِلعالَمِينَ .. ٨٧ – ٩٠) ثم يقول : (إن القرآن يحرض محمداً على الاقتداء بهدي أنبياء الكتاب المقدس ومتابعيهم من اليهود والنصارى ، ويوعز إليه بأن هدي الكتاب المقدس هو وحده صراط القرآن المستقيم وانه ليس من محل للشك بعد هذا في أن محمداً كان يدعو إلى التوحيد الكتابي في مكة ويهتدي بأنوار الكتاب المقدس) .

وننبه على أن من المفسرين من قال : إن جملة (فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِهـا بِكافِرِينَ) قد عنت الذين آمنوا بالرسالة المحمدية كتقرير فيه تحد للذين كفروا بها الذين عنتهم الجملة السابقة للجملة (فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هَؤُلاءِ) وإن جملة (أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ) قد عنت كذلك المؤمنين بالرسالة المحمدية وان أمر (اقتده) للسامع إطلاقاً .

ومع ذلك فإننا نجاري الخوري في كون جملة (أولئكَ الَّذينَ هَدى الله) قد عنت أنبياء الله المذكورين في الآيات السابقة والمستقيمين على طريقتهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم وإن جملة (فَإنْ يَكْفُرْ بِها هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرينَ) قد عنت المؤمنين برسل الله السابقين وما أنزل عليهم من كتب المستقيمين عليها أيضاً وان الأمر (اقْتَدِهْ) هو خطاب للنبي ﷺ ، غير أن هذا شيء وما قاله تعقيباً على الآيات واستنتاجاً منها شيء آخر ، وفي تعقيبه واستنتاجه سخف وهذيان ومفارقة . وكثير من التبجح الفارغ .

ولقد بدأت السلسلة بقصة إبراهيم وحجاجه مع أبيه وقومه ، ثم ذكر فيها اهتداؤه إلى الله وحده بعد نظرته إلى الكوكب والقمر والشمس وأفولهم ، ثم حكت قوله (إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّمواتِ وَالأرْضَ حَنيفاً وَما أنا مِنَ المُشْرِكينَ) ثم أخذت تذكر الأنبياء من ذريته الذين ساروا على هداه مع ذكرها نوحاً الذي كان هداه الله أيضاً قبله ، فيكون الأمر في جملة (اقْتَدِهْ) لذلك كله . ولقد أمر الله محمداً ﷺ بأن يقول ذلك صراحة في آيات أخرى من سورة الأنعام نفسها وهي (قُلْ إنَّني هداني رَبِّي إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ . دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إبْراهيمَ حَنيفاً وَما كانَ مِنَ المُشْرِكينَ . قُلْ إنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحْيايَ وَمَماتي للهِ رَبِّ العالَمينَ لا شَريكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأنا أوَّلُ المُسْلِمينَ ١٦١ - ١٦٣) والنبي محمد مأمور بالإعلان بأنه يؤمن بجميع أنبياء الله وكتبه وبدعوة المؤمنين به إلى ذلك في آيات عديدة مكية ومدنية [1] فيتم التساوق بذلك بين أوامر القرآن للنبي .

---

(١) من الآيات المكية : (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب .. الشورى ١٥) و (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم .. العنكبوت ٤٦) ومن آيات المدينة (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل —

وليس من شك في أن جملة (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) إنما عنت الذين تابعوهم واستقاموا على هدي الله ، فصاروا موضع ثناء الله تعالى غير أن أمر الاقتداء لو سلمنا بأنه خطاب للنبي ﷺ ، فإنه بالنسبة لأنبياء الله ورسله وحسب كما يفيده نص الآيتين ٨٩ و٩٠ ، ويكون ذكر الحوري لليهود والنصارى وقوله: إن القرآن يأمر النبي بأن يتبعهم وبأن يهتدي بالكتاب المقدس إقحاماً سخيفاً وصفاقة لاتصدر إلا من غبي يظن أنه يستطيع أن يقلب الحقائق ، ويحرف الكلام عن مواضعه ، ويمشي قوله على قارئيه ، ولا سيما ان كتابه المقدس على ما هو عليه من الواقع الذي شرحناه ، وان اليهود والنصارى على ما كانوا عليه وقوره القرآن المكي من انحرافات واختلافات .

٩ – ويورد الحوري آية الأنعام هذه (أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ – ١١٤) ثم يقول (إن القرآن يقرر أنه ليس إلا تفصيل الكتاب الأول) وهذا القول ركيك سخيف ، فليس في الآية هذا الذي يقوله ، وإنما تقرر أن الله أنزل إلى النبي ومن تابعه من السامعين للقرآن كتاباً مفصلاً ، وإن الذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق ، وفرق بين هذا وبين هراء الحوري الذي يخرس عن عمد عما في الآية من معنى قوى باستقلال شخصية القرآن والرسالة المحمدية ، ثم بيقين الذين أوتوا الكتاب بأن القرآن منزل من الله بالحق ، وبما يستلزمه هذا من كونهم قد آمنوا وصدقوا ،

ـــ وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبوة من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .. البقرة ١٣٦) و (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .. البقرة ٢٨٥) .

وانضووا إلى الرسالة الجديدة بقرآنها ورسولها ، لأنهم إذا لم يكونوا قد فعلوا ذلك يكونون قد نقضوا قولهم وانحرفوا عن مستلزماته .

١٠ – ويورد الحوري آية سورة الأنعام هذه (وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ) ويقول : (إنهم كانوا يقولون للنبي إنك تلقيت ماتقول ودرسته من الكتب السابقة ، وإن القرآن يثبت التهمة ولا يرد عليها) وهذا كذب وقح ، فقد يكون في الآية حكاية قولهم ذلك ، وقد تكرر ذلك عنهم في آيات أخرى ، ومن ذلك آية سورة النحل هذه (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . .) وآيات سورة الفرقان هذه (وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . . .) ولكن القرآن لم يسكت ولم يثبت التهمة ، فقد جاء قبل آية الأنعام التي نحن في صددها هذه الآية (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ . . .) ثم جاء بعدها هذه الآية (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . . .) والآيتان السابقة واللاحقة للآية صريحتا التقرير بأن مايبلغه رسول الله هو وحي من الله وبصائر للناس ، والآية اللاحقة صريحة الأمر للنبي بالتزام ما أوحي إليه [1] . .

١١ – ويورد الحوري آيات الأنعام هذه أيضاً (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ

---

(١) ننبه على أن ما حكته آيات الفرقان من أقوال الكفار لم يبق مسكوتاً عنه ، فقد وصفت أولاً بالظلم والزور ، ثم جاءت بعدها هذه الآية (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً) .

مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ .. ١٥٤ - ١٥٧) ويقول (إن محمداً يعلن أنه ينقل القرآن عن الكتاب السابق بلسان عربي ليقرؤوه فيفهموا منه جلياً أنه درس الذي ينقله لهم ، ويدعوهم إلى دراسته ، وليس من شهادة أوضح وأصرح من ذلك على اتصال محمد بأهل الكتاب ودرسه ونقله للقرآن من الكتاب) .

وكلام الحوري سخف وهذيان وصفاقة ، فالآيات أوردت لتقطع حجة العرب وفيها تقرير صريح بأن القرآن كتاب جديد منزل من الله مبارك ككتاب موسى الذي كان للذين جاء إليهم ، وهي جملة استطرادية لذكر كتاب موسى ، فكما أن الله آتى موسى الكتاب لعل الناس يؤمنون بلقاء ربهم ، فإنه نزل القرآن المبارك الذي فيه الرحمة والبينة والهدى ، وهذا شيء ، وهذيان الحوري شيء آخر كما هو ظاهر ، وليس ينكر أن النبي ﷺ اتصل بأهل الكتاب ، فقد كان فريق منهم في مكة ، وآيات القرآن صريحة أنه اتصل بهم وأنهم آمنوا وصدقوا وانضووا إليه .

١٢ — ويورد الحوري آية سورة الرعد هذه (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ .. ٤٣) ويقول (إن محمداً يسترشد بأهل الكتاب . وكلمة يستشهد أصح ، لأنها التي تصدق على حرفية الآية ، وقد خرس الحوري أيضاً عن المعنى المنطوي في الآية وهو كون الذي عنده علم الكتاب سوف يشهد للنبي بصدق رسالته وصدق الوحي القرآني إليه ،

وكون ذلك يستتبع أن يكون الشاهد قد آمن وصدق بها ، وهذا بالإضافة إلى صفاقته في إغفال المعنى النافذ في الآية وهو أمر الله تعالى لرسوله بأن يقول : إن الله تعالى هو الشاهد الأول على ذلك ، وما في أمر الله بإعلان ذلك من المعنى النافذ الذي يبعث كل الثقة والقوة واليقين في نفسه . والكفار كانوا يثقون بأهل الكتاب ومعارفهم وشهادتهم ، فأريد بإشهادهم إفحامهم وإلزامهم كما هو المتبادر ، وليس من المعقول أن يتم ذلك إلا حين يرى الكفار أن أهل العلم قد شهدوا شهادة إيجابية ، وصدقوا وآمنوا ، وتابعوا الرسالة الجديدة ، والكتاب الجديد .

١٣ — ويورد الخوري آية الشورى هذه (وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ ..) ويقول (إن في الآية صراحة بأن النبي العربي قد اهتدى بالكتب المنزلة قبله) وفي هذا الكلام تحريف وتخريف ، فليس في العبارة القرآنيــة إلا أمر الله للنبي بأن يعلن أنه يؤمن بما أنزل الله من كتاب ، وصرف هذه العبارة عن معناها الواضح تدجيل لاقيمة له وقد جاء أول الآية وباقيها حاسمين على تدجيله وتحريفه وتخريفه ، فلم يوردهما لئلا يفتضح متوهماً أن قارئي كتبه لايقرؤون الآية جميعها ، وهو ماجرى عليه في مواقف كثيرة . وهذا نص الآية جميعــــه (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) ولقد جاءت هذه الآية بعد هذه الآية (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) وفي الآيات تقرير وتدعيم لاستقلال الرسالة المحمدية القرآنيــــة ، وحض على الاستقامة عليها

ومواصلة الدعوة إليها ، وعدم اتباع أهواء السابقين من أهل الكتاب ، فيكون في ذلك ذروة الحسم والإفحام والتكذيب والفضيحة للخوري ، وليس من تناقض بعد هذا في أمر الله لرسوله بأنه يعلن أنه يؤمن بما أنزل الله من كتاب ، لأن كتب الله ورسله يصدق بعضهم بعضاً .

١٤ — ويورد الخوري آية سورة سبأ هذه (وَيَرى الَّذينَ أوتُوا الْعِلْمَ الَّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هو الْحَقَّ وَيَهْدي إلى صِراطِ الْعَزيزِ الْحَميد ٦) ثم يقول (إن محمداً يستشهد دائماً بالذين أوتوا العلم المنزل ، وهؤلاء يشهدون بصحة تعليمه التوحيد وأحكامه ، وشهادتهم له هي حجته الكبرى ، وهذا الكلام تحريف لمدى الآية التي فيها تقرير بكون الذين أوتوا العلم يرون أن الذي أنزله الله على محمد هو الحق الهادي إلى صراط العزيز الحميد ، وفرق كبير بين هذا وبين ماية.وله ، والآية تورد كحجة على العرب الذين يثقون بعلم أهل الكتاب وشهادتهم ، وهي متضمنة لشهادتهم الإيجابية التي لايمكن إلا أن يكونوا التزموا بها بالإيمان بما علموا أنه الحق المنزل من الله الهادي إلى صراط الله العزيز الحميد ، لأن الحجة لايمكن أن تكون قد قامت على العرب إلا بذلك .

١٥ — ويورد الخوري آية سورة الأحقاف هذه (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ موسى إِماماً وَرَحْمَةً .. ١١) ثم يقول (إن محمداً يصرح نهائياً بما لايقبل الشك بأن إمام القرآن هو كتاب موسى) ويورد آية أخرى في الأحقاف جاءت قبلها وهي (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ الله وكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَني إِسْرائيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ..) ويقول (إن محمداً يستشهد بشاهد من بني إسرائيل على أن القرآن مثل التوراة لأنها إمامه) .

وفي كلام الخوري سخف ومفارقة وكذب وسوء فهم وتأويل ، فجملة (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ موسى إِماماً وَرَحْمَةً) لاتعني أكثر من

تقرير كون كتاب موسى كان من قبل إماماً ورحمة ، ولقد جاء بعد هذه الجملة جملة أخرى أهملها الحوري لأنها تفضح تمحله وهواه وهي (وَهذا كِتابٌ مُصدِّقٌ لِساناً عَرَبِيّاً ..) حيث ينطوي فيها تقرير كون القرآن أيضاً بدوره كتاب من الله جديد مستقل ، وكل مافي الأمر أنه في المصدر والمبادىء متطابق مع ماقبله من كتب الله والآية (١٠) تقرر أن شاهد بني إسرائيل قد آمن ، لأنه رأى هذا التطابق ، فلم يسعه إلا الإيمان والتصديق ، والآية قطعية الدلالة على ذلك نصاً من جهة ، ولكونها جاءت بأسلوب التحدي للكفار الذي لايكون له محصل إلا بذلك من جهة أخرى ، وقد عمي الحوري وخرس عن ذلك .

١٦ – ويورد الحوري آيات سورة الأنبياء هذه (وَمَا أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إلا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعلَمُونَ .. ٧) وهذه (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي .. ٢٤) ويقول (إن برهان محمد المتواصل على صحة دعوته هو ذكر من قبله من المؤمنين وهو التوراة والإنجيل والاستشهاد بذلك وبأهلها) والعرب كانوا يعرفون أهل الكتاب ورسالات الله وكتبه إليهم ، فالاستشهاد بهم سبيل إلى قطع حجتهم ، وليس في العبارة القرآنيه ما يغطي على استقلال شخصية الرسالة المحمدية والقرآنية وكل ما فيها تنويه بالتطابق بينها وبين ما سبقها .

١٧ – ويورد الحوري آية سورة الأنبياء هذه (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. ٩٢) ويقول (إن في الآية دليلًا على الوحدة بين دعوة محمد ومن قبله) وهذا صحيح ، وليس في هذا مايغطي على شخصية الرسالة المحمدية القرآنية المستقلة ، والآية جاءت بعد ذكر عدد من الأنبياء والرسل ، وتكون بسبيل الإيذان الرباني بأن طريق أنبياء الله ورسله وملته واحدة ، ولقد جاء قبل هذه الآية في سورة المؤمنون مع خطاب

موجه إلى الرسل (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ .. ٥١ و ٥٢) .

ومن الجدير بالتنبيه أن الآيات بسبيل تقرير وحدة طريق الله المستقيم التي عليها رسل الله وأنبياؤه . ولقد جاء بعد كل من الآيات في السورتين آية تذكر واقع أمر أتباع الأنبياء وأممهم من بعدهم وهو اختلافهم وتقطعهم زبراً وأحزاباً وهذا نص آية سورة الأنبياء (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ٩٣) وهذا نص آية سورة المؤمنون (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٥٣) . ورسول الله ﷺ هو والأنبياء أمة واحدة بنص آيتي الأنبياء والمؤمنون ٩٢ و ٥٢ حقاً ، ولكن لايكون أن يقال عنه : إنه وأتباع الأنبياء ومللهم من بعدهم أمة واحدة بمعنى على حالة واحدة مع تقرير القرآن أن أمرهم متقطع وأنهم منقسمون زبراً وأحزاباً مختلفة ، وقد جاء ﷺ برسالته الجديدة وقرآنه الجديد بتصحيح هذا الانحراف والاختلاف ، وهو ماعبرت عنه آيات سورة النحل ٦٣ و ٦٤ وسورة البقرة ٢١٣ وسورة المائدة ١٢ — ١٦ و ١٩ التي أوردناها في مطلع الفصل .

١٨ — ويورد الحوري آيات سورة النحل هذه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَانُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . ٤٣ و ٤٤) ويقول (إن القرآن يقول : اسألوا العلماء بالتوراة والإنجيل إن كنتم لا تصدقون فهم يعلمون أن ماجاء به محمد هو مثل ماتزل إليهم من قبل) ثم يقول (وإن وظيفة محمد هي تذكير الناس بما أنزل الله من قبل) .

وفي كلام الحوري تحريف مفضوح ، فليس في الآية أن وظيفة النبي

هي تذكير الناس بما أنزل إليهم من قبل ، وإنما فيها تذكير بكون الله قد نزل عليه الكتاب ليبين للناس ماجاء فيه ، وتكون الجملة استطرادية، فالعرب يعرفون أن الله أرسل الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، فتحداهم القرآن لقطع حجتهم ، ثم قرر أنه كما أرسل الله الرسل وأنزل عليهم الكتب أرسل رسوله محمداً وأنزل عليه كتابه ، فلا يكون في ذلك بدع ولا غوابة ، كما جاء ذلك في آية سورة الأحقاف هذه (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنْ الرُّسُلِ ـ ٩) بحيث تكون آيات النحل التي نحن في صددها قد قررت الشخصية المستقلة الجديدة للرسالة المحمدية القرآنية أسوة بما سبقها .

١٩ — ويورد الخوري آية سورة يونس هذه (فَإِنْ كُنْتَ في شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُوْنَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ٩٤) ويقول (إن في الآية أمراً بأن يكون علماء اليهود والنصارى شهوده وأساتذته في الدين والتوحيد) . والمفسرون مجمعون على أن الآية أسلوبية للتثبيت والتطمين على ماجرى عليه النظم القرآني ، ولقد رووا عن ابن عباس قوله في صدد الآية (لا والله ماشك ولا سأل) ومع ذلك فأين في الآية مايسوغ تبجح الخوري الفارغ ، وإساءته الأدب في التعبير بأن علماء اليهود والنصارى أساتذة محمد في الدين والتوحيد ، وكل مايمكن أن يكون فيها أن الله يأمره بالسؤال ممن عنده علم من أمر وحي الله بكتبه السابقة للتثبيت والتطمين .

وإذ يأمره الله تعالى بالسؤال منهم يعلم أنهم سيشهدون بأن ماجاءه و الحق من ربه ، وهذا يستتبع أن يكونوا قد آمنوا وصدقوا ، وهو ماحكته عنهم آيات أخرى أوردناها قبل ، وهكذا يكونون قد أصبحوا تابعين له منضوين إلى رايته ، وليسوا أساتذته في الدين والتوحيد ، ولقد غفل الخوري عن غباء أو عمد عما في الآية على كل حال من تقرير بإنزال

الله القرآن على رسوله ، وحمـا في ذلك بالتسالي من تقرير لرسالته القرآنية المستأنفة المستقلة ، وهذا وحده كاف لدحضه هو وتصوره الباطل .

وبالإضافة إلى هـذا نقول : إن الحوري إزاء هذه الآية بين أمرين لاثالث لهما مادام أنه يستند إليها ويقول : إن فيها أمراً للنبي بأن يكون علماء اليهود أساتذته في الدين والتوحيد ، فإما أنه يؤمن بأنها وحي من الله للنبي ، ولا يمكن أن يستقيم كلامه ، ولا مدى الآية إلا بذلك ، فيكون قد التزم بالإيمان بوحي الله القرآني والنبي المنزل عليه ، وإما أن لايؤمن بذلك ، فيكون قد استند إلى حجة لايؤمن بها ، وهذا غاية المماحكة والتمحل والزيف والتخبط مع سوء النية وقصد التجريح وحسب .

٢٠ — ويورد الحوري آية سورة هود هذه (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ١٧) ويقول : (إن الآية تأمر محمداً بأن لا يشك في ما أنزل إليه فهو الحق الذي يشهد به أهل العلم من مؤمني التوراة والإنجيل . وإنه يكفيه أن يكون إمامه كتاب موسى) وفي كلام الحوري تحريف وتخريف ، فالآية بسبيل الجدال مع الكفار ، والمقايسة بين ما هم عليه وما عليه النبي الذي هو على بينة من ربه ويتلو قرآناً نزل عليه منه كشاهد على ذلك ، وجملة (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) هي بسبيل تقرير كون الله تعالى كما أنزل كتاب موسى قبل القرآن إماماً ورحمة . أنزل القرآن مثله إماماً ورحمة . وضمير (بِهِ) عائد إلى القرآن ، وتكون جملة (أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) قد عنت أن الذين آمنوا بكتاب موسى يؤمنون بالقرآن أيضاً ، وهو ما حكته آيات أخرى مر إيرادها .

وفي العبارة تحد للكفار ، فإذا كان هؤلاء قد كفروا ، فإن أهل الكتب السابقة الذين عرفوا أن القرآن مثل كتبهم منزل من الله ، وأن محمداً رسول مثل رسلهم مرسل من الله قد آمنوا بها ، وهـذا يكفيه . وهكذا ينقلب مافي الآية من دلالة على الحوري ويخزيه بسبب تحريفه لها وتحريفه عنها ، حيث ينطوي فيها تقرير لشخصية الرسالة المحمدية القرآنية المستقلة وإيمان أهل الكتب السابقة بها .

ونقطة أخرى عمي عنها الحوري ضده في هذه الآية ، فقـد خاطبت خاتمتـا النبي لتؤكد له من باب التثبيت أن القرآن المنزل إليـه هو حق من ربه ، وفي هذه الخاتمة توكيد لاستقلال الرسالة المحمدية عن رسالة موسى وكتابه ، وكون رسالته وكتابه مشابهين لهما ومتفقين معهما في المصدر وحسب . والحوري إذ يستشهد بالآية يكون بين أمرين : إما أنه مؤمن بأنها وحي من الله ويستشهد بها على هذا الاعتبار ، فبطلت حجته الزائفة ، وإما أنه لايؤمن بها فظهر تمحله وغرضه وغباؤه .

٢١ – ويورد الحوري آيات سورة السجدة هذه (وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ في مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَني إِسْرائيلَ . وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ .. ٢٣ و ٢٤) ويقول (إن الآيات تقول لمحمد : لا تشك في اتصالك بكتاب موسى بواسطـة بني إسرائيل ، فإنهم يهدون بأمرنا إلى هـدي الكتاب كما يفعلون معك) . وفي هـذا الكلام تحريف وتحويف أيضـاً ، فالآيات صريحة بأن كتاب موسى إنما كان هدى لبني إسرائيل ، وإنهم إنمـا كان فيهم أئمـة يهدون بأمر الله حينما كانوا مستقيمين صابرين موقنين بآيات الله ، وليس فيها ما تخرص به بأنهم يهدون النبي وكل ما فيها توكيد تثبيتي للنبي بأن الله آتى موسى الكتاب ، وجعله هدى لبني إسرائيل فكأنما أرادت أن تقول له والله أعلم (وكما كان ذلك بالنسبة لموسى كان

بالنسبة لك فآتيناك القرآن) .

ولقد عمي الخوري عن الآية التي بعد الآيتين لأنها تنسف كلامه ، وتظهر وقاحته وتخرصه ، وهي (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) . فهذه الآية من جهة دليل قاطع على أن ما جاء في صدد كتاب موسى وبني إسرائيل والأئمة الذين جعلهم الله منهم لهداية الناس هو في شأن موسى وبني إسرائيل بالنسبة لسابق أمرهم ، ومن جهة دليل قاطع على أنهم حينما نزلت الآيات القرآنية كانوا مختلفين فيما بينهم ومتنازعين ومنحرفين عن الحق . ففقدوا بذلك ما منحهم الله إياه من إمامة سابقة حينما كانوا صابرين مستقيمين ، وفي هذا نسف لكلامه الأخير ، لأن من كان على هذه الحالة من الاختلاف والانحراف لا يصح ولا يمكن أن يكون معلماً للنبي ، ولقد جاءت آيات سورة المائدة هذه (وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ .. ١٢و١٣) مقررة لتلك الحالة ، ودامغة لليهود ، ثم دامغة للخوري الذي يريد أن يجعل الذين نقضوا ميثاق الله واستحقوا لعنته ، وجعل الله قلوبهم قاسية ، ومن يحرفون كلام الله ، ونسوا حظاً منه ، ومنهم من هو متلبس دائماً بالخيانة معلمين هادين للنبي ﷺ .

٣٢ – ويورد الخوري آية سورة العنكبوت هذه (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا

إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ - ٤٧)
ويقول إن الآية (بصدد تقرير كون اليهود والنصارى متفقين مع محمد على وحدة الكتاب ووحدة الوحي ، ووحدة الإيمان ، ووحدة الدين ، وكون أهل الكتاب شهداء على أن الكتاب الذي أنزل عليه مطابق لكتاب الذي أنزله الله من قبل) وهذا تخرص منه ، وليس مفهوم الآية الذي أغفله الحوري عن قصد حتماً ، وهو تقرير إيمان أهل الكتاب بالقرآن ، لأن الضمير في (به) راجع إلى القرآن الذي عبرت عنه الآية بهذه الجملة (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ) . وفي الآية في نفس الوقت توطيد لشخصية الرسالة المحمدية القرآنية .

ولقد جاء قبل هذه الآية هذه الآيات (اُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ . وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .. ٤٥ و ٤٦) . وفي الجملة الأولى من الآية الأولى توطيد آخر لشخصية الرسالة المحمدية القرآنية ، وفي الآية الثانية خطة للمسلمين إزاء من يجادلهم من أهل الكتاب ، وفي هذا معنى الشخصية المستقلة لكل من الفريقين . ولسنا نرى تناقضاً بينها وبين ما قررته الآية التي بعدها من إيمان أهل الكتاب بالقرآن والحالة هذه ، إذ يجوز أن يكون منهم من جادل أو يحتمل أن يأتي منهم من يجادل .

٢٣ - وقد أورد الحوري آيات سورة الشورى هذه (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . وَكَذَلِكَ

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ٥١ - ٥٣) .

ومع أنه لا صلة للآيات مباشرة بالموضوع الذي يدير عليه الحوري الكلام ، وفيها نص دامغ له بوحي الله للنبي ﷺ فإنه بعد أن أوردها في سلسلة الآيات (تساءل وكيف كان واسطة الوحي للنبي العربي ، ثم أجاب نفسه قائلاً : إنها بواسطة الإيمان بالكتاب الذي نزل قبله والذي جعله الله نوراً يهدي به من يشاء ، فاهتدى ابن عبد الله إلى صراط الله المستقيم ، فبواسطة الكتاب المقدس آمن واهتدى وهدى) وهذا الكلام أشبه بالهذيان منه بأي شيء آخر ، وليس في الآيات ما يفيد ما استخرجه منه وهذى به ، لا من قريب ولا من بعيد ، ولقد جعل كل مزية محمد ﷺ وقرآنه ورسالته وهداه منوطة بكتابه المقدس الذي يضم الأسفار التي فيها ما فيها من عجائب وغرائب وليس منها توراة الله وإنجيله .

ولقد وضع الحوري ضمة على تاء (لتهدي) إيغالاً في تحريف الكلم عن موضعه ، وانسياقاً في تأويله بالهوى حتى لا يكون المعنى أن النبي يهدي الناس إلى صراط الله المستقيم ، غافلاً عن أن في القرآن المكي آيات عديدة فيها هذا المعنى مثل آيات سورة إبراهيم هذه (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .. ١) وسورة المؤمنون هذه (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .. ٧٣) ومع ذلك فلا ينقص من قدر النبي كما توهم الحوري أن يقرر القرآن أنه (يُهدي إلى صراط مستقيم) !

٢٤ – ولقد رأى الحوري آيات سورة القصص هذه (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا

آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ .. ٥٢ و ٥٣) تحكي وصف أهل الكتاب أنفسهم بالمسلمين قبل نزول القرآن ، ثم رأى آية في سورة النمـــل تذكر أن النبي ﷺ أمر بأن يكون من المسلمين وهي هذه (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ ٩١) فربط بين ذلك وقال : إن في آية النمل دليلاً على انضمام محمد إلى أهل الكتاب في مكة وتضامنه معهم بل زعم أن هذا الدليل موجود في آية سورة يونس هذه (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ .. ١٠٤) لأن المؤمنين الذين أمر النبي بأن يكون منهم هم أهل الكتاب .

والضمير في (به) وفي (يتلى عليهم) في آيات سورة القصص عائد إلى القرآن . لأنه هو الذي كان المفروض وحده الذي كان يتلى عليهم وفي الآيات السابقة لها دليل قطعي على ذلك إذا كان الأمر يحتاج إلى دليل وهذا هو (وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ . فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ . قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ . وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .. ٤٧ ـ ٥١) فجاءت الآيات ٥٢ ـ ٥٥ بعدها لإفحامهم وتحديهم ، فإذا لم يؤمنوا بالقرآن والرسول ، فإن الذين

أوتو الكتاب كانوا مؤمنين بها وإذا يتلى عليهم القرآن قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا . وهم أهل المعرفة أكثر منهم . وهكذا يكون الدليل قد انعكس ضد الحريري ، لأن الذين أوتوا الكتاب هم الذين انضموا إلى محمد لا العكس ، وظهر بذلك غثاثة استدلالاته واستنتاجاته التي يمليها عليه الهوى مهما كان فيها غباء وصفاقة .

وننبه في هذه المناسبة إلى أمر مهم وهو أن كلمات الإسلام والمسلمين في القرآن المكي ، بل والمدني إنما تعني في الدرجة الأولى إسلام النفس لله ، ولم تكن تعني في الأصل صفة خاصة لأهل نحلة أو ملة ما في ذلك اليهودية والنصرانية مما يتمثل في الآيات التالية :

١ - وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ .. [البقرة : ١١١ و ١١٢] .

٢ - وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمونَ .. [البقرة : ١٣٠ - ١٣١] .

٣ - إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالعِبادِ .. [آل عمران : ١٩ و ٢٠] .

٤ - وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى وَإلى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ .. [لقمان : ٢٢] .

وهذا هو المقصود من وصف أهل الكتاب أنفسهم بأنهم كانوا مسلمين قبل القرآن في آيات القصص بحيث يبدو من كل ذلك أن محاولة الحوري جعل هذه الكلمة صفة خاصة أو تسمية خاصة لأهل الكتاب قبل الإسلام استناداً إلى القرآن متهافتة ، ولقد ورد في القرآن المكي ثم المدني آيات عديدة ، فيها تخصيص في الخطاب للنبي ﷺ وأتباعه ، من ذلك هذه الآيات التي فيها أمر النبي وأتباعه بأن يسلموا لله :

١ - قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّموات وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ .. [الأنعام : ١٤] .

٢ - قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلى الهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدى اللهِ هُوَ الهُدى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ .. [الأنعام : ١٨] .

٣ - قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لمَّا جَاءَنِيَ البَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ .. [غافر : ٦٦] .

ومن ذلك آيات تأمر النبي بأن يكون الإسلام لله هو طابع دعوته وأن تكون صفة المسلمين صفة الذين يتبعونه كما ترى فيما يلي :

١ - قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .. [البقرة : ١٣٦] .

٢ – آيات سورة آل عمران ١٩ و ٢٠ التي أوردناها قبل قليل

٣ – ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.. [آل عمران : ٦٤] .

٤ – ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.. [الأنعام : ١٢٥ – ١٢٧] .

٥ – ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ . [هود : ١٤] .

٦ – ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.. [النحل : ٨٦] (١) .

ومعنى (إسلام النفس) ملموح في جميع هذه الآيات كما هو ظاهر ، وكل ما تقدم يثبت أن صفة الإسلام والمسلمين للنبي وأتباعه ليست مستعارة من غيرهم من قبلهم ، وإنما هي أصيلة لهم استقلالاً ، هذا بقطع النظر عن أنه ليس مما ينقص خطورة هذه الصفة لهم كونها كما يريد أن

---

(١) هناك آيات عديدة أخرى من هذا الباب . انظر آيات سورة النحل ٨٩ و ١٠١ الأنبياء ١٠٨ والنمل ٨١ والروم ٥٣ والزمر ١٢ و ٥٤ والزخرف ٦٨ و ٦٩ والقلم ٣٥ .

يوهمه الحوري صفة أنبياء الله، والمستقمين على دينهم من أتباعهم وذرياتهم، فدينهم ودين النبي محمد ﷺ واحد، وصفاتهم والحالة هذه متساوقة.

ومع ذلك فحكمة الله ورسوله اقتضت أن يكون اسم (الإسلام) و (المسلمين) هو اسم مستقل دائم لدين النبي محمد ﷺ وأتباعه، وهذا مستفاد بنوع خاص من آيات سورتي المائدة والحج المدنية هذه.

١ - الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً .. [المائدة: ٣].

٢ - وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. [٧٨: الحج].

وبعض المفسرين يقولون: إن الضمير (هو) في آية الحج يعني إبراهيم، وبعضهم يقولون: إنه يعني (الله) وفي سورة البقرة هذه الآية التي فيها حكاية دعاء عن لسان إبراهيم وإسماعيل (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) مما قد يكون قرينة على القول الأول، كما أن آيات البقرة ١٢٨ وآل عمران ٦٤ وهود ١٤ والنحل ١٠١ والنمل ١٠١ وقد أوردناها آنفاً قد تكون قرينة على القول الأول.

ويظهر أن آية الحج قد وقفت في زور الحوري وكادت أن تخنقه، فما كان منه إلا أن قال (شُعر - بضم الشين - أن القرآن أخذ اسم الاسلام عن أهل الكتاب) كأنما أراد أن يقول: إن الآية جاءت للرد على ما شُعر ولتثبيت كون التسمية هي من الله، وليست مقتبسة عن أهل الكتاب، وبكلمة أخرى أراد أن يقول: إنها افتعلت افتعالاً فض الله فاه وكبرت كلمة تخرج منه، وقد شرحنا قبل ما يعنيه القرآن بالنسبة للنبي ولأصحابه الأولين، واستحالة افتعالهم قرآناً مفترى على الله، ونبهنا على أن

مثل هذه القضايا لم تكن واردة في زمن النبي وأصحابه الأولين حتى تفتعل النصوص القرآنية الرد والتخفيف ، ولكن قاتل الله الحقد والهوى اللذين يمليان على الحوري .

وقبل أن نختم هذه النبذة نقول : إن الحوري يقع وهو يحلل هذه الآيات بطريقته التمحلية المتهافتة ليستخرج منها مايؤيد هواه ومزاعمه في تناقض عجيب ، فإن مقتضى استناده إليها أنه يؤمن بصدق وحيها من الله على نبي من أنبياء الله . وهذا يقتضي أن يكون مؤمناً بنبوة هذا النبي وبالتالي مؤمناً بأنه لايكذب ولا يفتري على الله . فيكون مافي القرآن من آيات لاينكرها ، ولا يتحفظ إزاءها ملزماً له . وفي القرآن المكي والمدني آيات كثيرة لاينكرها ، ولا يتحفظ إزاءها ، وفيها المعنى الذي يتمحل في تأويله ، ويحاول صرفه عن موضعه في الآيات التي أوردناها في هذه النبذة صريحاً لايتحمل مراء ولا تمحلاً ، ويقف الحوري إزاءها ساكتاً مسلماً .

ونوضح ذلك بهذا المثال ، فالحوري يقول : إن القرآن يأمر النبي بأن يقول : إنه أمر أن يكون من المسلمين في آية النمل (٩١) ويؤول ذلك بأن فيه أمراً له بالانضمام إلى المسلمين من قبله الذين هم أهل الكتاب ، والذين حكت آية القصص (٥٣) قولهم : إنا كنا من قبله مسلمين . فلنسلم بتأويله لآيتي النمل والقصص على الوجه الذي أولهما به ، ولنسلم كذلك ربطه بين الآيتين مهما كان في ذلك من تمحل بما شرحناه قبل ، ويبقى الحوري على كل حال مقراً بأن آية النمل وحي رباني على نبي ، ويكون بذلك قد التزم بأن النبي الذي يوحى إليه لايمكن أن يكذب ، وفي سورة العنكبوت هذه الآية (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. ٤٧) ولا يدعي الحوري أنها مقحمة . وفي سورة المائدة هذه الآيات (يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ

كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .. ١٥ و ١٦) ولا يدعي الحوري كذلك أن هذه الآيات مفتعلة .

ولقد كان من واجب الحوري ديناً وعقلاً وذوقاً إزاء هذا الا يتمحل تلك التمحلات بقصد صرف الآيات عن موضعها ، وبكلمة أخرى بقصد القول : إنها لاتنطوي على أمر لأهل الكتاب باتباع الرسول وإنما تنطوي على تقرير كون هذا الرسول هو تابع لأهل الكتاب .

ولكنه في الحقيقة غير جادّ فيما يتظاهر أنه مسلم به ، وكل أمره هو التمحل والمماحكة والتجريح والطعن مهما كان في ذلك غباء وغثاثة وتهافت وتناقض وسوء أدب وذوق .

وكل ماتقدم يمكن أن يقال في كثير من تمحلات الحوري ومواقفه من القرآن والنبي .

- ١٢ -

ولقد قال الحوري : إن الدعوة المحمدية في مكة كانت كتابيـــة في قصصها ، وهو يعني القرآن المكي بطبيعة الحال ، وما قاله هو نصف الحقيقة ، وقد تغافل بهواه عن نصفها الآخر ، وأهمله حيث تناسى أن في القران قصصاً كثيرة غير كتابية ، مثل قصص عاد وثمود وشعيب ومدين ، وأهل الأيكة ، وقوم تبع ، وأهل الرس ، وسبأ ولقمان ، وذي القرنين الخ ..

ولقد كان نبهاء العرب يعرفون قصص الكتابيين قليلاً أو كثيراً كما يعرفون القصص العربية ، وفي القرآن إشارات إلى هذه المعرفة مثـــل آية سورة الأنبياء هـذه (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ .. ٥٥) وآية سورة القصص هذه (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا

أُوتِيَ مُوسى .. ٤٨) وآية سورة العنكبوت هذه (وَعاداً وَثَمودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .. ٣٨) وآية سورة السجدة هذه (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ القُرُونِ يَمْشُونَ في مَساكِنِهِمْ إِنَّ في ذلكَ لآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُون .. ٢٦) .

وهذه المعرفة واردة بالنسبة للنبي ﷺ أيضاً .

والهدف القرآني منها هو العبرة والموعظة والتذكير والتمثيل ، فلم تكن معرفة السامعين السابقة متعارضة مع وحي الله للنبي بما أوحى إليه منها بالأسلوب الذي أوحيت به ، وبالصيغ المتعددة المتكاملة المتنوعة التي جاءت عليها حيث اقتضت حكمة التنزيل ذلك لتحقيق ذلك الهدف ، فليس في هذا شيء يتحمل تحملاً أو وصفاً بأنه اقتباس ، أو أنه تأثير كتابي أو اختصاص كتابي .

ولقد قال الحوري : إن الدعوة المحمدية كانت كتابية في جدلها ، ولم نفهم مايقصد من ذلك ، فالجدل في القران المكي كان في الدرجة الأولى بين النبي وكفار العرب ، وليس فيه شيء يصح أن يسمى كتابياً إلا إذا كان الحوري يعدّ من ذلك ما ورد في أثناء ذلك وسياقه من تقرير وحدة الله تعالى ومحاربة الشرك والأوثان ، وليس في هذا سند له في دعواه ، فالتوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها منذ الأزل ، كما جاء في آيات سورة الروم هذه (فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنيفاً فِطْرةَ الله الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لخَلْقِ الله ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا لا يَعْلَمُون . مُنيبينَ إليه واتَّقُوهُ وأقيمُوا الصَّلاةَ ولا تكُونُوا مِنَ المُشرِكين . مِنَ الَّذينَ فرَّقُوا دينَهُمْ وكانُوا شيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لدَيهِمْ فَرِحُونَ .. ٣٠ - ٣٢) .

ولقد كان من أثر فطرة الله هذه أن انبثق في قلوب فريق من نبهاء

العرب في مكة وغيرها قبيل البعثة استسخاف لما كان عليه قومهم من عقائد وتقاليد شركية ووثنية ، واتجاه إلى توحيد الله وعدم إشراك أحد معه وعبادته وحده ، ومنهم من تهوّد ، ومنهم من تنصر ، ومنهم من لم يفعل ذلك لما كان عليه اليهود والنصارى من انحرافات واختلافات ، وظل على ذلك الاتجاه مع شيء من الحيرة ، وكان من هؤلاء محمد ﷺ ، فاصطفاه الله من بينهم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وبث فيه اليقين ، وحمّله مهمة الدعوة إلى الله وحده ومحاربة الشرك والوثنية وتقاليدهما ، وتصحيح عقـائد وانحرافات الكتابيين .

ومن الجدير بالتنبيـه أن الدعوة إلى الله وحده ، ومحـاربة الشرك والوثنية في ماعزي إلى موسى والأنبياء من قبله وبعده في الأسفار المتداولة ليس موضوعاً جدلياً حتى يصح القول : إن ذلك في القرآن هو جـدل كتابي ، بل لقد كانت الخطة التي رسمت في بعض هذه الأسفار معزوة إلى الله ورسله ، وهم منزهون عنها تقضي باستئصال كل مشرك ، وكل وثني وقتله بما فيهم الشيوخ والأطفال والنساء دون توجيه أي دعوة إليهم لتوحيـد الله ونبذ الشرك والأوثان ، وتقضي كذلك بعدم إتاحة أية فرصة لهم لذلك كما جاء صراحة في سفر تثنية الاشتراع .

ولئن كان الحوفي يعد إيراد القصص في القرآن في مقام الجدل مـع العرب من الجدل ، فهي ليست كتابية قط .

ولقد كان من مواضيـع الجدل القرآني المكي عقائد المشركين بالملائكة والجن وعبادتهم إياهم مستشفعين بالأولـين مستعيذين من الآخرين ، وليس هذا جدلاً كتابياً

وأكبر الجدل في القرآن المكي هو حول البعث الأخروي ومشاهده وصور حسابه ونعيمه وعذابه . وهذا يندر في الأسفار المتداولة التي يعنيها الحوفي فيما يعنيه بقوله (كتابية) . وليس هو على كل حال جدلياً فيها ، وليس فيها

شيء من الصور والمشاهد الكثيرة جداً التي امتلأت بها السور المكية ، ومعظمها متساوق مع مألوفات العرب السامعين وممارساتهم .

ولقد كان من أكثر مادار عليه الجدل بين النبي ﷺ والكفار ، وحكته آيات كثيرة في سور عديدة من السور المكية في مختلف أدوار التنزيل شخصية النبي ذاته . حيث كانوا ينكرون نبوته ورسالته ، ويقولون حيناً : إنه ساحر ، وحيناً إنه مسحور ، أو كذاب ، أو مفتر ، أو كاهن ، أو شاعر ، أو ناقل عن كتب السابقين وأساطيرهم ، أو متعلم من أهلها ، ويتحدونه بالخوارق والمعجزات التي كان من جملتها استنزال الملائكة للشهادة بصدقه ، واستنزال الكتب والصحف عليهم من السماء ليقرؤها حتى يصدقوا دعواه ، وإحياء آبائهم ليشهدوا بصدق إنذاره بالبعث والحساب والثواب والعقاب ، وإسقاط السحب وتسيير الجبال الخ الخ وليس هذا أسلوباً اسفارياً . حيث يبدو من كل ذلك أن الحوري يرسل الكلام جزافاً بدون ترو ولا تثبت ولا إحاطة .

ولقد قال الحوري : إن الدعوة المحمدية في مكة كانت كتابية في مصادرها ، وما ذكرناه آنفاً ينسف هذا القول ، ويثبت أن للقرآن شخصيته المستقلة في الدرجة الأولى ومواضيعه الكثيرة الخاصة التي يتميز بها ، والتي ليس بين كثير منها بل أكثرها وبين الأسفار تماثل ، وان في قوله هذا تجنياً كبيراً على الواقع الذي هو بين أيدي الناس ، والذي لايمكن للخوري وأمثاله أن يغيروه بزعم جزافي مخالف له .

ولقد قال الحوري أخيراً : إن الدعوة المحمدية في مكة كانت كتابية في موضوعها .

ومن الحق أن نقول : إن في الآيات المكية تقريراً متكرراً بأن ماجاء في القرآن هو مصدق لما بين يديه ، وأن الله تعالى قد أوحى إلى نبيه محمد ﷺ في القرآن بما أوحى في كتبه السابقة إلى أنبيائه السابقين

الذين ذكرت أسماء كثير منهم في الأسفار، وأن الله قد شرع للمدعوين بالدعوة المحمدية من الدين ما وصى به الأنبياء من قبله أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، غير أن الدعوة المحمدية كانت متميزة بما كان من تبرؤها من تعقيد العقيدة المسيحية، وتعقيد الطقوس الشديدة في الشريعة الموسوية وكانت رسالة إنسانية عالمية باسم رب العالمين لا رب إسرائيل، مفتوحة لكل جنس ولون ونحلة، وليست مغلقة عدوة لكل جنس ولون ونحلة من غير بني إسرائيل، وكل من يقرأ أسفار الخروج والأحبار والعدد وتثنية الاشتراع ويوشع وعزرا، ثم يتصفح القرآن المكي يرى مصداق ذلك قوياً ساطعاً، ويرى في زعم الحوري مجانبة للواقع ومخالفة صارخة له.

وقد تكون الدعوة المسيحية مختلفة عن ما في أسفار العهد القديم في هذه النقطة، وبينها وبين الدعوة المحمدية تماثل، غير أن في الدعوة المحمدية أو الأسلوب القرآني أشياء كثيرة يجعلها متميزة تميزاً كبيراً عن الأسلوب الأنجيلي، والأسلوب الأسفاري المعروف معاً.

ولقد كان من مواضيع القرآن المكي الرئيسية التي تكررت بأساليب وصيغ ومناسبات متنوعة في أكثر السور المكية مواضيع مشاهد الكون ونواميسه من سماء ونجوم وبروج وأفلاك وسحاب وأرض وأمطار وبحار وجبال وأنهار وزروع وأشجار وأنعام ودواب وطيور وأسماك الخ في معرض تعداد نعم الله على خلقه، والتدليل بما في كل ذلك من إتقان وإبداع وعظمة على وحدانية الله تعالى واستحقاقه وحده للعبادة والخضوع والاتجاه، وليس هذا أسلوباً اسفارياً أو انجيلياً أو كتابياً على تعبير الحوري. — والحوري حين يقول: كتابي يقصد الأسفار المتداولة — وليس في هذه الأسفار من ذلك إلا إشارات عابرة.

ومن المميزات الخاصة في النظم القرآني المكي كثرة الأقسام الربانية في مطالع السور وفي آياتها الأخرى، وهذه ميزة من ميزة الخطاب العربي،

وليس في الأسفار ما يماثلها ، ومن تخبط الحوري أنه اعترف بذلك ، وأقر في بعض المناسبات أنها مخالفة للأسلوب الإنجيلي ، وبكونها من مميزات الخطاب العربي .

ويتغامى الحوري وهو يقول : إن القرآن المكي كتابي في مواضيعه ما في أسفار الخروج والأحبار والعدد من تفصيلات مسهبة ومعقدة وعجيبة في مواضيع الطقوس الدينية والكفارات والنجاسات والطهارات والدم والبرص والسيلان والحيوانات البرية والبحرية والطائرة المحرمة وغير المحرمة . وكيفية إقامة المعبد ومقاييسه وأعمدته وأوانيه وأدواته وستائره ومناضده الخ الخ مما ليس في القرآن أية مماثلة له .

هذا إلى مواضيع قرآنية مكية عديدة ليست إنجيلية ولا أسفارية مثل فرض الزكاة بقدر معلوم على أموال أصحاب الأموال للسائلين والمحرومين ، ومثل وصف أحوال وأخلاق المسلمين الشخصية والتعبدية والاجتماعية ، ومثل التنويه بخاصة بأنهم أمرهم شورى بينهم ، وأنهم إذا أصابهم البغي ينتصرون منه ، وأنهم مسموح لهم بأن يقابلوا العدوان بمثله ، ومثل تقرير إنسانية المرأة ، واعتبارها في الخطاب والتكاليف صنواً الرجل ، وتوجيه الخطاب إليها وإلى الرجل معاً في ذلك .

- ١٣ -

ولقد ذكرنا في مطلع الفصل أن الحوري قسم عهود النبي في مكة إلى عهدين الأول هو العهد المسيحي ، وزعم أن سور القرآن المكية من أولها إلى سورة مريم الرابعة والأربعين حسب ترتيب نزولها تمثل هذا العهد ، وأن سورة مريم تمثل ذروة ذلك . والثاني العهد الإسرائيلي الذي تمثله السور من الخامسة والأربعين إلى السادسة والستين ثم قال : إنه كان بعد ذلك عهد تردد واستطلاع إلى الاستقلال عن أهل الكتاب . وكان ذلك في أواخر العهد المكي ، لأن اليهود في الطائف ردوا النبي رداً غير جميل .

والسور الأربع والأربعين التي يزعم الحوري أنها تمثل العهد المسيحي حسب ترتيب النزول هي الفاتحة والعلق والقلم والمزمل والمدثر والمسد والتكوير والأعلى والليل والفجر والضحى والشرح والعصر والعاديات والكوثر والتكاثر والماعون والكافرون والفيل والفلق والناس والإخلاص والنجم وعبس والقدر والشمس والبروج والتين وقريش والقارعة والقيامة والهمزة والمرسلات وقاف والبلد والطارق والقمر وصاد والأعراف والجن ويس والفرقان وفاطر ومريم .

ومما يسوقه في معرض التدليل على زعمه كثرة ورود كلمة (الدين) في هذه السور التي تعني يوم القيامة والجزاء والتي تكرر ورودها في الأناجيل . وقد اعتبر تعبير (أبانا الذي في السموات) الذي في الأناجيل أصلاً للتعبير القرآني (رب العالمين) و (الرحمن الرحيم) كما اعتبر كثرة الدعوة الى التصدق على الفقراء والمساكين ، والتنديد بجامعي المال وحبه ، وإيجاب الزهد فيه مماثلاً لما جاء في الأناجيل من مثل ذلك على لسان عيسى عليه السلام ، وبالتالي من مصادر القرآن على ما بين الأسلوبين ومادتها من فرق كبير يظهر عند المقارنة ولقد تصيد كلمات وتعبيرات أخرى أخرى في هذه السور مثل كلمات (الساعة) و (انشقاق القمر) و(ظلامه) ومثل (الحق والحق أقول) ومثل آية الأعراف (إنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) ومثل آية الأعراف (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) بسبيل التدليل على ذلك ، لأن في الأناجيل كلمات وعبارات وتعبيرات مقاربة لها ، ومن ذلك مثلاً آية في الأناجيل جاء فيها (إنه لأسهل أن يدخل الجمل في ثقب الابرة من أن يدخل غني ملكوت السموات) وآية أخرى في بعض الأناجيل جاء فيها (تعالوا يامباركي ربي رثوا الملك المعد لكم

منذ إنشاء العالم) والسور التي تأتي بعد سورة مريم ، والتي يزعم الحوري أنها تمثل العهد الإسرائيلي إلى السادسة والستين هي حسب ترتيب النزول سور طـه والواقعة والشعراء والنمل والقصص والإسـراء ويونس وهود ويوسف والحجر والأنعـام والصافات ولقمان وسبأ والزمر وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف . وقـــد نبه بسبيل التدليل على زعمـه على ما كثر في هـذه السور من قصص بني إسرائيل المتنوعة وذكرهم .

ومزاعم الحوري هي هراء وهذيان أكثر منه أي شيء آخر .

فكلمة (الدين) عربية ، وقد تكرر ورودها حقاً في الترجمة العربيـة للأناجيل ، وليس من شك في أن لغة الأناجيل الأولى ليس فيها هذه الكلمة بلفظها ، وكل ما يمكن أن يكون أنها احتوت معناهـا وهو يوم القيامة ويوم الحساب والجزاء وهذا معنى مشترك لا يصح أن يؤخذ كأنه مقتبس من معنى ورد في الأناجيل ، واعتبار ذلك من الأدلة على أن عهد القرآن الأول في مكة هو عهد مسيحي ، ففي هذا سخف وتهافت ، ومثل هـذا يقال في مقارنة تعابير القرآن (رب العالمين) و (الرحمن الرحيم) بتعبير (أبانا الذي في السموات) الإنجيلي ، وفي صدد العبارات الأخرى التي فيها شيء من التقارب والتماثل في المعنى والموضوع ، ولا سـيما أنه شيء قليل جداً .

ولقد عمي الحوري عن مئات الصور والأساليب والتعابـير والمواقف والأهداف والمبادىء والقصص والأمثال التي في السور الأربع والأربعين الأولى ، والتي ليس شيء منها في أناجيله كما عمي عما تميزت به هذه السور من أسلوب فذ فريد لا يمكن أن يقايس موضوعاً ومدى ومحتوى مع الأناجيل ، والسور والأناجيل بين أيدي كل النـــاس ، ويقتضي أن يكون المرء فاقداً لذوقه وعقله حتى يسوق مثل الأمثلة التافهة التي يسوقها

الحوري ويقارن مثل المقاونات التي يقارنها ليجعل من ذلك سنداً على الدعوى السخيفة التي يدعيها .

وأين في أناجيل الحوري ومن أين جاء ما في هذه السور من تفصيلات الحياة الاخروية ومشاهدها وحساباتها وكتب أعمال الناس والملائكة الذين يكتبونها ونعيم الجنات ورفاهها وطيورها ولحومها وجمالها وشرابها وحور عينها وسررها وظلالها وأشجارها ومياهها وطقسها وجحيم النار ، وحميم مائها وزقومها وغسلينها وضريعها التي امتلأت بها هذه السور والتي كان القرآن بها فريداً .

وأين في أناجيل الحوري ، ومن أين جاء مافي هذه السور من أحوال وأخبار الملائكة والجن وعلاقاتهم بالله والناس وخدمة الملائكة لله متنوع الخدم ، وقصة إبليس وآدم ، وسجود الملائكة إلا إبليس مما انفرد به القرآن أيضاً .

وأين في أناجيل الحوري ومن أين جاء ما في هذه السور من التنويه والتفصيل لمشاهد الكون وسمائه وأرضه وكواكبه وبحاره وأنهاره وجباله وسحبه ومطره .

وأين في أناجيل الحوري ومن أين جاء ما في هذه السور من الأقسام التي تكررت كثيراً والتي هي أسلوب خطابي عربي في الدرجة الأولى .

ولقد عمي الحوري بالإضافة إلى ما عمي عنه من كل ذلك عن كون معظم ما ورد منه في السور هو متصل بحياة وممارسات ومألوفات البيئة العربية التي نزل القرآن فيها لدعوة أهلها في المرحلة الأولى من مراحل رسالة النبي ﷺ ، كما عمي عما احتوته السور من صور ومواقف حجاجية بين النبي والمشركين ، ومن صور عقائد المشركين وأوثانهم وعقيدتهم بكون الملائكة بنات الله وعبادتهم إياهم على سبيل الاستشفاع ، واتخاذهم الأوثان والأنصاب كرموز مادية لهم مما ليس منه شيء في الأناجيل ، ومما يختلف

كل الاختلاف مما جرى وكان من مواقف بين عيسى عليه السلام وبني إسرائيل[1] .

وسورة مريم التي يقول الحوري : إن العهد المسيحي المكي بلغ بها ذروته احتوت تقريرات صريحة عن عيسى عليه السلام ينكرها النصارى اليوم ، ولم يبقوا من الأناجيل والقراطيس شيئاً بينه وبين تقريرات القرآن مطابقة صريحة ، ومعنى هذا أن مافيها في صدد عيسى ومريم وزكريا ويحيى هو حكاية ما كان مع تقرير عبودية عيسى لله ونبوته وحسب ، وضلال الذين جحدوا ذلك ، واختلاف أحزابهم فيه . وليس في هذا مايسيغ لعاقل أن يعتبر ما جاء في سورة مريم منه ذروة تأثير العهد المسيحي في القرآن . وهذا بالإضافة إلى مافي هذه السورة من فصول وقصص ليس منها شيء في الأناجيل ، ومن ذلك ماهو متصل اتصالاً وثيقاً بعقائد العرب ومواقفهم من الدعوة المحمدية .

ونسأل من باب المساجلة عن محصل تطابق في بعض المعاني القليلة في العبارات القرآنية مع بعض المعاني الإنجيلية . ولماذا يكون ذلك سنداً لاقتباس القرآن عن الأناجيل ، وفي القرآن ما ذكرناه من مئات الصور والمشاهد والشؤون مما ليس شيء منه في هذه الأناجيل . وإذا كانت حوصلة الحوري تتسع لعقيدة وحي الله لأنبيائه بأوامره ونواهيه وتعليماته وأمثاله ومواعظه وتبشيراته وترهيباته ، وإذا كان الله هو الذي أجرى على لسان عيسى تلك العبارات وهذا مقتضى عقيدة الحوري ، فما هو المانع العقلي والإيماني والواقعي من أن يكون الله تعالى هو الذي أجراها على لسان رسوله محمد ﷺ ، ولماذا تكون وحياً من الله على عيسى ، ولا تكون كذلك على محمد ؟ !

---

(١) قد يلحظ أن في الكلام تكراراً ، لأن كثيراً مما ذكرناه هنا ذكر في سياق تفنيد دعوى كون مواضيع القرآن كتابية ، غير أن هذا التكرار ضروري في مقامه .

وفي القرآن المكي آيات عديدة تسجل إيمان الكتابيين الذين كانوا في مكة بالنبي والقرآن وشهادتهم أنهما حق من الله، وانضوائهم إليهما، وقد أوردناها قبل. وجل هؤلاء كانوا نصارى، وهذا يعني أن القرآن ومحمداً ﷺ هما اللذان أثرا على المسيحية لا العكس.

ولقد عزا الكفار تعليم النبي ﷺ إلى بعض هؤلاء وقالوا: إنهم يساعدونه في نظم القرآن من أساطيرهم وكتبهم حينما رأوا ما كان من اندماجهم معه وانضوائهم إليه، فرأت حكمة التنزيل أن تذكر ذلك، وترد عليه كما جاء في هذه الآيات:

١ - وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ. إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لا يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ.. [النحل: ١٠٣ - ١٠٤][1].

٢ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً. [الفرقان: ٤ - ٦].

فغفل خوري آخر الزمان عن ذلك، أو أغفله بغباء، ثم لم يخجل من أن يكرره بغثاثة وصفاقة.

والخوري يسوق ما كثر من السور بعد سورة مريم من قصص بني إسرائيل وشؤونهم كدليل على أن العهد الإسرائيلي المزعوم في مكة يبدأ بعد هذه السورة،

(١) كان مقتضى زعمهم أن النبي مفتر على الله وينسب إليه ما يتلوه كذباً فانصب التنزيل الرباني على تكذيبهم وتقرير كونهم هم المفترين الكاذبين لا النبي.

وغفل بغباء عن أن رسالة موسى لفرعون وبني إسرائيل ، ونجاة هؤلاء من فرعون ، وخروجهم من مصر ، ومواقفهم بعد ذلك قد ورد مكرراً في سور القرآن الأولى التي يقول : إنها تمثل العهد المسيحي مقتضباً تارة ومسهباً تارة ، مثل سور المزمل والفجر والنجم والقمر وصاد والأعراف ، ثم استمر ذلك في السور التي بعد الأربع والأربعين ، وفي سورة الأعراف تفصيل لكل ذلك أكثر مما ورد في غيرها من بعد سورة مريم في ترتيب النزول .

وقد عمي عن القصص العديدة التي وردت في السور التي بعد مريم ، والتي هي قصص عربية مثل قصص عاد وثمود ومدين وأصحاب الأيكة وتبع وأهل الرس ، ومما جاء فيها من قصص إبراهيم التي ليس لها ذكر في سفر التكوين والأسفار الأخرى بالتبعية . ولقد جاءت بعض قصص القرآن مغايرة لما جاء في أسفار العهد القديم ومن ذلك مثلاً قصة آدم وسجود الملائكة له ، وتمرد إبليس على ذلك ، وطرده ولعنته ، وتوبة الله على آدم ، وقصص إبراهيم مع قومه فضلاً عن مغايرات جزئية كثيرة بين ماورد في القرآن ، وما ورد في الأسفار من قصص .

وفي السور التي يزعم الخوري أنها تمثل العهد الإسرائيلي مئات من الصور والمواقف والمشاهد الدنيوية والأخروية والحجاجية مع الكفار والمشركين وعقائدهم ومواقفهم ليس منها شيء في أسفار العهد القديم ، وقد عمي الخوري عن كل ذلك .

وشيء آخر يكذب فيه الخوري بوقاحة وصفاقة حين يقول : إن النبي دخل في دور التردد ، ثم في دور الاستطلاع إلى الاستقلال عن أهل الكتاب في أواخر العهد المكي بعد أن رده يهود الطائف رداً غير جميل . فليس هناك رواية وثيقة ، بل غير وثيقة تذكر يهوداً في الطائف [1] وليس

(١) خبر رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ورد في كتاب « سيرة ابن هشام » وكتاب «طبقات ابن سعد» . وفي الأول تفصيل أكثر ، ومما جاء فيه —

هناك أي خبر عن موقف سلبي وإنكاري فيه رد غير جميل النبي من اليهود في العهد المكي ، وحينما ذكروا بصراحة بصفتهم بني إسرائيل في السور المكية في صدد مواقف لهم مع النبي ذكروا بأنهم آمنوا به ، وبأن علماءهم علموا أن ما أنزل على النبي هو حق من الله كما جاء في آيات الشعراء والأحقاف هذه :

ـــ أن النبي صلى الله عليه وسلم عقب وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها اشتد أذى قريش له ، فخرج إلى الطائف على أمل أن يجد عندهم استجابة ومنعة ، وقد اجتمع إلى إخوة ثلاثة كانت زعامة ثقيف وسيادتها فيهم وهم عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب ، أبناء عمرو بن عمير ، فكلمهم فاستهتروا به حتى يئس منهم ، وأغروا به سفهاءهم ، فأخذوا يسبونه ويحصبونه حتى ألجؤوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة القرشيين ، وكانا فيه ، فرجع السفهاء عنه ، فعمد إلى ظل من عنب ، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفهاء الطائف ، فأخذ يبتهل إلى الله ، ويشكو ضعفه ، فتحركت رحامها ، فقالا لغلام لهما اسمه عداس : خذ قطفاً من هذا العنب ، وضعه على هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، ففعل وقال له : كل ، فقال : باسم الله ، ثم أخذ يأكل فنظر عداس في وجهه ، فقال : والله إن هذا الكلام لايقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله : ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس وما دينك ؟ قال : نصراني من أهل نينوى ، فقال له : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله : ذاك أخي كان نبياً وأنا نبيّ ، فأكب عداس على رسول الله يقبل يديه ورأسه وقدميه ، فقال ابنا ربيعة أحدهما الآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدي ما في الأرض خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر لايعلمه إلا نبي ، قالا له : ويحك يا عداس لايصرفك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه ..) انظر ابن هشام ج ٢ ص ٢٨ – ٣٠ وطبقات ابن سعد ج ١ ص ١٩٥ وأين في هذا أي أثر يهود ...

١ - أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ . [الشعراء : ١٩٧] .

٢ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .. [الأحقاف ١٠] .

ولقد شملهم تعبير أهل العلم وأهل الكتاب الذي ورد مطلقاً في السور المكية ، والذي جاء في سياق تقرير شهادتهم بصدق رسالة النبي ، وصدق وحي القرآن ، وصلتها بالله ، ومعرفتهم ذلك ، كما يعرفون أبناءهم ، وبكونهم يجدون صفات الرسول النبي الأمي في التوراة ، وآمنوا به واتبعوه ، وبخشوعهم وبكائهم وسجودهم حينما كان القرآن يتلى عليهم ، وإيمانهم به مما يتمثل في آيات الأنعام ٢٠ و ١١٣ والرعد ٣٦ والإسراء ١٠٧ - ١٠٩ والقصص ٥١ - ٥٥ والعنكبوت ٤٧ التي أوردنا نصوصها قبل .

أما قول الحوري : إن النبي بدأ دوره التطلعي إلى الاستقلال عن أهل الكتاب في آخر العهد المكي ، فهو هراء على ما أثبتناه من النصوص العديدة التي فيها البرهان الذي لايتحمل مكابرة ولا مراء على أن الرسالة المحمدية القرآنية رسالة مستأنفة جديدة مستقلة من بدئها .

- ١٤ -

والحوري يعوّل كثيراً في وصف قوة وأثر السمة الكتابية في مكة بخاصة ، وفي أنحاء اليمن وسواحل جزيرة العرب ومنطقة يثرب وشمالها وشرقها بعامة بهدف تدعيم زعمه أن محمداً ﷺ كان تحت تأثير ذلك حتى لقد كسر كتابه رقم (٢) المعنون بعنوان (القرآن والكتاب) على هذا الموضوع .

ولقد قرأ كتابينا سيرة الرسول وعصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة ، وفيها فصول عن الجاليات الكتابية في الحجاز بعامة ، وفي مكة بخاصة ،

فأورد ما أراد أن يورده من ذلك تحت عنوان (رأي المفسر الأستاذ دروزه في غزو الحجاز الكتابي) موهماً أن العنوان هو من كتبنا مع أن هذا غير صحيح ، ومع أن ما أوردناه في الكتابين لا يمكن أن يفيد أن السمة الكتابية كانت غالبة في الحجاز وفي مكة بخاصة ، أو أن هناك حركة يمكن أن توصف بالغزو الكتابي ، لأن ذلك غير الواقع ، فالشرك ورموزه الوثنية وتقاليد الحج العربية ، والتقاليد الاجتماعية وغير الاجتماعية العربية الجاهلية كل ذلك كان هو السمة الغالبة على ما تفيده بصراحة وقوة فصول القرآن المكي التي تحكي سيرة الدعوة النبوية ، وما كان يدور من جدال بين أهل مكة وبين النبي ﷺ .

ولقد شرحنا قبل في أكثر من نبذة ما كان من نظرة أهل مكة إلى ما كان بين الكتابيين من اختلاف وشقاق وعجبهم ، وما كانوا يقولونه من أنه لو جاءهم نذير منهم ، أو أنزل عليهم كتاب بلغتهم ، لكانوا أهدى منهم مما فيه الدلالة القاطعة على ان السمة الكتابية لم تكن غالبة على أوساطهم . وفي سورة الزخرف هذه الآيات (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ٥٧ و ٥٨) وفيها دحض قوي لأي احتمال لسمة كتابية غالبة في مكة .

ولقد كان أهل الكتاب فيها أفراداً يعدون عدداً ، وجل الذين ذكرت الروايات أسماءهم منهم كانوا أرقاء لوجهاء مكة الميسورين أو صناعاً ، وقد تلهم بعض الآيات القرآنية أن منهم من كان مثقفاً وميسوراً وقوي الشخصية ، غير أنهم لم يكونوا أصحاب تأثير محسوس ، ولما شهدوا أن الرسول والقرآن حق من الله وآمنوا ، تعرضوا للتجريح والتجهم والتهجم على ما تفيده آية سورة القصص (٥٥) التي أوردناها وشرحناها قبل ، وهذا لا يمكن أن يكون لو كانوا كتلة كبيرة قوية ، ولم تذكر

الروايات مثلاً غير اسم ورقة ابن نوفل ، وعثمان بن الحويرث كعرب قرشيين كانا متنصرين ، وكل ما أوردناه في كتابينا المذكورين استلهاماً من القرآن تقرير وجود جالية كتابية في مكة لها تأثير ما في الأفكار والمعارف الدينية وغير الدينية في هذه البيئة .

وقد تكون الحالة في اليمن وفي يثرب والقرى القريبة منها على طريق الشام ، وبعض أنحاء جزيرة العرب الشمالية والشرقية والساحلية الشرقية مختلفة بعض الشيء . حيث كان في اليمن طائفة نصرانية عربية ، وحيث كان في يثرب والقرى القريبة منها على طريق الشام طوائف يهودية إسرائيلية الجنس ، كثيرة العدد نوعاً ما ، وحيث كان في السواحل الشرقية من جزيرة العرب طوائف نصرانية ويهودية عربية وغير عربية على ما تفيده المأثورات القديمة . ولقد تهود بعض ملوك حمير بتأثير بعض أحبار يهود يثرب ، فقويت اليهودية في اليمن ، وحاولت إرغام النصارى على التهود ، وأوقعت فيهم مذبحة كبيرة ، وكان ذلك من أسباب غزو الأحباش لليمن في القرن السادس الميلادي ، وقد نكل الأحباش النصارى باليهود وطاردوا اليهودية انتقاماً للنصرانية والنصارى ، فانتعشت النصرانية في عهدهم ، غير أن هذا الانتعاش لم يكن يعني غلبة سمة ، فإن من الحقائق التي لا يصح المماراة فيها المستفادة من روايات السيرة والآثار والكتب الأجنبية الأخرى أن السمة الغالبة في اليمن كانت سمة الشرك والوثنية والتقاليد الجاهلية . ولقد ذكرت روايات السيرة أن جماعة نصارى اليمن كانت متمركزة في منطقة اسمها نجران ، وانها أرسلت وفداً إلى النبي فدخلت في ذمته مقابل جزية معينة ، وأن عمر بن الخطاب أجلاها حين تولى الخلافة ، وأن عدد أفرادها لم يكادوا يبلغون الألف .

ولقد كان عدد اليهود في يثرب وما حولها أكثر ، وكان مركزهم أقوى ، ولكنهم كانوا وسط خضم عربي مشرك ووثني بين ظهرانيهم وعن

أيمانهم وشمائلهم ، بحيث يمكن القول بكل قوة : إن السمة الغالبة للمنطقة وما حولها كانت سمة عربية شركية وثنية ، ولقد اقتلعهم النبي والمسلمون وقضوا على وجودهم بسهولة ، لأنهم كانوا طراء غرباء لا جذور لهم وسط ذلك الخضم . وكل ما قد تفيده المأثورات أنهم كانوا ذوي تأثير في ثقافة ومعارف جيرانهم العرب الدينية وغير الدينية ، ولقد وصفهم القرآن ببني إسرائيل ، وهذا يعني أنه لم يكن في هذه المنطقة قبائل عربيـــة متهودة خلافاً لما يروى خطأ وإن كان يحتمل أن يكون أفراد متهودون من العرب . والمأثورات تذكر أنه كان في سواحل الجزيرة الشرقية بعض طوائف كتابية ، غير أن لدينا وثيقة ذات دلالة مهمة ، فقد كان ملك البحرين من جملة من أرسل إليهم رسول الله ﷺ وكتبه بالدعوة إلى الإسلام ، فاستجاب إليها هو وقومه ، وكتب إلى النبي يخبره أن عنـده طائفة من اليهود والمجوس ، ويسأله رأيه فيهم ، فكتب له النبي بدعوتهم إلى الإسلام ، فإن أبوا فتؤخذ منهم الجزية[1] . وهذا يفيد أنه لم يكن في هذا الظرف في هذه المنطقة نصارى أولاً ، وأن طائفة اليهود لم تكن ذات وجود قوي عدداً ومركزاً ثانياً . وقد كانت (البحرين) تعني في ذلك الوقت المنطقة الساحلية الممتدة بين الكويت إلى عُمان ، ولقد أرسل النبي رسله وكتبه إلى ملك عُمان أيضاً فاستجاب ، ولم تذكر الروايات أنه كان فيها كتابيون[2] . وقد يمكن القول والحالة هذه : إن ما ذكره الخوري نقلاً عن مصادر قديمة من خبر وجود كتابيين في السواحل الشرقية من جزيرة العرب مبالغ فيه كثيراً ، أو أن شأن الكتابيين فيها قـد تضاءل قبيل بعثة النبي ﷺ وفي ظروفها ، وبكلمة أخرى : إن السمة الغالبة لهذه المنطقة هي سمة العروبة الجاهلية المشركة الوثنية مثل سائر أنحاء الجزيرة .

---

(١) و (٢) انظر الجزء الثاني من طبقات ابن سعد .

وقد تكون الحالة شمال الجزيرة الغربي التي تسمى مشارف الشـــام مختلفة حيث كان فيها قبائل عربية كثيرة تدين بالنصرانية ، وتدين بالولاء للملوك الغسّانيين والروم من فوقهم ، ولكن هذه المنطقة لاتعد من جزيرة العرب إلا تجوزاً وهي بعيدة عن الحجاز والتأثير فيه تأثيراً كتابياً فضلاً عن أن غلبة البداوة على هذه القبائل تجعل تأثيرها الديني محدوداً جداً فيما كان يقع اتصال بينها وبين أهل الحجاز ومكة أثناء الرحلات التجارية أو مواسم الحج التي كانت تشهدها .

- ١٥ -

ويتصل بهذا البحث ، أو يتفرع عنـه محاولة الحوري استغلال بعض الروايات عن ورقـة ابن نوفل وصلة النبي المحتملة به عن طريق زوجته الاولى خديجة بنت خويلد رضي الله عنها . فقد ذكرت بعض الروايات أن ورقة هو ابن عم السيدة خديجة ، وأنه هو الذي تولى تزويجه بها ، وأنه كان نصرانياً يقرأ الكتب السابقة ، ويكتب العبرانية ، فوقف عند ذلك ، وأراد أن يبني عليه القصور العوالي ، فتساءل عما إذا لايصح أن يقال : إن بيئة النبي العائلية كانت مسيحية ، وأن النبي قد عاش في كنف ورقة وتحت تأثيره طيلة السنين الخمس عشرة بين زواجه بخديجة ونزول الوحي عليه .

ومن الحق أن الروايات قد ذكرت ذلك غير أن في التوسع في الاستنتاج إلى الحد الذي أراده الحوري في سؤاله مجازفة كبيرة ، فنصرانية ورقة كانت فرديه أسوة بأفراد آخرين نبهنا على أمرهم في نبـذة سابقة كانوا نبهاء ، فأنفوا من عقائد وتقاليد قومهم ، واتجهوا نحـو توحيد الله وعبادته وحده .

ويكفي لدحض الفكرة التي يثيرها الحوري أن نذكر أن أقـارب النبي الأدنين وفي رأسهم أعمامه أبو طالب شقيق أبيه وعمه العباس ، وأبناء

أعمامه الأدنون والأبعدون نوعاً ما ظلوا منقبضين عن الإسلام طيلة العهد المكي – باستثناء ابن عمه عليّ الذي كان صبياً في كفالته وأخيه جعفر، وعمه حمزة الذي أسلم في ظرف ثارت فيه نخوته وعصبيته لابن أخيه – رغم أن منهم من كان ينصره للعصبية ويحامي عنه بزعامة عمه أبي طالب، بل منهم من ناوأه أشد مناوأة، وآذاه أشد أذى في مكة وعلى رأسهم عمه عبد العزى الذي سماه القرآن بأبي لهب، بل منهم من اشترك في وقعة بدر بعد الهجرة مع قريش ضده وضد أصحابه المهاجرين والأنصار، وعلى رأسهم عمه العباس. فإذا كان أقارب النبي الأدنون يفعلون هذا بتأثير شدة رسوخ التقاليد إزاء نبي منهم ينزل عليه وحي الله وقد تبعه كثيرون من أبناء الأسر القرشية والجالية الكتابية، وتشغل دعوته وحركته الناس، وتثيران فيهم الاضطراب، وقد يعود عليهم منها المجد والقوة فمن باب أولى أن لا يكون لتنصر فرد عادي كورقة ذلك المدى الذي توهمه الحوري أو أراد أن يوهمه.

ومع ذلك فلنسلم أن الصلة قد تكون قامت بين النبي وورقة، وأن النبي كان يكثر التردد عليه أثناء شبابه إلى حين نبوته، بل نحن نسلم أن الاتصال كان يقع بين النبي وبين آخرين من أهل الكتاب أو النصارى بكلمة أصح، لأن جل أهل الكتاب الذين كانوا في مكة أو كلهم كانوا نصارى – أيضاً قبل بعثته، وأن الكفار حينما قالوا عن القرآن والنبي ما حكاه القرآن عنهم (إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) سورة النحل ١٠٣ و (إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .. الفرقان ٤) و (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا .. الفرقان ٦) كانوا يرون أو يعلمون ما كان من ذلك الاتصال، ونسلم أيضاً – أن النبي ﷺ قد عرف عن طريق اتصالاته بورقة والآخرين كثيراً عن أحوال أهل الكتاب وعقائدهم ومحتويات ما كانوا يتداولونه من

كتب وقراطيس ، وكل هذا أمر نراه بديهياً متسقاً مع طبائع الأشياء ، غير أن هذا شيء ، واصطفاء الله تعالى محمداً ﷺ لرسالة جديدة ، وإنزاله عليه كتاباً جديداً شيء آخر ، وما دام القرآن أخذ يذكر في عهد مبكر من نزوله ما كان عليه أهل الكتاب من خلاف ونزاع وشقاق ، ويعلن أن الله أرسل محمداً لتصحيح ما هم عليه من انحراف واختلاف ولبيان الحق وطريق الهدى بالإضافة إلى دعوة الناس عامة إلى دين الله وقرآنه مما أوردنا آيات القرآن فيه في نبذ سابقة من هذا الفصل . فالتفسير الوحيد لذلك هو أن النبي ﷺ كان من النفر الذين مع أنفتهم ما كان عليه قومهم من عقائد وتقاليد واتجاههم نحو الله وحده أنفوا أن يتهودوا أو يتنصروا لما كان عليه اليهود والنصارى من نزاع واختلاف وانحراف .

وهناك حديث صحيح رواه البخاري عن عائشة فيه خبر أخذ السيدة خديجة النبي ﷺ إلى ورقة حينما أخبرها بنزول الوحي عليه لأول مرة ، وهذا نصه (قالت عائشة : أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث ، أي : يتعبد فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : اقرأ قلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) فرجع بها النبي يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ،

فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله بخبر ما رأى ، فقال له ورقة : هـذا الناموس الذي نزل الله على موسى . ياليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله : أو مخرجيّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي .

وليس في الحديث ما يفيد أنه كان صلة وثيقة بين النبي وورقة فضلاً عما توهمه الحوري من عائلية أو وحدة مسيحية ، وإن كان فيه ما يفيد أن خديجة كانت على طريقة النبي في الاعتراف بالله وحده ، ويفيد أن ورقة قد صدق وآمن ، وأنه اعتبر خبر نزول الوحي على النبي رسالة جديدة مستقلة مثل رسالات الأنبياء السابقين كما كانت على حقيقتها كذلك ، وأيده وشجعه على المضي فيها .

- ١٦ -

ويتفرع عن البحث مسألة أخرى أثارها الحوري ، فقد قال في سياق آية (ووجدك ضالاً فهدى) في سورة الضحى (إن محمداً قبل بعثته كان حنيفياً ، فاهتدى بالمسيحية ، ثم نحا نحواً كتابياً بصورة عامة ، ثم رجع في العهد المدني إلى الحنيفية مرة أخرى ، وتنصل من اليهودية والنصرانية

والكتابة . وقد فر من الآيات المكية التي تكذب هذا الزعم بأقوال ومزاعم متنوعة ومنها (إنهم زادوا العبارات التي تذكر ذلك في زمن متأخر بقصد أو بدون قصد ليظهروا أن استقلال محمد الديني عن أهل الكتاب كانت منذ عهد مكة في حين أن الأمر ليس كذلك ، لأن الدعوة إلى التوحيد في مكة كان كتابياً والدعوة إلى ملة إبراهيم الحنيفية شعاراً مدنياً)[1]

وقد جعل جملة (بقصد أو بدون قصد) على ما يظهر دريئة ودليلاً على حسن نيته وأدبه ، وتعمية غبية على قصده الصحيح وهو القول بزيادتها بقصد ، كبرت كلمة تخرج من فيه ، والدليل على ذلك التعليل الذي علل به زيادتهم إياها حيث قال بكل صراحة ووقاحة وقلة أدب : إن الزيادة كانت بقصد إظهار كون استقلال محمد الديني هو منذ أول العهد المكي وهكذا يكرر في هذا الموقف أقواله وإفكه وتخرصه في صدد الآيات التي تثبت استقلال الدعوة المحمدية وقرآنها منذ العهد المكي المبكر ، والتي فندناها في الفقرات ٣ و ٤ و ٥ و ٦ .والتعليل الذي علل الحوري به زعمه الوقح الكاذب لم يكن وارداً في ذلك العهد ، ولم يكن النبي مضطراً إليه إذا كان يريد أن يقول : إنه هو الذي زاده ، ولم يكن كذلك وارداً في زمن الخلفاء الراشدين الذين تم في عهدهم تدوين المصحف الرسمي الذي كان وظل هو مصحف المسلمين قاطبة بدون تبديل ولا تغيير إذا كان يريد أن يقول : إن الزيادة كانت بعد النبي ولم يكن يخطر بخلدهم أنه سيأتي في آخر الزمان الحوري وأمثاله ليقولوا : إن الدعوة إلى ملة إبراهيم كانت شعاراً مدنياً ، فزادوا ما زادوه على القرآن المكي ليثبتوا أنها دعوة مكية . كبرت كلمة تخرج من فيه ثانية .

وهذه هي الآيات المكيـــة التي تضمنت ذكر ذلك نوردها بترتيب

---

(١) كتابه رقم ١ ص ٣٠ .

سورها في المصحف ، ونورد تحفظات وتمحلات الحوري في صددها ونبين وجه الحق في الأمر :

١ – قُلْ إنّني هَدَاني رَبّي إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ . دِيناً قَيّماً مِلّةَ إبْراهيمَ حَنيفاً وَما كانَ مِنَ المُشْرِكينَ . قُلْ إنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحْيايَ وَمَماتي للهِ رَبِّ العالَمينَ لا شَريكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأنا أوّلُ المُسْلِمينَ .. [الأنعام : ١٦١ و ١٦٢] .

٢ – قُلْ يا أيُّها النّاسُ إنْ كُنْتُمْ في شَكٍّ مِنْ دِيني فَلا أعْبُدُ الّذينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلكِنْ أعْبُدُ اللهَ الّذي يَتَوَفّاكُمْ وَأُمِرْتُ أنْ أكُونَ مِنَ المُؤْمِنينَ وَأنْ أقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكينَ .. [يونس : ١٠٤ و ١٠٥] .

٣ – إنَّ إبْراهيمَ كانَ أُمّةً قانِتاً للهِ حَنيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكينَ . شاكِراً لأنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ . وَآتَيْناهُ في الدُّنْيا حَسَنَةً وَإنّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصّالِحينَ . ثُمَّ أوْحَيْنا إلَيْكَ أنِ اتّبِعْ مِلّةَ إبْراهيمَ حَنيفاً وَما كانَ مِنَ المُشْرِكينَ .. [النحل : ١٢٠ – ١٢٣] .

٤ – بَلِ اتّبَعَ الّذينَ ظَلَمُوا أهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدي مَنْ أضَلَّ اللهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرينَ . فَأقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللهِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ . مُنيبينَ إلَيْهِ واتّقُوهُ وَأقيمُوا الصّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكينَ . مِنَ الّذينَ فَرّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .. [الروم : ٣٠ – ٣٢] .

فهذه الآيات التي بدأت تنزل في عهد مبكر ، ويستمر نزولها في مختلف عهود التنزيل المكي كانت تمثل الاتجاه الأصيل في الدعوة المحمدية

إلى ملة إبراهيم الحنيفية [1] ودعوة النبي الناس ومنهم أهل الكتاب إلى الانضواء إليها، لأنها هي الأصل، فيخلص هؤلاء بخاصة مما ارتكسوا فيه، ويصبحون أمة واحدة وملة واحدة وجبهة واحدة تحت راية كتاب جديد مصدق لما بين يديه من كتاب ومهيمن عليه، وتحت قيادة رسول جديد هو الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم كما جاء في آية سورة الأعراف ١٥٧ ويبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب، ويعفو عن كثير، وقد جاءهم من الله بنور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم، وقد جاءهم على فترة من الرسل لئلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير كما جاء في آيات سورة المائدة ١٥ و ١٦ و ١٩

وهذا ما دار عليه الجدل في العهد المدني بين النبي وأهل الكتاب الذين لم يستطيعوا أن يتغلبوا على أنانياتهم ومآربهم، وينفلتوا من عقدهم،

---

(١) حكت خبر اهتداء إبراهيم لهذه الملة آيات سورة الأنعام هذه التي جاءت بعد الآيات التي تحكي نظرة إبراهيم إلى الكوكب، ثم إلى القمر، ثم إلى الشمس، فلما أفلت واحدة بعد الأخرى قال ما حكاه القرآن في هذه الآيات: (يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون. وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم. الأنعام ٧٨ – ٨٣.

فوقفوا يناوئون الدعوة المحمدية التي اندمج فيها إخوانهم في مكة على ما سوف يأتي شرحه بعد مما تعكسه هذه الآيات المدنية :

١ – وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْراهِيمَ إلّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ في الدُّنْيا وإنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ .. [البقرة : ١٣٠ و ١٣١] .

٢ – وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أوْ نَصارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ . قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلى إبْراهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإنْ تَوَلَّوْا فَإنَّمَا هُمْ في شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ . قُلْ أَتُحَاجُّونَنا في اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ . أَمْ تَقُولُونَ إنَّ إبْراهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .. [البقرة : ١٣٤–١٤١] .

٣ – يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ في إبْراهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإنْجِيلُ إلّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إبْراهِيمُ يَهُودِياً وَلا نَصْرانِياً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا

واللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنينَ . وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . يَا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .. [آل عمران : ٦٥ : ٧١] .

٤ – كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَني إِسْرائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائِيلُ على نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ . فَمَنِ افْتَرى على اللهِ الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ .. [آل عمران : ٩٣ – ٩٥] .

والنصوص هي مدنية ، ولكنها تفيد بقوة أن محمداً ﷺ كان يدعو إلى ملة إبراهيم قبل نزولها . فاصطدم بمناوأة أهل الكتاب وإنكارهم ، وآيات البقرة نزلت في زمن مبكر من العهد المدني على ما يستفاد من السلسلة التي جاءت فيها والتي فيها هذه الآية (يَابَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ .. ٤٠ و ٤١) بل هي من أول ما نزل في المدينة ، فتكون دعوة النبي محمد ﷺ إلى ملة إبراهيم سابقة للهجرة .

– ١٧ –

والخوري الحداد لم يكتف بالزعم الجريء الوقح الذي أوردناه قبل جملة واحدة ، بل كرر زعمه بالافراد أيضاً مع كل آية من الآيات التي فيها ذكر ملة إبراهيم الحنيفية الواردة في السور المكية ، والتي أوردناها قبل وإليك ما قاله في الرد عليه :

١ – قال في صدد آية يونس (١٠٥) التي فيها (وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين) (إنها زائدة لتعارضها مع الآية (٩٤) في السورة نفسها التي تأمر النبي بسؤال الذين يقرؤون الكتاب من قبله ليطمئنوه إن كان في شك مما يوحى إليه) والكلام متهافت ، فليس بين الآيتين أية صلة أو تعارض ، وسياق الآية (١٠٥) سائغ منسجم لا يمكن أن يرد عليه أي اعتراض وبالتالي أي زعم كاذب كما يظهر لكل عاقل غير مغرض إذا ما تمعن فيه (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ . وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .. ١٠٤ – ١٠٧) .

٢ – وقال في صدد آيات الأنعام ١٦١ و١٦٣ (إنهم زادوا عليها جملة (دينا قيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وإن دليل الزيادة تغيير أسلوب الجملة وإعرابها) والكلام متهافت وفيه تنطع وقح وغبي منه إلى النظم القرآني ، فالجملة منصوبة على التمييز ، وهذا يعرفه طلاب المدارس الابتدائية وهي مثل (وإن أقم وجهك للدين حنيفاً) في آية يونس . ولم يقل عن هذه الآية ما قاله في صدد آية الأنعام ، وكان الذوق والحياء معاً يوجبان على الحوري أن يفكر على الأقل بأن الذين زادوا الجملة لابد من أن يجعلوا سبكها موافقاً للقواعد النحوية حتى تخفى الزيادة على الحوري وأمثاله ... ومما استدل الحوري به على الزيادة المزعومة أنها متعارضة مع آية الأنعام (٩٠) التي تأمر النبي بالاقتداء بهدي الكتاب

وأهله ، وقد شرحنا مدى هذه الآية في الفقرة (١٠) الرقم (٨) شرحاً يظهر فيه الحق ، وينسف هـذا الزعم . ولقد كان الذين أمر الله النبي بالاقتداء بهم حسب تأويل الخوري هم إبراهيم والأنبيـاء من ذريته ، وقد حكت الاية (٨٧) من سورة الأنعام التي جاءت الاية (٩٠) في آخر سلسلتها قول إبراهيم (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفـاً وما أنا من المشركين) فليس من تعارض بين أمر الله للنبي بالاقتـداء بهم ، وبين أمره له بأن يقول (إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينـاً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما أنا من المشركين) وهذا النص جاء بعد النص السابق حيث يبدو كل التـوافق والانسجام ، ويبدو زعم الخوري متهافتاً جداً .. والخوري لم يسجل في كتبه تحفظاً على مكية الاية (٧٨) فيكون مسلماً بمكيتها ، وما دام يقول : إن محمداً مأموراً بالاقتداء بإبراهيم والأنبياء من ذريته ، فيلزمه أن يعترف بأنه مأمور باتباع ملة إبراهيم الحنيفية منذ العهد المكي ، ويكون أمر الله له في الآيتـين ١٦١ و ١٦٢ مصدقاً لذلك وتكون الحجة قد لزمت الخوري ، وزهق باطله باعترافه . . .

٣ – ومما قاله في صدد آية سورة النحل (١٣٢) التي تأمر النبي باتباع ملة إبراهيم : (إن كل السياق الذي وردت فيه الآية مدني بروحه ومعناه) وزعمه جزاف متهافت ، لأن السياق قد جاء مماثـلاً لسياق سابق في سورة الأنعام السابقة لسورة النحل في النزول ، وفي آية النحل عطف على ماجاء في سورة الأنعام ، وهذا سياق آية النحل (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ

الكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ . مَتاعٌ قَليلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ . وَعلى الَّذينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحيمٌ . إِنَّ إِبْراهيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلهِ حَنيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكينَ شاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ . وَآتَيْناهُ في الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصّالِحينَ ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهيمَ حَنيفاً وَما كانَ مِنَ المُشْرِكينَ .. النحل ١١٣ - ١٢٣) وهذا سياق سورة الأنعام التي تعطف آيات النحل عليه (قُلْ لا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحيمٌ . وَعَلى الَّذينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذي ظُفُرٍ وَمِنَ البَقَرِ وَالغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الحَوايا أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنّا لَصادِقُونَ .. ١٤٥ و ١٤٦) وهكذا يظهر تهافت وكذب زعم الحوري بأن سياق آية النحل مدني بروحه ومعناه ، لأنه مماثل لسياق مكي ليس للخوري تحفظ على مكيته كل المماثلة .

٤ – وقال في صدد آية الروم (٣٠) : (إنها زائدة لأنها تقطع السياق) وهو زعم جزافي متهافت وكاذب ، لأن السياق قبل الآية وبعدها في انسجام تام ، وقد أوردناه قبل بكامله في الرقم (٤) في الفقرة السابقة ، والتمعن فيه يظهر مصداق ذلك للعاقل غير المغرض .

وزعم الحوري زيادة الآيات مماثل في مداه لزعمه بالنسبة للآيات التي أووردناها في الفقرة (٦) التي زعم أن بعضها مدسوس أو مقحم أو زائد ،

أو ملحق في أزمنـة مختلفـة ، ليفر بذلك من دمغ ما احتوته الآيات من ذكر لاختلاف أهل الكتاب وتعدد أحزابهم ، ومن إثبات لاستقلال شخصية الرسالة المحمدية القرآنية .

وقد ذهب عنه هنا كما ذهب عنه هناك مايعنيه القرآن وكونه وحياً من الله تعالى في يقين النبي وأصحابه الأولين ، وما يستتبعه هذا من شدة حفظهم له كما أوحي به وبلغه رسول الله ، واستحالة أية زيادة أو تغيير أو إقحام عليه على ماشرحناه في الفقرات ٧ و ٨ و ٩ وهكذا يستمر الحوري على سوء أدبه ، وسوء نيته ، وسوء ذوقه ، وسوء أخلاقه ، وسوء دينه وعقيدته وما نبهنا عليه في ختام النبذة (١١) من تناقض الحوري ينسحب على محتوى هذه النبذة أيضاً ، فمقتضى استناده إلى بعض الآيات وتثبيته لها ، وزعم أن الجمل الأخرى مزيدة عليها أن يكون موقناً بوحي الله بها على نبيه ، ويستتبع هـذا وجوب اعتقاد عدم كذب النبي على الله ، وفي القرآن المدني على الأقل ايات فيها دعوة صريحة إلى ملة إبراهيم ، فيكون هذا أساسياً في الدعوة المحمدية ، فلزمه أن يسلم ويعترف به على كل حال .

ومن عجيب متناقضات الحوري ومضحكاتها أنه نسي كل ما قاله في الآيات التي يرد فيها كلمة (حنيف) وقال في كتابه رقم (٢) إن محمداً دمج في مكة الحنيفية بالكتابية ، واستشهد على قوله بالآيات نفسها على اعتبار أنها مكية قائلاً : إن ذكر الحنيفية في جميع الآيات المكية يأتي مقروناً بالتوحيد الكتابي كأنه لا فرق بينهما .

ونحن إذ نسجل هذا إنما نسجله لإبراز تخبط الحوري وتناقضه حسب مقامات كلامه ومزاعمه ، فيثبت مكية الآيات حينما يريد ، وينفيها بل ينفي قرآنيتها حينما يريد ، ولكننا لم نغفل عما انطوى في كلامه هذا من نسبة المزج بين الحنيفية والتوحيد الكتابي إلى النبي في مكة من أنه إنما يفعل ذلك من تلقاء نفسه ، ودون وحي رباني تحقيقاً للخطة التي اختطها

لدعوته ، وبكلمة أخرى لم نغفل عن جحوده لنبوة النبي ووحي الله إليه بالآيات ، وهذا مايكشف عن عدم جده ، ويتظاهر بتثبيت بعض الآيات دون بعض تظاهراً يوهم أنه يؤمن بوحي بعضها دون بعض على مانبهنا عليه في ختام النبذة (١١) .

وإن له دينه (قل يا أيها الكافرون ... لكم دينكم ولي دين) غير أن الحوري حينا ينشر أقواله التي فيها سوء أدب ووقاحة ، وطعن بالنبي الذي يؤمن بنبوته ووحي الله إليه مئات ملايين البشر ، والذي آمن بها الراسخون في العلم من النصارى واليهود الذين التقواء به وسمعوا منه ، ورأوا أعلام نبوته ، فيكون ظالماً ، وقد سجل الله اللعنة على الظالمين في هذه الآية (ألا لَعْنَةُ الله عَلى الظَّالِمِينَ . الذينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبيل الله ... هود ١٨ – ١٩) .

– ١٨ –

ونستمر في شرح الدعوة النبوية إلى ملة إبراهيم الحنيفية في العهد المكي ، فنقول : إن هذه الدعوة كانت أصيلة كل الأصالة ، لأنها متصلة بحياة النبي ﷺ قبل بعثته ، حتى إن الحوري لم يسعه إنكار أنه كان عليها .

ولقد كان محمد ﷺ وآخرون من نبهاء العرب في مكة والمدينة والطائف قد استسخفوا ما عليه قومهم من عقائد وتقاليد شركية ووثنية ، فانسلخوا عنها ، واعتنق بعضهم اليهودية والنصرانية على أنها توحيديتان تدعوان إلى مكارم الأخلاق ، وتنهيان عن الفواحش والآثام ، وتستندان إلى كتب منزلة من الله على أنبيائه ، وأن فريقاً منهم رأى ما كان بين اليهود والنصارى من شقاق ونزاع وشكوك وتعدد أحزاب ومذاهب وانحراف ، فلم يروا أن يتهوّدوا أو يتنصروا ، ولقد كانت بيئتهم تتداول اسم إبراهيم ، وكونه أبا العرب والكتابيين ، وكون ملته كانت توحيدية حنيفية مبرّأة من الشرك والتعقيد الذين شابا اليهودية والنصرانية ، فمالوا

إليها ، وصاروا يتحنثون ويتحنفون ، ويعبدون الله وحده على ملة إبراهيم أو ما ظنوه كذلك ، وقد روت الروايات أسماء عدد منهم ، ونعتقد أن محمداً ﷺ كان منهم ، لأنه كان يتحنث ويتحنف ، ويمتكف في الخلوات منسلخاً عن تقاليد وعقائد قومه الشركية والوثنية والجاهلية ، وكان منهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي كان يعيب قومه ، ويفخر بأنه على دين إبراهيم والذي رويت له صيغة تعبدية حيث كان يسجد على راحته ويقول (لبيك حقاً حقاً . تعبداً ورقاً . عذت بما عاذ به إبرهيم . إنني الك عان راغم . مهما تجشمني فإني جاشم) وكان منهم أبو عامر الأوسي الذي قابل النبي حين هاجر إلى المدينة ، وسأله بماذا جئت يا محمد ؟ فأجابه : بالحنيفية ، فقال له : إني عليها . وتفيد الرواية أن دعوة النبي إلى حنيفية إبراهيم كانت سابقة للهجرة .

وهناك حديثان رواهما الإمام أحمد عن النبي ﷺ جاء في أحدهما : « بعثت بالحنفية السمحاء » وفي ثانيهما « بعثت بالحنيفية » وجملة « بعثت » إنما تعني أن رسالته في أصلها قامت على الحنيفية ، وهذا هو مؤيد بآيات القرآن المكية التي أوردناها ، والتي تحل الحوري فيها تمحلاً متهافتاً مع سوء الأدب والصفاقة .

ويظهر أن ذلك النفر الذي تعبد على ملة إبراهيم ، أو ما ظنه كذلك ، والذي لم ير أن يتهوّد أو يتنصر كان مع مذهبه الحنيفي الإبراهيمي في شيء من الحيرة ، وهو ما نعتقد أن جملة (ووجدك ضالاً فهدى) في سورة الضحى عبرت عنه ، فاصطفى الله تعالى من بينهم محمداً ﷺ لما يعلمه من أخلاقه ومواهبه ، فبث فيه اليقين ، وأمره أن يهتف (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) وحمله مهمة الدعوة إليه وحده على ملة إبراهيم ،

وأمره أن يهتف (قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي رَسُولُ الله إلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوات والأرْض لا إله إلاّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فآمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ النَّبيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بالله وكَلِمَاتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) كما جاء في آية سورة الأعراف ١٥٨ التي كانت من السور المبكرة في النزول . مع التنبيه على أن هذه الآية لم تكن بدء الدعوة ، وإنما هي تسجيل لعموم الرسالة المحمدية ، وكان بدء الدعوة عقب نزول الوحي على النبي لأول مرة في غار حراء في آيات سورة المدثر (يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وثِيَابَكَ فَطَهِّرْ والرُّجْزَ فَاهْجُرْ) لأن النبي رجع من حراء وهو يرجف رهبة ودهشة مما رأى وسمع في الغار ، فقال لأهله : دثروني دثروني . وحينما وقف أهل الكتاب في العهد المدني ومعظمهم من اليهود يناوئون النبي ، ويزعمون أن إبراهيم منهم ، وأنهم على ملته هتف القرآن بهم منددا واضعاً الأمر في نصابه الحق (يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإنْجِيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا واللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ .. ٦٥ - ٦٨ آل عمران) .

ويتبادر لنا أن في تسجيل كون النبي أولى الناس بإبراهيم ومعه الذين آمنوا به تسجيلاً بأنه هو الذي كان على ملته أكثر من غيره أصلاً واستمراراً .

- ١٩ -

ولقد كان موقف أهل الكتاب في مكة من الدعوة الجديدة والنبي الجديد والكتاب الجديد إيجابياً كل الإيجابية ، لما رأوه من انسجام تام

بين أصول دينهم وهذا الجديد ، ثم من مطابقة لما عرفوه من بشائر كتبهم من صفات النبي الجديد ، ففرحوا به ، وشهدوا بصدقه ، وتلقوا الدعوة إليه على أنها شاملة لهم ، فاستجابوا إليها ، وآمنوا بالنبي والقرآن ، وغدوا تحت رايتها جبهة واحدة ، وحزباً واحداً ، وملة واحدة . وبكلمة ثانية صاروا من أتباعه ، يصلون بصلاته غير منفصلين عنه ، وغير محتفظين بدينهم القديم كما يتوهم الخوري أو يريد أن يوهمه ، ويلتزمون بما جاء به من شرعة جديدة ، فيها تعديلات كثيرة لشرعتهم السابقة ، ورفع لما كان عليهم فيها من إصر وأغلال ، لاسيما ان هذا الجديد كان يؤمن بكتب الله وأنبيائه الأولين ، ويأمر أتبـــاعه بذلك ، ويعلنه على ملإ الناس (وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ ..) [الشورى ١٥] و (وَقُولوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ..) [العنكبوت ٤٦] و (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالحُكْمَ والنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ..) [الأنعام ٨٩ و ٩٠] .

ثم أن يستشهد بهم على صدق ما جاء به وكونه من الله ، ويتحدى العرب بإيمانهم به وحسن شهادتهم وتصديقهم ، لأن العرب كانوا يعرفون أن عندهم كتباً من الله نزلت على أنبيائهم :

١ – قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـذَا القُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِـهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَـةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. [الأنعام : ١٩ و ٢٠] .

٢ – أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ

الكِتابَ مُفصَّلًا وَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعلَمُونَ أنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَبِّكَ بالحَقِّ .. [الأنعام : ١١٤] .

٣ - وَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَفرَحُونَ بما أُنْزِلَ إليكَ وَمِنَ الأحزابِ مَنْ يُنكِرُ بَعضَهُ .. [الرعد : ٣٦] .

٤ - قُلْ كَفى باللهِ شَهيداً بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتابِ .. [الرعد : ٤٣] .

٥ - قُلْ آمِنُوا بِهِ أوْ لا تُؤْمِنُوا إنَّ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ للأذْقانِ سُجَّداً . وَيَقولُونَ سُبحانَ رَبِّنا إنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفعُولاً . وَيَخِرُّونَ للأذْقانِ يَبكُونَ وَيَزيدُهُمْ خُشُوعاً .. [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩] .

٦ - قُلْ أرَأيْتُمْ إنْ كانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَني إسْرائيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إنَّ اللهَ لا يَهْدي القَوْمَ الظّالِمينَ . [الأحقاف : ١٠] .

وفي هذه الآيات تسجيل للموقف الإيجابي الذي انطوى فيه بشهادة عيانية لأهل الكتاب بما تأكدوا منه من صدق أعلام النبوة الجديدة والكتاب الجديد .

وهناك آيات أخرى فيها هذا التسجيل أوردناها سابقاً ، ونوردها مرة أخرى فيما يلي :

١ - قالَ عَذابي أُصيبُ بِهِ مَنْ أشاءُ وَرَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ فَسَأكتُبُها للَّذينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذينَ هُمْ بآياتِنا يُؤْمِنونَ . الَّذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجِدُونَهُ مَكتُوباً عِندَهُمْ في التَّوْراةِ وَالإنجيلِ يَأمُرُهُمْ بالمَعرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنهُمْ إصْرَهُمْ وَالأغلالَ الَّتي كانَتْ عَلَيْهِمْ

فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون .. [الأعراف : ١٥٦ و ١٥٧] .

٢ - أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده .. [هود : ١٧] .

٣ - وليعلم الذين أوتوا العلم أنّه الحق من ربّك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإنّ الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم .. [الحج : ٥٤] .

٤ - ولقد وصّلنا لهم القول لعلّهم يتذكّرون . الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحق من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيّئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين .. [القصص : ٥١ - ٥٥] .

٥ - أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل .. [الشعراء : ١٩٣] .

٦ - وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلّا الكافرون .. [العنكبوت : ٤٧] .

٧ - ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربّك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد .. [سبأ : ٦] .

وإذا لاحظنا أن النبي ﷺ كان في مكة ضعيفاً ، قليل الأتباع أمام مناوئين أشداء أقوياء زعماء أغنياء ألبوا الجمهور الأكبر عليه بما تمثله آيات

سورة سبأ هذه (وَلَوْ تَرى إذِ الظّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القَوْلَ يَقولُ الّذينَ اسْتُضْعِفُوا لِلّذينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنّا مُؤْمِنينَ . قالَ الّذينَ اسْتَكْبَرُوا لِلّذينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الهُدى بَعْدَ إذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمينَ . وَقالَ الّذينَ اسْتُضْعِفُوا لِلّذينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللّيْلِ وَالنّهارِ إذْ تَأمُرُونَنا أنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً .. ٣١ - ٣٣) وآيات سورة الأحزاب هذه (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ في النّارِ يَقُولُونَ يالَيْتَنا أَطَعْنا اللهَ وَأَطَعْنا الرَّسُولا وَقالُوا رَبّنا إنّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبيلا . رَبّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذابِ وَالعَنْهُمْ لَعْناً كَبيراً .. ٦٦ - ٦٨)
واضطروا كثيراً من أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة خشية أذاهم واضطهادهم ، وإرغامهم على الارتداد ، ولم يستطع هو أن يبقى إلا بجوار من عمه أبي طالب مسمد من زعامته لبني هاشم ، ومن العصبية الجاهلية ، بل لقد فكر هو نفسه بالهجرة على ما تلهمه آية سورة الإسراء هذه (وَإنْ كادُوا لَيَسْتَفِزّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلّا قَليلًا .. ٧٦) وحينما مات عمه ، وفقد مجيره ، اضطر إلى الخروج إلى الطائف لعله يجد فيها النصير والمجير . ولما خاب أمله وترك الطائف ، لم يستطع أن يدخل مكة ثانية إلا بجوار من زعيم آخر ، كما ذكرته الروايات المعتبرة وذكرناه قبل ، وبعبارة أخرى إذا لاحظنا أن الموقف الإيجابي من أهل الكتاب في مكة كان بريئاً من كل شبهة الضغط والإرغام كما يحلو المغرضين الحاقدين أن يقولوا بالنسبة لمن أسلم من الكتابيين ، برزت قوة الجد الذي اتسم به هذا الموقف ، ورأينا فيه رداً حاسماً قاطعاً على كل تخرص ومحاولة للنيل والتهوين باسم الكتاب والكتابيين ، ونسفاً لكل زعم بأن النبي كان في مكة منضماً إليهم كواحد منهم واقعاً تحت تأثيرهم ، ومهتدياً بهديهم ،

ومتعلماً منهم ، وبياناً حاسماً بأن هذا الزعم عدوان صارخ على الحق والحقيقة ، وتشويه لها ، وجحود منكر لتلك الشهادات العيانية من أسلاف صالحين نبهاء بعد ما رأوا من صدق أعلام الرسول الجديد والكتاب الجديد المنزل عليه بحيث يكون في كل موقف مخالف لهذا الموقف قديماً كان أم متأخراً دمغ لصاحبه بأنه متعنت مكابر أمام الحق والحقيقة بدافع من الأنانية والهوى والمآرب والعصبية الجاهلية ، أو بتأثير من تغلب عليهم ذلك من رؤساء الدين والدنيا .

والآية (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ) من آيات سورة القصص مهمة جداً في هذا الباب حيث تفيد أن الأقوياء حينما علموا أو رأوا أن الكتابيين صدقوا النبي والقرآن ، وآمنوا بهما ، وانضووا إلى الراية الجديدة ، غضبوا عليهم ووبخوهم ، فلم يبالوا بهم ، وأصموا آذانهم عن لغوهم وجهلهم ، وقالوا ما حكته الآية .

كذلك آيات الإسراء وبخاصة جملة (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً) مهمة في بابها أيضاً حيث تفيد أنهم رأوا من صدق أعلام الرسول النبي الأمي ما كانوا يقرؤونه في التوراة والإنجيل ، فرأوا في رسالته تحقيقاً لوعد الله ..

— ٢٠ —

والآيات تمثل مختلف أدوار التنزيل في العهد المكي بحيث يمكن القول إن الكتابيين أخذوا يقفون ذلك الموقف الإيجابي من الدعوة الجديدة منذ عهد مبكر ، ثم استمر ذلك منهم متواصلاً إلى آخر العهد المكي الذي تمثله آية سورة العنكبوت التي هي — أي السورة — آخر مانزل من القرآن في هذا العهد على مايرجح ، وتقوم عليه بعض القرائن في السورة نفسها التي فيها

مايمكن أن يدل على أن نزولها كان بين يدي الهجرة إلى المدينة [1] وكل مافي الأمر أنه قد يكون في الآيات مايفيد أن الكتابيين في مكة لم يدخلوا في الدين الجديد دفعة واحدة، وفي مبدإ الدعوة، وهذا ماقد تفيده آية سورة الشورى (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .. ١٥) التي جاءت بعد الآية التي تذكر تفرق أهل الكتاب والشكوك التي نجمت بينهم في كتبهم التي ورثوها (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ [2] لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ..١٤) ثم آية سورة العنكبوت هذه (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ

---

(١) في هذه السورة هذه الآيات (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون. كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين. الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون. وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العلم ٥٦ — ٥٩) والآيات تلهم بقوة أن من أصحاب رسول الله من أظهر خوفاً من المصير المجهول حينما أمروا بالهجرة إلى المدينة بعد أن تم الاتفاق على ذلك بين النبي وزعماء الأوس والخزرج، فاقتضت حكمة التنزيل تطمينهم وتشجيعهم بالآيات، فأرض الله واسعة وعليهم أن يعبدوه وحده، وكل نفس ذائقة الموت أينا كانت، والله الذي يرزق الدواب التي لاتحمل رزقها أولى أن يضمن لهم الرزق.

(٢) الضمير عائد إلى الأبناء الذين ذكروا قبل الآية.

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .. ٤٦) هـذا مع التنبيه على أننـا لم نطلع على رواية ما تذكر أنه كان في مكة كتابيون على دينهم حينما فتح النبي ﷺ مكة حيث يمكن القول : إن من بقي منهم غير منضو للرواية الجديدة قد انضوى إليها تدريجاً حتى لم يبق أحد منهم خارجاً عنها .

وقد يلحظ أن من الآيات ماليس فيه صراحة بإيمان الكتابيين بالقرآن والنبي مثل آيات الأنعام ٢٠ و ١١٤ والرعد ٣٦ و ٤٣ والحج ٥٤ والشعراء ١٦٣ وسبأ ٦ حيث تكتفي الأولى بتقرير معرفتهم القرآن أو النبي كما يعرفون أبناءهم ، والثانية بتقرير علمهم أن القرآن منزل من الله بالحـق ، والثالثة بتقرير فرحهم به ، والرابعـة باشهادهم على صـدق رسالة النبي ، والخامسة بشهادة وعلم أهل الكتاب بأنه الحق ، والسادسة بالتدليـل على على صحة وحي القران بعلم علماء بني إسرائيل به ، والسابعة بتقرير كون أهل العلم يرون أن ماانزل إلى الرسول هو حق ويهدي إلى صراط الله العزيز الحميد .

ويتبادر لنا أن حكمة التنزيل اقتضت ورودها بالأسلوب الذي وردت به ، لأن المقام مقام استشهاد واحتجاج وإفحام وتحدٍّ وإلزام للمشركين ، وأن الله تعـالى يعلم وهو يوحي بها أن الكتابين كانوا سيشهدون شهادة إيجابية وعلنية بصدق دعوى النبي بالوحي القرآني والرسالة الإلهية . وهذا يقتضي بالضرورة أن يكونوا قد آمنوا بها ، والآيات التي فيها خبر إيمان أهل العلم وأهل الكتاب بصراحة مثل آيات سور الأعراف وهود والإسراء والقصص والعنكبوت والأحقاف يمكن أن تكون عنت هؤلاء أو يكون هؤلاء ممن عنتهم ، ويلحظ أن بعض هذه الايات قد جاءت بأسلوب التحدي مثل آيات سورة الإسراء ، وآيات سورة القصص ، وآية سورة الأحقاف ، كأنما تقول للكفار : إذا كنتم لا تؤمنون ، فالذين أوتوا الكتاب والعلم قد

أعلنوا إيمانهم وبكوا وخشعوا وقالوا : إن ماجاء به النبي هو تحقيق لما وعد الله ، وربطوا بين ماجاء به وما جاء به أنبياؤهم من قبله .

- ٢١ -

والخوري الحداد كقادته تمحلات في هذه الآيات التي تتضمن الموقف الإيجابي والإيماني الصريح والضمني لأهل الكتاب من الدعوة النبوية المحمدية ليصرفها عن دلالتها فراراً مما في ذلك له من دمغ وإفحام ، حتى إنه لايتورع عن قلب بعضها عن معناه السهل القريب ، وجعلها مؤيدة لهواه ومزاعمه مهما ظهر من تعسف وتهافت في ذلك .

ولقد أوردنا في الفقرة - ١٠ - تمحلاته في صدد آيات الأنعام ٢٠ و ١١٤ والرعد ٣٦ و ٤٣ وهود ١٧ والإسراء ١٠٧ - ١٠٩ والشعراء ١٩٧ وسبأ ٦ والأحقاف ١٠ وفندناها ، وبينا ما هو الحق فيها الذي ينقض تمحلاته ومزاعمه ، ويظهر فيها من شهادة إيجابية قوية للكتابيين بعض من نبوة الوحي القرآني، ماينطوي فيها بالبداهة من تقرير كونهم قد آمنوا بها وانضووا إلى راية الملة الجديدة الصحيحة المصححة ، فنكتفي بهذه الإشارة دون الإعادة ، ونوصي القارىء بإعادة قراءة ذلك حتى تنجلي أمامه الصورة الصادقة مرة أخرى لمناسبتها ، ونورد ماقاله في صدد الآيات الأخرى ونعلق عليه فيما يلي :

١ - قال في صدد آيات القصص ٥١ - ٥٥ (إنها تفيد إيمانهم بالكتاب قبل النبي وليس فيها ما يفيد أنهم أحدثوا إيماناً جديداً) وقال في موضع آخر : (إن الآيات مقحمة على السياق) . وهناك رواية تذكر أن الآيات مدنية ، فالظاهر أن الخوري استغل هذه الرواية ليقول بالإقحام .

وفي قول الخوري الأول إنكار للحق ومكابرة غبية فيه ، لأن الضمائر في (به) و (يتلى عليهم) و (من قبله) و (إنه الحق من ربنا) عائد إلى القرآن قطعاً على ما يفيده السياق بصراحة .

فالسياق يذكر موقف المشركين الجحودي من القرآن كما ترى فيه : (وَلَوْلا أن تُصيبَهُمْ مُصيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أيْديهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنينَ . فَلَمَّا جاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ . قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ . فَإنْ لَمْ يَسْتَجيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ انَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إنَّ اللهَ لا يَهْدي القَوْمَ الظّالِمِينَ . وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ القَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٧ – ٥١) فلا يمكن أن يكون ضمائر (بِهِ) و (مِنْ قَبْلِهِ) و (إنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنا) في آيات (الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنا إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) وآية (وَإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغي الجاهِلينَ)عائدة إلى القرآن وفيها قرينة تكاد تكون قطعية على مكية الآيات حيث تفيد أن الكفار عاتبوا أهل الكتاب على إيمانهم ، أو غضبوا عليهم ، ووبخوهم ، وربما هددوهم فأجابوهم بالجواب القوي الرائع غير مبالين بهم . وهذا إنما يكون من الصور المكية لا المدنية ، لأن النبي والمسلمين كانوا في مكة ضعفاء تجاه كثرة كبرى جاحدة وقوية . وكانوا في المدينة على عكس ذلك تماماً ، وكان الكتابيون في مكة أقلية ضئيلة ، ومعظمها من الأرقاء والصناع في حين كان أهل الكتاب في المدينة وبكلمة أخرى بنو إسرائيل لأنهم هم الذين كانوا في المدينة من أهل الكتاب كتلة كبيرة غنية مسلحة محصنة على ما تفيده آيات

القرآن والروايات الوثيقة الموضحة[1] وفي الآية بالإضافة إلى دلالتها على مكية الآيات دليل آخر على إيمان أهل الكتاب بالنبي والقرآن ، ولقد ذكر السياق موقف الكفار الجحودي ، فصار مناسباً جداً ذكر موقف أهل الكتاب الإيماني

٢ ــ ومما قاله الحوري في صدد آيات الأعراف (١٥٧ و ١٥٨) (إنها دخيلة) وهذا تعبير مرادف لقوله مقحمة عن بعض الآيات ، ومزيدة أو مدسوسة عن بعض آخر ، كبرت كلمة تخرج من فيه . وقد علل قوله (لأن في الآيات تشريعاً وليس في العهد المكي تشريع ، وفيها دعوة إلى الكتابيين ، وليس في القرآن المكي دعوة لهم ، لأنهم أمة واحدة مع النبي في مكة ، والسياق هو في صدد اليهود ، وذكر الإنجيل في الآية مقحم . والنبي المكتوب في التوراة بعد موسى هو من الإسرائيليين وليس من الأميين ، والنبي المكتوب في الإنجيل بعد المسيح ليس نبياً ، بل هو الروح القدس الفارقليط) وكل هذه الأقوال متهافت وجزاف ، فليس في الآيات تشريع بالمعنى التقنيني كالتشريع المدني ، وإنما فيها بيان مهمة الرسول النبي الأمي (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) وفي السورة نفسها آيات لا يعترض الحوري على مكيتها ، ولا يزعم أنها مقحمة فيها ما في هذه الآيات بل وبأسلوب تشريعي ما : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ

---

(١) في سورة الحشر مثلاً هذه الآية (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ...

الحقُّ وأن تُشرِكوا بهِ ما لمْ يُنَزِّلْ بهِ سُلطاناً وأنْ تقولوا على اللهِ ما لا تعلمونَ ٣٢ و ٣٣) وهـذه آية أخرى في السورة من هذا الباب (خُذِ العفوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعرِضْ عنِ الجاهلينَ ١٩٩) وهذا فضلاً عن آيات كثيرة في سور مكية أخرى فيها مثل ذلك مثل آية الأنعام هذه (قلْ لا أجِدُ فيما أُوحيَ إليَّ مُحرَّماً على طاعمٍ يطعَمُهُ إلاّ أنْ يكونَ ميتةً أوْ دماً مسفوحاً أوْ لحمَ خنزيرٍ فإنَّهُ رجسٌ أوْ فسقاً أُهِلَّ لغيرِ اللهِ بهِ فمَنِ اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فإنَّ ربَّكَ غفورٌ رحيمٌ ١٤٥) وهذه (قلْ تعالَوْا أتلُ ما حرَّمَ ربُّكمْ عليكُمْ ألاّ تُشرِكوا بهِ شيئاً وبالوالدَيْنِ إحساناً ولا تقتلوا أولادَكُمْ مِنْ إملاقٍ نحنُ نرزُقُكُمْ وإيّاهُمْ ولا تقرَبوا الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ ولا تقتُلوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلاّ بالحقِّ ذلكُمْ وصّاكُمْ بهِ لعلّكُمْ تعقِلونَ . ولا تقرَبوا مالَ اليتيمِ إلاّ بالتي هيَ أحسنُ حتّى يبلُغَ أشُدَّهُ وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقسطِ لا نُكلِّفُ نفساً إلاّ وُسعَها وإذا قلتُمْ فاعدِلوا ولوْ كانَ ذا قُربى وبعهدِ اللهِ أوفوا ذلكُمْ وصّاكُمْ بهِ لعلّكُمْ تذكّرونَ .. ١٥١ و ١٥٢) . يقول الحوري : إن في آية الأعراف تشريعاً ، وليس في العهد المكي تشريع غبي عجيب وهو يقرأ في القرآن المكي هذه الآيات وأمثالها ، وليس صحيحاً أنـه ليس في القرآن دعوة إلى أهل الكتاب ، فالدعوة فيه شاملة لهم وللناس جميعاً .

وهـذا نص مكي لا اعتراض له عليه ، ولا يمكن إنكار شموله لأهل الكتاب (تاللهِ لقدْ أرسلْنا إلى أُمَمٍ مِنْ قبلِكَ فزيَّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالَهمْ فهوَ وليُّهُمُ اليومَ ولهمْ عذابٌ أليمٌ . وما أنزلْنا عليكَ الكتابَ إلاّ لتُبيِّنَ لهمُ الذي اختلفوا فيهِ وهُدىً ورحمةً

لقوم يؤمنون .. ٦٣ و ٦٤ النحل) بل إن شموله لأهل الكتاب قوي ، لأن الله يقول : إنه أنزل عليه الكتاب ليبين لهم الذي اختلفوا فيه ، والاختلاف كان في تأويل الكتب السابقة

وآية الأعراف ١٥٨ تأمر النبي بأن يقول : إنه رسول الله للناس جميعهم ، ويدخل فيهم أهل الكتاب بطبيعة الحال ولقد فهمها أهل الكتاب في مكة على أنها دعوة إليهم مثل غيرهم ، واستجابوا وآمنوا على ما تذكره الآيات بصراحة تفقاً عين المكابر .

وقول الحوري : إن السلسلة في أحداث بني إسرائيل ، فتكون آيات الأعراف ١٥٧ و ١٥٨ مقحمة على السياق ، ويكون ذكر الإنجيل بخاصة مقحماً لا يؤخذ به ، ففي القرآن استطرادات كثيرة مثل الاستطراد الذي تضمنته الآيتان ، وهو متناسب جداً مع السياق وفي مثابة بدل يباني آخر الذين سيكتب الله لهم رحمته بما جاء في الآية التي قبله : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) حيث جاءت بعدها (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ .. الخ)

والأسفار والأناجيل المتداولة ليست حجة على عدم ذكر صفات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل ، فالتوراة والإنجيل الإلهيان اللذان هما المقصودان في آية الأعراف (١٥٧) ليسا موجودين ، وفي الأسفار والأناجيل المتداولة كثير من النواقص والنقائض والثغرات ، والآية كانت تتلى علناً ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا لأن ما فيها صحيح كل الصحة ، يجده اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل الأصليين اللذين كانا موجودين في ذلك الوقت بأيديهم ، ويذكرون ذلك لغيرهم ، ويتداوله هذا الغير عنهم ، وحتى لو كانت الآية مدنية فإن هذا القول وارد بتمامه أيضاً . وإيمان الذين

استطاعوا أن يتغلبوا على أنانياتهم وعقدهم بالقرآن والنبي في مكة أولاً وفي المدينة بعد ذلك دليل لا يدحض على ذلك وفي بعض الآيات التي تذكر هذا الإيمان قد ورد انه كان منهم ، لأنهم سمعوا من القرآن ماعرفوا أنه الحق ، وهذا بقطع النظر عما يستنبطه علماء المسلمين من أسفار العهد القديم والأناجيل المتداولة من بشارات بالنبي محمد ﷺ وصفاته . وقد ذكر الإمام محمد رشيد رضا مثلاً ثمانية عشر بشارة ، وأورد النصوص المستنبطة منها في سياق تفسير الآيات في الجزء التاسع من تفسيره ، وفي كتاب « هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى » للإمام ابن القيم استنباطات عديدة من نصوص الأسفار والأناجيل أيضاً ، وقد اكتفينا بالإشارة إليها دون سردها تفادياً من التطويل ، ولا سيما اننا نعتبر النص القرآني الذي كان يتلى علناً وإيمان أهل الكتاب بنبوة النبي والقرآن في مكة مما سجله القرآن المكي دليلاً حاسماً وقاطعاً . وفي إحدى الآيات المدنية حكاية عن لسان عيسى عليه السلام بأنه مبشر برسول من بعده اسمه أحمد ، وهذه الآية كانت كذلك تتلى علناً . وفي هذا دليل حاسم وقطعي آخر ، بل هناك أدلة أخرى في القران المدني ، منها هذه الآية في سورة البقرة (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ ٨٩) والآية في حق اليهود ، وتفيد على ضوء الروايات الموضحة المروية أن اليهود كانوا يعرفون أنه سيبعث نبي من العرب ينزل عليه كتاب عربي ، وكانوا يقولون للعرب : إنهم سيكونون وإياه حزباً واحداً . وعلى كل حال فالآية صريحة أن اليهود كانوا يعرفون أن مبعث النبي العربي ونزول كتاب عليه حق ، ولا بد من أن تكون هذه المعرفة مستندة إلى ما كان في أيديهم من كتب ، ومنها آية سورة البقرة هذه (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ

اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ١٠١) وجملة (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم) تعني في ما هو المتبادر أنهم أنكروا ما كان في أيديهم من كتب فيها صفات هذا الرسول .

ولعل في هذه الآيات تأييد لذلك :

١ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .. [البقرة : ١٥٩ و ١٦٠] .

٢ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . [البقرة : ١٧٤] .

وقد تفيد الآيات أن اليهود- والآيات هي من سلسلة في حقهم - أنكروا في سياق جحودهم لنبوة النبي ومناوأتهم لها وجود صفات النبي في كتبهم بعد أن بشروا به ، فاستحقوا هذه اللعنة وأن منهم من ندم وتاب واعترف فاستثنتهم الآية ١٦٠ ، ولا يصح أن يكون محل شك في أن هذه الصور كانت من الصور الواقعة العيانية ، وكانت بطبيعة الحال تعبر عن معرفة النبي السابقة لبعثته .

ونعتقد أن جملة (سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً) في آيات الإسراء التي تحكي مشهداً إيمانياً رائعاً لأهل العلم (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً) تعني أنهم رأوا في محمد ﷺ ورسالته صفات الرسول

النبي الأمي الذي وعد الله بإرساله ، فقالوا : إن الله قد وفى بما وعد .

ولقد آمن بالنبي والقرآن علماء من اليهود وقسيسون ورهبان من النصارى في العهد المدني أيضاً ، وفي قصة هؤلاء الآخرين نزلت آيات سورة المائدة هذه (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ ٨٢-٨٦) ولا يجوز لأحد أن يشك إن كان به مسكة من عقل وحياء أن هذا الذي سجله القرآن هو مشهد واقعي عياني ، وفيه صراحة أن القسيسين والرهبان قد رأوا وسمعوا ما عرفوا أنه الحق فآمنوا ، ولا يجوز لأحد أن يشك إن كان به مسكة من عقل وحياء أنهم سمعوا ورأوا مصداقاً لما كانوا يجدونه من صفات رسول الله النبي الأمي في الإنجيل وغيره مما في أيديهم من كتب .

وللخوري الحداد مواقف من هذه الآيات فيها تمحل وتهافت ، فمن جهته حاول نفي إيمان القسيسين والرهبان ، فقال (إن جملة الذين قالوا إنا نصارى تفيد أنهم بقوا على نصرانيتهم ، وإن مدح القرآن لهم هو على حالتهم هذه ، لأنهم لا يستكبرون) وقال في مناسبة أخرى : (إن الايات نزلت في وفد حبشي كل ما كان منه حينما سمع القرآن أنه بكى خشوعاً) . وقد عظم على الخوري هذا المشهد الإيماني الرائع الصافي من قسيسين ورهبان فعمد إلى هذا التمحل المضحك ، وعمي عن النص الذي يذكر صـــراحة قولهم

(رَبَّنا آمَنَّا فاكْتُبْنا مَعَ الشاهِدين) حينما سمعوا القرآن ، وعرفوا أنه الحق ، وفاضت عيونهم بالدمـــع وقالوا (وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بالله وما جاءَنا مِنَ الحَقّ) وأصبحوا بطبيعة الحال من أتباع محمد ﷺ ولو كان للخوري وأمثاله ضمير حي ، ورغبة في الحق والصدق والحقيقة والنجاة لكانوا بدلاً من التمحل والمماحكة الغبية تأثروا بقوة وروعة المشهد الإيماني العياني ، وأذعنوا ، وتمت بذلك الوحدة الدينية التي استهدفها الله (يُريدُونَ أنْ يُطفِئُوا نُورَ اللهِ بِأفْواهِهِمْ وَيَأبى اللهُ إلّا أنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ هُوَ الّذي أرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدى وَدينِ الحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ) .

وليس إيراد الآيات المدنية التي فيها تسجيل لإيمان أهل الكتاب في العهد المدني من مواضيع ومنهج النبذة لذاتها . وإيرادنا آيات المائدة هو لإبراز ما سجلته من اعتراف القسيسين والرهبان بأنهم سمعوا ما عرفوا أنه الحق ، ولإبراز كون هذه المعرفة سابقة للعهد المدني ، وامتداداً لما قبل البعثة المحمدية ، ومصداقاً لحقيقة كون القسيسين والرهبان يجدون صفات رسول الله الصريحة فيما في أيديهم من كتب . وهذا ما يفيده تسجيل إيمان الراسخين في العلم من اليهود ، وإيمان الذين آمنوا بالقرآن والنبي من أهل الكتاب عامة في العهد المدني ، وهذا ما يجعلنا نوردها أيضاً كما يلي :

١ - وَإنْ مِنْ أهْلِ الكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إلَيْكُمْ وَما أُنْزِلَ إلَيْهِمْ خاشِعينَ للهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَليلاً أولئِكَ لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إنّ اللهَ سَريعُ الحِسابِ .. [آل عمران : ١٩٩] .

٢ - لَكِنِ الرّاسِخُونَ في العِلْمِ مِنْهُمْ وَالمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالمُقيمينَ الصَّلاةَ

وَالمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً . [النساء : ١٦٢] .

وهناك آيات أخرى يمكن أن تضاف إلى هذه الآيات وإن لم يكن فيها الصراحة التي في هذه الآيات ، منها آية البقرة هذه (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ .. ١٢١) وقد جاءت هذه الآية عقب هذه الآية (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ١٢٠) حيث يتبادر لنا أن الضمير في « به » عائد إلى العلم الذي جاء للنبي ﷺ ، ويكون الثناء في الآية على الذين عرفوا أنه الحق من كتبهم التي يتلونها حق تلاوتها فآمنوا به ، ومنها آيات سورة آل عمران هذه (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالمُتَّقِينَ .. ١١٣ - ١١٥) . وقد جاء قبلها هذه الآيات (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ . لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ

بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ .. ١١٠ - ١١٢) حيث يمكن أن يكون هؤلاء المستثنون هم الذين قالت عنهم الآية (١١٠) (منهم المؤمنون) .

فهذه الايات جميعها دليل قاطع على أن إيمان أهل الكتاب بالرسالة المحمدية والقرآن وانضواءهم تحت رايتها قد استمر بعد الهجرة إلى المدينة أيضاً بقطع النظر عن ضيق دائرة ذلك بالنسبة لنبي إسرائيل على ما سوف يأتي شرحه بعد ، فيكون التمحل في إيمان فريق منهم في مكة ، ثم في المدينة مكابرة صارخة في الحق والحقيقة يمليها الهوى والحقد والعقد النفسية والمآرب الذاتية .

وقول الحوري : إن محمداً وأهل الكتاب كانوا أمة واحدة في مكة ، وإنه ليس في القرآن المكي دعوة لهم متهافت أيضاً ، فجملة (أمة واحدة) جاءت في آيتي سورتي الأنبياء والمؤمنون (٩٢ و ٥٢) بعد ذكر الأنبياء للتنبيه على أن طريق أنبياء الله واحدة ، وقد جاء بعد الآيتين آيتان تذكر تقطع أمر أتباع الأنبياء بعدهم أحزاباً وزبراً ، فالجملة والحالة هذه تصدق على النبي محمد وحده فقط ، فهو أمة واحدة مع الأنبياء ، ولا يمكن أن يصدق عليه وعلى أتباع الأنبياء بمعنى أنه كان وإياهم على حالة واحدة ، وقد جاء لهدايتهم وإزالة انحرافهم واختلافهم ، ولا يكون من شأنها أن تغطي على شخصية الرسالة المحمدية القرآنية المستقلة على ما شرحناه في النبذة (١٠) رقم ١٨ . وأهل الكتـــاب كانوا مدعوين بالدعوة المحمدية في نصوص مكية كثيرة ، وقد فهموا أنهم مدعوون ، فاستجابوا وآمنوا على ما شرحناه آنفاً ، فزهق جداً باطل دعوى الحوري أيضاً .

٣ — وما قاله الحوري في صدد آية العنكبوت ٤٧ (إن ضمير (به) عائد إلى الكتاب مطلقاً وليس فيها والحالة هذه تقرير بكون الذين أوتوا الكتاب يؤمنون بالقرآن) وهذا متهافت وتحريف للكلام من موضعه ، فموضوع الكلام هو القرآن الكتاب الموحى به إلى النبي محمـــد ﷺ

(وكذلك أنزلنا إليكَ الكتابَ) ولا يمكن أن تعني الكلمة إلا القرآن فيكون ضمير (به) راجعاً إليه قطعاً ، والاية التي سبقتها دليل آخر (اتلُ ما أُوحيَ إليكَ منَ الكتابِ وأقمِ الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تنهى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ . ٤٥) ولقد جاء بعد هذه الآية هذه الآية (ولا تجادلُوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هيَ أحسنُ إلا الذينَ ظلمُوا منهُمْ) فقال الحووي للتدليل على زعمه : (كيف يكونون قد آمنوا بالقرآن وهم يجادلون فيه) . وليس هذا دليلًا وليس من شأنه أن يخل بما قلناه ، حيث يمكن أن يكون فريق آمن ، وفريق جادل كما يمكن أن يكون النهي هو بالنسبة لحالة يمكن أن تقع وخطة يسار عليها .

ثانياً :

زعم الانقلاب الشامل للنبي ﷺ وأساليبه في العهد المدني

- ١ -

من مزاعم الحوري الحداد (أن انقلاباً شاملًا كاملًا طرأ على النبي ودعوته بعد الهجرة إلى المدينة بسبب تدخل السياسة في الدين حيث انقلب الداعية إلى رجل دولة وحرب ، وانقلبت طريقة الدعوة من الحكمة والموعظة الحسنة وترك من لم يؤمن وشأنه إلى قتال المشركين حتى يؤمنوا والكتابيين حتى يخضعوا ، ويعطوا الجزية ، وتخلى عن الدعوة الكتابية إلى دعوة قومية عربية بسلطان سياسي وحربي ، وإلى ملة وسط لا يهودية ولا نصرانية ، بل حنيفية إبراهيمية ، وصار يحمل على اليهودية والنصرانية واليهود والنصارى الذين كان منضماً إليهم وكواحد منهم . وكان الدين قد وحده معهم ، ففرقتهم السياسة عن بعضهم) ومن عجيب أمر المغرضين الحاقدين على الإسلام ونبيه وقرآنه أن هذه الأقوال تقـــال من عشرات السنين ، ويرد عليها المسلمون ردوداً مفحمة من القرآن والسنة والوقائع اليقينية المؤيدة بالواقع المستمر منذ عشرات القرون إلى الآن ، والتي فهمها

كثيرون من علماء الغرب على وجهها الصحيح فكتبوا كتباً عديدة فيها تقرير الحق والحقيقة ، ومع ذلك فإنهم يظلون يكرورنها بلا كلل ولا ملل ولا خجل ، لأنها رأس ما لهم الذي يتشبثون به للاحتفاظ بمناصبهم ومنافعهم ، وإبقاء أبناء ملتهم بقوة يحلبونها ، ومطية يركبونها ، مع ما في ذلك من إبقاء الملل الكتابية متفرقة يناوىء بعضها بعضها ، ويمكر بعضها ببعض ، ويكيد بعضها لبعض ، ويقاتل بعضها بعضاً رغم اتحادها في المصدر والمبادىء والمثل العليا متجاهلين أن الرسالة المحمدية القرآنية التي تحترم جميع كتب الله وأنبيائه قد هدفت فيما هدفت إليه إلى توحيد الملل الكتابية ، وتصديق قول الله (إنَّ هذه أمتكُمْ أمَّةً واحدةً وأنا ربكُمْ فاعبُدُون) لتكوين جبهة قوية تحمل مشعل الهداية الإلهية موحدة الأسس والأهداف والقوى والجهود ، زائل من بينها ما كان من انحرافات واختلافات ومنازعات ، مندمجون جميعاً في أخوة شاملة قوية متراصة ليكونوا القدوة المثلى ، ويستطيعوا أن يكتسحوا تحت الراية الجديدة للجبهة الموحدة ما أمامهم من عقائد سخيفة واهية لايمكن أن يكون لها قدرة على المقاومة والتحدي .

وبالنسبة للعهد المكي نعتقد أن ما تقدم من ردود وتوضيحات كاف لقناعة من يريد أن يقنع ولا يكابر في صدد كون دعوة النبي محمد جديدة مستقلة جاءت لتصحيح الانحراف والاختلاف اللذين ارتكس فيها الناس بعد الرسل ، وبخاصة الكتابيين ، وكون هؤلاء في العهد المكي قد فهموها على هذا النحو ، فاستجابوا إليها ، وآمنوا بها ، وانضووا إليها ، فصاروا محمديين مسلمين ، وفي كون مزاعم الحوري بأن النبي كان منضماً إليهم وكواحد منهم على معنى كونهم ظلوا محتفظين بما كانوا عليه زائفة داحضة .

أما بالنسبة للعهد المدني ، فإن الحوري قد شوه الحقائق أيضاً بالأباطيل في كل ما زعمه ، وإليك البيان .

لقد جعل الحوري جنوح النبي محمـــد ﷺ إلى العمل السياسي أصلاً للانقلاب المزعوم ، واستعمل تعبيراً حديثاً وهو (تدخل السياسة في الدين) في غير محل ولا مناسبة ، مع أن طبائع الأمور ، واستعراض الوقائـــع اليقينية التي وقعت بعد الهجرة تكذب هذا الزعم من مختلف نواحيه .

فالعمل السياسي الذي جنح محمد إليه كان في ذاته أمراً طبيعياً بعـد أن انتقل إلى بلد لم يكن فيه بيت عربي لم يدخله الإسلام قبل انتقـاله إليه . والعرب هم جمهرة أهل هذا البلد الأصليين ، وذلك ما أشارت إليـه آية الحشر هذه (والَّذِينَ تبوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّـــا أُوتُوا ويؤثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأولئكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٩) [١] لأن النبي صار المرشد والقائد والقاضي والمفتي والمرجع العام في هذا البلد التي غدت أغلبيته تدين بدينه وتعتبره قائدها الروحي والسياسي والاجتماعي مما هو متسق كل الاتساق مع طبائع الأمور ، ومما لايمكن أن يكون موضع جدل وتمحل ونقد .

وتعبير (انقلب إلى رجل دولة وحروب) إذا أطلق بهذا الاقتضاب يجانب الحق والحقيقة من كل ناحية ، فلقد صار النبي رجل دولة حقـــاً بالإضافة إلى نبوته ورسالته ، ولكنه لم يكن في هذا مناقضاً لمهمة النبي والرسول ، بل هو من صميمها من حيث المبدأ ، فالنبي يأتي بالتشريـع والتقنين والتعليم والأمر والنهي والزجر ، فمن الطبيعي أن يكون هو القيم

---

(١) انظر سيرة ابن هشام أيضاً ج ٢ ص ٤٢ - ٤٦ - المكتبة التجارية مطبعة حجازي . وعبارة ابن هشام (حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف وهذا قبل هجرة النبي شخصياً إلى المدينة .

على تنفيذ ذلك إذا كان ظرف بعثته مواتياً ، أو إذا واتى ظرف بيئته . ولم يكن له ذلك في أثناء العهد المكي ، لأنه كان في مجتمع غالبيته العظمى مناوئة له ، فلما انتقل إلى المدينة ، وصار على رأس المجتمع الإسلامي فيها كانت ممارسته لذلك نتيجة طبيعية .

وليس هو بدعاً في الأنبياء في ذلك ، فقد كان هذا شأن كثير منهم ، ومنهم موسى وداود وسليمان عليهم السلام ، وإذا كان عيسى عليه السلام لم يفعل ذلك ، فلأنه كان في الوضع الذي كان فيه محمد ﷺ في مكة . والحوري الحداد يعتبر بابا روما رئيسه الأعظم ، ومقدساً ومعصوماً ومشرعاً ، ونائباً للمسيح على الأرض ، ولا يجهل أن البابوات حينما منحت لهم الظروف مارسوا مهمة رجل الدولة ، بل رجل الحرب أيضاً ، والبابا الآن يمارس صفة رجل الدولة ، ويقوم على رأس دولة لها وزراؤها وحرسها وسفراؤها ، وإذا لم يكن رجل حرب الآن ، فليس ذلك منه تخلياً عن صفة رجل الحرب التي مارسها أسلاف كثيرون له ، وإنما هي الظروف وحسب ، بل إن المسيح أمر بذلك في لحظة ما حيث ذكر إنجيل لوقا في الإصحاح (٢٢) أنه أمر تلامذته بشراء السيوف للدفاع عنه حينما أريد اعتقاله ، وأن واحداً من تلامذته ضرب بسيفه عبد رئيس الكهنه وقطع له أذنه ، وذكر الخبر في إنجيل مرقس أيضاً .

– ٣ –

والمهم في موضوع النبي محمد ﷺ الجدير بالتنبيه أنه لم يغير طريقته ، وأنه ظل ملتزماً لمبدء الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، وترك الناس الذين لايدينون بدينه وشأنهم بعد دعوته ما داموا كافّين أيديهم وألسنتهم عن الإسلام والمسلمين خلافاً لما يزعمه الحوري وأمثاله . وكان هذا من موجبات النصوص القرآنية المدنية أيضاً التي منها هذه الآيات :

١ - لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.. [البقرة : ٢٥٦] .

٢ - إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ .. [آل عمران : ١٩ و ٢٠] .

٣ - إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ المُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالمُفْسِدِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .. [آل عمران : ٥٩-٦٤] .

٤ - إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً .. [النساء : ٩٠] .

٥ ـ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .. [المائدة : ١٥ و ١٦] .

٦ ـ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .. [المائدة : ١٩] .

٧ ـ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ .. [الأنفال : ٦١] .

٨ ـ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ .. [التوبة : ٤] .

٩ ـ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ . [التوبة : ٧] .

١٠ ـ لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ .. [الممتحنة : ٨] .

ففي هذه النصوص صراحة بأن الدعوة إلى الإسلام في المدينة كانت بالحسنى للكتابيين وغيرهم على السواء ، وليس على النبي إلا البلاغ كما هو شأنها في العهد المكي ، وانه لا إكراه في الدين ، وانه لا سبيل للمسلمين على الذين لا يقاتلونهم ولا يعدون إليهم يداً ولساناً بأذى ويلقون إليهم السلم ، بل عليهم أن يبروهم ويقسطوا إليهم مما ينطوي فيه حسن التعايش والتعامل أيضاً ، وأن من واجبهم أن يستجيبوا إلى كل من جنح إلى السلم معهم ، وأن

يتعاهدوا مع كل من يود التعاهد معهم على المسالمة ، وأن يستقيموا لهم ما استقاموا على عهدهم ، ولم ينقضوا منه شيئاً مباشرة أو غير مباشرة .

وفي كتب سيرة النبي ﷺ الموثوقة مثل ابن هشام وطبقات ابن سعد وقائع عديدة وقعت في العهد المدني مؤيدة لكل ما تقدم من حيث التطبيق .

ولقد نقل الحوري عن بعض علماء المسلمين أن آيات البقرة والنساء والأنفال والتوبة والممتحنة منسوخة وعن بعضهم أن آية البقرة (٢٥٦) خاصة بأهل الكتاب دون المشركين ، وأن المشركين لايقبل منهم إلا الإسلام ويكرهون عليه ، فتمسك به مع أنه لايثبت على التمحيص على ما سوف نشرحه بعد ، ومع أن كثيراً من علماء المسلمين وأئمتهم يخالفونه أيضاً .

- ٤ -

وإذا كان النبي ﷺ قد مارس صفة رجل الحرب مع غير المسلمين من كتابيين وغير كتابيين ، وصار بينه وبينهم حالة حرب وقتال ، فقد فعل مثله أنبياء آخرون ، لأن ذلك متسق مع طبائع الأمور ، ومنبثق من ممارسة صفة رجل الدولة .

ولكن المهم في أمر النبي أن ذلك منه كان دفاعاً عن الإسلام والمسلمين ، ورداً على عدوان المعتدين عليهما مما هو طبيعي جداً ، ووصف ذلك بالانقلاب زائف وتمحل ، ولا يقوله إلا أحمق غبي ، أو مغرض حقود ، بل ولقد كانت نواة ذلك واردة في القرآن المكي على ما تفيده آيات في سورة الشورى منها هذه الآية التي تصف المسلمين أوبالأحرى تذكر ما يجب أن يتصف به المسلمون (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ .. ٣٩) ومنها هذه الآيات التي تسوغ مقابلة العدوان والانتصار من الظلم وتدين البادىء بالعدوان والظلم (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ .

إنما السَّبيلُ على الَّذينَ يَظْلِمُونَ النّاسَ وَيَبْغُونَ في الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . [الشورى : ٤١ و ٤٢] .

ولقد كانت أولى آيات القرآن المدني في العمل الحربي آيات سورة الحج هذه (إنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذينَ آمَنُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ لِلَّذينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَديرٌ . الَّذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلَّا أنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللهِ كَثيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزيزٌ الَّذينَ إنْ مَكَّنّاهُمْ في الأرْضِ أقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَللهِ عاقِبَةُ الأُمورِ .. ٣٨ - ٤١) التي ينطوي فيها تقرير صريح بأن العمل الحربي الذي أذن الله به للنبي والمسلمين ، وباشره بقيادته ، وسير السرايا له بقيادة غيره ، كان دفاعاً مسبوقاً بعدوان ظالم على المسلمين . وفي الآيات تعليل رائع وهدف أروع ، فقد جعل الله دفع الناس بعضهم ببعض من سنن الاجتماع حتى لا يستشري الفساد والطغيان ، وتتعطل حرية العبادة وأماكنها ويفقد الناس أمنهم وسلامتهم ، وهو إذ يأذن للمسلمين بممارسة هذه السنة الاجتماعية الربانية ، فإن من أهداف ذلك أن يمكنهم في الأرض ليكونوا أحراراً أقوياء أعزاء لا يظلمون ، وتكون خطتهم وسيرتهم إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا جماع المثل العليا .

ولقد كانت ثانية الآيات المدنية في العمل الحربي آيات سورة البقرة هذه (وَقاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ الَّذينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ

مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ . فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ .. ١٩٠ - ١٩٤) وقد تضمنت الآيات خطة مثلى رائعة أشد الروعة بدورها لا يمكن أن تتحمل أي نقد ولا جدل ولا تمحل .

- ٥ -

وظاهر من آيات الحج والبقرة أنها ليست لإجبار الناس على الإسلام ، وإنما هي للدفاع عن الإسلام والمسلمين وحرية العبادة والدعوة ، وقتال الأعداء المعتدين ، وعدم العدوان مباشرة أو بدءاً ، والكف حينما ينتهي المعتدي عن عدوانه بأية صورة ، وليس فيها أي أمر في صدد من يكف يده ولسانه عن المسلمين ، ويدخل في ذلك عدم الصد عن الإسلام ، وعدم الطعن فيه ، وعدم منع وعرقلة حرية الدعوة إليه ، فمن يكف لسانه ويده في هذا النطاق لايجوز قتاله وليس للمسلمين سبيل عليه ، بل ومن واجبهم البر والإقساط إليهم .

ولقد اتكأ الحوري على قول بعض المسلمين : بأن آيات الحج والبقرة وآيات النساء ٩٠ والممتحنة ٨ والتوبة ٥ و ٧ منسوخة بآيات في سورة التوبة بالنسبة للمشركين ، فصار قتالهم حتى يسلموا ، أو بعبارة أخرى إكراههم على الإسلام هو المبدأ الذي سار عليه محمد ﷺ وخلفاؤه من بعده ، وهذا لايثبت على تمحيص كما قلنا قبل .

ومما يساق في هـــذا المساق آيات سورة التوبة هذه (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .. ٥) وهـذه (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .. ١١) غير أن هذه الآيات هي في صـدد قتال المشركين الناكثين لعهدهم والعائدين إلى العداء والعدوان مرة أخرى وليست في صدد قتال المشركين إطلاقاً ، بدليل الآيات التي وردت في سياقها التي يستثنى فيها المعاهدون المستقيمون على عهدهم وغير الناقضين له بأي موقف كما ترى في هذا النص (إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .. ٤) ثم في هذا النص (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .. ٧) وقد جاء بعد هـذه الآية آيات وصف فيها الناكثون لعهدهم وصفاً يسوغ قتالهم كما ترى فيهـا (كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ . اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ .. ٨ - ١٠) ثم جاءت بعد الآية (١١) التي أوردناها قبل هذه الآية التي فيها دليل حاسم آخر على أن المقصود بالقتال هم الناكثون (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ .. ١٢) ولقد شدد القرآن المدني على الوفاء بالعهـد مع من تعاهد النبي والمسلمون معهم من الكفار ، حتى لقد منع نقضه مع كفار

تحت كنفهم مسلمون مضطهدون ، فاستصرخ هؤلاء المسلمين لنصرهم ، لأن من واجبهم أن يهاجروا ، ولا يبقوا تحت كنف الكفار ، كما جاء ذلك في آية سورة الأنفال هـذه (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .. ٧٢) ولقد انعقد الصلح بين النبي والمسلمين وبين قريش بعد حالة حرب شديدة مستمرة متنوعة الصور وهو الصلح المعروف بصلح الحديبية ، وكان المسلمون مغتاظين من قريش لأنهم منعوهم بادىء بدء من زيارة الكعبة ، فأراد بعضهم أن يمنعوا الناس من الذهاب إلى الحج وكان في ذلك ضرر على قريش ، فاعتبر الله تعالى ذلك نقضاً للعهد وعدواناً وحظره على المسلمين ، وشدد على وجوب الوفاء بالعهود في آيات سورة المائدة هذه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ .. ١٠٠) وهـذه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .. ٢) ولقد أمر الله المسلمين بالجنوح إلى السلم إذا ما جنح لها الأعداء حتى ولو كانوا ماكرين ونكثوا عهدهم معهم وحتى لو كان من المحتمل أن يكون جنوحهم إلى السلم خداعاً كما جاء في آيات سورة الأنفال هذه (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ

عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ . وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ . وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ .. الأنفال ٥٥ – ٦٢) وجملة (فانبذ إليهم على سواء) ذات مغزى عظيم حيث تتضمن أن من واجب المسلمين إذا رأوا أمارات نقض وخيانة من المتعاهدين معهم أن يعلنوهم بأنهم سيقفون منهم كموقفهم ، وأن لا يباغتوهم بالنقض مباغتة ، وجملة (فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) أيضاً ذات مغزى عظيم حيث تتضمن أن القتال مع جميع الأعداء ليس غاية ، وإنما الغاية تخويف الأعداء وإرهابهم حتى يمتنعوا عن الاعتداء ، ويتشردوا إذا ما رأوا المسلمين قد ضربوا أعداء آخرين وغلبوهم ، وهذا المعنى وارد في الآية (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) وفي كل ذلك من الجلال والروعة والحكمة ما كان ينبغي على الحوري أن يلحظه ، وأن يمتنع عن تمحلاته ومماحكاته .

وعلى ضوء ذلك كله يجب أن يفهم ما في آيات سورة التوبة ٥ و ٧ من إيجاب قتال الناكثين من المشركين للعهد ، والكف عنهم إذا ما تابوا ، وأسلموا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة . فالحق والمنطق والعدل واضح في

ذلك . وقد صار المسلمين الحق في أن يفرضوا عليهم ما فيه أمنهم وسلامتهم ، وهو تخليهم عن الشرك ، لأن التجربة أثبتت أنهم لو عوهدوا ثانية لنكثوا ، وهذا ملموح بقوة في الآيات . وهذا بقطع النظر عن أن الشرك يمثل مظاهر الانحطاط الإنسانية ، وتسخيرها لقوى وأفكار وعقائد سخيفة مغايره للعقل والمنطق والحق ، كما يمثل نظاماً جاهلياً فيه التقاليد الجائرة ، والعـــادات المستكرهة ، والعصبيات الممقوتة . بينما جاء النبي ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويرتفع بهم من الحضيض إلى ذروة الكرامة الإنسانية ، وبقطع النظر عما في ذلك معالم هذا الشرك السخيف ، وهذا النظام الجاهلي من مبررات لاتتحمل مراء . غير أن حكمة الله في رسالة رسوله محمـــد اقتضت أن يظل مبدأ عدم إجبار الناس وإكراههم في الدين ، وعدم جعل سبيل المسلمين على من يكف عنهم يده ولسانه من المشركين وغيرهم ، بل وإيجاب البر والإقساط لمثل هؤلاء هو المبدأ المحكم .

وتساق آية أخرى في سورة التوبة في صدد قتال المشركين إطلاقـاً وهي هذه (وقاتلوا المشركين كافة ... ٣٦) وهي مما اتكأ عليها الخوري أيضاً . والآية تكملة وهي (كما يقاتلونكم كافة) بحيث يبدو بصراحة أنه ليس في الآية نقض لذلك المبدأ ، وكل ما في الأمر أنها احتوت خطة قتال المسلمين وحسب حيث أوجبت عليهم الجد والتجمع في قتال أعدائهم المشركين كما يفعلون معهم .

ولقد روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي حديثاً نبوياً عن بريدة جاء فيه أن (النبي ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال له : إذا لقيت عدوك من المشركين فادعه إلى الإسلام ، فإن أجابك فاقبل منه ، وكف عنه فإن أبى فادعه إلى الجزية ، فإن أجابك فاقبل منه وكف عنه ، فإن أبى فاستعن بالله وقاتله ، ولا تمثل ولا تغل ، ولا تغدر ، ولا تقتل وليـداً)

وروى عن النبي حديث آخر أنه كان يقول لجيوشه (انطلقوا باسم الله، وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة) والحديث الأول صريح بأن النبي ﷺ إنما كان يسير جيوشه لقتال الأعداء من المشركين ، وليس لقتال المشركين إطلاقاً ، وأنه كان يأمر بقبول الجزية من العدو المشرك ، حيث يبدو من ذلك عدم صواب قول من قال : إنه لايقبل من العدو المشرك إلا الإسلام فضلاً عن عدم صواب قول من قال بقتال المشركين إطلاقاً حتى يسلموا .

والوقائع الحربية التي باشرها النبي ﷺ بقيادته أو بقيادة قواده كلها جرت في نطاق المبادىء والخطط القرآنية على الوجه الذي شرحناه ، فلم يقاتل ، ولم يأمر بقتال كل مشرك إطلاقاً ، ولم يكن القتال إلا رداً على عدوان وقع ، أو إحباطاً لعدوان متوقع على الإسلام والمسلمين و دارهم بصورة ما ، مع النهي عن قتل غير المقاتلين منهم ، أي : الأطفال والنساء والشيوخ ، ومع توجيه الدعوة إليهم إلى الإسلام قبل البدء بالقتال ، والوقائع الحربية التي جرت في زمن النبي مسرودة في كتابي سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وهما من أقدم الكتب التي وصلت إلينا وأوثقها ، وليس فيها أي خبر بأن النبي ﷺ قاتل ، أو أمر بقتال غير الأعداء المعتدين على الإسلام والمسلمين ، وفيها أنه كان يقبل السلم ممن يجنح للسلم منهم ، ولم تكتب هذه الكتب للدفاع والتسويغ كما قد يزعم الحوري وأمثاله الذين لايتورعون عن مثل هذا الزعم بالنسبة للقرآن مما مرت أمثلة عليه ، لأنه لم يكن إذ ذاك قضية تحتاج إلى تسويغ ودفاع ، وإنما كتبت على الطبيعة كوقائع مروية عن راو عن راو إلى زمن النبي ﷺ .

ومع ما قلناه من أن آيات التوبة (٥) و (٧) هي في صدد الناكثين للعهد من المشركين ، فليس فيها ما يمنع من التعاهد معهم مرة

أخرى ، ويوجب الإصرار على إسلامهم إذا ما كان من مقتضيات مصلحة وظروف المسلمين التعاهد معهم .

- ٦ -

أما قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، فقد أمر به القرآن بالنسبة للمعتدين ، وكعمل دفاعي أيضاً ، كما هو ظاهر من نص آية التوبة التي أشار الحوري إلى فحواها دون أن يورد نصها ، لأن في النص السبب المسوغ وهو هذا (قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .. ٢٩) .

ولقد نزلت هذه الآية بين يدي غزوة قادها رسول الله إلى تبوك ، لأن قبائل النصارى في مشارف الشام بتحريض من الروم والغساسنة تجمعت لغزو المدينة ، ولقد سبقت قبل هذه الغزوة أحداث عديدة جعلت حالة الحرب قائمة بين المسلمين وبين نصارى هذه المشارف ومن ورائهم الغساسنة والروم نتيجة لعدوان متنوع الصور مما هو مسرود في الكتابين اللذين ذكرناهما قبل .

ومن البارز من هذه الأحداث قتل رسول لرسول الله أرسله إلى ملك بصرى لحمل رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام ، وقتل عامل للروم في البلقاء من قبيلة جذام ، لأنه استجاب للدعوة الإسلامية وآمن ، وتشليح دحيـة الكلبي رسول رسول الله إلى قيصر الذي حمل إليه رسالة بالدعوة إلى الإسلام من قبل القبائل النصرانية ، وعدوان قبائل النصارى في هذه المشارف على بعثات بعثها رسول الله تحمل الدعوة الإسلامية إليها ، ثم على القوافل التجارية التي كانت تسير من المدينة إلى بلاد الشام أو العكس ، وقد تجمعت مرة بعد مرة لغزو المدينة نفسها ، وكل هذا مما عنته آية التوبة التي لم تأمر

بقتال أهل الكتاب إطلاقاً ، وإنما كان أمرها منصباً على قتال الذين لايحرمون ما حرم الله ورسله ولا يدينون دين الحق ، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر منهم وهم ليسوا جميع أهل الكتاب ، كما يلمح من التعبير .

وفي سورة آل عمران آيات ذات مغزى في هذا الباب جاءت بعد ذكر الفاسقين الكافرين من أهل الكتاب وهي (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ .. ١١٣ - ١١٥) حيث تفيد بصراحة قطعية أن القرآن يفرق بين الصالح والطالح والمستقيم والظالم من أهل الكتاب ، وان المأمور بقتالهم هم المعتدون الباغون ، وليسوا جميع أهل الكتاب كما يريد الخوري أن يوهمه ، أما المستقيمون الصالحون الذين يحتفظون بدينهم في الإسلام ، ويكونون كافين ألسنتهم وأيديهم عن الإسلام والمسلمين ، فيكونون من نطاق آية الممتحنة (لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) وليس للمسلمين أن يقاتلوهم أو يرغموهم على أداء الجزية ، وفي كتابي السيرة المذكورين أخبار غزوات قادها رسول الله وسرايا سيرها في اتجاه مشارف الشام لتأديب من كان يقف مواقف العدوان والاعتداء منذ السنة الخامسة للهجرة أي قبل نزول آية التوبة بأربع سنين ، وكان ذلك في نطاق تلك الخطة التي تضمنتها آيات سورتي الحج والبقرة .

وقتال الموصوفين في آية التوبة من أهل الكتـــاب إلى أن يخضعوا ويعطوا الجزية مسوغ كل التسويغ مثل قتال المشركين المعتدين ، ولا ينقده إلا أحمق أو حاقد مكابر .

ولقد قال الخوري : إن آية التوبة تأمر بقتال أهل الكتاب إلى أن يخضعوا لسلطان الإســـلام ، وهـذا صحيح ولكن ليس معناه أنهم غير مدعوين إلى الإسلام ، ولكن معناه أنهم لايكرهون عليه بالقتال . وأن القتال هوللمعتدي منهم ومقابلة لاعتدائه وليس بسبب عدم إيمانه بالرسالةالمحمدية، وهم مدعوون إلى الإسلام دائماً بدءاً وعوداً وفي كل ظرف بما تفيده آيات كثيرة سبق ايرادها وبخاصة آيات سورةالمائده ١٥و١٩وفي نطاق مبدأ الحكمة والموعظة الحسنةوالجدل بالتي هي أحسن المكي المؤيد بالآيات المدنية على ما مر شرحه .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال : إن المنحرفين المعتدين منهم الذين وجب قتالهم ، وقاتلهم المسلمون إذا أسلمو بدلاً من الخضوع للجزية يقبل منهم ، لأنهم مدعوون إلى ذلك في الأصل ، ولا يكونون خاضعين للجزية ، وقتالهم إلى أن يخضعوا للجزية وسلطان المسلمين حق لايتحمل مراء ، لأن للمسلمين أن يحصلوا على سلامتهم وطمأنينتهم على الأقل حينما يعتدى عليهم ، ويقاتلون المعتدين ، ويقدرون عليهم .

ويتبادر لنا مع ذلك أن روح الآية لاتمنع الصلح معهم بدون جزية إذا طلبوا ذلك ، ورأى المسلمون أنه متفق مع ظروفهم ومصلحتهم ، وضامن لهدفهم الذي هو منع العدوان . وننبه على أن صلة النصارى بالنبي والإسلام في العهد المدني ليست هي الحالة التي مر شرحها وحسب ، ففي القرآن ، وكتب السيرة تسجيل لمواقف أخرى منها موقف إيمان بالنبي والقرآن في مشهد عياني رائع حكته آيات في سورة المائدة عن جماعة منهم وفدوا على رسول الله ﷺ في المدينة ، فيهم القسيسون والرهبان وهي هذه (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا

لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطمَعُ أن يُدخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ .. ٨٢ - ٨٤) .

وهناك آيات مدنية تذكر أنه كان من أهل الكتاب من يؤمن بالله والقرآن والرسول ولا تذكر ان كانوا يهوداً أو نصارى ومن الجائز أن يكونوا أو يكون منهم نصارى وهي هذه :

١ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ .. [البقرة : ١٢١][1] .

٢ - لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالمُتَّقِينَ .. [آل عمران : ١١٣ - ١١٥][2] .

٣ - وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ .. [آل عمران : ١٩٩] .

ومما ذكرته روايات السيرة النبوية الوثيقة من ذلك ومما في سورة آل عمران دلالة ضمنية عليه خبر وفد نصارى نجران الذي يجمع المفسرون على أن الشطر الأول من سورة آل عمران نزلت في مناسبته ، فقد جاء

(١) و (٢) للخوري تمحلات في صدد هذه الآيات فندناها في مناسبة سابقة .

هذا الوفد أول مرة بعد صلح الحديبية على الأرجح إلى المدينة ، وتناظر مع النبي ﷺ في شخصية المسيح ، وتلا النبي عليهم آيات القرآن التي تقرر العقيدة الصحيحة في المسيح ، فأصروا على عقيدتهم ، فعرض عليهم التباهل ، كما جاء في آية سورة آل عمران هذه (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ٦١) فأبى ، ثم قال له : نوادعك ونبقى على ديننا ، فكان لهم ذلك [1] حتى إنهم طلبوا منه شخصاً يحكمونه في خلاف لهم ، فأرسل معهم أبا عبيدة رضي الله عنه ، ثم جاء الوفد مرة ثانية بعد فتح مكة ووصول سرايا النبي وبعثاته إلى اليمن ، فطلبوا من النبي كتاب عهد وذمـــة ، فأجابهم إلى طلبهم ، وجاء فيه فيما جاء (لهم جوار الله ، وذمة محمد على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم ، لايغير أسقف عن أسقفيته ، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا واقف عن وقفانيته ، وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية ، ولا يعشرون ، ولا يحشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقاً ، فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل منهم رباً من ذي قبل ، فذمتي منه بريئة ، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر) وفرض عليهم ألفي حلة في السنة وإعارة المسلمين ثلاثين درعاً ، وثلاثين رمحاً ، وثلاثين بعيراً ، وثلاثين فرساً حينما يكون حرب بين المسلمين وغيرهم مع ضيافة رسله شهراً .

ومما ذكرته روايات السيرة من ذلك خبر عهد أعطاه النبي ﷺ لنصارى الأيلة . فقد وفد ملكهم يحنة بن روبه على النبي ﷺ ، وطلب الصلـــح

---

(١) سنروي بعد قليل خبر محاورة رواها ابن هشام بين بعض أعضاء هذا الوفد تدل على أنهم كانوا في قرارة أنفسهم يعتقدون نبوة النبي ، وانهم امتنعوا عن مباهلته لذلك ، وانهم أصروا على الاحتفاظ بدينهم لما كانوا يتمتعون به بين قومهم من كرامة ومركز .

والعهد ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب له كتاباً جاء فيه (بسم الله الرحمن الرحيم : هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن روبة وأهل أيلة لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمه الله وذمة محمد رسول الله ولمن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، ومن أحدث حدثاً فإنه لايحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ، ولا طريقاً يريدونه من بر وبحر ...) .

وفي ما تقدم مصداق لما قررناه ، ووضع للأمر في نصابه الحق بالنسبة لموقف النصارى في العهد المدني ، ودحض لمزاعم الحوري وباطله .

- ٧ -

ولقد قاتل النبي ﷺ والمسلمون بني إسرائيل أيضاً في المدينة والقرى التي كانوا فيها في طريق الشام قبل نزول آية التوبة أيضاً ، وكان ذلك كذلك في نطاق الخطة المذكورة المقرره في آيات البقرة والحج .

ولقد جاء أجدادهم من فلسطين حينما ضربهم الرومان في القرن الأول الميلاد الضربة الشديدة التي قضت على كيانهم فيها إلى هذه الأنحاء ، فأنشأوا القرى العديدة فيها ، وجاءت ثلاث كتل منهم إلى المدينة (يثرب) فاستقرت فيها ، واشتغل بعضهم بالتجارة والربا ، وبعضهم بالصناعة ، وبعضهم بالزراعة ، وتعلموا اللغة العربية ، واشتركوا في حياة العرب وتقاليدهم ، وصار لهم أنصار وحلفاء ، ومركز قوي بين العرب ديني واجتماعي واقتصادي وثقافي . ويظهر أنه نجم بين الكتل الثلاث التي حلت في المدينة خلاف وشقاق ، لأن الروايات التي يؤيدها القرآن تذكر أن منهم من كان حليفاً للأوس ، ومنهم من كان حليفاً للخزرج قبل الإسلام ، وهما القبيلتان العربيتان اللتان كانتا تعمر المدينة ، وكان بينهما خلاف وعداء ، فكان كل حليف من اليهود مع أي منهما يقاتل الفريق الثاني المتحالف مع الفريق العربي الآخر في سياق قتاله معهم . مما تضمنت الإشارة إليه آيات سورة البقرة هذه (وَإِذْ

أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالعُدْوانِ وإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارَى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ القِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ العَذابِ وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .. ٨٤ و ٨٥) .

ولقد كانوا يفخرون على العرب بدياناتهم السماوية وأنبيائهم وكتبهم ، ويقولون لهم : إنه سيبعث نبي عربي ينزل عليه كتاب عربي ، فيكونون معه حزباً واحداً وهو ما أشارت إليه آية البقرة هذه (وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلى الكافِرِينَ ٨٩) ولا شك في أنهم كانوا يرون خبر بعثة النبي الأمي في كتبهم وهو ما ذكرته آية سورة الأعراف ١٥٧ على ما شرحناه قبل .

ولما قدم النبي ﷺ إلى المدينة مهاجراً ، التزم إزاءهم كما هو الأمر بالنسبة لغيرهم مبدأ عدم الإكراه في الدين والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فدعاهم إلى الإسلام ، وترك لهم الحرية في الاستجابة للدعوة ، أو البقاء على دينهم ، وأمنهم في حالة البقاء على دينهم على حرياتهم الدينية والمدنية ، ونشاطهم المتنوع ، وأبقاهم على محالفاتهم مع الأوس والخزرج ، وأوجب لهم وعليهم النصر في نطاق ذلك ما لم يظلموا ويمدوا يداً بأذى مما تضمنه كتاب الموادعة الذي كتبه رسول الله حينما قدم إلى المدينة كدستور عمل لجميع الأطراف .

ولقد توقع النبي ﷺ الاستجـــابة إلى دعوته منهم ، كما فعل ذلك الكتابيون ، ومنهم فريق من بني إسرائيل في مكة ، بل توقع أن يكونوا أول من يؤمن به ويصدقه ، ويلتف حوله ، ويكون له منهم سند وعضد ، لما كان بين دعوته وأسس دينهم من وحدة ، ولما احتواه القرآن من إعلان المطابقة المبدئية والمصدرية بين التوراة والقرآن ، ومن إيجاب القرآن الإيمان بكتب الله ورسله وأنبيائه على المسلمين . ثم لما كان من تبشيرهم ببعثه ، واستفتاحهم بذلك على الذين كفروا بناء على ما كانوا يجدونه في كتبهم من صفاته ، فخيبوا ظنه ، وتطيّروا منه ، وأخذوا ينظرون بعين التوجس إلى احتمال رسوخ قدمه ، وانتشار دعوته ، واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه بعد ذلك العداء الدموي الذي كانوا من دون ريب يستغلونه في تقوية مركزهم . وغدوه قائد العرب ومرشدهم وقاضيهم دونهم ، ومفتيهم عنهم ، وخشوا على المركز الذي كان لهم بين العرب ، والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ، ويجنون منها أعظم الثمرات المادية والأدبية ، فكان ذلك عاملًا على اندفاعهم في خطة التنكر والحقد والتآمر ، والصد والتعطيل والعداء ، والدس وكتم الحق إلى نهايتها . ويمثل هذا العامل آيات عديدة في القرآن المدني تتضمن الإشارة إلى ما كان من غيظهم وحقدهم وتطيّرهم وتآمرهم على النبي والمسلمين كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ - يَابَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .. [البقرة : ٤٠ - ٤٢] .

٢ - أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ

يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون .. [البقرة : ٧٥ و ٧٦] .

٣ - ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين .. [البقرة : ٨٩ - ٩١] .

٤ - ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .. [البقرة : ١٠٥] .

٥ - وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين .. [المائدة : ٦٤] [١] .

---

(١) هناك آيات كثيرة أخرى من باب ما تقدم فاكتفينا بما أوردناه . انظر آيات البقرة ١٠٩ و ١١٠ و ١١١ و ١٤٥ و ١٤٦ و ١٥٩ و ١٦٠ و ١٥٣ - ١٥٥ ، وآل عمران ٦٩ - ٧٢ و ٨٦ و ٩٨ - ١٠٠ و ١١٨ - ١٢٠ والنساء ٤٥ و ٤٦ .

والآيات كما هو ظاهر هي في الدرجة الأولى في صدد مواقف الجحود والمكر والدس والتنكر والحجاج والتشكيك والمكابرة اليهودية ، وليست في صدد عدم إيمانهم برسالة النبي والقرآن لذاته ، وإن كانت متفرعة عنه ، ويلفت النظر إلى ما تكرر فيها من تقرير كونهم يعرفون الحق في الرسالة المحمدية ، والوحي القرآني كما يعرفون أبناءهم ، وكونهم يقفون هذه المواقف من بعد ما تبين لهم الحق ، وظهرت لهم البينات ، وشهدوا أن الرسول حق .

وشهادات الكتابيين بعامة والإسرائيليين بخاصة بصحة الوحي القرآني وصدق النبي محمد ﷺ والعلامات التي وجدوها فيه مطابقة لما يجدونه في التوراة والإنجيل واتباعهم وإيمانهم له مما قررته الآيات المكية التي أوردناها قبل ، وهكذا يكون التنديد في الآيات الآنفة وأمثالها مما أشرنا إلى سوره وأرقامه منصباً على الذين جحدوا ما عرفه إخوانهم في مكة أنه الحق ، وتنكروا له ، وكان من الواجب عليهم أن يحذوا حذوهم في المدينة ، ويشهدوا ويؤمنوا ، وبهذا يكون الكتابيون هم الذين بدلوا موقفهم من الوحي القرآني والرسالة المحمدية ، وليس النبي كما زعم الخوري الحداد كذباً من حيث أنهم كانوا في العهد المكي يشهدون بصدقها ويؤمنون بها .

وهذا العرض يظهر بصورة حاسمة وقاطعة أن المآرب الذاتية والدنيوية هي التي جعلتهم يقفون موقفاً غير موقفهم في مكة التي لم يكن لهم فيها هذه المآرب المنبثقة في المدينة دون مكة عن مركز قوي ، وتكتل وتاريخ ونشاط دنيوي واقتصادي واجتماعي . وأن النبي لم يكن هو المستفز المتحرش ، وكل ما كان منه أنه دعاهم إلى الإسلام كما دعا غيرهم ، وكان يأمل أن يستجيبوا إليه كما فعل إخوانهم في مكة .

ومع ذلك فإن القرآن كما سجل اعتراف بعض جماعات من النصارى في العهد المدني بما في الرسالة المحمدية القرآنية من الحق ، فآمنوا بها ،

وصدقوها ، وانضووا إلى رايتها ، سجل اعتراف بعض جماعات من اليهود في هذا العهد مثل ذلك ، استطاعوا أن يتغلبوا على أنانيتهم ومآربهم مما تمثله بصراحة آية سورة النساء هذه التي وردت في سيـــاق في حق اليهود (لَكِنِ الرَّاسِخونَ في العِلْمِ مِنْهم وَالمُؤمِنونَ يُؤْمِنونَ بما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالمقيمينَ الصَّلاةَ وَالمُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالمُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أولئكَ سَنُؤْتِيهِمْ أجراً عَظيماً .. ١٦٢) ويمكن أن تمثله آيات البقرة ١٢١ وآل عمران ١١٣ ـ ١١٥ و ١٩٩ التي أوردناها قبل قليل ، والتي يمكن أن يكون بعض اليهود ممن عنتهم .

ويقول الحوري : إن الدين وحّد النبي مع الكتابيين والسياسة فرقتهم . وهذا التعبير غير دقيق ، وفيه تجوز بل مغالطة ، فالوحـــدة بين النبي والكتابيين كانت وحدة مصدر ومبادىء فقط ، غير أنهم انحرفوا عن المبادىء واختلفوا فيما بينهم وفي ما ورثوه من كتب اختلافاً كبيراً بغياً بينهم ، وصاروا شيعاً وأحزاباً متنازعة ، فجاءت الرسالة المحمدية لتصحيح الانحراف وإزالة الاختلاف ، ولم تكن وحدة فعلية بينهم وبين الرسالة مع بقائهم على حالتهم التي كانوا عليها قبلها ، ولقد فهمها الكتابيون في العهد المكي على وجهها ، فاستجابوا إليها ، واندمجوا فيها ، فقامت بذلك بينهم وبين النبي الوحدة ، أي : أن الوحدة تمت بينهم بعد تخليهم عن انحرافاتهم واختلافاتهم ، وانضوائهم إلى الراية المحمدية القرآنية . أما في العهد المدني ، فإن مآربهم السياسية هي التي حالت دون تخلي أكثرهم عن انحرافـــاتهم واختلافاتهم ، فأدى ذلك إلى التصادم ، وإذا كانت السياسة أدت حقاً إلى هذا التصادم ، فهو من صنعهم ، وليس من صنع النبي . ومن الكذب البواح أن يقال بناء على ذلك : إن النبي انقلب ، والتزم خطة جديـدة جعلتهم يصطدمون . ولقد كان على رأسهم أحبار ورهبان وزعماء كان لهم

التأثير القوي على جمهورهم ، وكانوا أصحاب الحظ الأوفر من المنافع والمآرب ، فكانوا من أسباب هذا الموقف بدون ريب الذي لم تكن له أسباب مماثلة في العهد المكي ، لأن الكتابيين لم يكونوا في مكة كتلة كبيرة ذات مركز ومنافع ومآرب ومطامع سياسية وغير سياسية ، وهذا ما أشارت إليه آية سورة التوبة هذه (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ... ٣٠) وهذه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ . . ٣٤) .

ولقد احتوى القرآن المدني صوراً كثيرة من حجاج الذين غلبهم الهوى والمآرب من زعماء اليهود وأحبارهم وعامتهم ، ولجاجهم ودسائسهم بين المسلمين ، وتلبيسهم عليهم ، وتآمرهم على النبي والمسلمين والقرآن مما تضمنته سلسلة الآيات التي أوردناها قبل ، والتي لها أمثال من بابها ، وهم الذين غذوا حركة النفاق والمنافقين ، وكان هذا من أول وأهم مواقفهم ، واستمر طيلة وجودهم في المدينة حتى سماهم القرآن بأنهم شياطين المنافقين في هذه الآية التي جاءت في سياق وصف المنافقين (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .. البقرة ١٤) . وقد وصل تآمرهم على النبي والمسلمين والإسلام إلى الارتكاس في أبشع جريمة دينية وخلقية بإظهار إيمانهم بأوثان المشركين وشهادتهم بأنهم أهدى من المسلمين حينما ذهبوا إلى مكة للتحريض على المسلمين والتحالف معهم منكرين بذلك أساس دينهم الذي هو الإيمان بالله وحده على ما حكته آيات سورة النساء هذه التي تعلل ذلك بما كان من شدة حقدهم وحسدهم ، وحرصهم على الدنيا (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً . أُولَئِكَ

الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً . أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ المُلْكِ فَإذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً .. ٥١ - ٥٤) .

ومع ذلك فقد اتسع صدر النبي والمسلمين لهم طالما بقوا في نطاق جحود رسالته وقرآنه ، وفي نطاق المكايدات والمماحكات بل والدسائس ، وظل النبي يعتبر نفسه مرتبطاً وملتزماً بعهده معهم ، وكل ما كان من أمر أن القرآن كان يندد بهم ، ويسجل عليهم اللعنة بسبب هذه المواقف ، وينبه المسلمين إلى أخلاقهم وجبلتهم التي ورثوها عن آبائهم ، وإلى نواياهم الخبيثة ، وطواياهم الفاسدة ، ويصفهم بأنهم من أشد الناس عداوة لهم مما تمثله آيات عديدة في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أوردنا بعضها قبل ، ونكتفي بالإشارة إلى أرقامها تفادياً من التطويل[1] . ولم ينتقل الموقف بين النبي وبينهم إلى الصدام الحربي إلا بعد أن أخذوا ينقضون العهد ، ويقفون موقف الخيانة والعداء الصريح المهدد لسلامة المسلمين ومركزهم ، وهذا ما تفيده آيات قرآنية عديدة وروايات وثيقة موضحة لها .

— ١٠ —

ولقد كان ذلك الصدام على دفعات ، لأن ذلك الموقف كان يظهر من فريق قبل فريق . ونحن نعرف أن بعض المستشرقين والمغرضين والحاقدين من يهود وغير يهود يزعمون أن النبي قد بيّت نية التنكيل بهم وإبادتهم بدافع من التعصب الديني العنصري منذ البدء ، وانه إذا لم ينفذ نيته فيهم مرة واحدة ، فلأنه لم يكن له قبل بهم جميعاً ، فجعل التنكيل فيهم على مراحل .

---

(١) سورة البقرة ٤٠ - ١٤٧ و ١٥٩ و ١٦٠ و ١٧٣ - ١٧٦ وآل عمران ٦٥ - ١٢٠ و ١٨٠ - ١٨٤ والنساء ٤٤ - ٥٦ و ١٥٣ - ١٦١ والمائدة ٤١ - ٨٢ والأنفال ٥٥ - ٦٠ .

وقد غمزوه بالنكث بما عاهدهم عليه من الحرية الدينية والمدنية ، وبالميل إلى سفك الدم ، وبالطمع في أموالهم ، وإغداقها على أتباعه . وكل هـذا إفك وافتراء صادران عن الغرض والهوى والحقد والتعصب ، وعدم فهم القرآن الذي احتوى من الآيات ما فيه الحجة والبينة الحاسمـــة على إفك ما زعموا وسفه ما غمزوا . ففي آيات سورة البقرة ٨٤ و ٨٥ التي أوردناها قبل صراحة بأن الاسرائيليين في المدينة كانوا فرقاء متنازعين متحاربين في ما بينهم ، وقد تحالف كل فريق مع فريق عربي عدو لفريق آخر الذي كان يتألف من عرب ويهود ، والفريقان العربيان المتعـــاديان هم الأوس والخزرج ، وكان بنو النضير وبنو قينقاع حلفاء للخزرج ، وبنو قريظة حلفاء للأوس .

وفي القرآن آيات تذكر أسباب وظروف كل فصل من فصول التنكيل مع الروايات الوثيقة الموضحة بما لا يدع محلًا لريب مرتاب منصف بأن التنكيل كان يقع لأسباب موضوعية وظرفية في حق الذين استحقوه دون غيرهم بقصد درء خطرهم . ومن ذلك في صدد بني قينقاع أولى كتلهم في المدينة التي أجليت ، وسمح لها بحمل أموالها وأثقالها هذه الآيات في سورة الأنفال (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ .. ٥٥ ـ ٥٨) . والآية (٥٧) ذات مغزى عظيم حيث تنبه إلى أن التنكيل بهم قد يردع الآخرين عن الوقوف موقف النقض والخيانة ، فلا يكون ضرورة ومحل للتنكيل بهم . ومن ذلك في صـدد بني النضير الذين كانوا ثانية الكتل التي أجليت عن المدينة ، وكان سبب التنكيل المباشر تآمرهم على اغتيال رسول الله في محلتهم

هذه الآيات في سورة الحشر (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ . وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ .. ٢ - ٤) ومن ذلك في صدد بني قريظة الذين كانوا الكتلة الثالثة والأخيرة التي نكل بها من يهود المدينة هذه الآية في سورة الأحزاب (وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً) ..

ويلحظ فرق بين التنكيل ببني قريظة والتنكيل ببني قينقاع والنضير ، فالأوليان اكتفى بإرغامها على الجلاء ، والثالثة قتل مقاتلوها وأسر نساؤها وأطفالها . وهذا الفرق راجع إلى الظرف المشدد . فبنو قريظة ظاهروا الأحزاب التي غزت المدينة بجيش جرار والتي كانت تتألف من مشركي قريش والقبائل المتحزبة معهم ، وكان ذلك بتحريض زعماء يهود بني النضير الذين تزعموا يهود خيبر بعد جلائهم عن المدينة ، وظلوا يحقدون على النبي والمسلمين .

وكان زحف الأحزاب على المدينة مزلزلاً للمسلمين زلزالاً شديداً ، لأنه كان يهدف إلى استئصال شأفتهم وكانوا أقوى منهم ، وأعظم عدداً أضعافاً مضاعفة ، وصار المسلمون بين نارين ، من فوقهم ومن أسفل منهم ، وكان من الجائز لولا رحمة الله ونصره أن يتحقق ذلك الهدف الخطير . ولقد حرك الزحف المنافقين في المدينة ، وجعلهم يقفون موقف عداء سافر متآمر ضد المسلمين أيضاً ، فكان ذلك مما زاد شعور المسلمين بالبلاء والفزع .

وإلى هذا أشارت آيات سورة الأحزاب هذه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً . إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً . وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً .. ٩ – ١٤) .

ولقد كان زعماء بني النضير قد ذهبوا بعد الجلاء إلى خيبر ، وأقاموا بها ، وتزعموا يهودها ويهود القرى اليهودية الأخرى التي في طريقها نحو الشام مثل وادي القرى ، وفدك ، وتيماء ، وصاروا يحرضون القبائل على المسلمين ، وهم الذين ذهبوا إلى مكة ، وتحالفوا مع قريش ، ثم مع القبائل المتحزبة معهم لأجل الزحف على المدينة ، ثم أقنعوا يهود بني قريظة بنقض عهدهم مع النبي والمسلمين ومظاهرة الأحزاب ، مما روت تفصيله روايات السيرة الوثيقة ، فصار لابد من التنكيل بهم وكان ذلك سبب غزو النبي والمسلمين لخيبر والقرى اليهودية الأخرى .

وهكذا يبدو واضحاً كل الوضوح أن التنكيل النبوي باليهود لم يكن بسبب جحودهم للرسالة المحمدية ولا بسبب دسائسهم ومماحكاتهم ومجادلاتهم ، وإنما بسبب مواقفهم العدائية الفعلية الخطيرة المهددة لسلامة المسلمين وأمنهم ، وأن ما يهذي به المغرضون والحاقدون هو كذب وإفك أملاه الهوى والحقد والتعصب . ولقد احتوت الآيات المدنية في مختلف أدوار التنزيل المدني

حكاية مواقف متنوعة وكثيرة لليهود فيها تعجيز وتحد ومكابرة وجـــدل وسخرية ، بل ودسائس ومؤامرات في صدد الجحود بالرسالة والنبوة ، وتعطيل الدعوة ، وتشكيك المسلمين فيها بل وفيها ما يفيد محاولتهم إثارة الأحقاد والفتن ونزعة الارتداد بين المسلمين ، كما احتوت مساجلات متنوعة معهم في الجدل حيناً ، والتنديد حيناً ، والإفحام حيناً ، والوعظ والتذكير والإنذار والتبشير حيناً ، والدعوة إلى تخفيف الغلواء ، وتقوى الله والتوبة إليه حيناً . مما تضمنته آيات سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة التي أشرنا إلى أرقامها في ذيل سابق . وبكلمة أخرى لقد اتسع الله ورسوله لهم سعة كبيرة ، وتمتعوا بحريتهم في التمسّك بدينهم ومباشرة طقوسهم وشؤونهم الاقتصادية ، والاستمرار في صلاتهم ومحالفاتهم السياسية والشخصية ، والاحتفاظ بكيانهم الطائفي والثقافي والقضائي ، ولم يبـدأ دور التنكيل ضد أي فريق منهم إلا بعد أن يطفح الكيل من دسائسه ومكائده وأذاه ، وبعد أن يكون هذا الفريق قد انتقل إلى موقف النكث والغدر والخيانة ، وتهديد سلامة المسلمين وأمنهم . فأي كلام بعد هذا هو تمحل كاذب وزيف باطل لا يصدر إلا من مغرض مكابر لا يهمه الحق ولا الحقيقة .

ونقول من قبيل المساجلة : إنه لم يكن في وقت نزول الآيات ، وتدوين الروايات قضية من نوع ما يثيره المغرضون الحاقدون من نصارى ويهود حتى يصح أن يقال : إن الدلائل والمسوغات التي انطوت فيهـــا اخترعت اختراعاً للدفاع عما فعله النبي ﷺ والمسلمون باليهود ، وهذا وحده كاف لإسكات كل أفاك مغرض ، وأخذ ما ورد على حقيقته وصدقه . وهذا فضلاً عن أن جبلة اليهود وأخلاقهم تجاه الأمم والنحل الأخرى المشهورة منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم والمسجلة في أسفارهم ، وفي المدونات القديمة والمتأخرة في غنى عن اختراع المسوغات للتنكيل بهم في كل ظرف ومكان .

وإذا كان ما تقدم انصب معظمه أو كله على اليهود فإنما مرد ذلك

أنهم الذين كانوا كتلة قوية في المدينة ، وليس معناه أن قول الحوري يصدق بالنسبة للنصارى ، فالنصارى في مكة قد آمنوا بالرسالة المحمدية ، وصاروا مع المسلمين ملة واحدة على ما شرحناه وأوردنا دلائله قبل ، ولم يكن في المدنية نصارى مقيمون لهم شأن .

وفي القرآن والروايات تسجيلات لمواقف وفود من النصارى جاءت إلى المدينة وسمعت من النبي وناظرته ، فمنهم من عرف الحق ، فأذعن وآمن وصار من ملة الاسلام ، وهذا ما سجلته آيات سورة المائدة هذه (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ .. ٨٣ و ٨٤) وآية سورة الحديد هذه (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .. ٢٧) ومنهم من لم يؤمن ، وهم وفد نصارى نجران اليمن الذين نزل معظم شطر سورة آل عمران الأول (الآيات ١ ـ ٦٤) في صددهم . ولقد دعاهم النبي إلى المباهلة حينما أصروا على الاحتفاظ بعقيدتهم بألوهية المسيح ، أي : دعاهم إلى دعاء الله بلعنة الكاذب في صدد شخصية عيسى عليه السلام ، ولكونه بشراً رسولاً ونبياً وعبداً لله فأبوا . والروايات تذكر أن المنافع والمآرب هي التي جعلتهم يصرون على الاحتفاظ بعقيدتهم حيث روي أنهم حينما دعاهم النبي إلى المباهلة قال أحد كبرائهم : إن محمداً هو نبي

فلا تتباهلوا معه إن كنتم تريدون الاحتفاظ بنصرانيتكم ، وسالموه وارجعوا ، فقال له واحد : وما يمنعك أن تعترف به وتؤمن ما دمت تقول هذا ونتابعك ؟ فقال ما فعله قومنا لنا ، كرمونا وشرفونا وأغدقوا علينا المال ، وكل هذا سوف يضيع[1] .

وهذا ما تضمنت تقريره آيات سورة التوبة هذه (اتَّخَذُوا أحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلهاً وَاحِداً لا إلهَ إلاّ هُوَ سُبْحَانَهُ عمّا يُشْرِكونَ . يُرِيدُونَ أنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأفْواهِهِمْ وَيَأبى اللهُ إلاّ أنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ . هُوَ الّذِي أرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدى وَدِينِ الحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدّينِ كُلّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكونَ . يَا أيُّها الّذِينَ آمَنوا إنّ كَثِيراً مِنَ الأحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأكُلُونَ أمْوالَ النّاسِ بِالباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ .. ٣٠ - ٣٤)

— ١١ —

ولقد زعم الخوري الحداد أن من مظاهر انقلاب النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة تنصله من الصفة الكتابية التي كانت دعوته تصطبغ بها في مكة ، ودعوته إلى دين وسط لا يهودي ولا مسيحي ، ولكنه حنيفي إبراهيمي مع الحملة التنديدية باليهودية والنصرانية واليهود والنصارى بعد أن كان منضماً إليهم وكواحد منهم .

أما التنصل ، فزعم يكذبه القرآن المدني الذي ظل يوجب على المسلمين الإيمان بكتب الله وأنبيائه ، ويجعل ذلك ركناً من أركان الإسلام مما تمثله الآيات المدنية التالية :

---

(١) انظر سيرة ابن هشام . وآيات التوبة تؤيد صدق الرواية إجمالاً من حيث انها تعلل موقف الذين احتفظوا بأديانهم من الأحبار والرهبان بالمنافع والمآرب والصد عن سبيل الله ...

١ - ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ . [البقرة : ١٣٥ - ١٣٧] .

٢ - ﴿لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾ .. [البقرة : ١٧٧] .

٣ - ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ﴾ .. [البقرة : ٢٨٥] .

٤ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ .. [النساء : ١٣٦] .

فهذه الآيات صريحة كل الصراحة أن صفة الرسالة المحمدية كانت في المدينة كتابية ، كما كانت في مكة ، ولا تصدق كلمة التنصل في هذا المقام قط ، ولا تصدق هذه الكلمة على موقف النبي من النصارى واليهود ،

لا في العهد المكي ، ولا في العهد المدني . فرسالة النبي كانت رسالة جديدة لهداية الناس ، وتصحيح الانحراف عن طريق الله ، ومن جملة ذلك انحراف اليهود والنصارى ، ولم يكن النبي يهودياً ولا نصرانياً في مكة ، وإنما كان داعياً جديداً للناس ولليهود والنصارى ، ومصححاً للانحراف والاختلاف .

وظلت هذه الصفة وهذه الخطة هما صفة هذه الرسالة ورسولها في المدينة كما كانت في مكة على ما مر شرحه شرحاً يغني عن التكرار .

وليس في القرآن المدني حملة تنديدية على اليهودية والنصرانية لذاتها ، وكل ما فيه رد على أقوال اليهود والنصارى في صددهما كما نرى في الآيات التالية :

١ - وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .. [البقرة : ١١١ و ١١٢] .

٢ - وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .. [البقرة: ١٢٠] .

٣ - وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .. [البقرة : ١٣٠ و ١٣١] .

٤ - وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ

لا نفرِّقُ بينَ أحدٍ منهم ونحنُ لهُ مسلمونَ. فإنْ آمنوا بمثلِ ما آمنتم به فقدِ اهتدَوا وإنْ تولَّوا فإنَّما هُمْ في شقاقٍ فسيكفيكهم اللهُ وهوَ السميعُ العليم. صبغةَ اللهِ ومَنْ أحسنُ منَ اللهِ صبغةً ونحنُ لهُ عابدونَ. قلْ أتحاجُّونَنا في اللهِ وهوَ ربُّنا وربُّكُمْ ولنا أعمالُنا ولكمْ أعمالُكُم ونحنُ لهُ مخلصونَ. أمْ تقولونَ إنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا هوداً أوْ نصارى قلْ ءأنتمْ أعلمُ أمِ اللهُ ومَنْ أظلمُ ممَّنْ كتمَ شهادةً عندَهُ منَ اللهِ وما اللهُ بغافلٍ عمَّا تعملونَ. [البقرة: ١٣٥ - ١٤١].

٥ - يا أهلَ الكتابِ لِمَ تحاجُّونَ في إبراهيمَ وما أُنزلتِ التوراةُ والإنجيلُ إلَّا منْ بعدهِ أفلا تعقلونَ. ها أنتمْ هؤلاءِ حاججتمْ فيما لكمْ بهِ علمٌ فلِمَ تحاجُّونَ فيما ليسَ لكمْ بهِ علمٌ واللهُ يعلمُ وأنتمْ لا تعلمونَ. ما كانَ ابراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ولكنْ كانَ حنيفاً مسلماً وما كانَ منَ المشركينَ إنَّ أولى الناسِ بإبراهيمَ للذينَ اتَّبعوهُ وهذا النبيُّ والذينَ آمنوا واللهُ وليُّ المؤمنينَ. ودَّتْ طائفةٌ منْ أهلِ الكتابِ لوْ يُضلُّونكمْ وما يُضلُّونَ إلَّا أنفسَهمْ وما يشعرونَ. يا أهلَ الكتابِ لِمَ تكفرونَ بآياتِ اللهِ وأنتمْ تشهدونَ. يا أهلَ الكتابِ لِمَ تلبسونَ الحقَّ بالباطلِ وتكتمونَ الحقَّ وأنتمْ تعلمونَ.. [آل عمران: ٦٥ - ٧١].

٦ - وقالتِ اليهودُ والنصارى نحنُ أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤهُ قلْ فلِمَ يعذِّبكمْ بذنوبكمْ بلْ أنتمْ بشرٌ ممَّنْ خلقَ يغفرُ لمَنْ يشاءُ ويعذِّبُ مَنْ يشاءُ وللهِ ملكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وإليهِ المصيرُ.. [المائدة: ١٨].

وهذه الآيات تتطابق في مداها مع موقف القرآن المكي من اليهودية والنصرانية الذي تكررت الإشارة فيه إلى ما كان بين اليهود والنصارى وأهل الكتاب والذين أورثوا الكتاب من خلاف وشكوك مريبة وتعدد أحزاب وشيع وزبر . والذي ذكر فيه أن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب ليبين لهم ما اختلفوا فيه وهدى ورحمة لمن يؤمن به ، وحذر فيه النبي من اتباع أهوائهم ، وقرر أن الله قد جعل رسوله محمداً على شرعة جديدة فيها الهدى ، وتصحيح الانحراف ، وإزالة الاختلاف بما مر شرحه ، وأوردنا الآيات التي جاءت في صدده في الفقرتين ٣ و ٤ من البحث السابق (أولاً) من هذا الفصل . وقد أثبتنا بذلك أن النبي لا يصح أن يكون منضماً لليهود والنصارى ، ولا واحداً منهم بناء على تلك النصوص .

- ١٢ -

وفي القرآن المدني حملة على اليهود ، ولكنها إنما كانت بسبب مواقف اللجاج والحجاج والدس والتآمر والمكر والكيد التي وقفوها من النبي والقرآن والمسلمين ، والتي شرحناها قبل ، وأوردنا بعض الآيات ، وأشرنا إلى الآيات الكثيرة الأخرى التي جاءت في هذا الصدد ، وفيها كل الحق والصدق . وإذا كان القرآن المكي خلا من ذلك بالنسبة لليهود المعاصرين للنبي ﷺ — لأن فيه صوراً عما كان من أسلافهم في زمن موسى وبعده من مواقف تمردية ولجاجية ، وانحرافات دينية وخلقية [١] — ، فمرد ذلك إلى أنهم لم يقفوا في مكة المواقف المذكورة التي وقفوها في المدينة ، لأنهم لم يكونوا فيها كتلة كبيرة ذات مصالح متنوعة ووجود ونشاط قويين ، وأثر كبير في المجتمع المكي ، كما كان أمرهم في المدينة ، ولأن موقفهم إلى هذا في مكة من النبي ودعوته ، ومن القرآن كان إيجابياً على ما شرحناه.

---

(١) اقرأ مثلاً آيات الأعراف ١٣٨ – ١٤١ و ١٤٨ - ١٥٢ و ١٦١ والإسراء ٤ – ٨ وطه ٨٦ – ٩٨ .

في الفقرة (١٩) من البحث السابق تحت عنوان (أولاً) شرحاً يغني عن التكرار حيث يظهر من هذا زيف زعم الحوري وتهافته .

وأما بالنسبة للنصارى ، فليس في القرآن المدني تنديد شديد بهم ، كما هو الأمر بالنسبة لليهود ، ولقد جاء ذكرهم في مقام تنديدي خفيف مع اليهود ، أو في شمول تعبير (الذين أوتوا الكتاب) كما هو في هـــذه الآيات التي نرجح أن ذكرهم في أكثرها كان استطرادياً :

١ ـ آيات البقرة (١١٠ و ١٢٠ و ١٣٥) وآل عمران (٦٥ - ٦٧) والمائدة (١٨) التي أوردناها في الفقرة السابقة .

٢ ـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ .. [المائدة : ٥١] .

٣ ـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالكُفَّارَ أَوْلِياءَ واتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِذا نادَيْتُمْ إِلى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ .. [المائدة : ٥٦] .

٤ ـ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ والإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ .. [المائدة : ٦٥ و ٦٦] .

٥ ـ قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلى القَوْمِ الكافِرِينَ .. [المائدة : ٦٨] .

٦ - قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ . وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصارى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِن دُونِ اللهِ وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ . يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ . وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها في سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ .. [التوبة : ٢٩ - ٣٤] .

وهناك آيات خاصة بالنصارى ، والتنديد فيها رقيق كذلك كما ترى في ما يلي :

١ - إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ المُمْتَرِينَ . فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلى الكاذِبِينَ . إِنَّ هذا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ وَما مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالمُفْسِدِينَ . قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .. [آل عمران: ٥٩-٦٤] .

٢ – يا أَهْلَ الكِتابِ لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلى اللهِ إِلّا الحَقَّ إِنَّما المَسِيحُ عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ . إِنَّما اللهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما في السَّمواتِ وَما في الأَرْضِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلا المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً . فَأَمّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً .. [النساء : ١٧١ - ١٧٣] (١) .

ويلحظ من بعض الآيات أن من الرهبان من كان يصد عن سبيل الله بسبيل مآربهم الذاتية وأن بعضهم كان يقف موقف الحجاج واللجاج من النبي والقرآن وحقيقة عيسى عليه السلام ، وهذا هو سبب الحملة عليهم على رقتها فيا هو المتبادر ، وهذا حق لايصح أن يثار حوله غبار ، لأنه من صميم الدعوة الإسلامية القرآنية مع الفارق الكبير بين هـــذه الحملة وبين ما كان ضد اليهود من حملات مما مرده أولاً إلى أن موقف النصارى كان يتسم بالدماثة والليونة اللتين عبرت عنها آية سورة الحديد (وَجَعَلْنا في قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ... ٢٧) وثانياً إلى ما كان يظهره النصارى من موادة نحو المسلمين مما عبرت عنه آية سورة المائدة :

---

(١) هناك آيات أخرى فيها نفس الأسلوب واللهجة الخفيفة مثل آيات المائدة ١٤ و ١٧ و ٧٢ – ٧٧ والحديد ٢٧ فاقرأها إذا شئت .

(وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ... ٨٣) وثالثاً إلى أنهم لم يكن لهم في المدينة ما كان لليهود من تكتل ووجود ونشاط ومركز قوي يدفعهم إلى موقف مماثل لموقف اليهود . ورابعاً إلى أن معظم الذين التقى بهم النبي في المدينة كانوا وفوداً يأتون ويعودون ، وكان منهم من يؤمن ويكون المشهد الإيجابي الرائع الذي حكته آيات سورة المائدة ٨٣ - ٨٦ التي أوردناها قبل . ومن لم يكن يؤمن كان يتصرف بلباقة وينصرف بالتي هي أحسن ، ويعقد مع النبي ﷺ عهد سلم وذمة بما كان من أمر وفد نجران وموقف رئيس وأهل أيلة على ما ذكرناه في مناسبة سابقة مما ذكرته كتب السيرة القديمة المعتبرة .

وإذا لاحظنا أن القرآن المكي احتوى تنديداً بالذين اختلفوا في حقيقة المسيح عليه السلام ورسالته وانحرفوا عنها وتعددت أحزابهم فيها ، واحتوى كذلك تقريراً لهذه الحقيقة التي هي كون عيسى عبد الله ورسوله ونبيه ، وكون ولادته تمت بمعجزة ربانية ، وكونه قد دعا الناس إلى عبادة الله وحده ربه وربهم مما يتنافى معه أن النبي محمد ﷺ كان منضماً إلى النصارى في مكة وكواحد منهم على ما شرحناه في الفقرة (٥) من البحث السابق ظهر أن ما احتوته الآيات المدنية عنهم هو متطابق في مداه مع ما احتواه القرآن المكي . وظهر زيف قول الحوري الحداد وتهافته وهو أن النبي محمد قد تبدل في المدينة ، وانقلب على النصارى الذين كانوا كأنه واحد منهم في مكة ..

ولقد كررت آيات سورة آل عمران تقرير حقيقة ولادة عيسى ورسالته في مناسبة قدوم وفد من نصارى نجران اليمن إلى المدينة ومناظرته ﷺ فيها ، وبينها وبين ما جاء في سورة مريم المكية من تلك الحقيقة مطابقة تامة حين مقارنتها وهي آيات سورة مريم ١ - ٤٠ وآيات سورة آل عمران

٣٥ - ٥١ . وبعد آيات آل عمران بقليل تجيء الآيات ٥٩ - ٦٤ التي أوردناها قبل قليل والتي تقرر آن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، وأن ولادته بالصورة التي حكتها آيات ٤٥ - ٥٩ التي قبلها ، وآيات سورة مريم المكية ١٦ - ٤٠ لاتقتضي أن يكون إلهاً أو ابناً الإله كما اعتقده النصارى اعتقاداً منحرفاً . ولقد أصر وفد نجران على عقيدته ، فدعاه النبي إلى المباهلة كما ذكرته آية سورة آل عمران ٦١ فأبى وقال للنبي : ألست تقول : إن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ؟ قال : بلى فقال هذا حسبنا ، فأنزل الله هذه الآية (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ .. آل عمران ٥) منددة بهم ، لأنهم تمسكوا بالآيات المتشابهة التي تحتمل تأويلات متعددة وهي بسبيل التقريب والتمثيل ، وتركوا المحكم الذي يقرر أن عيسى عبد الله ونبيه ورسوله ، وأنه دعا إلى عبادة الله وحده ربه ورب الناس ، وأنه ليس من إله غير الله ، وأن من يقول : إن الله هو المسيح ، أو إن الله ثالث ثلاثة ، أو إن الآلهة ثلاثة ، أو إن المسيح ابن الله يعد كافراً .

وهكذا كانت دعوة النصارى في العهد المدني في نطاق التبليغ وتركهم وشأنهم ما لم يصدر عنهم عدوان على الإسلام والمسلمين التزاماً بمبدأ عدم الإكراه في الدين . ويتمثل هذا في آيات سورة آل عمران هذه (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .. ٢٠) وآيات

سورة آل عمران ٦١ - ٦٤ لا كما يقول الحوري ان القرآن أمر بقتالهم في جملة أهل الكتاب إطلاقاً إلى أن يخضعوا لسلطان الإسلام ويعطوا الجزية . وإذا كان في القرآن آيات تأمر بذلك ، ففيها ما يفيد بصراحة وقطعية أن الذين أمر بقتالهم ليسوا كل أهل الكتاب وإنما الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، ويصدون عن سبيل الله ويأكلون أموال الناس بالباطل ، كما جاء في آيات سورة التوبة ٢٩ - ٣٤ التي أوردناها قبل .

ويلفت النظر إلى أسلوب آيات النساء ١٧١ - ١٧٣ والمائدة ١٥ و ١٩ و ٧٣ - ٧٧ حيث جاء بأسلوب التأنيس ، وفيه حض نافذ إلى العقل والقلب ، ومحاولة صميمية لحمل النصارى على الارعواء عن الانحراف والغلو في عقيدتهم في المسيح وتحذير لهم من اتباع أهواء اليهود .

ومن الجدير بالتنبيه أن القرآن المدني أشار بشيء من الثناء والتنويه إلى الكتابيين الذين لم ينحرفوا في عقائدهم أو تصرفاتهم كما ترى في هذه الآيات :

١ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالوالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ .. [البقرة : ٨٣] .

٢ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ .. [البقرة : ١٢١] .

٣ - وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً .. [آل عمران : ٧٥] .

٤ - لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ

وَيأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ في الخَيْرَاتِ وأولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ .. [آل عمران : ١١٣ و ١١٤] .

٥ – وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ .. [المائدة : ١٣] .

٦ – وَقَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا في قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ .. [الحديد : ٢٧] .

وفي كل ما تقدم وضع للأمر في نصابه الحق ورد لدعوى الحوري الزائفة بالتبدل والانقلاب المحمدي والقرآني في العهد المدني .

– ١٣ –

وأما مسألة الدعوة إلى الحنيفية الإبراهيمية ، فقد شرحناها قبل ، وأثبتنا أنها لم تكن مدنية ، وأنها كانت مكية أصلية ممتدة إلى ما قبل بعثة النبي ﷺ ، وفندنا تمحلات الحوري في الآيات المكية التي تويد ذلك[1] .

ويتضمن هذا رداً على بقية أقوال الحوري من أن النبي صار في المدينة يدعو إلى أمة وسط لا يهودية ولا نصرانية ، لأن هذا أيضاً كان من أصول دعوته في مكة ، ولقد فهمها الكتابيون في مكة على وجهها الصحيح وآمنوا ، وانضووا إليها على ما شرحناه قبل شرحاً يغني عن التكرار . وما جاء في السور المدنية في صدد ذلك ليس جديداً أو دعوة جديدة ، وإنما هو في معرض الحجاج والجدل بين النبي ﷺ والكتابيين وبخاصة اليهود كما يظهر ذلك صريحاً في آيات سورة البقرة (١٣٠ و ١٣١ و

(١) انظر الفقرات ١٦ و ١٧ و ١٨ في البحث السابق (أولاً) .

١٣٥ - ١٤١) وسورة آل عمران ٦٥ - ٧١ و ٩٣ - ٩٥ التي أوردناها في الفقرة (١١) من هذا البحث .

ومع ذلك فإن هذا ظل يتوافق بإعلان الإيمان بجميع أنبياء الله وكتبه ، لأن ذلك لايتعارض مع الدعوة إلى ملة إبراهيم والتزامها ، وفي الآيات التي أشرنا إليها آنفاً مايمثل هذا التوافق .

وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم ما جاء في آية سورة البقرة المدنية هذه (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً .. ١٤٢) التي تضمنت تقرير كون الله جعل الملة التي هدى المسلمين إليها وسطاً في أصلها يهتدي بها الناس ويقاس بها هداهم وضلالهم . وعلى هذا الأساس كذلك يجب أن يفهم ما جاء في آية سورة الحج المدنية هذه (وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. ٧٨) التي تضمنت تقرير كون الملة التي هدى الله المسلمين إليها ، وساروا عليها هي في الأصل ملة أبيهم إبراهيم ليكونوا بها شهداء على الناس ، وعلى التمسك بها ، والجهاد في الله حق جهاده . وليس على ما زعمه الحوري من أن ذلك كان تراجعاً من النبي عن اليهودية والنصرانية بعد أن كان منضماً إليها كواحد منها في مكة ، وانتهاجه نهجاً وسطاً ليس يهودياً ولا نصرانياً ، وهو ما ينقضه نصوص الآيات وشروحنا المتقدمة ثم الحالة التي كان عليها كل من اليهود والنصارى واليهودية والنصرانية التي تمثلها آيات عديدة أوردناها في البحث السابق . ومن جملتها آيات سورة الشورى هذه (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ

كَبُرَ عَلى المُشْرِكينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجتبي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدي إِلَيْهِ مَنْ يُنيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلّا مِنْ بَعْدِ مَا جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وإنَّ الّذينَ أُورِثُوا الكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفي شَكٍّ مِنْهُ مُريبٌ .. ١٣ و ١٤) ثم أعقبها هذه الآية ذات المغزى العظيم في صدد استقلال شخصية الرسالة المحمدية القرآنية ، وكونها قد كانت في الأصل غير يهودية ولا نصرانية (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وإِلَيْهِ المَصيرُ ..) وفي سورة الجاثية المكية آيات أخرى فيها توكيد لذلك ، وللمغزى العظيم الذي نوهنا به وهي (فَما اخْتَلَفُوا إِلّا مِنْ بَعْدِ مَا جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَريعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الّذينَ لا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظّالِمينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ واللهُ وَلِيُّ المُتَّقينَ . هَذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .. ١٧ ـ ٢٠) [١] وفي سورة البقرة آيات فيها هذا المغزى العظيم ، وفيها الدلالة على أن الكتابيين هم الذين بدلوا موقفهم من النبي ودعوته لا العكس ، فالذين كانوا في مكة آمنوا وانضووا إلى الرسالة المحمدية على ما شرحناه قبل ، لأنهم لم يكن لهم مآرب ومنافع ومراكز ذاتية يخشون عليها في مكة وتعميهم عن رؤية الحق والهدى ، أما في المدينة فقد

(١) الحزري لما رأى في آيات الشورى والجاثية إفحاماً ورداً عمد إلى القول إنها مقحمة . وقد فندنا قوله في الفقرة (٦) من البحث السابق .

تمسك معظم اليهود وبعض من التقى النبي بهم من النصارى بيهوديتهم ونصرانيتهم ، بل طلبوا من النبي أن يتبعهم ، لأنهم كان لهم من المنافع والمآرب ما يخشون عليها وتعميهم عن رؤية الحق والهدى ، وهي هذه (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ . وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .. ١١٩و ١٢٠) .
ويلحظ أنها احتوت نفس التحذير الذي احتوته آيات الشورى والجاثية للنبي بعدم اتباع أهوائهم ، وقد شذ عن ذلك فريق استطاعوا أن يتغلبوا على أنانياتهم وأهوائهم ومآربهم ، فآمنوا وانضووا إلى الدعوة المحمدية على ما سجلته آيات مدنية عديدة أوردناها في الفقرة (٢٠) من البحث السابق فكان في ذلك برهان ساطع على أن الدعوة المحمدية القرآنية الجديدة أصيلة صادقة صحيحة فيها كل عناصر الاستجابة في كل من عهدي مكة والمدينة بالنسبة للكتابيين ، وأن امتناع من امتنع منهم عنها ليس بسبب تبدل من قبل النبي والقرآن كما زعم الحوري ، وإنما بسبب تلك الأنانيات والمآرب . ولقد جاء بعد آيات البقرة آية نحن نرى فيها دليلًا من نفس السياق وهي (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) حيث تضمنت تقريراً معطوفاً على ما في الآيات التي سبقتها يلهم أنها بسبيل تقرير كون الذين يتلون كتاب الله حق تلاوته ، ويفهمونه حق فهمه قد عرفوا الحق الذي جاء به محمد ﷺ ، وعرفوا أعلام نبوته من كتبهم التي يتلونها ، فآمنوا به . ولم يكفر به إلا الخاسرون الذين أعماهم هواهم وأنانيتهم عن رؤية الحق وأعلام النبوة في كتبهم .

ولقد ذكرنا قبل أن وفد نصارى نجران ظل محتفظاً بنصرانيته ،

واكتفى بموادعته النبي ﷺ . ولقد روى ابن هشام أنه كان بين الوفد أبو حارثة الأسقف ، فقال لأخيه في موقف : إنه والله للنبي الذي كنا ننتظر ، فقال له أخوه : وما يمنعك من الإيمان وأنت تعلم ذلك ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا وموّلونا وأكرمونا ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى . فما كان من هذا الأخ إلا أن فارق جماعته ، وأسلم ، وأخذ يحدث بما سمع من أخيه

وروى ابن هشام أيضاً أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم ، فأفضت الرئاسة إلى واحد منهم سمع من ابنه طعناً بالنبي الذي كان ظهر وذاع صيته ، فقال له أبوه : لاتفعل ، فإنه نبي ، وإن اسمه لمذكور في الوضائع - أي الكتب التي عندهم ، فلما مات أبوه لم يكن لابنه همة إلا أن شد فكسر الخواتم على الصندوق الذي فيه الكتب ، وأخرجها فوجد فيها ذكر النبي ﷺ ، فأسلم وحسن إسلامه . ويروى عنه أنه أنشد النبي هذه الأبيات حينما وفد عليه :

إليكَ تعدُو قلقاً وَضِينُها
مُعترضاً في بَطنِها جَنينُها
مُخالفاً دِينَ النَّصارَى دِينُها

ولقد روى ابن هشام كذلك أن النبي ﷺ لما اقترح على وفد نجران المباهلة حسب ما جاء في آية آل عمران (٦١) استمهلوه وخلوا إلى بعضهم ، فقال العاقب وكان أميرهم وذا رأيهم : والله يا معشر النصارى قد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل ، وقد جاء إليكم بالفصل من خبر صاحبكم - يعني عيسى عليه السلام - وقد علمتم ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ، وثبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإذا أبيتم إلا البقاء على ما أنتم عليه في صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم ففعلوا [١]

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٠٤ و ٢١٥ مطبعة حجازي سنة ١٩٥٥ .

حيث يبدو من هذا أن المنافـــع والمراكز هي التي جعلت هذا الوفد يتمسك بنصرانيته .

ولعل الحوري أو غيره يشك في هـذه الروايات ، ونقول لهؤلاء : إن في القرآن ما فيه تقرير وتوكيد بكون اليهود والنصارى يجدون النبي مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ، وبكونهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وبكونهم يشهدون أن القرآن منزل من الله ، وإن منهم من كان يبشر بذلك ، ويستفتح على المشركين قبل بعثته ، وإن منهم من عرف أن بعثة النبي تصديق لذلك ، وعرف أن ما يسمع من النبي هو الحق، فآمن كما جاء في آيات البقرة ٨٩ و ٩٠ وآل عمران ٧٠ و ٧١ و ٨٦ و ١٩٩ والنساء ١٦١ والمائدة ٨٣ - ٨٤ والأنعـام ٢٠ و ١١٤ والأعراف ١٥٧ والإسراء ١٠٧ - ١٠٨ والقصص ٥١ - ٥٣ والأحقاف ١٠ التي أوردناهـا في مناسبات سابقة مما لايمكن أن يكون إلا تسجيلاً لواقع مسلم به من سامعي القرآن من يهود ونصارى .

وكلمة (وسط) في آية البقرة ذات مدى أوسع ممـا يتوهمه الحوري الحداد ويفسره على أنه يعني وسطاً بين اليهودية والنصرانية . فمعنى الوسط : هو الخيرية في كل شيء والاعتدال في كل شيء ، وعدم الإفراط والتفريط ، والغلو والتقصير ، وعدم الاقتصار على ناحية والتقصير في ناحية مما فيه خير دين ودنيا . وكل هذا ممثل في الرسالة الإسلامية فيما قامت عليه من أسس وقواعد ومبادىء وخطوط وتقريرات في مختلف شؤون الدنيا والآخرة . وقد حل بها ما في مختلف النحل من مشاكل وتعقيدات وخلافات ومتناقضات متصلة بالتوحيـــد الإلهي وربوبيـة الله للعالم جميعاً دون اختصاص وخلت من الطقوس المعقدة والتكاليف والأغلال والآصار الشديدة ، وتضمنت من التيسير والمرونة ما تستطيع أن تتسع به لكل ظرف وأمر معقول صالح ، وواءمت بين الدنيا والآخرة ، والمادية والروحية ، والعقل والقلب ، والعلم

والدين ، وفتحت الآفاق للإنسان في مختلف المجالات ، لايمنعه مانع من أي جهد وتصرف في حدود الإيمان بالله وحده ورسله وكتبه واليوم الآخر ، والاعتدال والحق والعدل والطيب الحلال ، وتطابقت مع طبائع الأشياء ، ونواميس الكون ، ومقتضيات المنطق والعقل ، وجمعت بين حظ الدنيا وحظ الآخرة ، وأباحت كل طيب ، وحرمت كل رجس وخبيث وفسق ، ومنعت الظلم والعدوان والاستغلال والحرمان والاحتكار ، والاستعلاء والتمايز ، والبغي والتجبر ، ودعت إلى كل فضيلة ، ونهت عن كل رذيلة ، فصارت بذلك كله خير رسالة أخرجت للناس ومتطابقة مع كل زمن وظرف ومطلب ، ومرشحة للعمومية والخلود وغدوها دين البشرية جميعها ، ظاهرة على كل دين آخر كما قررته آيات منها آية سورة الفتح هذه (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً .. ٢٨) وصارت رسالة رسولها رحمة للعالمين كما قررته آية سورة الأنبياء هذه (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ..) وصار متبعوها الذين التزموها خير أمة أخرجت للناس كما قررته آية آل عمران هذه (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ .. ١١٠) .

ثالثاً :

صفة محمد ﷺ في القرآن المكي ومزاعم الحوري في صدد ذلك

- ١ -

رأى الحوري الحداد في القرآن المكي كثرة الآيات التي تصف النبي ﷺ بالبشير والنذير ، والمبشر والمنذر ، أو أمره بتبشير الناس وإنذارهم ، أو بأن يقول : إنه أرسل إلى الناس بشيراً ونذيراً ، أو إنما هو بشير ونذير ، ومبشر ومنذر وحسب فحلا له أن يزعم أن محمداً ﷺ حرص على أن يقدم نفسه للناس بشيراً ونذيراً ومبشراً ومنذراً دون أن يكثر من وصف نفسه بالرسول والنبي .

وقد أراد الحوري إبراز هذا الأمر كما هو المتبادر من كلامه ظاهراً وباطناً ليوهم ضعف ثقة النبي ﷺ برسالته ونبوته أو بصفته رسولاً ونبياً ، أو تردده في الجهر بها ، وبكلمة أخرى أراد أن ينبه ويركز على وهن موقفه وصفته .

ولقد تغافل الحوري عما في القرآن المكي من آيات كثيرة تثبت تهافت كلامه ووهنه ، فكشف بذلك عن غثاثة نفسه وصغارها وسوء أدبه معاً .

- ٢ -

ويجدر بنا أولاً أن ننبه على أن فحوى الآيات التي فيها كلمات مبشر ومنذر ، وبشير ونذير يفيد أن هذه الكلمات تعني مهمة رسل الله وأنبيائه أكثر منها صفة لهم وحسب ، وقد جاء ذلك بصراحة في آيات عديدة

جمعت هذه الكلمات مع كلمتي الرسول والنبي مما فيه دليل على ما نقول كما هو في الآيات التالية مثلًا :

١ - كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .. [البقرة : ٢١٣] .

٢ - يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . [المائدة : ١٩] .

- ٣ -

والقرآن المكي لايصف النبي محمداً ﷺ وحده بصفة نذير ومنـــذر وبشير ومبشر ، بل يصف بذلك رسل الله وأنبياءه السابقين في آيات كثيرة منها ما جاء مترافقاً مع كلمتي نبي ورسول ، ومنها ما جاء عاماً كما ترى في الآيات التالية :

١ - وَمَا أَرْسَلْنَا المُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ .. [الأنعام : ٤٨] .

٢ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ .. [هود : ٢٥] .

٣ - وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً .. [الفرقان : ٥٩] .

٤ - وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ .. [الشعراء:٢٠٨].

٥ - لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ .. [القصص : ٤٦ و ٤٧] .

٦ - إنّا أرسلناكَ بالحقّ بشيراً ونذيراً وإنْ مِنْ أمّةٍ إلّا خلا فيها نذيرٌ .. [فاطر : ٢٤][(١)] .

— ٤ —

ومع ذلك فإن القرآن المكي وصف النبي محمداً ﷺ بالرسول والنبي في آيات كثيرة منها ما هو صريح ، ومنها ما هو ظاهر الفحوى ، ومنها ما هو في سور مبكرة جداً في النزول ، ومنها ما هو في أدوار التنزيل المكي المختلفة كما ترى فيما يلي :

١ - ولقدْ كُذّبتْ رُسُلٌ مِنْ قبلِكَ فصبَروا على ما كُذّبوا وأُوذُوا حتّى أتاهمْ نصرُنا ولا مُبدّلَ لكلماتِ اللهِ ولقدْ جاءكَ مِنْ نبإِ المُرسَلينَ .. [الأنعام : ٣٤] .

٢ - وكذلكَ جعلْنا لكلِّ نبيٍّ عدوّاً شياطينَ الإنسِ والجنِّ يُوحي بعضُهمْ إلى بعضٍ زُخرُفَ القولِ غُروراً .. [الأنعام : ١١٢] .

٣ - ولقدْ أرسلْنا رُسُلاً مِنْ قبلِكَ وجعلْنا لهمْ أزواجاً وذرّيّةً وما كانَ لرسولٍ أنْ يأتيَ بآيةٍ إلّا بإذنِ اللهِ .. [الرعد : ٣٨] .

٤ - ويقولُ الّذينَ كفَروا لستَ مُرسَلاً قلْ كفَى باللهِ شهيداً بيْني وبينَكمْ ومَنْ عندَهُ عِلمُ الكتابِ .. [الرعد: ٤٥][(٢)] .

٥ - وضرَبَ اللهُ مثَلاً قريةً كانتْ آمنةً مُطمئنّةً يأتيها

(١) هناك آيات عديدة أخرى من باب هذه الآيات فاكتفينا بما تقدم انظر اذا شئت آيات الكهف ٥٥ وسبأ ٣٣ والصافات ٧١ و ٧٢ والزخرف ١٣ والقمر ٢١ و ٤١ والملك ٨ و ٩ .

(٢) واضح من فحوى الآيات أن محمداً صلى الله عليه وسلم قدم نفسه رسولاً ونبياً . وسياق الآيات يفيد ذلك أيضاً .

رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذاقَها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ . ولَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ العَذابُ وهُمْ ظالِمُونَ .. [النحل : ١١١ و ١١٢] (١) .

٦ – وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلّا أَنا فَاعْبُدُونِ .. [الأنبياء : ٢٥] (٢) .

٧ – وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلّا إِذا تَمَنّى أَلْقى الشَّيْطانُ في أُمْنِيَّتِهِ .. [الحج : ٥٠] (٣) .

٨ – وَقالُوا مالِ هَـذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشي في الأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذيراً .. [الفرقان : ٧] (٤) .

٩ – وَقالَ الرَّسُولُ يارَبِّ إِنَّ قَوْمي اتَّخَذُوا هَذا القُرْآنَ مَهْجُوراً . وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ المُجْرِمينَ وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصيراً .. [الفرقان : ٣٠ و ٣٣] (٥) .

١٠ – يس وَالقُرْآنِ الحَكيمِ إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلينَ .. [يس : ١ – ٣] (٦) .

١١ – إِنّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً .. [المزمل : ١٥] (٧) .

---

(١) هذه الآية في صدد مكة وأهلها ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم .

(٢و٣) فحوى الآيات يفيد بقوة أن النبي قدم نفسه كرسول ونبي .

(٤و٥و٦) فيها صراحة كافية .

(٧) هذه الآية في سورة مبكرة جداً ، وهناك آيات أخرى من باب هذه الآيات فاكتفينا بما تقدم .

ولا يملك المرء إزاء كثرة الآيات التي تغافل عنها الحوري عمداً بدون ريب إلا أن يعجب لعدم خجله من الصفاقة والوقاحة في دعاويه ومزاعمه .

- ٥ -

ومما يحلو للخوري التركيز عليه في صدد صفة النبي محمد ﷺ (بشريته) وما ورد في القرآن من هدايته بعد الضلال ، ومعاتبته على بعض أمور ومواقف صدرت في بعض الظروف ، وتكرور الأمر له بالاستغفار من ذنوبه ، والإشارة إلى وضع الله عنه الوزر الذي انقض ظهره ، وتحذيره من الشك في ما أنزل عليه والامتراء فيه ، وما حدثته نفسه به من الاستجابة لبعض مطالب المشركين ، وتحذيره من عـــدم الأبوه للفقراء المسلمين ، وإيجابه الاهتمام بهم أكثر من الاهتمام بأغنياء المشركين ووجهائهم ، وضيق صدره ببعض ما أنزل الله إليه خجلاً أو خوفاً من المشركين وانتقاداتهم ، وجواز نزغ الشيطان له ، وإنسائه له بعض الأمور ، وأمره بإعلان بشريته ، وكونه لايعلم الغيب ، وأنه يمسه ما يمس الناس من مظـــاهر السوء ، وكونه لم يدر شيئاً من الإيمان والكتاب مما يتمثل في آيات سورة النساء ١٠٥ - ١٠٧ والأنعـــام ٥٢ و ٦٨ و ١١٤ - ١١٦ والأعراف ٢ و ١٨٨ و ١٩٩ والأنفال ٦٧ - ٦٩ والتوبة ٤٣ و ١١٣ و ١١٧ ويونس ٤٩ و ٩٤ - ٩٥ وهود ١٢ والإسراء ٧٣ - ٧٥ والكهف ٢٣ و ٢٨ و ١١٠ والأحزاب ١٧ وغافر ٥٥ وفصلت ٦ ومحمد ١٩ والفتح ١ - ٣ والتحريم ١ وعبس ١ - ١٣ والضحى ٧ والانشراح ١ - ٤ [١] .

ولقد اهتم الخوري لإبراز هـــذه النقاط التي وردت في الآيات ممثلة ظروف السيرة وأطوار الدعوة ، وداعمة للرسالة القرآنية في سياق مقارنته بين النبي ﷺ وعيسى عليه السلام حيث قال : إن القرآن لم يذكر للمسيح

---

(١) الآيات كثيرة . ولذلك اكتفينا بسورها وأرقامها وموجز محتوياتها . ويحسن بالقارىء أن يرجع إليها في المصحف .

إثم ولا علاقة بإثم ، وإنه وصفه بالزكي بمعنى الطاهر في آية سورة مريم هذه (لأهب لك غلاماً زكياً) وإنه جعله مباركاً أين ما كان في آية سورة مريم هذه (وَجعلني مُبَاركاً أيْنَ مَا كنْتُ ...) وإن الله وقاه من الشيطـان بوعده الاستجابة لأم مريم ، كما جاء في آيات سورة آل عمران (وإنّي أُعيذُها بكَ وَذُرّيّتَها مِنَ الشّيْطَانِ الرّجيم . فتقبّلها رَبُّها بِقبولٍ حَسنٍ وأنبتها نَباتاً حسناً ...) وإنه لم يكن للشر عليه سلطان على الإطلاق ، وأورد حديثين عن النبي ﷺ جاء في أحدهما « ما من مولود يولد إلاّ والشيطان يمسه فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلاّ مريم وابنها واقرأوا إذا شئتم آيات آل عمران » وجاء في ثانيهما « كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب يطعنه فطعن الحجاب » بسبيل توثيق قوله .

ومقتضى كلام الحوري أن عيسى عليه السلام كان مصروفاً عن أي ذنب وإثم وشر فلا يستطيعه بحيث يمكن أن يقال من باب المساجلة : إنه ليس في هذا والحالة هذه مزية ما ، والمزية الواقعية هي الامتناع عن الشر والإثم في حالة وجود قابلية عملها في المرء .

وليس في بشرية النبي ﷺ بدع يصح أن يساق كنقطة ضعف فيه ، وقد قال الحوري تعليقاً على آية يونس (٩٤) : إنها أعظم آية في القرآن على بشرية النبي وضعفه البشري ، ولقد أمر الله رسوله بأن يعلن بشريته في أكثر من آية حقاً ، وإنه لايملك من الأمر شيئاً ، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضراً في أكثر من آية أيضاً ، كما جاء في آيات الكهف ١١٠ وفصلت ٦ والأنعام ٥٠ والأعراف ١٨٨ ويونس ٤٩ ولكنه نبه على أن ذلك شأن الأنبياء والمرسلين عـامة كما جاء في آيات عديـدة مثل هذه الآيات :

١ – وَلا أقولُ لكُمْ عِنْدي خَزائِنُ اللهِ وَلا أعْلَمُ الغَيْبَ وَلا أقولُ إنّي مَلَكٌ .. [هود : ٣١][١] .

٢ – وَلَقَدْ أرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أزْواجاً وذُرِّيَّةً .. [الرعد : ٣٨] ..

٣ – وَمَا أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إلاّ رِجالاً نُوحي إلَيْهِمْ فاسألوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمونَ .. [النحل : ٤٣] .

٤ – وَمَا أرْسَلْنا قَبْلَكَ إلاّ رِجالاً نُوحي إلَيْهِمْ فاسألوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمونَ . وَمَا جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأكُلونَ الطَّعامَ وَمَا كانوا خالِدينَ .. [الأنبياء : ٧ و ٨] .

٥ – وَمَا جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أفَإنْ مِتَّ فَهُمُ الخالِدونَ .. [الأنبياء : ٣٤] .

٦ – وَمَا أرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلينَ إلاّ إنَّهُمْ لَيَأكُلونَ الطَّعامَ وَيَمْشونَ في الأسْواقِ .. [الفرقان : ٢٠][١] .

وظاهر من نصوص الآيات التي فيها معاتبات وتحذيرات وتنبيهـــات وتقريرات أنها بصدد مواقف وبوادر كانت تصدر من النبي ﷺ اجتهادياً ، ولا يكون فيها وحي ، ويرى فيها خيراً وفائدة ومصلحة للدعوة الإسلامية أو تفادياً من حرج إزاء الكفار والمشركين ، أو جلباً لزعمائهم ، وكانت خلاف الأولى في علم الله المغيب عليه ، فكانت حكمة التنزيل تقتضي تنزيل تلك الآيات ليكون فيها تنبيه وتعليم وتشريع مع التنبيه على أن النبي ﷺ كان يجتهد في أمور ومواقف تكون صواباً في علم الله وحكمته فينزل في ذلك قرآن مؤيد . وكل هذه الاجتهـادات من مقتضى بشرية

---

(١) هذه حكاية لقول نوح عليه السلام لقومه .

(١) هناك آيات أخرى من بابها أيضاً .

النبي ﷺ ، وليس هو فيها بدعاً . وفي القرآن حكاية مواقف مماثلة لأنبياء سابقين مما يتمثل في الآيات التالية التي لها أمثال :

١ - وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .. [هود : ٤٥و٤٦] .

٢ - وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .. [الأنبياء : ٨٧] .

وفي أسفار العهد القديم والحديث صور كثيرة من أمثال ذلك معزوة إلى أنبياء الله ورسله ، وإلى الله تعالى على سبيل التحـــذير والتنبيه ، والحوري يعرف ذلك طبعاً ، ولكنه يقف منه بالنسبة للنبي ﷺ موقف التجريح والتشكيك .

وقد يكون تكرار أمر الله تعالى للنبي بالاستغفـــار متصلاً بتلك الاجتهادات التي تكون خلاف الأولى في علم الله المغيب عليه ، أو بسبب ما يمكن أن يصدر منه من إلمامات ونسيان مما هو مقتضى بشريته ، وكل هذا من النوع الذي يدخل في نطاق عفو الله بصورة عامة بالنسبة لسائر الناس على ما تفيده بعض الآيات ومنها آيات النجم هذه (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَـــا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى . الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ .. ٣٢ و ٣٣) غير أنها تكون بالنسبة للنبي ﷺ من قبيل (حسنات الأبرار سيئات المقربين) فيأمره الله بالاستغفار منهـــا ويكون في ذلك تعليم للمسلمين بذكر الله

واستغفاره مما يصدر عنهم من إلمامات وهفوات . ولقد أثرت أحاديث عن النبي ﷺ تفيد أنه كان يستغفر الله كثيراً وكان يحث المسلمين على الاستغفار لله ، ويعلمهم صيغاً له مما هو متصل بذلك ، ومن ذلك حديث رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لايحتسب » وفي القرآن آيات تعد المستغفرين بالقبول كما جاء في آيات سورة النساء هذه :

١ - وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُوكَ فاسْتَغْفَرُوا اللهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولَ لوَجَدوا اللهَ تَوَّاباً رَحيماً .. [٦٤] .

٢ - وَمَنْ يَعمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحيماً . [١١٠][1] .

والمفسرون يجمعون على أن آيتي يونس ٩٤ و ٩٥ اللتين يركز الحوري عليهما وهذا نصهما (فَإِنْ كُنْتَ في شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فاسْأَلِ الَّذينَ يَقْرَؤُونَ الكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرينَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الخاسِرينَ ..) هما بسبيل التثبيت ، وليست بسبيل واقع قد ندد به ، والضلال الذي ذكر في آية سورة الضحى ليس في معنى ارتكاس النبي ﷺ في عقائد قومه قبل البعثة ، وإنما هو في مقام تنبيه على ما كان من موقفه الحائر بعد أن أنف منذ وعيه عن السير في عقائد وتقاليد الجاهلية واتجه نحو الله وحده ، فهداه الله إلى ملة إبراهيم ، وأمره بالاعلان عن ذلك في آيات سورة الأنعام هذه (قُلْ إِنَّني هَداني رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ . دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهيمَ حَنيفاً وَما كانَ

---

(١) هناك آيات كثيرة من هذا الباب .

مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .. ١٦١ - ١٦٣) .

ولقد تغافل الحوري عما في الآيات التي تذكر بشرية النبي ، وتأمره بإعلان ذلك ، وبأنه لا يعلم الغيب ، وليس عنده خزائن الله ، أو تسجل معاتبات الله ، وتحذيراته على ما بدر منه من مواقف واجتهادات خلاف الأولى المغيب في علم الله من تعبير عميق عن اليقين بأنها وحي الله الذي يجب أن يثبت في القرآن ، ويعلمه الناس مع أنها تنبيهات شخصية ، كما تغافل عن الثناء العظيم الذي انطوى في آية سورة القلم (وإنك لعلى خلق عظيم) التي هي من أولى الآيات نزولاً ، والتي تعبر عما كان عليه النبي من مواهب وأخلاق عظيمة قبل البعثة ، فارتقى بها إلى ذروة الكمال الانساني وأهلته لاصطفاء الله إياه لرسالته العظمى الخالدة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ولقد تغافل الحوري إلى هذا عمـــا كان من شدة حرص النبي ﷺ على هداية قومه حتى ليكاد يذهب بنفسه ويبخعها حسرة وأسفاً ، كما جاء في آيات عديدة منها هذه الآيات :

١ - فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً .. [الكهف : ٦] .

٢ - لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .. [الشعراء : ٣] .

٣ - فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. [فاطر : ٨] .

وأن ذلك مما كان يجعله يجتهد بعض تلك الاجتهادات التي كانت عند الله تعالى خلاف الأولى المغيب عنه .

وهذا ديدن الحوري حيث يغفل عمـــا في القرآن من حقائق تضع الأمور في نصابهـا الحق ، ويصح عليه قول الله (أفرَأيْتَ مَنِ اتّخَذَ إلهَهُ هَواهُ وَأضَلّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وقَلْبِهِ وَجعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ الله ..) .

رابعاً :

زعم قومية الدعوة الإسلامية وعروبتها دون عمومها وإنسانيتها وعالميتها

- ١ -

من النقاط التي يكررها الحوري في أماكن عديدة من كتبه كون رسالة النبي ﷺ هي قومية عربية ، وليست إنسانية عالمية ، وكون انتشارها بين غير العرب هو نتيجة حركة الفتح بعده وحسب [١] .

والحوري لايعتقد أنها حتى على صفتها التي يزعمها رسالة ربانية يقوم بها نبي مرسل من الله عز وجل ، وإنما هي في زعمه دعوة اضطلع بها بدافع من ثقافته الكتابية ـ نسبة لأهل الكتاب ـ وغيرته القومية . ومن أقواله في صدد ذلك : (إن معجزة محمد الحقيقية هي بخاصة في إقامة وحدة عربية تحت سلطان سيامي ديني عربي قومي ، وهي معجزته العظمى) .

- ٢ -

ولقد حاول الحوري التدليل على زعمه بآيات مكية ومدنيـــة ، وهو كعادته يغفل ويهمل آيات أخرى فيها نقض لزعمه ، وحينما يرى أن لامناص له من إيرادها يتمحل في تأويلها تمحلاً يصرفها به عن موضعها ومداها الحقيقيين .

(١) ليس الحوري وحده يزعم هـذا الزعم فهناك مبشرون ومستشرقون يشاركونه في ذلك .

ومن الآيات المكية التي يستدل بها هذه الآيات :

١ - وَهذا كِتابٌ أنزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصدِّقُ الَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أمَّ القُرى وَمَنْ حَوْلَها .. [الأنعام : ٩٢] .

٢ - ثُمَّ آتَيْنا مُوسى الكِتابَ تَماماً على الَّذي أحْسَنَ وَتفصيلاً لِكُلِّ شَيءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَهذا كِتابٌ أنزَلْناهُ مُبارَكٌ فاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أنْ تَقُولُوا[1] إنَّما أُنْزِلَ الكِتابُ على طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإنْ كُنّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلينَ . أوْ تَقُولُوا لَوْ أنّا أُنْزِلَ عَلَيْنا الكِتابُ لَكُنّا أهدى مِنْهُمْ .. [الأنعام : ١٥٥ - ١٥٧] .

٣ - وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فإذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ .. [يونس : ٤٧] .

٤ - إنّا أنزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .. [يوسف: ٢] .

٥ - وَما أرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إلّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. [ابراهيم : ٤] .

٦ - وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهيداً على هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمينَ .. [النحل : ٨٩] .

٧ - وَكَذلِكَ أوْحَيْنا إلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أمَّ القُرى وَمَنْ حَوْلَها .. [الشورى : ٧] .

٨ - فاسْتَمْسِكْ بالَّذي أُوحِيَ إلَيْكَ إنَّكَ على صِراطٍ مُسْتَقيمٍ . وَإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسألُونَ .. [الزخرف: ٤٣ و٤٤] .

٩ - فإنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .. [الدخان: ٥٨] .

---

(١) لئلا تقولوا .

ومن الآيات المدنية هذه الآيات :

١ - وَإِذْ يَرْفَعُ إِبراهيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ .. [البقرة : ١٢٧ و ١٢٨] .

٢ - كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .. [البقرة : ١٥١] .

٣ - لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ . [آل عمران : ١٦٤] .

٤ - لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .. [التوبة : ١١٩] .

٥ - هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ .. [الجمعة : ٢] .

- ٣ -

وجميع هذه الآيات سواء منها المكي والمدني كما يستفاد من سياقها ومقامها هي في مقام الحجاج والإلزام للكفار العرب ، والتطمين للمؤمنين العرب الذين كانوا أول من خوطبوا بالدعوة . ولا يصح أن يقتصر عليها دون سائر آيات القرآن ، وتورد للتدليل على أن الدعوة كانت وظلت

قاصرة على العرب ما دام في القرآن المكي والمدني آيات أخرى تفيد شمول الدعوة وعمومها وعالميتها .

ولقد احتوى القرآن آيات عديدة مكية ومدنية فيها خطاب ودعوة للناس جميعاً كما نرى فيما يلي :

١ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً .. [النساء : ١٧٤] .

٢ - قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .. [الأعراف : ١٥٧] .

٣ - كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ .. [ابراهيم : ١]

٤ - قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ .. [الحج : ٤٩] .

٥ - وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً .. [سبأ : ٢٨] .

والحوري يقول في صدد هذه الآيات : إن المقصود بالناس فيها هم ناس بيئة النبي ﷺ ، وليس جميع البشر ، وهذا تمحل متهافت ، ولا سيما أن هناك آيات مكية فيها تنبيه على أن الرسالة المحمدية هي إنذار وذكر للعالمين ورحمة لهم منذ العهد المكي كما ترى فيما يلي : [١] :

١ - قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ .. [الأنعام : ٩٠] .

---

(١) في القرآن المكي آيات كثيرة من باب هذه الآيات ، فاكتفينا بما أوردناه .

٢ – وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .. [يوسف : ١٠٤] .

٣ – وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ .. [الأنبياء : ١٠٧] .

٤ – تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً .. [الفرقان : ١] .

٥ – قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ .. [ص ٨٦ – ٨٨] [1] .

وقد سكت الحوري عن هذه الآيات التي تنسف وهمه وزعمه وهواه .

- ٤ -

ولقد رأى الحوري أن القرآن يوجه الدعوة إلى أهل الكتاب في آيات عديدة منها هذه الآيات :

١ – يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ .. [البقرة : ٤٠ و ٤١] .

٢ – وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ

---

(١) في هذه الآيات إخبار قرآني إعجازي عن المستقبل حيث تحقق على أوسع نطاق في زمن النبي وبعده في مختلف أنحاء العالم وفي هذا دليل لا يدحض على أنها وحي من الله رب العالمين .

مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلى الكَافِرِينَ .. [البقرة : ٨٩] (١) .

٣ - وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ .. [البقرة : ١٠١] (٢) .

٤ - يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .. [المائدة : ١٥ و ١٦] .

٥ - يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ واللهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ .. [المائدة : ١٩] .

٦ - الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ .. [الأعراف : ١٥٧] .

(١و٢) واضح من الآيات أن القرآن قد جاء لأهل الكتاب ، وأن محمداً رسول الله قد جاء لأهل الكتاب ، والمتبادر من جملة (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم) انها تعني أنهم تجاهلوا ما في كتبهم من وصف للنبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل كما جاء في آية سورة الأعراف ١٥٧ .

نقول : إن الحوري لما رأى في القرآن هذه الآيات التي لها أمثال أخرى لم يخجل ولم يحجم عن التمحل فيها والزعم بأن المقصود فيها هم يهود العرب ونصاراهم حيث يبلغ في ذلك ذروة التمحل والمكابرة والصفاقة ، ولا سيما انه يقرأ تعبير (بني إسرائيل) نعتاً لليهود ، ولا يمكن أن يجهل أن هؤلاء ليسوا من العرب ، وانه لايجهل أن الكتابيين والنصارى الذين كانوا في مكة ليسوا جميعهم عربي الأصل ، بل وان منهم من كان لايزال أعجمي اللسان مما أشارت إليه آية سورة النحل هذه (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ..) وانه مهما كابر وتمحل لايستطيع أن يغطي على حقيقة إيمان كتابيين إسرائيليين وغير إسرائيليين من غير العرب بالنبي والقرآن في مكة ثم في المدينة ، لأنهم فهموا أن الدعوة موجهة إليهم أيضاً على ما شرحناه في الفقرة ١٩ و ٢٠ من البحث (ثانياً) .

وفي القرآن المكي آيات عديدة وجه الخطاب فيها لبني آدم ، وفيه تبشير بالرسالة المحمدية ، وفي مطلع سورة الأعراف المكية التي هي من السور المبكرة في النزول فصل طويل من ذلك لايمكن لمن يقرأه إلا أن يتيقن أن هذه الرسالة موجهة لجميع بني آدم دانيهم وقاصيهم ، وأبيضهم وأسودهم ، وأحمرهم وعربهم وعجمهم ، وذكورهم وإناثهم ، وكتابيهم ومشركيهم ووثنييهم بأسلوب قاطع لايتحمل أي مراء وهو الفصل الذي تبدأ به السورة إلى آخر الآية ٥٨ [1] .

ولقد روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر عن النبي ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يُعطهن أحد قبلي : نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر ،

---

(١) تفادينا ايراده لطوله ويحسن بالقارىء أن يقرأه من المصحف ويتمعن به يرى مصداق ما نقول .

وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وروى الطبراني أن النبي ﷺ قال : « بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ، وإنما كان كل نبي يبعث إلى قريته » وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال : « بعثت إلى كل أبيض وأسود » وليس في هذه الأحاديث ولا سيما أولها الذي هو من الصحاح محل لمكابرة ، لأنها متساوقة مع الوحي القرآني ، ولم يكن إذ ذاك دعوى من نوع دعوى الحوري وأمثاله في آخر الزمان حتى يقال : إنها وضعت للرد على ذلك ، وفي صدد اليهود والنصارى بخاصة روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » ولا نظن أن الحوري تصل فيه الصفاقة إلى القول إن كل يهودي وكل نصراني في الدنيا هم من العرب ، أو إلى القول : إن الحديث هو لأجل اليهود والنصارى العرب فقط .

- ٥ -

وفي سور التوبة والفتح والصف آيات فيها دلالة حاسمة أيضاً على عموم الرسالة المحمدية وشمولها للكتابيين وغير الكتابيين حيث تقرر أن الله عز وجل آلى على نفسه أن يظهر رسالة محمد ﷺ على جميع الأديان ، وبعبارة أخرى أن يكون دين البشرية جميعاً كما ترى فيها :

١ - يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ .. [التوبة : ٣٢ و ٣٣] .

٢ : هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً .. [الفتح : ٢٨] .

٣ — يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ . هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ .. [الصف : ٨ و ٩] .

وآيات التوبة جاءت بعد هذه الآيات التي فيها ذكر لأهل الكتاب ، وحملة على المنحرفين منهم وأمر بقتالهم (قَاتِلُوا الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ . وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصارى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذينَ كَفَرُوا قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .. ٢٩ – ٣١) وجاء بعدها هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. ٣٢) .

وآيات الصف جاءت بعد هذه الآيات (وَإِذْ قَالَ مُوسى لِقَوْمِهِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ . وَإِذْ قَالَ عِيسى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ

يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ .. ٥ ـ ٧) .

وهكذا يكون في آيات التوبة والصف دليل لايدحض على أن إعلان الله تعالى فيها بأنه أرسل رسوله (محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) شامل لليهودية والنصرانية واليهود والنصارى إطلاقاً وقاطبة .

– ٦ –

ولقد كان موقف الحوري الحداد من هذه الآيات متنوعاً ، فقال في صدد آية سورة الفتح : إن النبي اعتبر صلح الحديبية الذي نزلت السورة في صدده انتصاراً لدينه على الدين كله ، وقول الحوري غير سائغ ولا هو متفق مع مـدى الآية التي تعني أمراً مستقبلاً ، ولا سيا أن قريشاً وجزيرة العرب من ورائهم قد ظلت على شركها فترة غير قصيرة بعد صلح الحديبية ، بل وأقوت وثيقة الصلح ذلك . وكان النبي ﷺ رأى رؤيا بأنه يزور الكعبة فاعتبر ذلك وحياً ، وندب أصحابه ، وساروا للزيارة ، فمنعتهم قريش ، ثم جرت مفاوضات بين الطرفين انتهت بصلح مدته عشر سنوات ، وكان من شروطه أن من يأتي النبي مسلماً من مكة يعاد إليها ، ومن يأتيهم من المدينة مرتداً لايعاد إليها . وكما كان من شروطه السماح للنبي وأصحابه بزيارة الكعبة في السنة القادمة .

وقال الحوري في صدد آيات التوبة : إنها مقحمة ، والسورة ليست مكية حتى تكون مقحمة عليها من العهد المكي كما يحلو للخوري أن يقول كلما أفحمه نص مكي ، والسياق متساوق ومنسجم كل التساوق والانسجام كما يبـــدو من قراءة جميـــع الآيات ، بحيث يظهر بوضوح أن زعم

الحوري الإقحام هو تمحل متهافت بقصد التهرب من دليل مفحم . وجرأة الحوري وصفاقته وسوء أدبه لايقف عند حد من حدود المنطق والحياء والأدب مهما يكن في ما يزعم من إفك وبهتان وتمحل وتناقض مع الانسجام القرآني . وقد نبهنا في مناسبة سابقة إلى ما هو القرآن في يقين النبي وأصحابه بحيث يكون القول بزيادة شيء عليه لقصد تعديل فحوى ما إفكاً فاجراً لايصدر إلا من آثم فاجر وهذا فضلاً عن أنه ليس هناك أية ضرورة ظرفية ولا سبكية للإقحام المزعوم .

ولقد أنساه الله التعليق على آيات الصف (٧ و ٨) المماثلة لهذه الآيات فانكشف بذلك ما وقع فيه من تمحل وتناقض وصفاقة وإفك وسوء أدب .

- ٧ -

ويبدو أن ما احتوته الآية (٦) من سورة الصف من حكاية قول عيسى عليه السلام : إنه مبشر برسول من بعده اسمه أحمد قد شغل الحوري عن التعليق على الآيات التي بعدها ، وجعله يتم للتعليق على هذه الحكاية ، لأنها تمسه في الصميم ، فزعم أولاً أنها مزيدة ، وقال : إنها لو حذفت لما اختل المعنى ولا المبنى ، ولانسجمت الآية أكثر فأكثر ، وهذا هراء وهذيان فضلاً عما فيه من سوء أدب وإفك ، فالمعنى منسجم كل الانسجام والسياق متسق كل الاتساق ، والآيات مدنية ، وما قلناه في صدد زعم إقحام آيات التوبة نكوره هنا أيضاً وهو هنا آثم فاجر كما هو هناك . وقال ثانياً . إن عيسى إنما بشر بالبار قليط ، وهو روح القدس ، وإن الإنجيل الذي ورد فيه هذا اللفظ مكتوب على رق قبل النبي بثلاثمائة سنة ، وظل بعده فلا يكون قد حرف ، وقد ذكرنا قوله هذا في مناسبة سابقة ، وليس فيه الحجة التي يريد أن يسوقها لإثبات قوله ، لأنه ليس ما يمنع أن يكون هناك أناجيل وقراطيس فيها بشارة عيسى عليه السلام برسول من

بعده اسمه أحمد ، أو معنى الكلمة التي كتبت في الأناجيل التي تضمنت ترجمة حياة عيسى عليه السلام وأقواله فضاعت أو أبيدت ، وهذا ما نعتقده . فالآية كانت تتلى علناً ، ويسمعها اليهود والنصارى ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا صدقاً وحقاً وواقعاً . وقد سجل القرآن إيمان طائفة من النصارى ، فيهم القسيسون والرهبان ، وفيضان دموعهم حينما سمعوا ما أنزل إلى الرسول ، وتيقنوا أنه الحق الذي يعرفونه (آيات المائدة ٨٣ - ٨٦) كما سجل القرآن إيمان طائفة أخرى وصفها بأنها من الذين أوتوا العلم ، ونرجح أنهم نصارى وبكاءها وسجودها وقولها : إن الله قد وفى بما وعد ، وكان أمره مفعولا (آيات الإسراء ١٠٧ - ١٠٩) ولقد جاء كلام عيسى المذكور في الآية حرفياً في إنجيل برنابا ، والنصارى ينكرون هذا الإنجيل ، ويبقى ما قلناه على كل حال هو الوارد الحق .

ومع ذلك ففي عبارة إنجيل يوحنا (الاصحاح السادس عشر) الذي فيه ذكر للبار قليط وقد جاء هذا اللفظ في الترجمة العربية الكاثوليكية بلفظ (المعزّى) ما يفيد (أن شخصاً ما سيأتي بعد عيسى ويبكت الناس على الخطيئة وعلى البر وعلى الدينونة ، وأنه روح الحق ، وأنه هو الذي يرشد الناس إلى الحق ، لأنه لايتكلم من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ويخبر بما يأتي) وفرق كبير بين هذا وبين القول : إنه روح القدس وحسب . وروح القدس عند الخوري وأهل مذهبه صفة من صفات الله ، وأقنوم من أقانيمه غير منفك عنه ، وبعض علماء اللغات يفسرون كلمة البار قليط بمعنى الحمد المشتق منه اسم أحمد أيضاً [1] . وقد نبهنا في مناسبة سابقة إلى كثرة البشارات التي سجلها السيد

(١) للامام ابن قيم الجوزية بحث قيم في مدى كلمة البارقليط وكونها تعني اسم أو صفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه «دليل الحيارى » .

رشيد رضا في تفسيره المستنبطة من الأسفار والأناجيل المتداولة عن بعثة سيدنا محمد ﷺ . والإمام ابن قيم الجوزية سجل مثل تلك البشارات في كتابه « دليل الحيارى » أيضـاً مما هو مصداق صادق لما جاء في آية سورة الصف .

- ٨ -

ولقد قرأ الحوري الأحاديث التي تذكر أن النبي ﷺ وصّى قبل وفاته بأن لا يبقى في جزيرة العرب دينان ، وبإخراج اليهود والنصارى منها [١] فحاول أن يرى في ذلك دليلاً على أن ما احتوته آيات التوبة والفتح والصف هو في صدد ظهور الدين الإسلامي على الأديان في جزيرة العرب وحسب .

وإزاء النصوص القوية التي أوردناها ، والشروح التي شرحناها بهـا ، وإزاء الأحداث التاريخية التي سوف نوردها بعد ، والتي تثبت أن الرسالة المحمدية رسالة شاملة للجزيرة وخارجها وللعرب وغيرهم وللكتابيين وغيرهم ، فلا مناص من أن يفهم المنصف من تلك الأحاديث أن هدف النبي هو تحصين جزيرة العرب من تعدد الأديان وخلافاتها وحسب على اعتبارها مهبط وحي الله ، ومنشأ الرسالة الإسلامية . وفي تجاوز هذا النطاق تجاوز للمنطق والواقع من دون ريب .

- ٩ -

ولقد رأى الحوري في آية الأحزاب هذه (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. ٤٠) ما يمكن

---

(١) روى ابن هشام عن عائشة أن آخر ما عهد رسول الله به قال « لا يترك في جزيرة العرب دينان» وروى الامام أبو عبيد القاسم بن سلام عن أبي عبيدة بن الجراح أن النبي قال (أخرجوا اليهود من الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب) .

أن يفيد أن محمداً ﷺ وقد أراده الله ليكون آخر أنبيائه وخاتمهم قد صار رسول الله للناس جميعاً ، وصار دينه دين الناس جميعاً عند الله ، فأخذ يتمحل فيها تمحلاً متهافتاً لم يردعه عنه حياء ولا منطق حيث زعم أن العبارة تعني أن النبي مطبوع بطابع النبوة المصدق للنبيين من قبله وليست بمعنى خاتمة لهم .

وفي سورة الزخرف آيات في صدد عيسى عليه السلام من جملتها هذه الآية (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) ٦ فصرف ضمير (وإنه) إلى عيسى عليه السلام ، ولقد جاء في بعض الأحاديث النبوية أن عيسى عليه السلام يبعث في آخر الزمان كعلامة من علامات الساعة ، فربط بين كل ذلك ، وقال : إن كل هذا بشهادة القرآن والحديث يفيد أن عيسى لا محمد هو خاتم الأنبياء والمرسلين .

ومن عجيب مناقضات الخوري أنه يستشهد بالقرآن والحديث وهو غير مؤمن بهما .

وما دام أنه يريد أن يستند إلى الأحاديث فنقول له أولاً : إن هناك أحاديث تؤيد كون جملة (خاتم النبيين) في آية سورة الأحزاب هي بمعنى خاتمة لهم حيث روي عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قوله : « مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها لولا موضع هذه اللبنة ، فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » وفي رواية أخرى « فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » وروي عن ابن الطفيل عن النبي ﷺ قال : « لا نبوة بعدي » وروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال من حديث : « وختمت بي النبوة » وروى عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ قال : « إن لي أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وانا العاقب الذي

ليس بعده نبي » وروي عن عبد الله بن عمرو قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع ، فقال : أنا محمد النبي الأمي ثلاثاً ولا نبي بعدي » وروى الترمذي عن النبي قال : « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ولا فخر .. » .

ونقول له ثانياً في صدد ما أشار إليه من أحاديث عن نزول عيسى عليه السلام : إن فيها ما يفيد أنه سيكون على دين الإسلام حينما يأتي إلى الدنيا ثانية في آخر الزمان ، ولا يكون مجيئه بعثاً نبوياً جديداً ، وتظل صفة خاتم النبيين لمحمد ﷺ هي المستقرة المستمرة حيث جاء في واحد منها رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم عليه السلام حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لايقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » وجاء في حديث آخر رواه الشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » وجاء في حديث ثالث رواه أبو داود والإمام أحمد والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس بيني وبين عيسى عليه السلام نبي ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض بين مُمَصَّرَتَيْنِ [1] كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك المسيح الدجال ، ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسد مع الأيل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، وتلعب الصبيان بالحيات فيمكث عيسى في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون » .

---

(١) وصف لثيابه والممصر : ما فيه صفرة خفيفة .

وفي آيات التوبة والفتح والصف صراحة بأن الله تعالى أرسل محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وفي هذا حسم قرآني بأن الدين الذي جاء به محمد هو آخر الأديان ، وهو المرشح من الله ليكون دين البشرية ، وليظهره على سائر الأديان ، فيكون محمد ﷺ بذلك آخر الأنبياء وخاتمهم أيضاً ، ويبوء الحوري في تمحله في صرف معنى (خاتم النبيين) القرآني بالخزي والفشل .

أما قول الحوري : إن الإسلام انتشر خارج جزيرة العرب وبين غير العرب بعد النبي ﷺ نتيجة لحركة الفتح الإسلامي ، فهو متهافت جزاف وسيأتي تفنيده بعد قليل .

– ١٠ –

ومما اتكأ عليه الحوري في زعمه قضية تحويل القبلة عن سمت المسجد الأقصى إلى سمت المسجد الحرام في العهد المدني ، فاصطبغت رسالة النبي بها في هذا العهد بالصبغة القومية ، وهذا زعم متهافت ، ونعتقد أن الحوري أذكى من أن يجهل قصة هذا التحويل الذي كان متصلاً بموقف اليهود في المدينة من الدعوة الإسلامية ورسولها ، ولكنه يتجاهل ذلك ويغلب هواه على حقيقة الأمر فيه .

ولقد كان النبي هو وأصحابه في مكة يصلون نحو الكعبة بيت الله الحرام التي كان يتداول العرب أنها من إنشاء أبويها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، والتي كان الاتجاه إليها من مقتضى الملة الحنيفية الإبراهيمية التي هدى الله إليها النبي وأمره بإعلان ذلك في آيات الأنعام (١٦١ - ١٦٣) التي أوردناها قبل ، وقد أيد القرآن ذلك التداول في آيات سورة البقرة هذه (وَإِذْ جَعَلْنَا البَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلّى وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطّائِفِينَ وَالعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ

اجعلْ هذا بلداً آمناً وارزقْ أهلَهُ منَ الثمراتِ منْ آمنَ منهمْ باللهِ واليومِ الآخرِ قالَ ومنْ كفرَ فأمتعهُ قليلاً ثمَّ اضطرهُ إلى عذابِ النارِ وبئسَ المصيرُ. وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ منَ البيتِ وإسماعيلُ ربَّنا تقبلْ منا إنكَ أنتَ السميعُ العليمُ. ربَّنا واجعلنا مسلمَيْنِ لكَ ومنْ ذريتنا أمةً مسلمةً لكَ وأرنا مناسكنا وتبْ علينا إنكَ أنتَ التوابُ الرحيمُ. ربَّنا وابعثْ فيهمْ رسولاً منهمْ يتلو عليهمْ آياتكَ ويعلمهمُ الكتابَ والحكمةَ ويزكيهمْ إنكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ .. ١٢٤ - ١٢٩) وكان هذا الأمر مما يعرفه اليهود ويعترفون به يصرحون به قبل الإسلام على ما تفيده آيات البقرة هذه التي نزلت في صدد تحويل القبلة وتسفيه اليهود الذين اغتاظوا من هذا التحويل، واعتبروه ضربة موجعة لهم، وحاولوا أن يثيروا بين المسلمين فتنة وشكوكاً ضده (سيقولُ السفهاءُ منَ الناسِ ما ولاهمْ عنْ قبلتهمُ التي كانوا عليها قلْ للهِ المشرقُ والمغربُ يهدي منْ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ. وكذلكَ جعلناكمْ أمةً وسطاً لتكونوا شهداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكمْ شهيداً وما جعلنا القبلةَ التي كنتَ عليها إلا لنعلمَ منْ يتبعُ الرسولَ ممنْ ينقلبُ على عقبيهِ وإنْ كانتْ لكبيرةً إلا على الذينَ هدى اللهُ وما كانَ اللهُ ليضيعَ إيمانكمْ إنَّ اللهَ بالناسِ لرؤوفٌ رحيمٌ. قدْ نرى تقلبَ وجهكَ في السماءِ فلنولينكَ قبلةً ترضاها فولِّ وجهكَ شطرَ المسجدِ الحرامِ وحيثُ ما كنتمْ فولوا وجوهكمْ شطرهُ وإنَّ الذينَ أوتوا الكتابَ ليعلمونَ أنهُ الحقُّ منْ ربهمْ وما اللهُ بغافلٍ عما يعملونَ. ولئنْ أتيتَ الذينَ أوتوا الكتابَ بكلِّ آيةٍ ما تبعوا قبلتكَ وما أنتَ بتابعٍ قبلتهمْ

وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .. ١٤٢ - ١٤٧) .

وفي سورة آل عمران آيات أخرى يمكن أن تفيد أن اليهود ظلوا يثيرون الغبار حول التحويل ، ويدسون بين المسلمين ، ويزعمون أفضلية المسجد الأقصى وقدمه ، فاقتضت حكمة التنزيل وحيها للرد عليهم وتسفيههم ، وتقرر حكمة الأمر في قدم الكعبة وأفضليتها وصلتها بإبراهيم ، وكون الله بسبب ذلك أوجب على الناس المستطيعين أن يحجوا إليها ، وهي هذه (قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .. آل عمران ٩٥-٩٩) .

ولقد كان النبي ﷺ من جهته متألماً من مواقف قومه الجحودية في مكة التي وصلت إلى حد التآمر عليه لقتله أو حبسه أو إخراجه كما ذكرت آية سورة الأنفال هذه (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .. ٣٠) وقد أراد من جهة أخرى أن يتألف اليهود حينما هاجر إلى المدينة ، ويسهل عليهم الاستجابة إلى دعوته والانضواء

إلى رايته ، فألهمه الله أن يتجه في صلاته نحو سمت المسجد الأقصى بدلاً من سمت الكعبة ، فلما وقف اليهود منه ومن دعوته موقف الجحود والمناوأة والدس والكيد والصد والتعطيل والتأليب والتآمر على ما شرحناه في البحث الأول ، وكانوا إلى هذا يزهون على المسلمين بقولهم لهم : إنهم إنما يهتدون بهداهم ، ويستقبلون قبلتهم مما كان يحز في نفوسهم وفي نفس النبي معاً حتى صار يتمنى أن يوجهه الله إلى قبلته الأولى فاستجاب الله له وألهمه ذلك ، ثم أنزل فيه آيات البقرة ١٤٢ - ١٤٧ .

وظاهر من هذا الشرح أنه ليس في هذه المسألة مما يصح أن يسمى اتجاهاً جديداً إلى صبغ الدعوة الإسلامية بطابع قومي عربي .

- ١١ -

وإذا كان حقاً أن النبي ﷺ قد وحد العرب وأنشأ دولة - وهذا وذاك من تلقينات الدين الذي جاء به - فإنه إنما وحدهم تحت راية الإسلام . وإن الدولة التي أنشأها كانت دولة إسلامية وليست قومية ، وكل ما في الأمر أن أكثريتها العظمى كانت من العرب ، وكان طابعها المميز عربياً ولسانها عربياً ، وكل هذا كان من ظروف قيامها ، غير أنها كانت تمثل مختلف الأجناس والألوان حيث كان فيها بالإضافة إلى العرب الحبشي والفارسي والرومي والمصري القبطي والسرياني والأرامي ، والأبيض والأحمر والأسود والأسمر ، فكان في ذلك مصداق الحديث الذي يذكر أن النبي قد بعث إلى الناس كافة أحمرهم وأسودهم تحت راية الإسلام ، وفي الأخوة الدينية الشاملة التي لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى كما جاء في بعض الأحاديث ، وكما لقنته آية سورة الحجرات هذه (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وآية أخرى في نفس السورة وهي (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) . وقد تسمى رؤساء الدولة بعد النبي ﷺ باسم

(أمير المؤمنين) الذي فيه الدليل القاطع على أن المسلمين الأولين من لدن النبي ﷺ قد فهموا أن دولتهم إسلامية وليست قومية[1] .

وهناك أحاديث نبوية أخرى تدعم ما قلناه ، فقد روى الإمام أحمد أن ثابت بن قيس غمز بأم رجل في المجلس ، فقال له رسول الله ﷺ : « انظر في وجوه القوم » فنظر فقال : « ما رأيت ؟ » قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر قال : « فإنك لاتفضلهم إلا بالدين والتقوى » وقد روى الشيخان عن أبي ذر قال : « أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً مجدع الأطراف » . وفي رواية : « إن أمر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا » ولا يمكن أن يكون هذا إلا في ظل دولة إسلامية ، وفي نطاق الأخوة الدينية الشاملة .

- ١٢ -

ولقد حار الخوري الحداد في تعليل انتشار الإسلام في أقطار الأرض على اختلاف ملل أهلها الكتابية وغير الكتابية ، وعلى اختلاف أجناسها وألوانها بعد أن زعم أن الرسالة المحمدية عربية قومية لاتتعدى الحجاز ، أو جزيرة العرب على الأكثر ، وبعد أن تمحل في ما في القرآن من دلائل قوية حاسمة على بطلان زعمه ، فلم تهده شطارته أو غباوته إلا إلى القول إن ذلك الانتشار هو انفتاح طارىء نتج عن حركة الفتـــح العربي التي حدثت بعد النبي ﷺ متجاهلاً لحقائق تاريخية وقعت في زمن النبي ﷺ

---

(١) ننبه على أننا لا نريد بهذا أن ننفي شأن العروبة في الاسلام ، فانه قام عليها ومنها ، وبينهما تلازم تام بحيث يمكن القول إن العروبة بدون الاسلام ليس لها شأن مميز وإنما صار لها رسالة خالدة به وإن عز الاسلام وقوته هما في عز العرب وقوتهم . وهناك كلمة عظيمة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه (استوصوا بالعرب خيراً فانهم مادة الإسلام وإذا ذل العرب ذل الاسلام .

لايمكن إلا أن يكون قد اطلع على أخبارها ولا يصح أن يتجاهلها إنسان عاقل حتى ولو كان مغرضاً حقوداً ، لأنها مقترنة بوقائع يقينية يكون في تجاهلها غباوة وصفاقة صارختان . وتنطوي هـذه الحقائق على بداية ذلك الانتشار الذي لم تكن حركة الفتح إلا ضامنة لحريته ومزيلة للعقبات في طريقه ، وكانت تلك البداية من مباشرة وممارسة النبي ﷺ المنبثقين عن حقيقه كون الرسالة المحمدية رسالة عامة لجميع الناس على اختلاف أجناسهم ومللهم ونحلهم وألوانهم وأقطارهم برغم أنف المكابرين ، وعن حقيقة كون ذلك من مقتضى أمر الله في القرآن المكي وفي القرآن المدني معاً .

ولقد تمثلت هذه البداية والممارسة والمباشرة برسل رسول الله ورسائله إلى قيصر الروم ، وكسرى الفرس ، ونجاشي الحبشة ، ومقوقس مصر بالإضافة إلى أمراء العرب وملوكهم في اليمن ، وسواحل الجزيرة الشرقية ، وبلاد الشام يدعوهم إلى الإسلام .

وتشكيك المغرضين الحاقدين في هذا الحادث لا يثبت على تمحيص ، فقد كانت أحداث منبثقة عنه روتهـا الروايات الوثيقة القديمة في سياق آخر مثل سلب دحية الكلبي رسول رسول الله إلى قيصر من قبل بعض بني جذام ترتب عليه توجيه سرية لقتالهم بقيادة زيد بن حارثـة ، ومثل قتل فروة الجذامي أحد عمـال الروم أو الغساسنة في البلقاء الذي اعتنق الإسلام ، ومثل قتل رسول رسول الله الحارث بن عمير إلى ملك بصرى من قبل عامل مؤتـه الغساني عمرو بن شرحبيل . وقـد ترتب على ذلك توجيه جيش إلى مؤته في البلقاء بقيادة زيد بن حارثة أيضاً ، وهـــذه الحوادث وقعت في السنة السادسة للهجرة ، وبعـد إرسال النبي رسله وكتبه إلى الملوك ، ولم ينكرها الحاقدون المغرضون . ثم مثل قدوم مارية وأختها من مصر هدية من المقوقس ، وقد تسرى النبي بأولاهما وأولدها ابنه إبراهيم ، وهذه حقيقـة يقينية . ومثل إسلام باذان عامل كسرى على

اليمن الذي أرسل إليه كسرى يأمره باعتقال النبي الذي أرسل إليه رسولاً ورسالة ، فلم يكن منه بعد أن رأى أعلام نبوته إلا أن يسلم . ومما قالوه : إن محمداً لم يكن ليجرأ على ارسال رسل ورسائل إلى أكبر ملوك الأرض ، وهذا محض هراء بالنسبة إلى صاحب دعوة مؤمن بدعوته أعمق الإيمان ، ومستغرق فيها أشد الاستغراق ، ومعتقد بواجب تبليغها والتبشير بها في مشارق الأرض ومغاربها تنفيذاً لأمر ربه أقوى الاعتقاد ، وقد رأى علماء اليهود الراسخين في العلم قد آمنوا بها ، ورأى النصارى الذين هم في الحجاز قد آمنوا بها ، ورأى وفود النصارى الذين فيهم القسيسون والرهبان قد آمنوا بها ، وفاضت دموعهم مما عرفوا بها من الحق على ما أشارت إليه الآيات القرآنية المكية والمدنية التي أوردناها قبل ، فليس هناك أي محل لاستغراب هذا الحادث ، وإنكاره ، والمكابرة فيه . وهذا الحادث مدون في أقدم كتب السيرة التي وصلت إلينا ، ولم يكن هناك أية ضرورة دينية أو سياسية تحمل أحداً في القرن الأول والثاني على اختراع خبر هذا الحادث وروايته وتدوينه ، ولقد اتكأ بعضهم في إنكاره على ما في روايات ونصوص الرسائل المروية من ثغرات ، ولا يعد هذا مسوغاً جدياً لإنكار الخبر ، فمثل هذه الثغرات يمكن أن تقع في سياق كل حادث . ولم يدون الحادث إلا بعد مدة ما ظل خلالها متداولاً على الألسنة يزيد الرواة في تفصيله ونصوصه وتواريخه وأسمائه ، وينقصون ويبدلون ويغيرون ، بل كثيراً ما يقع أصحاب حادث ما في مثل ذلك إذا أرادوا أن يرووا تفاصيله بعد مدة ما من حدوثه ، ولا يقتضي ذلك أن يكون الحادث كاذباً ، ولقد كان وقت إرسال النبي رسله ورسائله هو عقب هدنة الحديبية مع قريش ، وإتمام إجلاء اليهود عن المدينة وخفض شوكتهم في خيبر والقرى الأخرى حيث شعر النبي بفراغ باله من الهموم المحلية ، فبادر إلى إبلاغ دعوته ورسالته إلى من هم خارج بيئته الخاصة ، وفي سورة المائدة هذه الآية

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. ٦٧) وسورة المائدة نزلت ، أو نزل بعضها عقب صلح الحديبية ، وقد بدأت بأمر المسلمين بالوفاء بعهودهم بهذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ..) وجاء بعدها آية تفيد أن بعض المسلمين أرادوا أن يلحقوا ضرراً بأهل مكة بمنع الناس من الحج ، فحكم الله بأنه إخلال بذلك الصلح ، وأمر المسلمين بالوفاء بعقودهم . فمما يخطر بالبال بقوة أن آية المائدة ٦٧ هذه كانت الحافز المباشر للنبي على خطوته الخطيرة ، وقد تضمنت تطميناً له بأن الله عاصمه من الناس ، فعليه أن لا يحسب أي حساب لأحد في سياق تبليغ ما أنزل اليه من ربه .

- ١٣ -

ولقد كان من الأحداث اليقينية إقبال نصارى الشام والعراق ومصر ويهودها ومجوس الفرس والترك وبربر شمال إفريقية على اعتناق الإسلام بمقياس واسع في القرن الهجري الأول حتى إن هذا القرن لم يكد ينتهي حتى كان معظمهم قد دانوا بالإسلام . ولم يكن هذا نتيجة لتمكن الجيوش العربية الإسلامية من الاستيلاء على هذه البلاد ودحر سلطانها عنها ، وإجبار أهلها على الإسلام كما يزعمه الحاقدون المغرضون ، فتسيير الجيوش بعد النبي ﷺ كان استمراراً لحالة الحرب التي قامت في حياة النبي بين المسلمين والروم والغساسنة والقبائل النصرانية في مشارف الشام ، وكان ذلك متنزعاً عن إرسال النبي رسله إلى ملوك الأرض ، ومقابلة الروم والغساسنة والنصارى ذلك بالعدوان ، على ما مر بيانه . والروايات المتواترة التي بلغت مبلغ اليقين تذكر أن شعار هذه الجيوش الأول كان الدعوة إلى الإسلام ، فإذا قبل الناس ذلك صار لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وهذا متصل بدون ريب بكون رسالة الإسلام هي لجميع البشر عامة ، وبيقين الخلفاء الذين سيروا

الجيوش ، وأمروا بشعاراتها بذلك . وكان الشعار الثاني إذا رفض الناس الإسلام طلب الجزية كعلامة للخضوع والاستسلام ، ويكون في ذلك في الوقت نفسه ضمان لحرية الدعوة الاسلامية واعتناقها بمن يريد ، فإذا قبل الناس بإعطاء الجزية أمنوا على حرياتهم الدينية والمدنية ، وضمن لهم الفاتحون السلامة والأمن والحماية ، ولا يقاتل إلا من رفض العرض الأول والثاني نتيجة لقيام حالة الحرب قبل قدوم الجيوش حيث يكون رفضها في معنى العداء العدواني ، وهذه الشعارات مستمدة من توجيه النبي ﷺ الذي كان يأمر به جيوشه التي كان يسيرها على ما أوردناه قبل . ولقد أرسل الله رسوله (شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إلى الله بِإذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً) و (لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ) وكان من واجب خلفائه أن يقتفوا اثره ، ويستمروا في التبشير برسالته والدعوة إليها .

ولقد كان أهل البلاد المفتوحة يصالحون المسلمين بعد أن يندحر أصحاب السلطة عن بلادهم على الجزية ، ويدخلون في ذمتهم وحمايتهم ، ثم أخذوا يقبلون على اعتناق الإسلام حينما ترووا في مبادئه ودعوته ، ورأوا فيها من حق وخير وحل لمشاكلهم المتنوعة الروحية وغير الروحية . ولقد كان إقبالهم على الإسلام بالطوع والاختيار ، لأن الجزية كانت مجزئة منهم تجاه الجيوش ، فليس من محل لغير ذلك قطعاً ، ولقد كانت أكثرية نصارى الشام والعراق ومصر الساحقة يعتنقون النسطورية واليعقوبية ، وأصحاب هذه المذاهب كانوا يعتقدون أن المسيح ذو طبيعة واحدة مزيجة من اللاهوتية والناسوتية ، وأنه ليس إلهاً كاملاً ولا إنساناً كاملاً خلافاً للمذهب الملكاني الذي كانت عليه الدولة الرومانية صاحبة السلطان في الشام ومصر ومن والاها وهو عقيدة ثنائية الطبيعة في المسيح ، وكان بين أصحاب المذهبين الأولين والمذهب الثالث خلاف ونزاع ، وتعرض اليعقوبيون في مصر وسورية لاضطهاد الدولة ومواليها ، فلما رأوا القرآن يقرر أن المسيح

كلمة الله ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وجدوا بين هذا وبين ما يقولون تطابقاً ما ، فأقبلوا على الإسلام الذي وجدوا فيه منفذاً روحياً وسياسياً في وقت واحد ، ولم تكن حركة الجيوش العربية كما قلنا إلا تعبيداً لطريق الدعوة ، وصوناً لحرية انطلاقها ، وخضداً لشوكة الباغين عليها والصادين عنها ، وليس من تفسير معقول آخر لإقبال جمهرة نصارى الشام والعراق ومصر على الإسلام غير ذلك ، والقول خلافه افتراء محض وهراء عرفت حقيقته . والدليل الحاسم على ذلك أن جماعات من النصارى في الشام ومصر والعراق شاؤوا أن يحتفظوا بدينهم ، فكان لهم ما أرادوا ، واستمروا يمارسون حريتهم الدينيـــة على مدى الأحقاب ، وفي ظروف قوة السلطان الإسلامي العظمى .

ولقد كان جل الذين انقبضوا عن الإسلام ، وأحبوا الاحتفاظ بدينهم ، وسمح لهم به من نصارى الشام ومصر على مذهب السلطات الرومية ومن الموالين لها ، أو بتعبير اليوم عملاءها ، فكان الدافع السياسي هو المؤثر في انقباضهم ، ولا سيما ان الروم ظلوا يتصلون بهم بعد اندحارهم عن بلاد الشام ومصر ويحركونهم ، ويجعلونهم يتمردون ويشغبون على السلطـــات الإسلامية حيناً بعد حين في زمن الدولة الأموية ، ثم العباسية . وكان لهذا أثره في موقفهم الموالي للحملات الصليبية أيضاً .

ونعتقد إلى هذا أن فريقاً من الرهبان أيضاً غلبتهم فكرة الاحتفاظ بمنافعهم المادية التي كانوا يجنونها من أوقاف الأديرة والكنائس ونذور رعاياهم وهداياهم ، فجعلهم ذلك ينقبضون بدورهم عن الإسلام ، ويحاولون التأثير ما أمكنهم على بعض أبناء أسرهم ومللهم . ومن الجدير بالتأمل أن كثيراً من الأسر النصرانية المنثورة في القرى العربية في بلاد الشام والعراق ومصر التي ظلت تحتفظ بدينها تتسمى بأسماء القسيس والخوري والراهب والشماس بما قد يكون فيه قرينة ما . وهذا ما كان مشهود الأثر منذ

عهد النبي ﷺ مما عبرت عنه آية التوبة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ .. ٣٤) .

وبعض المستشرقين ـ وهم على الأغلب استشرقوا للتبشير والتجسس إلا قليلاً ـ ممن كتب كتباً في الطعن في الإسلام زعموا أن النصارى الذين اعتنقوا الإسلام في القرون الأولى ، إنما اعتنقوه هرباً من الجزية ، وهذا هراء وتزييف . فالسلطان الإسلامي كان لايتقاضي من الذمي غير الجزية مقابل حمايته وحريته ، وكان أعلى مقدار لها أربعة دنانير في السنة ، وتكون دينارين على المتوسطين وديناراً على الكسبة ، وكان الرهبان والنساء والأطفال والشيوخ وذوو العاهات معفيين منها ، وكان المسلم مكلفاً بالدفاع والزكاة ، فالمشقة على المسلم مادياً أشد منها على الذمي ، فليس من المعقول أن يفر من الأخف ليتحمل الأشد ، وكثرة النصارى من الصنفين الثاني والثالث ، فإذا كان الخلاص من دينار أو دينارين في السنة يحمل النصراني على التخلي عن دينه ، فيكون في ذلك دليل قوي على وهن هذا الدين وضعفه في نفسه .

ولقد انبرى غير واحد من الباحثين المخلصين الأجانب لهذه المسألة ، وأثبتوا زيفها ، وأثبتوا أن الإسلام إنما انتشر بالدعوة والتبشير وحسب .

- ١٤ -

وإذا كنا ركزنا كلامنا على أسباب تسيير جيوش الفتح الإسلامية إلى بلاد الشام ، فلا يعني هذا أن تسيير جيوش الفتح إلى العراق ومصر وشمال إفريقية ثم إلى بلاد الفرس والترك لم يكن لأسباب مسوغة وفي نطاق مبادىء الجهاد الدفاعية .

فالروم نقلوا نشاطهم الحربي والسياسي بعد اندحارهم عن بلاد الشام بما فيها فلسطين إلى مصر ، وأخذوا يستعدون للكرة براً وبحراً ، فصارت المصلحة تستدعي مطاردتهم فيها وتطهيرها منهم ، ولما تم ذلك نقلوا نشاطهم الحربي والسياسي إلى شمال إفريقية ، وأخذوا يستعدون للكرة أيضاً ، فطاردهم المسلمون فيه ليطهروه منهم .

ولقد كان الإسلام أخذ ينتشر في أطراف العراق والخليج العربي في زمن النبي ﷺ ، فتصدت السلطات الفارسية لتعطيل انتشاره ومطاردة المسلمين في هذه البلاد ، وإثارة الفتنة على الإسلام عقب وفاة النبي ﷺ ، فقامت بذلك حالة الحرب بين المسلمين والفرس ، وكان ذلك من موجبات أمر الخليفة أبي بكر لخالد بن الوليد رضي الله عنهما بالسير نحو العراق بعد انتهائه من حروب الردة في اليمامة لمعالجته هذا الأمر ، ثم الاتجاه إلى الشام ، فلما طال الأمر عليه ، أرسل الخليفة جيوشاً مستقلة إلى بلاد الشام ، وظل خالد يعالج الأمر حتى تمكن من تقويض السلطان الفارسي عن العراق العربي . ولم يرض الفرس بما وقع حيث أخذوا يستعدون للكرة على المسلمين فاتصلت وقائع الحرب بين الفريقين إلى النهاية .

ولقد استنصر ملوك الفرس في بعض مراحل الحرب بخاقانات الترك ، وجاء هؤلاء لنصرتهم ، فقامت حالة الحرب بينهم وبين المسلمين بدورهم ، ونقل المسلمون نشاطهم الحربي بعد تقويض مملكة كسرى إلى بلاد الترك ، وتمكنوا من توطيد سلطانهم عليها بدورها ، ومن ثم تسنى للدعوة الإسلامية أن تنطلق حرة بدون معارضة وصد ، وأن يستجاب إليها من قبل أهل بلاد الفرس وخراسان والديلم والأكراد والأذربيين والترك والتتر والأفغان والسند حتى كادت تعمها خلال القرنين الأول والثاني من الهجرة ، ثم أخذت تمتد إلى بلاد الهند والصين والأرخبيل الماليزي العظيم (ماليزيا وأندونيسيا) عبر القرون حتى صار الإسلام الدين الغالب لمعظم هذه البلاد ،

وصار عدد معتنقيه في الشرق الأقصى والأوسط البعيد نوعاً ما اليوم نحو ثلاثمائة وخمسين مليوناً ، أي : أكثر من نصف مجموع المسلمين .

ومن الجدير بالذكر أن الإسلام استمر ينتشر في هذه البلاد في ظرف ضعف السلطان الإسلامي بقياس واسع بالدعوة والتبشير ، وكان حظه في قارة إفريقية كذلك بما فيه من ناحية ما رد على افتراء المفترين عليه .

ومن هذا العرض يبدو زيف دعوى الخوري الحداد ، وحقيقة كون انتشار الاسلام خارج الجزيرة وبين غير العرب إنما كان بالدعوة التي بدأها النبي ﷺ ، لأن ذلك من صميم رسالته ، وباقتفاء خلفائه بعده أثره وتوجيهه لأن ذلك من صميم واجبهم .

خامساً :

زعم بدائية الدعوة الإسلامية وسلبيتها ومزاعم أخرى

- ١ -

يكرر الخوري الحداد في أكثر من موضع من كتبه وصف الدعوة الإسلامية بالبدائية معللاً ذلك بالبيئة البدوية التي انبثقت فيها ، وقد أورد للدلالة على زعمه آية سورة الإسراء هذه (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) وقال : إن في الآية إعلاناً قرآنياً بأنه لاينبغي أن يطلب من القرآن أكثر مما تستوعبه بيئته البدائية البدوية .

وغثاثة الاستدلال وتفاهته واضحة ، فما جاء في الآية يصح أن يقال لأرقى الناس في أرقى المجتمعات الحضارية بالنسبة لأسرار كون الله وعلمه ، وبنوع خاص بالنسبة للأمر المسؤول عنه ، سواء أكان هو نسمة الحياة التي يكون الحي بها حياً كما يقول بعض المفسرين ، أم كان الوحي الذي ينزل بالقرآن كما يقول مفسرون آخرون استدلالاً من الآيات التي تصف الذي كان ينزل بالوحي القرآني على النبي ﷺ بالروح ، وبالروح القدس ، وبالروح الأمين ، كما جاء في آية سورة النحل هذه (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) وآيات سورة الشعراء هذه (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ ..) .

- ٢ -

وليس في الآية التي أراد الاستدلال بها على بدائية الدعوة وبدائية البيئة أي دليل على ما أراد موضوعياً ، وقد أعماه هواه وصفاقته ورغبته في التجريح والتهوين عما في القرآن المكي من الدعوة إلى كل ما فيه سمو في الأهداف ، وضمان لسعادة البشر ، وسلامتهم وخيرهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة ، وتوطيد لأسس قيام أفضل المجتمعات الإنسانية على أرقى درجات الحضارة من مختلف جوانبها .

والقرآن بين أيدي الناس ، وتصفح السور المكية فيه أي التي نزلت في بيئة الإسلام الخاصة الأولى كفيل بإبراز كل ذلك وإثبات كون الدعوة الإسلامية التي يمثلها جديرة بأفضل الصفات السامية الرفيعة .

ففيها الدعوة إلى الله تعالى وحده دون ما شائبة ، وإلى نبذ كل القوى الأخرى التي تكبل الإنسان ، وتجعله يشركها مع الله ، وتقرير حرية التدين ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وترك الناس وشأنهم ما داموا مسالمين للإسلام والمسلمين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وعن الظلم ، والبغي ، والتكبر ، والخيلاء ، والفساد ، والكذب ، والغدر ، وحل الطيبات ، وتحريم الخبائث ، وتخفيف التكاليف الشاقة ، وعدم تكليف الناس بما لا يطيقون ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإقامة المجتمع على أساس الشورى ، والصبر والصدق ، والعدل والرحمة والحق ، والانتصار من البغي والظلم ، والعفو عند المقدرة ، والتواصي بالصبر ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالمرحمة ، والبر بالفقراء والمساكين ، وحماية اليتيم ، وعدم العدوان على مال الغير ودمه وعرضه ، وتحرير العبيد وعدم مسؤولية أحد عن خطأ غيره ، وعدم التكالب على المال واكتنازه وإمساكه عن المحتاجين ، والاعتدال في المأكل والمشرب ، وتجنب الموبقات وعدم البخل والتقتير والتبذير والإسراف ، وإعطاء كل ذي حق حقه ،

والوفاء بالوعد والعهد ، وإبراز مركز المرأة كإنسان له من الحقوق وعليه من الواجبات ما على الرجل ، وجعل الحياة الزوجية قائمة على المودة والرحمة والحث على العمل وابتغاء فضل الله ، والضرب في مناكب الأرض ، وإباحة الاستمتاع بزينة الله وطيبات الحياة بالحلال ، والقصد والاعتدال ، والحث على العلم والتعلم ، واستعمال العقل ، والانتفاع بما في كون الله من نواميس والتدبر فيها ، وفيه من التلقينات والأمثال والمواعظ والمبادىء الاجتماعية والإنسانية والعقلية والسلوكية والسياسية ما يمد الإنسان بأحسن المثل والقواعد التي تكفل له ، وللمجتمع الإنساني السعادة والقوة والعزة والكرامة والرفاه والسداد والصلاح ، والتلاؤم مع كل زمن ومكان وظرف وجنس ولون . وكل ذلك بأروع أسلوب وأشمله ، وأشده نفوذاً إلى القلوب والعقول والضمائر . وشواهد كل ذلك مبثوثة في مختلف السور المكية قصيرها ومتوسطها وطويلها ، يفهمها ويدركها أوساط الناس فضلاً عن نبهائهم .

فهل من سخف أشد من زعم كون الدعوة الإسلامية في العهد المكي بدائية ، وهل من شاهد أعظم من نصوص السور المكية المبثوث فيها كل تلك الشواهد على أن القرآن وحي من الله تعالى العليم بكل حاجات ومطالب ومصالح البشر في جميع أدوارهم وأطوارهم وظروفهم ، الحكيم الذي يهدي إلى كل ما فيه الحق والخير والصواب والسعادة والطمأنينة والنجاة في الدنيا والآخرة إلى رسوله محمد ﷺ ، ليكون فيه لجميع البشر من كل جنس ولون ، وفي كل دور وطور وظرف الهدى والرحمة والبينة والذكرى ؟

- ٣ -

ولا يمنع هذا القول من التنبيه على أن الحوري يقع في خطأ مقصود أم غير مقصود حين يزعم أن البيئة المكية كانت بدائية ، ويبني على خطئه هذا ذلك الزعم السخيف الذي تكذبه شواهد القرآن المكي .

ولقد رأينا الحوري ينقل كثيراً من كتابنا « عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة » وكان يجب عليه أن ينتبه إلى ما في الكتاب من الدلائل الكثيرة الدالة على عدم صحة زعم بدائية أهل مكة الذين كانوا أولى المخاطبين بالدعوة ، وبالتالي بدائية بيئة الدعوة ، بل وعلى أنهم كانوا على درجات متقدمة في سلم الحضارة معيشة وترفاً وثقافة ونشاطاً عقلياً وأدبياً واقتصادياً واجتماعياً ، ومعارف متنوعة تاريخية وجغرافية وملاحية وفلكية وطبية ودينية .

ولقد كانوا على صلة وثيقة بالبلاد المجاورة لهم شمالاً وشرقاً وجنوباً ، أي : بلاد الشام ، والعراق وفارس واليمن ومصر والحبشة ، ولقد كان يعيش بينهم جاليات كتابية ، منهم من كان ذوي علم راسخ ، وكانوا يعرفون أخبار وأحوال أهل هذه البلاد الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وما عندهم من كتب ومعارف وصناعة ، وماهم عليه من خلافات وتعدد مذاهب ونحل . وكانت لغة القرآن هي لغتهم ، وناهيك بلغة القرآن حسن أداء ، ودقة استعمال ، وعمق نفوذ ، وجودة سبك وأسلوب ، وغزارة مادة ، وتفنناً في الأساليب الكلامية ، وقواعد وضوابط نحوية وصرفية مما لم تكد لغة أخرى تبلغ مبلغه قديماً بل وحديثاً . وفي كتابنا المذكور دلائل كثيرة على أن القراءة والكتابة كانتا منتشرتين بينهم بمقياس غير ضيق ، وفي القرآن حكاية الكثير من مواقفهم تدل على ما كانوا عليه من قوة العقل ، وشدة الخصومة والجدل ، وسعة الاطلاع والتجارب الاجتماعية وغير الاجتماعية ، وكل هـــذا مفصل في فصول كتابنا المذكور .

فتجاهل الحوري لكل ذلك مع اطلاعه عليه ، ووصفه بيئة مكة بالبيئة البدائية عجيب يدل من دون ريب على قصد تزييف الواقع الصارخ فضلاً عما يدل عليه من غباء وسذاجة وتفاهة وصفاقة ومكابرة .

ولقد اقتصر الحوري في وصفه الزائف لبدائية البيئة وبدائية الدعوة القرآنية تبعاً لها على مكة والعهد النبوي المكي . ولا ندري هل يريد أن يقول : إن وصف البدائية للبيئة والدعوة القرآنية لا ينطبق على القرآن المدني والعهد النبوي للمدني . منطلقاً من تصور كون بيئة المدينة أرقى حضارة وثقافة من بيئة مكة بسبب وجود كتلة من بني إسرائيل فيها ؟ فإذا كان هذا هو تصوره ومنطلقه ، فهو فيهما متهافت أيضاً ، فما في القرآن المكي من الدلائل الدالة على رقي بيئة مكة في سلم الحضارة كاف لنسف زعمه .

ولقد كانت بيئة المدينة زراعية في حين كانت بيئة مكة تجارية ، وهذا مما فيه فرصة لتفوق مكه حضاريا على المدينة ، وهو ما كان واقعاً فعلاً .

ولقد كانت مكة موطن الحج الذي كان عاماً يفد إليه الناس من كل صوب من جميع أنحاء جزيرة العرب ، ومن خارجها على اختلاف منازلهم ونحلهم وثقافاتهم ، وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والعقلية والأدبية ، وكانت تقام في موسمه الأسواق التجارية ، والمجالس الأدبية والشعرية والخطابية والقضائية ، وكان كل هذا مما يضمن لأهل مكة تفوقاً في النشاط والاتصال والأفق والتجارب والمعرفة .

ولم تكن مكة خالية من الجاليات الكتابية كما قلنا قبل ، فليس من شأن وجود كتلة من بني إسرائيل في المدينه أن يجعل بيئة المدينة متفوقة في الحضارة والثقافة على بيئة مكة .

ومع ذلك فإن الذي ينعم النظر في محتويات القرآن المكي والمدني ، ويقارنها ببعضها لايجد - باستثناء بعض التشريعات والأجوبة والتوضيحات

والأحداث والوقائع التي كانت متساوقة مع ظروف العهد المدني ومع تنوع الفئات والميول والتطورات المدنية والسياسية والاجتماعية في هذا العهد - شيئاً جديداً ، ويجد أن ما في القرآن المدني من مبادىء وخطوط وتلقينات وأوامر ونواه ومباحات ومحظورات ، بل وتشريعات ليس جديداً ، ويجد مثله في القرآن المكي بأسلوب ما أو يجد له فيه نواة وأساساً ، بحيث يظهر بهذا تساوق القرآن وتناسقه وترابطه وتلاحقه بقطع النظر عن ظروف نزوله المكي أو المدني . وهذا فضلاً عن أن القرآن المكي والقرآن المدني يمثلان كتاب الله ودينه ورسالة رسوله محمد ﷺ ، وكل منهما متكامل يتمم بعضه بعضاً ، ويربط بعضه ببعض ، ويوضح بعضه بعضاً دون تناقض ولا تغاير ولا تخالف . وصدق الله العظيم (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [1]. لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ..) [2] .

ونقول استطراداً : إن الإعجاز القرآني الذي فيه دليل على كون القرآن وحياً ربانياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يوجد فيه اختلاف ليس متمثلاً في هذا الأمر فقط ، بل هو متمثل في كل موضوع قرآني . وقد يحلو لبعض المبشرين والمستشرقين أن يدعوا أن في القرآن تناقضاً واختلافاً ، وقد يبدو لبعض المسلمين بل ولعلمائهم أحياناً إشكال ما يوهم شيئاً من ذلك أيضاً بسبب ما في بعض الآيات من إطلاق أو تخصيص ، أو خطاب أو موقف ، أو أمر أو تنبيه ، أو تقرير أو صورة فيها في الظاهر مباينة لما في بعض الآيات الأخرى من ذلك . غير أن هذا الإشكال يزول حينما ينظر المرء إلى القرآن ككل متكامل يفسر

(١و٢) آية سورة النساء المدنية (٨٢) . آية سورة فصلت (٤٢) المكية .

بعضه بعضاً ، ويوضح بعضه بعضاً ، ويتمم بعضه بعضاً . بحيث لا يوجد آية ما فيها إشكال أو وهم إشكال ومباينة إلا جاء في سياقها أو في آية أخرى في سورتها ، أو في سورة أخرى ما يزيل ذلك الإشكال ، أو وهم الإشكال والمباينة . ولو أردنا التمثيل لطال النفس كثيراً ، وقد اهتممنا لهذا الأمر وتتبعناه في تفسيرنا الحديث ، ونرجو أن نكون في ذلك قد وضعنا الأمر في نصابه الحق .

وآية النساء المذكورة وآية فصلت التي أوردناها معها يتضمنان تقريراً توكيدياً لهذا الإعجاز القرآني من حيث كونها احتوتا نفياً ربانيا للاختلاف في القرآن ، ومن حيث أن هذا النفي لا يمكن إلا أن يكون صادقاً كل الصدق وحقاً كل الحق ، وأن هذا يعني أن القرآن كل يتمم بعضه بعضاً ويوضح بعضه بعضاً ، ويصدق بعضه بعضاً ، وأن ما قد يوهم إشكالاً أو وهماً أو غموضاً في مكان جاء في مكان آخر ما يزيل ذلك . ويظهر أن الخوري الحداد ارتاع من آية النساء ، لأنه وجد فيها استدراكاً ربانياً محكماً ينفي أي اختلاف وتباين في القرآن ، فلم يسعه إلا أن يقول : إنها مقحمة تهرباً مما فيها من منع ونفي وإفحام وتقرير إعجازي لكل من يدعي خلاف ذلك ويتمحل به ، كما هو شأنه في كل ما يراه مفحماً لدعاويه الباطلة المتهافتة دون تورع ولا حياء ولا أدب مما شرحناه في مناسبة سابقة .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى السياق فنقول : إن للخوري دعوى فاقعة في التدليل على كون الدعوة الإسلامية بدائية بأن ذلك هو المتناسب مع بدائية البيئة التي انبثقت فيها في حين أنه انطوى في العقيدة المسيحية معان فلسفية راقية ، لأن ذلك هو المتناسب مع درجة الحضارة المتقدمة التي كانت عليها البيئة التي انبثقت فيها .

والمتبادر أنه قصد بذلك بنوع خاص عقيدتي التثليث والفداء .

ولقد كشفنا زيف زعمه من بدائية بيئة مكة ، ومن بدائية الدعوة الإسلامية ، ونعتقد أن الحوري إنما لجأ إلى تلك الطريقة الفاقعة لتغطية ما في العقيدتين من غرابة وألغاز جعلت الأكثرية الساحقة من المتسمين بالسمة النصرانية ملحدين موضوعياً ، أو في فراغ غير قابل للسد والفهم ، أو تهرباً مما ثبت لدى كثير من الباحثين من أصولها الوثنية القديمة . ونحب أن نقف هنا عند هذا الحد ، لأن ما نكتبه هو رد على تخرصات الحوري في القرآن والدعوة الاسلامية ، ونرى أن نبقى في نطاق ذلك ، وندع زعم الحوري في العقيدة المسيحية لكل عاقل منصف لا يعميه الهوى ، ولا يستسلم للفراغ من أبناء ملته وغيرهم . ولا نشك في أن هؤلاء سوف يرون اذا دققوا في الوقائع والحقائق المعروفة المشهورة ما لا يحب الحوري أن يروه ، وما يعمل جاهداً لحجبه عن بني ملته بالهراء والترهات والإفك والبهتان .

- ٦ -

ويصف الحوري الدعوة الاسلامية في مكة بالاضافة إلى وصف البدائية بوصف السلبية أيضاً ، ويشير في معرض التدليل على ذلك إلى كثرة ما في القرآن من نفي الشرك ، وتقرير أن لا إله إلا الله وقال : إن في ذلك اعلاناً عن وحدانية الله أكثر مما هو كشف عن حياة الحي القيوم في ذاته السرمدية .

ومن عجيب أمر الحوري أن هذا الذي ينكره على القرآن المكي ويرى فيه مأخذاً ، ويحاول تهوين أمر الدعوة الإسلامية ووصفها بالسلبية بسببه قد تكرر بكثرة في (كتابه المقدس) الذي يحتوي على أسفار العهدين القديم والجديد معزواً إلى الله تعالى ورسله ، ومن ذلك كثرة النهي والتحذير عن إشراك أي شيء مع الله ، وعن اتخاذ الأصنام والتقرب لغير الله ، وتدمير كل أمة مشركة وثنية ، وعدم التعاهد والتعامل والتعايش

معها ، بل وعدم دعوتها إلى دين الله ، وهذا بخاصة بما ورد في أكثر من سفر من أسفار العهد القديم .

ومع ذلك فإن لكثرة نفي الشرك وتقرير أن لا إله إلا الله في القرآن المكي حكمة أو سراً متصلاً بظروف نزول القرآن أيضاً . ولا نعتقد أن ذلك يفوت الحوري وإنما تجاهله عمداً ، فقد كان الشرك هو السائد في أوساط العرب حيث كانوا يعترفون بالله تعالى خالقاً بارئاً رازقاً مدبراً محيطاً بكل شيء ، وقادراً على كل شيء ، ومالكاً لكل شيء ، ولكنهم كانوا يقيسون على شؤون الدنيا ، فيرون أنه لا بد لهم من وسائل وشفعاء يقربونهم إليه ، ويضمنون لهم عنده قضاء مصالحهم ومطالبهم ، وكان هؤلاء هم الملائكة ، ولقد اعتقد العرب أنهم بنات الله ، وذوي الحظوة لديه ، فصاروا يشركونهم معه في الدعاء ، ويقربون لهم القرابين عند أوثان وأنصاب اتخذوها رموزاً لهم مما يمثله آيات قرآنية مكية عديدة منها هذه الآيات :

١ ـ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنا عِنْدَ اللهِ .. [يونس : ١٨] .

٢ ـ أَلا للهِ الدِّينُ الخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللهِ زُلْفَى .. [الزمر : ٣] .

٣ ـ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ. أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالبَنِينَ .. [الزخرف : ١٥و١٦] .

٤ ـ وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ . وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .. [الزخرف : ١٩ و ٢٠] [1] .

(١) هناك آيات أخرى يمكن أن تساق من هذا الباب فاكتفينا بما أوردناه .

فكانت الدعوة إلى الله وحده من أهم أهداف وأساليب الدعوة القرآنية في مكة ، وهذا لا يصح أن يعد سلبياً ، وإنما هو مقتضى الظرف القائم . وفي القرآن من أسماء الله وأوصافه ونعمه وأفضاله وعظيم قدرته وإحاطته وعلمه ما فيه كل الإيجابيـة ، فهو العليم الحكيم البصير السميع الرقيب الحي القيوم المدبر الرحيم الرحمن الهادي الغفور الرحيم الودود الغني البر الجبار المنتقم رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ، ورب الأكوان ومبدعها الأبدي السرمدي . وهذه بعض آيات مكية على سبيل المثال فيها تقرير لبعض ذلك ، وفيها بالتالي كل الإيجابية في صدد الذات الإلهية :

١ - أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ . وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمواتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .. [الأنعام : ١ - ٣] .

٢ - ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ .. [الأنعام : ١٠٢ و ١٠٣] .

٣ - إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ .. [الأعراف : ٥٤] .

٤ - قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ .

فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون . كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون . قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون .. [يونس : ٣١ – ٣٥] .

٥ – ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون .. [القصص : ٨٨] .

٦ – ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم .. [الشورى : ١١ و ١٢] .

٧ – كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن . فبأي آلاء ربكما تكذبان .. [الرحمن : ٢٦ – ٣٠] .

وأما عدم كشف القرآن عن الحي القيوم في ذاته السرمدية على حد تعبير الخوري ، فليس مما يصح أن يوصف بالسلبية ، لأن ذلك ممتنع ، وقد وصف الله تعالى نفسه بوصف (لاتدركه الأبصار) و (ليس كمثله شيء) .

والخوري لابد من أنه يسلم بذلك في قرارة نفسه ، ولكنه يماحك في الكلام للتجريح والتهوين ، وإن الله لراد كيده إلى نحره .

والسلبية لاينبغي أن تقتصر في مداها على نفي غير الله كما يوهم الحوري أو يتوهم ، ولها معنى في شؤون الدنيا والدين أو شؤون الإنسانية المتنوعة .

والقرآن المكي يحتوي من الإيجابية في هذه الشؤون ما فيه الشمول والسموّ والاستجابة لكل مطلب في أعلى الذرى مما ذكرنا ثبتـــاً له في البحث السابق .

وإذا كان يريد الحوري في قصر وصف الدعوة القرآنية في مكة بالسلبية على العهد المكي والقرآن المكي ، فإننا نقول ما قلناه في صدد زعمه الزائف ببدائية الدعوة في مكة ، فإنه ليس في القرآن المدني أمر متصل بالعقيدة ، أوالشؤون المتنوعة الأخرى مما يمكن أن يوصف بالإيجابية إلا وله صورة أو نواة أو أساس في القرآن المكي حيث يبدو زيف دعواه بالمقارنة من هذه الزاوية أيضاً ، والقرآن كما قلنا قبل في متناول كل الناس ، وما نقوله هو من حقائق القرآن التي لاتتحمل مراء ، والتي لايدعي عكسهـا إلا جاهل أو مكابر .

- ٧ -

ويصف الحوري الدعوة الإسلامية في مكة بأنها عملية أكثر ممـا هي فلسفية وأخلاقية ، لا عقائدية ولا لاهوتية .

وهذا الكلام سفسطة وهذيان ، وهدفه الوحيد هو التعريض بالقرآن والدعوة المحمدية والتهوين وحسب .

فالقرآن ليس كتاب فلسفة ولا لاهوت ، وإنما أنزله الله على رسوله ليكون كتاب هداية للناس إلى صراطه المستقيم ، وفيه بيان لأسبـاب نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة وإنذارهم وتبشيرهم كما جاء ذلك في آيات مكية كثيرة منها على سبيل المثال ما يلي :

١ – قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .. [الأنعام : ١٩] .

٢ – وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .. [الأنعام : ٩٢] .

٣ – المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ .. [الأعراف : ١ – ٣] .

٤ – الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ .. [ابراهيم : ١–٣] .

٥ – تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .. [النحل : ٦٣ و ٦٤] .

٦ – وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ . إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

وَالإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي القُرْبى وَيَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ .. [النحل : ٨٩ - ٩١] [١] .

وليس القرآن ولا نبي القرآن في هذا بدعاً ، فهو ماثل في ما يجوز أن تكون حكاية نسبته صحيحة إلى الله ورسله في كتاب الحوري المقدس أي أسفار العهد القديم والجديد ، وهو جوهر وهدف وحكمة إرسال الله الرسل وإنزال الكتب عليهم ، وقد جاء في القرآن على أقوى ما يكون من عمق وسعة وشمول ونفوذ ، لأن الله قد رشحه ورشح ما فيه من شرائع وحكمة وتبيان ليكون كتاب البشر جميعهم وشرائعهم والحكمة التي يهتدون بها والتبيان الذي يستبينون به الحق من الباطل والهدى من الضلال أبد الدهر . ومن عجيب هذيان الحوري أن يقول : إن الدعوة الإسلامية في مكة لا عقائدية ولا لاهوتية وهو يقرأ في القرآن تقرير عقيدة الله ووحدانيته وربوبيته بدون ما شائبة ومشاهد عظمته وأبديته وسرمديته التي يتمثل فيها وجوب وجوده بالأسلوب النافذ القوي الذي من شأنه أن يستحوذ على القلوب والعقول والضمائر .

- ٨ -

والحوري يصف الدعوة القرآنية في مكة بأنها إصلاحية محلية لا إنشائية ، وإنها لم تكن لتتجاوز أكثر من شعائر عملية زهدية في شكل صلوات وامتناع اختياري عن الطعام والشراب وأعمال خيرية لم تحدد كيفياتها .

أما أن الدعوة في مكة كانت إصلاحية فهذا حق ، وهو هدف رسالات الرسل ، وقد كان ذلك صفتها المستمرة في العهد المدني أيضاً ، وأما أنها

---

(١) هذه الآيات أمثال كثيرة في القرآن المكي فاكتفينا بما أوردناه .

كانت محلية وليست إنشائية ، فهذا ما تكذبه نصوص القرآن المكي الذي هو في متناول جميع الناس .

فليس من منصف عاقل مهما كانت نحلته يستطيع أن يكابر إذا ما تمعن في هذا القرآن أنه قد احتوى على تعاليم ووصايا وخطوط ومبادىء وقواعد وتلقينات فيها أقوى معاني الانتشائية والشمول والعموم والامتداد والاستمرار والإنطباق على كل ظرف ومكان أبد الدهر ، مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعدل والإحسان ، والوفاء بالوعود والعهود ، وإحلال الطيبات ، وتحريم الخبائث ، ورفع الإصر والأغلال والتكاليف الشاقة التي كان ينوء بها أهل الملل الكتابية السابقة بخاصة ، والتكافل والتضامن والتعاون الاجتماعي المتمثل بالتواصي بالحق والصبر والمرحمة ، والتعاون على البر والتقوى ، وحماية اليتيم ، والبر بالفقراء والمساكين ، وتعيين قدر معين في أموال الأغنياء للمحتاجين ، وجعل المرأة على قدم المساواة مع الرجل في الحقوق والواجبات الدينية والمدنية والمجتمع ، وتوطيد الحياة الزوجية على أساس المودة والرحمة ، والحث على العمل والضرب في مناكب الأرض ، وابتغاء الرزق ، والكسب الحلال ، وتقرير مسؤولية المرء عن عمله في الدنيا والآخرة ، وعدم أخذ أحد بجريرة أحد ، وعدم تكليف الناس إلا وسعهم وما هو في طاقتهم ، وإباحة الاستمتاع بطيبات الدنيا وزينتها مع القصد والاعتدال ، وإباحة مقابلة العدوان بمثله ، والانتصار من البغي والظلم ، وجعل الأمور شورى ، والحض على عتق الرقاب ، والوفاء بالكيل والميزان ، وعدم الغش فيهما ، والصدق في القول والعمل ، والصبر على الشدائد ، وأخذ الأمور بالرفق ، والتواضع ، وعدم التدخل بشؤون الغير والتجسس عليهم ، وإكرام الآباء ، والبر بالأقارب ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، والتنديد بالطغيان والفسق

والبخل والخيلاء والتكبر والتجبر والنفاق والرياء والكذب والفساد والإسراف ، ومنع الخير ، والزنا ، وأكل مال اليتيم ، وشهادة الزور ، والتبذير ، وقتل النفس بغير حق ، والحسد ، والشره إلى ما في أيدي الغير ، وحظر كل ذلك ، وإنذار مقترنه مع الوعد المتكرر بنصر الله لرسله وللمؤمنين في الدنيا والآخرة .

وكل هذا مبثوث في السور المكية التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل بكثرة تغني عن التمثيل ، ويقع عليه متصفح المصحف بيسر وسهولة ، والتعامي عنه ووصف الدعوة الإسلامية بالمحلية وعدم الإنشائية مكابرة صارخة لا تكون إلا من الحوري وأمثاله ، لأنه أذكى من أن يفوته ذلك ولكنه اتخذ هواه إلهاً له عن علم وبينة فضلَّ ضلالاً بعيداً .

– ٩ –

ويقول الحوري إن الدعوة الإسلامية في مكة كانت أخلاقية لا تشريعية .

والحق في هذا الأمر هو أن الأسلوب التشريعي في القرآن كان من خصائص العهد المدني ، وبالتالي من خصائص القرآن المدني ، لأن السلطان مناط التشريع ، ولم يكن النبي ﷺ ذا سلطان في مكة ، وبناء على ذلك كان الأسلوب القرآني المكي في صدد مبادىء الدعوة وأهدافها وأخلاقياتها وواجباتها وأوامرها ونواهيها أسلوب حض وتنويه وترغيب وتحذير ونهي وإنذار أكثر منه أسلوب تشريع وتقعيد وتقنين .

على أن هناك ما يحسن التنبيه عليه في صدد محتوى وأسلوب القرآن المكي ومقارنته بمحتوى القرآن المدني :

فأولاً ان الصلاة والزكاة مُورِستا في مكة كفرضين تشريعيين بإلهام رباني وأمر نبوي ، وقد احتوى القرآن المكي منذ بدء التنزيل تنويهاً بممارسة

المسلمين لها، واستمر ذلك في مختلف أدوار التنزيل في مكة، ولقد كان تشريعها سائغاً، لأنه كان ممكن التنفيذ والالتزام من قبل المسلمين، ولا يحتاج إلى سلطان، ويكفي فيه الإيمان بالله ورسوله. ويلحظ فقط شيء من الفرق في الأسلوب، ففي القرآن المكي تنويه وحث كالذي جاء مثلاً في آيات سورة الأعلى هذه والسورة من أبكر ما نزل من القرآن (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى .. ١٤ و ١٥) وفي آيات سورة النمل هذه (طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ. هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .. ١-٢) وهناك آيات كثيرة من هذا الباب، وفي سور المعارج والذاريات والأنعام آيات تلهم بقوة أن النبي ﷺ بإلهام من الله قد فرض مقادير معينة على أموال المسلمين كزكاة. وهي هـــذه:

١ - وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ.. [الأنعام: ١٤١].

٢ - كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ .. [الذاريات: ١٧ - ١٩]

٣ - إِلَّا الْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ. وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ.. [المعارج: ٢٢-٢٤].

ومن المحتمل أن النبي هو الذي كان يأخذ من أصحابه زكاة أموالهم وزروعهم، ويصرفها على فقراء المسلمين ومصلحة الدعوة، ومن المحتمل أنه

كان يأمرهم بصرفها أيضاً ، وعلى كل حال فالصلاة والزكاة كانتا مشرعتين في العهد المكي .

والوضوء والاغتسال من الجنابة من أركان الصلاة . وتشريعها في السور المدنية ، من ذلك آية سورة المائدة هذه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرجلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ وإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .. ٦) . وفي سورة النساء المدنية هذه الآية أيضاً (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتم سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً ٤٣) .

غير أن هناك آثاراً متواترة تفيد أن الوضوء للصلاة والاغتسال من الجنابة كانا ممارسين في مكة بإلهام الله وتشريع النبي ﷺ .

وطهارة الثياب أيضاً من أركان الصلاة ، وفي سورة المدثر المكية التي هي من أبكر السور نزولاً آية تأمر النبي بتطهير ثيابه (وثيابك فطهر) فيكون هذا تشريعاً له وللمسلمين بذلك .

وستر العورة من أركان الصلاة أيضاً ، وفي سورة الأعراف المكية آية أجمع المفسرون على أنها بصدد إيجاب ستر العورة وعـــدم أداء الصلاة

وطقوس الحج في حالة العري وهي (يَابَني آدَمَ خُذُوا زِينتِكُم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِب المُسْرِفِينَ .. ٣٣) فيكون هذا تشريعاً .

ثانياً إن صيام رمضان هو تشريع مدني حقاً ، غير أن هناك آثاراً تفيد أن أهل مكة كانوا يصومون يوم تجديد ستار الكعبة الذي كان يصادف العاشر من المحرم ، وأن النبي كان يصومه ، وأن هناك آثاراً تفيد أن النبي كان يعتكف في غار حراء في رمضان قبل بعثته ، وأن بعض الورعين من أهل مكة كانوا يفعلون ذلك حيث يبدو أنه كان لرمضان مزية دينية ما وإن لم يكن معرفة مداها ، فأيد الله ذلك بتشريعه صيام رمضان ، وإنزاله القرآن فيه : (شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدى وَالفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .. البقرة : ١٨٥) .

وثالثاً نعتقد أن المسلمين كانوا يمارسون طقوس الحج لله مبرأة من شوائب الشرك وهم في مكة بإذن من النبي وتشريعه ، وأنه هو نفسه كان يمارسه بإلهام من الله ، وقد كان الحج طقساً موسمياً مهماً وعميق الجذور ، ومنسوب في أصله إلى إبراهيم وملته الحنيفية ، وفي القرآن تأييد ذلك جاء في سوره الحج التي يمكن أن يكون بعضها مدنياً وبعضها مكياً (وَإذْ بَوَّأْنا لأبْراهِيمَ مَكانَ البَيْتِ أنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ .

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ . ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ . ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ .. ٢٦ - ٣١) وإذا كانت هذه الآيات مكية وهو محتمل ، فيكون فيها دليل من القرآن على ما قلناه من ممارسة النبي وأصحابه طقوس الحج مبرأة من الشرك في مكة ، وإذا لم تكن مكية ، فلا يمنع ذلك من احتمال ممارسة النبي وأصحابه هذه الطقوس بإلهام رباني وهم يعرفون بالتداول أنها منسوبة إلى إبراهيم عليه السلام الذين هم على ملته الحنيفية .

ولقد كان من عمق جذور الحج ورسوخه عند العرب وحرصهم عليه أن خوفهم من إلغاء النبي له كان من أسباب انقباض بعضهم عن الإسلام رغم أنهم كانوا متيقنين من أن النبي ﷺ قد جاء بالهدى لأنهم كانوا يخافون من إلغائه أن يتعرضوا للأخطار وضيق الرزق ، ويستفاد هذا من آية في سورة القصص هذه التي فيها تطمين ببقاء الحج ومنافعه (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ .. ٥٧) .

رابعاً إن كثيراً مما ورد فيه تشريع في القرآن المدني قد ورد نواة له في القرآن المكي بأسلوب الحض والتنويه والنهي والتحذير والتبشير والترهيب . وهذه أمثلة على ذلك .

١ - إن القرآن المدني أمر النبي ﷺ بمشاورة أصحابه ، فصارت مشاورة رئيس الدولة المسلمين تشريعاً ، غير أن القرآن المكي احتوى تنويهاً أو وصفاً للمسلمين بأنهم أمرهم شورى بينهم ، والنقطة الأولى جاءت في آية سورة آل عمران هذه (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ .. ١٥٩) والنقطة الثانية جاءت في آية سورة الشورى المكية هـذه (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .. ٣٨) .

٢ - إن القرآن المدني كتب على المسلمين القتال ضد الذين يقاتلونهم ، ومقابلة العدوان بمثله في هذه الآيات (وَقَاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .. البقرة : ١٩٠) و (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .. البقرة : ١٩٤) و (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ .. البقرة : ٢١٦) و (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ .. الحج : ٣٩ - ٤١) وكل هذا تشريع مدني ، وفيه من الروعة ،

وبعد المدى ، والحكمة السامية ، والحق والعدل والتحديد ما يجعله تشريعاً إنسانياً خالداً ، وفي ذروة من السمو ليس بعدها شيء ، غير أن نواة ذلك قد ورد في آيات سورة الشورى هذه (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .. ٣٩ - ٤٢) وروعة الآيات وسموها وحكمة مداها مماثلة لما في الآيات المدنية .

٣ - والقرآن المدني احتوى تشريعاً بعقوبة الزنا بهذا النص (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ .. سورة النور : ٢) .

وهناك أحاديث نبوية مدنية فيها تتمات وتوضيحات لا يتسع المقام لها ، غير أن القرآن المكي قد نهى عن الزنا ، ووصفه بالذنب العظيم ، ونوه بالذين يجتنبونه ، وأنذر الذين يقترفونه إنذاراً رهيباً كما ترى في الآيات التالية :

١ - وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً .. [الإسراء : ٣٢] .

٢ - وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً .. [الفرقان : ٦٨ - ٧٠] .

٤ - والقرآن المدني شرع قصاص القتل في هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى .. ١٧٨) وهذه (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .. ١٧٩) .

وهناك أحاديث فيها تتات وتوضيحات لا يتسع المقام لها . غير أن القرآن المكي قد نهى عن قتل النفس بغير حق وجعل لولي المقتول حقاً بالقصاص ، وفي آيات سورة الفرقان التي أوردناها آنفاً شاهد ، وفي آية سورة الإسراء هذه شاهد آخر (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي القَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً .. ٣٣) [1] .

٥ – والقرآن المدني شرع عقوبة زاجرة للذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً في آية سورة المائدة هذه (إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ . ٣٣) غير أن القرآن المكي نهى وحذر من الإفساد في الأرض ، وندد بفاعليه في آيات عديدة منها هذه الآيات :

١ – وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها .. [الأعراف : ٥٦] .

٢ – وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدّارِ .. [الرعد : ٢٥] .

٣ – تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَساداً وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .. [القصص : ٨٣] :

٤ – أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي

---

(١) المفسرون يحملون جملة (فلا يسرف في القتل) على محملين كلاهما وارد ووجيه . فالأول أنها خطاب للقاتل المفروض عليه أن يتجنب القتل فإنه مأخوذ به . والثاني أنها خطاب لولي القتيل بأن لا يقتل أو يقتص من غير القاتل ، والثاني أقوى وروداً والله أعلم .

الأرْضِ أمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كالفُجَّارِ .. [ص : ٢٨] [١] .

٦ – والقرآن المدني أوجب على المسلمين أن يكون منهم جماعة يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويدعون إلى الخير ، كما جاء في آية آل عمران هذه (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ .. ١٠٤) غير أن نواة ذلك واردة في القرآن المكي ، ففي آية في سورة الأعراف جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مهمة الرسالة المحمدية وهي (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ في التَّوْرَاةِ وَالإنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ .. ١٥٧) وفي نفس السورة آية فيها أمر للنبي بأن يأمر بالعرف (وهي خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ..١٩٩) .

٧ – والقرآن المدني احتوى تشريعاً لأسرى الحرب ، والرق كان على الأعم الأغلب من أسرى الحرب ، واحتوى تشريعات للكفارات من جملتها عتق الرقيق ، وفي تشريع مصارف الزكاة المدني نصيب خاص لعتق الرقيق كما ترى في الآيات التالية :

١ – وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ .. [النساء : ٩٢] .

٢ – لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ في أيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أهْلِيكُمْ أوْ كِسْوَتُهُمْ أوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ .. [المائدة : ٨٩] .

---

(١) هناك آيات كثيرة في السور المكية تندد بالمفسدين والفساد في سياق قصص الأنبياء السابقين وأممهم أيضاً .

٣ - فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا .. [محمد : ٤] (١)

٤ - وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ .. [المجادلة : ٤] .

ولذلك كله نواة في القرآن المكي تتمثل في آيات سورة البلد هذه (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ . أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ .. ١١ - ١٨) .

٨ - والقرآن المدني احتوى تشريعاً يجعل نصيب من إيرادات الدولة من الزكاة والغنائم والفيء للمحتاجين كما ترى في الآيات التالية :

---

(١) في الآية ينطوي التشريع القرآني في صدد أسرى الحرب وهو المن وإطلاق السراح بعد الحرب بدون فداء أو بفداء حسب ما يراه ولي أمر المسلمين موافقاً للمصلحة الاسلامية . وهناك طريقان آخران من السنة النبوية وهما القتل والاسترقاق اذا ما كانت الظروف تقتضي ذلك ، وكان النبي يعمد إليها في حالة الضرورة القصوى وأكثر ما كان يطبقه الطريقتين الأوليين ، وفيها تمهيد وتوطيد لالغاء الرق الذي ينفذ به كما قلنا أسرى الحرب .

١ – وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى[1] وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ .. [الأنفال: ٤١] .

٢ – إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . [التوبة : ٦٠] .

٣ – مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ .. [الحشر : ٧][2] .

وفي القرآن المدني تشريع كفارات بإطعام المساكين أو كسوتهم كما جاء في آية المائدة (٨٩) وآية المجادلة (٤) التي أوردناها آنفاً .

وفي القرآن المكي أعير هـذا الأمر عناية خاصة بأسلوب الحض والترغيب الذي كان أسلوب العهد المكي ، وبكلمة ثانية له نواة وأساس في هذا القرآن كما ترى في الأمثلة التالية :

١ – وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً .. [الإسراء : ٢٦] .

٢ – فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .. [الروم : ٣٨] .

---

(١) يختلف المؤولون والرواة في تأويل الجملة وقد محصنا هذه المسألة في كتابنا «الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة » فترجح لنا أنها للمحتاجين من ذوي الخدمات النافعة للمسلمين والله أعلم .

(٢) الفرق بين الفيء والغنائم أن بيت مال المسلمين له خمس الغنائم وهذا الخمس هو الذي يوزع على ما جاء في آية الأنفال في حين أن جميع الفيء لبيت مال المسلمين ويوزع على ما جاء في آية الحشر لأن الغنائم تكون باشتراك المسلمين في المعركة والفيء يكون بدون حرب .

٣ - إنَّ المتَّقينَ في جنَّاتٍ وعُيُونٍ. آخذينَ ما آتاهُمْ ربُّهُمْ إنَّهُمْ كانُوا قبلَ ذلكَ مُحسنينَ. كانُوا قليلاً منَ الليلِ ما يهجعُونَ. وبالأسحارِ هُمْ يستغفرُونَ. وفي أموالِهِمْ حقٌّ للسَّائلِ والمحرُومِ.. [الذاريات: ١٥ - ١٩].

٤ - إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هلُوعاً إذا مسَّهُ الشرُّ كانَ جزُوعاً. وإذا مسَّهُ الخيرُ منُوعاً إلا المُصلِّينَ. الَّذينَ هم على صلاتِهِمْ دائمُونَ. والَّذينَ في أموالِهِم حقٌّ معلومٌ للسَّائلِ والمحرُومِ.. [المعارج: ١٩ - ٢٥].

٥ - إنَّ الأبرارَ يشربُونَ منْ كأسٍ كانَ مزاجُها كافُوراً. عيْناً يشربُ بها عبادُ اللهِ يفجِّرُونَها تفجيراً. يُوفُونَ بالنَّذرِ ويخافُونَ يوماً كانَ شرُّهُ مُستطيراً. ويُطعمُونَ الطَّعامَ على حُبِّهِ مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنَّما نُطعمُكُمْ لوجهِ اللهِ لا نُريدُ منكُمْ جزاءً ولا شُكُوراً. إنَّا نخافُ منْ ربِّنا يوماً عبُوساً قمطريراً. فوقاهُمُ اللهُ شرَّ ذلكَ اليومِ ولقَّاهُمْ نضرةً وسُرُوراً. وجزاهُمْ بما صبرُوا جنَّةً وحريراً.. [الانسان: ٥ - ١٢].

٦ - إلاَّ أصحابَ اليمينِ في جنَّاتٍ يتساءلُونَ عنِ المُجرمينَ. ما سلككُمْ في سقرَ. قالُوا لمْ نكُ منَ المُصلِّينَ. ولمْ نكُ نُطعمُ المسكينَ. وكُنَّا نخُوضُ معَ الخائضينَ. وكُنَّا نُكذِّبُ بيومِ الدِّينِ.. [المدثر: ٣٩ - ٤٦].

٧ - كلاَّ بلْ لا تُكرمُونَ اليتيمَ. ولا تحاضُّونَ على طعامِ المسكينِ.. [الفجر: ١٧ و ١٨].

٨ - آيات سورة البلد التي أوردناها قبل

٩ – فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ .. [الضحى : ٩ و ١٠] .

١٠ – أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ . وَلا يَحُضُّ على طَعامِ المِسْكِينِ .. [الماعون : ١ – ٣] .

٩ – والقرآن المدني حرم الربا بأسلوب ترهيبي تشـــريعي شديد كما ترى في الآيات التالية :

١ – الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ . وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .. [البقرة : ٢٧٥ – ٢٨٠] .

٢ – يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ

لِلْكَافِرِينَ .. [آل عمران : ١٣٠ و ١٣١] [١] .

وفي سورة الروم المكية هذه الآية (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ..) حيث احتوت الآية تنبيهاً إلى كراهيـة الله تعالى للربا جرياً على الأسلوب المكي ، وبكلمة ثانية أساساً ونواة لتحريمه ، فلما صار للنبي والإسلام سلطان في العهد المدني حرم بذلك الأسلوب الزجري القوي .

١٠ ـ والقرآن المدني حرم الخمر في آيات عديـدة بأسلوب تدريجي كما ترى في الآيات التالية :

١ ـ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما .. [البقرة : ٢١٩] .

٢ ـ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارَى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ .. [النساء : ٤٣] .

٣ ـ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّما الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ .. [المائدة : ٩٠و٩١] .

والقرآن المكي ليس فيه تحريم للخمر حقاً ، ولكنه نوه بميزة الخمر في الآخرة وهي عدم إيراثه الصداع والنزيف اللذين ينشآن من خمر الدنيا كما ترى في الآيات التالية :

---

(١) الرواة متفقون على أن هذه الآيات نزلت قبل آيات البقرة وبهذا يكون تحريم الربا تم تدريجياً ، حرم أكل الربا أضعافاً مضاعفة أولاً ، ثم حرم جنسه بالمرة كما هو شأن الخمر .

١ - إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ . أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ .
فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ .
يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ . لَا فِيهَا
غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ .. [الصافات : ٤٠ - ٤٧] .

٢ - وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . يَتَنَازَعُونَ فِيهَا
كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ .. [الطور : ٢٣ و ٢٤] .

٣ - يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ
مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ .. [الواقعة : ١٨و١٩] .

حيث يتبادر أن القرآن المكي نبه إلى تلك المزية وضررها في الدنيا ، وخلو الخمر الأخروي منها لتكون لذتها تامة ، وبالتالي نبه إلى كراهية الخمر في الدنيا .

وجل التشريعات المدنية التي ليس لها نواة في القرآن المكي هي في صدد الأحوال المدنية من زواج وطلاق وعدة وتوزيع إرث وبيان محرمات الأنكحة إلخ حيث اقتضى ذلك المجتمع الإسلامي الذي صار في نطاق الدولة مما لم يكن في مكة ، غير أن هذا لا يسيغ القول إن القرآن المكي والقرآن المدني كانا منفصلين في صدد الدعوة الإسلامية ومبادئها وقواعدها وتشريعاتها ، فالقرآن متكامل ، والمكي منه احتوى نواة جل مبادىء الدعوة وأهدافها بل كلها ، والمدني منه احتوى التوضيح أو الإقرار أو الإتمام .

هذا ، وقبل أن ننتهي من هذا المبحث نرى أن ننبه على ما وقع الخوري الحداد فيه من تناقض وتخبط ، فقد حاول بغباء وسخف وتهافت وغثاثة أن يضيق نطاق ومدى محتويات القرآن المكي ، ويهون من أمرها ويجعلها من مقتضيات البيئة المكية البدائية ومحصلة لها في حين أنه قد غالى غلواً فيه غباء وسخف وغثاثة في إسباغ الصبغة الكتابية اليهودية

النصرانية التوراتية الإنجيلية على القرآن المكي ورسول الله ﷺ حتى لم يخجل أن يقسم العهد المكي إلى دورين دور كانت المسيحية والإنجيل فيه هما الغالبان ، ودور كانت اليهودية والأسفار فيه هما الغالبان على القرآن وعلى الرسول ، ثم في زعم كون القرآن المكي ليس إلا نسخة عربية من الكتب المنزلة السابقة ، وأنه عالة عليها في قصصه وجدله ومواضيعه وأساليبه على ما شرحناه في النبذة (أولاً) مما يؤدي لو صحت مزاعمه هذه إلى القول : إن كل ما قرره من صفات الدعوة القرآنية المكية هي صفات ما يسميه (الكتاب المقدس)

ومهما يكن أمره ، فهو منسجم في موقفه على ما وقع فيها من تناقض وما اتصفا به من سخف وغثاثة مع الهدف الذي يستهدفه في كتبه ، والعنوان الذي وضعه لها (دروس قرآنية) وهو تفريغ القرآن الكريم من صفته الأصيلة ككتاب موحى من الله عز وجل على رسوله محمد ﷺ ، وكرسالة مستأنفة مستقلة فيها كل أسباب هداية البشر وسعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة ، وهو في ذلك أحمق مغرور تفقأ عينه الحقائق ، وتخرس شقشقته الحجج البالغة والنور السني . (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ) .

سادساً :

مزاعم الخوري الحداد في نظم القرآن

- ١ -

كتب الخوري فصلاً طويلاً في هذا الموضوع في الصفحات (٣١٧ - ٣٦٩) من كتابه الضخم رقم (٣) ثم رأى أن يكتب فيه كتاباً خاصاً فيه تفصيل أكثر فكتب كتابه رقم (٤) بعنوان (نظم القرآن والكتاب) وعلى الورقة الأولى من غلافه هذه العبارة أيضاً (الكتاب الأول إعجاز القرآن) وعلى الورقة الأخيرة من غلافه ما يفيـــد أن هناك كتاباً ثانياً تحت الطبع عنوانه (معجزة القرآن) حيث يبدو من ذلك شدة ما أعاره الخوري لهذه الناحية من القرآن الكريم .

ولقد حشا الخوري على عادته فصله في الرقم (٣) وكتابه رقم (٤) بالتمحل والتخرص والتعسف والتنطع وسوء الأدب معاً ، وعرض ماشاء من جمل آيات دون باقيها ومن آيات دون سياقها ليساوق كلامه مع هواه ، وفعل هذا فيما نقله من كلام علماء المسلمين وكتبهم حيث أورد منه ما شاء ناقصاً ومبتوراً وأهمل ماشاء لنفس القصد .

ولا نعرف هل صدر كتابه الثاني أم لا ، ولكنـــا نعتقد أنه لن يخرج في مداه وهدفه عن هذين الكـتابين ، فهو يكـرر ويجتر ما يقول بأساليب متنوعة ، توهماً بأن ذلك من شأنه أن يؤثر في القارىء ويستهويه .

وفيما يلي إيجاز لمزاعمه في مختلف مواضيع النظم القرآني وتعليق عليها بما فيه وضع الأمر في نصابه الحق إن شاء الله .

- ٢ -

يقول الحوري في مطلع فصله في كتابه الضخم رقم (٣) : إن المسلمين يلتمسون اليوم للقرآن الشمول من كل وجه ، ويحاولون أن يجدوا فيه إعجازاً إلهياً في العقيدة ، وإعجازاً إلهياً في الشريعة ، وإعجازاً إلهياً في الفلسفة ، وإعجازاً إلهياً في العلم الحديث ، وفاتهم جميعاً أن تاريخ الاسلام يجهل مثل هذا التفكير ومثل هذه المحاولات ، وأن القدماء إنما أجمعوا على أن إعجاز القرآن هو في نظمه .

وقد لمحنا حين قراءة فصوله ومباحثه التالية أنه قد اختط خطة خبيثة ، ولكنها غبية ، فقد أراد أن يركز على أن المسلمين القدماء وهم أهل القرآن ومتلقوه الأولون لم يروا الإعجاز إلا في نظمه ، فيكون في مايقوله المحدثون خلاف ذلك شذوذاً عن أمر أجمع عليه الأعرف والأعلم والأقدم من المسلمين ، فلا يكون له اعتبار وأساس يصح الإركان إليها ، والتعويل عليها . ولقد ترسم في مباحثه التالية الطعن في نظم القرآن ونقض رأي القدماء في إعجازه ، أو التشكيك فيه ، أو توهينه ظناً منه أنه يكون بذلك قد نقض دعوى إعجاز النظم القرآني التي يدعيها القدماء بزعمه بعد أن يكون قد نقض دعوى إعجازه من النواحي الشاملة الأخرى التي يدعيها له المحدثون .

- ٣ -

والحوري كاذب من حيث الأصل في قوله : إن القدماء مجمعون على أن إعجاز القرآن في نظمه وحسب ، فهناك آثار وأقوال قديمة كثيرة

ينطوي فيها تقرير كون إعجاز القرآن هو في نظمه وفي محتواه على السواء .

وقبل أن نورد الدليل على ذلك يحسن أن ننبه على أمر جوهري في هذا الموضوع ، وهو أن القرآن نفسه حينما يقرر أنه هدى ورحمة وشفاء للناس وهداية للتي هي أقوم وتبياناً لكل شيء بما جاء في آيات عديدة منها الأمثلة التالية :

١ - الٓمٓ . ذَلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ .. [البقرة : ١ و ٢] .

٢ - يَا أَهْلَ الكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ .. [المائدة : ١٥ و ١٦] .

٣ - كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ .. [ابراهيم : ٢] .

٤ - وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .. [النحل : ٦٤] .

٥ - وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ .. [النحل : ٨٩] .

٦ - إِنَّ هَذا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً .. [الإسراء : ٩] .

٧ - وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .. [الإسراء : ٨٢] .

٨ - لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .. [فصلت : ٤٢] (١) .

إنما يقرر إعجاز القرآن في المحتوى في الدرجة الأولى الذي يمثله ما في القرآن المكي والمدني معاً من إعجاز إلهي في التشريع وإعجاز إلهي في العقيدة ، وإعجاز إلهي في الحكمة ، وإعجاز إلهي في الإرشاد إلى خير سبل السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة ، وإعجاز إلهي في التبشير والإنذار والترغيب والترهيب ، وإعجاز إلهي في عرض بدائــــع الكون ومشاهد عظمته وروعة نواميسه الماثلة في كل شيء ، والبرهنة بها على وجوب وجود الله وقدرته وإحاطته ، وإعجاز إلهي في ما احتواه من فصول الجدل والحجاج والإفحام والإلزام ، وإعجاز إلهي في ما احتواه قصصه من مواعظ وامثال وتذكير وحكم بالغة ، وإعجاز إلهي في ما احتواه من الغيبيات السالفة والغيبيات الآتية ، وإعجاز إلهي في صلاح ما أتى به من كل ذلك لكل زمان ومكان ، وجنس ولون ، وعقل وثقافة .

وكل هذا بارز ملموح بكل قوة ، وبكل روعة ، وبكل نفوذ ، وبكل قطعية في مختلف سور القرآن المكية والمدنية ، ولا يمكن أن يكابر فيه ويتعامى عنه إلا أحمق غبي ، أو حقود مغرض ، والقرآن في متناول جميع الناس في كل مكان وزمان . ومن هذا المنطلق قرر القرآن أنه المعجزة الكافية لصدق رسالة النبي ﷺ على ما تضمنته آيات سورة العنكبوت هذه (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ مِنْ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .. ٥٠ و ٥١) .

---

(١) هناك آيات عديدة أخرى من هذا الباب أيضاً وقد اكتفينا بالأمثلة التي أوردناها .

ونقطة أخرى أيضاً يحسن أن ننبه إليها قبل إيراد نصوص القدماء ، وهي أن كون إعجاز القرآن هو في محتواه بالدرجة الأولى لم يفت نبهاء قريش الذين ناوأوا النبيّ ﷺ في العهد المكي على ما تدل عليه محاولتهم تخفيف مدى هذا المحتوى التي تستفاد مما حكاه القول عنهم في قولهم (قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ .. سورة الأنفال) حينما كانت تتلى عليهم آيات الله البينات فيه كما جاء في نفس الآية ، وقد حكت آية سورة الفرقان هذه (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) ذلك القول مرة أخرى عنهم ، وهذا القول لا يفيد أنهم كانوا يعنون نظم القرآن ، وإنما يفيد أنهم كانوا يعنون محتواه ، ويعنون أنه مقتبس من كتب الأولين وقصصهم ، ولم يكن تحدي القرآن لهم حين تحداهم بالإتيان بمثله أو بعشر سور أو بسورة أو بحديث كما جاء في هذه الآيات :

١ - وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. [البقرة : ٢٣] .

٢ - أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. [يونس : ٣٨] .

٣ - أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. [هود : ١٣] .

٤ - قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. [القصص : ٤٩] .

٥ - أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ .. [الطور : ٣٣ - ٣٤] .

تحدياً لهم بنظم القرآن ، وإنما بمحتواه حتماً ، لأن نظمه مشابه لنظمهم ، وكلماته وقواعده هي كلماتهم وقواعدهم ، وفي جملة (أساطير الأولين) التي حكت عنهم الدليلُ الحاسم على ذلك .

- ٥ -

وهناك حديث نبوي ذو مغزى عظيم في هذا الباب رواه الترمذي عن الحارث الأعور عن عليّ بن أبي طالب قال : سمعت رسول الله يقول : « ألا إنها ستكون فتنة ، فقلت : ما المخرج منها يارسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم »

وهذا الوصف الشائق الشامل للقرآن المروي عمن أنزل عليه القرآن والذي هو أدرى الناس بمدى إعجازه ليس - كما هو واضح بقوة - وصفاً لإعجاز نظمه ، وإنما هو وصف لإعجاز محتواه في الدرجة الأولى .

ولقد توقف بعضهم في الحديث كحديث مروي عن النبيّ وقالوا : إنه من كلام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولو صح هذا القول ، فمعناه أن هذا المفهوم لمدى إعجاز القرآن صادر عن أناس من الرعيل الأول ، ومن الذين كانوا أقرب الناس للنبي ﷺ ، وأفهمهم لمدى القرآن .

ولقد كان معظم أهل الكتاب الذين يسميهم القرآن أحياناً باسم أهل العلم أيضاً ، والذين سجل القرآن خشوعهم وسجودهم وبكاءهم وفرحهم وإيمانهم حينما سمعوا القرآن كما جاء في هذه الآيات :

١ - وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ .. [المائدة : ٨٣ و ٨٤].

٢ - وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ [الرعد : ٣٦] .

٣ - قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً .. [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩] .

من الجاليات الأجنبية ، وبعضهم كان وفداً من الخارج من الحبشة أو الشام ، وبعضهم لم يكن يجيد العربية ، بل كان أعجمي اللسان على ما تلهمه آية سورة النحل هذه (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .. ١٠٣) حيث يعني هذا بصورة حاسمة أن تأثرهم بالقرآن وفرحهم به وخشوعهم وسجودهم وبكاءهم وإيمانهم حينما كان يتلى عليهم أو يترجم لهم إنما كان من تأثير ما احتواه من صدق وحق وروحانية نافذة وليس من تأثير إعجاز نظمه .

والآن نورد الدليل على كذب الحوري ، فالحوري يجعل كتاب « الاتقان في علوم القرآن » للسيوطي مصدراً رئيسياً من مصادره ، وينقل عنه كثيراً ، ومع أن السيوطي أورد حقاً أقوالاً لبعض العلماء بأن إعجاز القرآن هو في نظمه وبلاغته ، فإنه قال : (إن جمهور العلماء يقررون أن إعجازه هو في نظمه ومعانيه على اختلاف نواحيها) وقد تعامى الحوري عن هـذا القول الذي فيه تكذيب صريح له . ولقد أورد السيوطي مقتطفات عديدة من أقوال عدد منهم ، ومن جملة ذلك فصل للخطابي أحد علماء القرآن في القرن الرابع الهجري نورده كمثال على أقوال العلماء القدماء (وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور . منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني . ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه المنظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فتواصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حاصل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا نرى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا نرى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاوة وتشاكلاً من نظمه ، وأما معانيه فكل ذي لبٍّ يشهد له بالتقدم في أبوابه والترقي إلى أعلى درجاته ، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه ، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير . فخرج من هذا أن القرآن صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمناً أصح المعاني من توحيد الله تعالى ، وتنزيهه في صفاته ، ودعائه إلى

طاعته ، وبيان طريق عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساويها ، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن مضى وعاند منهم ، منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الآتية من الزمان ، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وأنبأ عن وجوب ما أمر به ونهى عنه . ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر يعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرتهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ومناقضته في شكله ، ثم صار المعاندون له يقولون مرة : إنه شعر لما رأوه منظوماً ، ومرة : إنه سحر لما رأوه معجوزاً عنه غير مقدور عليه ، وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب ، وقرعاً في النفوس ، يرهبهم ويحيرهم فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف ، ولذلك قالوا : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وكانوا مرة يقولون بجهلهم : إنه أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تُملى عليه بكرة وأصيلا ، مع علمهم أن صاحبهم أمي وليس بحضرته من يملي أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التي أوجبها العناد والجهل والعجز ، وإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص منه إلى القلب من اللذة والحلاوة . قال تعالى (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ..) وقال تعالى (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ..) .

وقد رأينا أن نورد مثالاً آخر على ذلك من بابه للمفسر المشهور

الإمام ابن كثير من رجال القرن الثامن الهجري قال (ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية ، من حيث اللفظ ومن جهة المعنى ، قال الله تعالى (الَر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ ..) فأحكمت ألفاظه ، وفصلت معانيه ، وكل من لفظه ومعانيه لا يجارى ولا يدانى ، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ، ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ، ونهى عن كل شر ، كما قال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ..) أي صدقاً في الاخبار ، وعدلاً في الأحكام ، فكله حق وصدق ، وعدل وهدى ، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء ، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها ، كما قيل في الشعر : (إن أعذبه أكذبه) وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء ، أو الخيل ، أو الخمر ، أو في مدح شخص معين ، أو فرس ، أو ناقة ، أو حرب ، أو كائنة ، أو مخافة ، أو سبع ، أو شيء من المشاهد المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المتعين على الشيء الخفي أو الدقيق ، أو إبرازه إلى الشيء الواضح ، ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيدة ، وسائرها هذر لا طائل تحته .

وأما القرآن ، فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرفُ ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير وإن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة ، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة ، وسواء تكررت أم لا ، وكلما تكرر حلا وعلا ، لا يخلق على كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء ، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات ، فما ظنك بالقلوب الفاهمات ، وإن

وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن . كما قال في الترغيب (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ..) وقال (فِيها مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ ..) وقال في الترهيب (ءَأَمِنْتُمْ مَنْ في السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ في السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ..) وقال في الزجر (فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ ..) وقال في الوعظ (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جاءَهُمْ مَا كانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنى عَنْهُمْ مَا كانُوا يُمَتَّعُونَ ..) إلى آخر ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة . وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي ، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع ، طيب محبوب ، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء . وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار ، وما وعد الله فيها لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم بشرت به ، وحذرت وأنذرت ، ودعت إلى فعل الخير ، واجتناب المنكرات ، وزهدت في الدنيا ، ورغبت في الأخرى ، وثبتت على الطريقة المثلى ، وهدت إلى صراط الله المستقيم ، وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم .

ولو كان الحوري يخضع للحق والحقيقة أو يتحراها لكان راعى ماقاله جمهور العلماء القدماء ، ولما قال ماقاله عنهم من الموقف السلبي بأسلوب حاسم ، ومن غبائه أنه لايخطر لباله أن كتب القدماء والكتب التي ينقل عنها ليست عنده وحده .

ونحن إذ نركز الكلام في هذا المبحث على الإعجاز الإلهي في المحتوى

القرآني ، فليس ذلك منا إغفالاً الإعجاز الإلهي في النظم القرآني ، فهذا من المسلمات التي لاتتحمل إطناباً جديداً ، وقد وفاها العلماء قديماً وحديثاً حقها بما لا محل للمزيد عليه ، وإنما كان ذلك منا ، لأنه مقتضى الكلام ، والحافز عليه من جهة ، ولأننا نعتقد أن الإعجاز القرآني هو في المحتوى في الدرجة الأولى وهو ما اهتم القرآن للتنويه به أكثر . والله أعلم .

- ٨ -

ومع ذلك وبعد كل ذلك فليس مستنكراً كما يريد الحوري أن يوهمه أن يتصدى المسلمون المعاصرون لهذه المشكلة ويلتمسون الشمول في إعجاز القرآن ، فالقرآن لكل جيل وقبيل ، وفي أيدي كل جيل وقبيل ، وقد وصل إلى الناس كما بلغه رسول الله عن وحي الله وكما دوّن حين بلغه ، فصار بذلك الكتاب الإلهي الفريد في هذا الباب ، وكل مسلم ، بل كل إنسان مدعو إلى تدبر آياته ، وكل ذي لبٍّ مدعو إلى التأثر بذكره ، كما جاء في آيات عديدة كما ترى في الأمثلة التالية .

١ - وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .. [النحل : ٤٤] .

٢ - كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ .. [ص : ٢٩] .

٣ - كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .. [فصلت : ٣] .

وقرر أنه هدى ورحمة ، وذكرى وشفاء لكل مؤمن ولمن حسنت نيته ورغب في الحق والحقيقة كما جاء في آيات عديدة أوردناها قبل . فليس مايمنع أي مسلم في أي ظرف أن يلتمس في القرآن إعجازاً إلهياً في العقيدة ، وإعجازاً إلهياً في التشريع ، وإعجازاً إلهياً في الحكمة .

وإعجازاً إلهياً في التلقين السياسي والاجتماعي والأخلاقي والشخصي والإنساني العام ، وإعجازاً إلهياً في العلم الحديث ، بالإضافة إلى الإعجاز الإلهي في الأسلوب والبيان ونفوذ الخطاب إلى أعماق النفوس والقلوب والضمائر ، بل إن التماس ذلك واجب على كل مسلم وعلى كل إنسان في كل وقت وعلى المعاصرين أن يفعلوا ذلك كما فعل القدماء ، وتقدم العلوم والفنون والحضارة يجعل هذا الواجب أشد بالنسبة للمعاصرين حتى يثبتوا لأبناء أجيالهم الذين اشتد انحرافهم عن الأديان مصداق قول الله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ..) ويثبتوا كون القرآن الذي يمثل هذا الدين الذي رشحه الله ليكون دين الإنسانية عامة ، وليظهره على الدين كله قد احتوى كل مظاهر الإعجاز الإلهي ، وكل ما يحتاج إليه البشر لسعادتهم ونجاتهم وكرامتهم وطمأنينتهم وسلامتهم ، واحتوى حلاً لكل مطلب ومشكلة في كل ظرف وزمان وبيئة ، وإنهم لواجدون فيه لكل ذلك من الأدلة القطعية والبراهين الحاسمة والشواهد الناصعة ، والحجة البالغة ما يثبت أن القرآن فريد في كل ذلك ، وأنه وحي الله حقاً وصدقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولقد كتب كثير من علماء المسلمين المعاصرين وكتابهم خلال الحقبة الممتدة من مطلع هذا القرن ، وما يزالون يكتبون كتباً كثيرة في إثبات الإعجاز الإلهي في القرآن من كل ناحية فيها المقنع لمن أراد الحق والحقيقة وتغلب على الحقد والغرض والهوى ، وساهمنا نحن بتوفيق الله والحمد لله في ذلك في كتبنا « الدستور القرآني في شؤون الحياة » وفي الطبعة الجديدة لهذا الكتاب المعنونة بعنوان « الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة » وفي «التفسير الحديث» ، و«سيرة الرسول ﷺ وعصر النبي ﷺ

وبيئته قبل البعثة »، و«المرأة في القرآن والسنة»، و«الاسلام والاشتراكية».

- ٦ -

ولقد تناول الحوري في بحث ثان مسألة (نزول القرآن باللفظ أو المعنى)، وأورد أقوالاً منقولة من كتاب الإتقان لبعض علماء المسلمين في ذلك، ومع أن مؤلف هذا الكتاب ذكر أن جمهور علماء المسلمين متفقون على القول بنزول القرآن باللفظ، فإن الحوري رجح بدون إبداء سبب للترجيح القول الثاني، وقال بناء على ذلك: إن إعجاز القرآن اللفظي ليس منزلاً، وإن لفظه هو لفظ محمد ونظمه، وليس لفظه الوحي الذي نزل به، وبالتالي فإن إعجاز نظمه قائم على النبي لا على الوحي.

وقصد التمحل والمماحكة بارز في أقوال الحوري، ولو كان يعتقد بأن القرآن وحي من الله على كل حال بلفظه أو بمعناه منزل على نبي الله كما يعتقد الذين يقولون بأحد القولين من علماء المسلمين لكان الأمر جدلياً اجتهادياً ثانوياً، ولكان على الحوري أن يؤمن بما في القرآن المنزل بواسطة وحي الله على نبيّ الله، ولكنه لا يعتقد، وإنما يترسم من زعمه إنكار كون القرآن من وحي الله تعالى وتثبيت كونه من نظم النبيّ وحسب.

ومهما يكن من امر، فالنصوص القرآنية في جانب تأييد كون القرآن نزل على النبيّ ﷺ بلفظه لا بمعناه، وكون ما قاله بعض علماء المسلمين ورجحه الحوري مستهدفاً بذلك هدفه الخبيث ليس في محله.

فهذه الآيات:

١ - إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.. [يوسف: ٢].

٢ - وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ

الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين .. [النحل : ١٠٣] .

٣ - وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً .. [طه : ١١٢] .

٤ - وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين .. [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥] .

٥ - ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون .. [الزمر : ٢٧ و ٢٨] .

٦ - تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون .. [فصلت : ٢ و ٣] .

٧ - ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى .. [فصلت : ٤٤] .

٨ - وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها .. [الشورى : ٧] .

٩ - إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون .. [الزخرف : ٣] .

تتضمن تقريراً لا يمكن أن يماري فيه عاقل منصف بأن الله تعالى أنزل القرآن على رسوله بألفاظه العربية وليس بالمعنى .

وفي سورة القيامة آيات ذات دلالة هامة في هذا الباب وهي (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا

قَرْأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ .. ١٦ - ١٩)
فهذه الآيات جاءت معترضة بين آيات متصل قبلها بما بعدها اتصال موضوع وخطاب ونظم . في حين أنها غير متصلة بهذه الآيات موضوعاً ولا خطاباً ولا نظماً كما يبدو من تلاوة الآيات التي قبلها والتي بعدها [1] . ولقد رُوى بمناسبتها أنها نزلت على النبي ، لأنه كان حينما يتلقى الوحي القرآني يحرك شفتيه بما ينزل عليه خشية نسيانه ، ووجود هذه الآيات في موضعها يلهم بقوة أنها أوحيت في أثناء نزول الآيات التي قبلها وبعدها لتنبيه النبي إلى وجوب استماع ما يلقى عليه واتباعه ، ولا يصح فرض غير هذا لفهم حكمة وجودها في السياق ، ولا مناص من فرض ثان مع هذا الفرض وهو أن النبي أمر بتدوين آيات السورة فور وحيها ، وأملى على الكاتب هذه الآيات في سياق آيات السورة ، لأنها أوحيت إليه مع آيات السورة ، ولو أنها خطاب خاص له وبقصد تنبيهه وتعليمه كيفية تلقي الوحي ، فدونت كما جاءت ، وللآيات ملهمات أخرى عظيمة الخطورة في صدد القرآن ، فهي تقف أمام أي شك حتى من أشد الناس تشككاً بأن ما كان يبلغه النبي من آيات القرآن إنما كان وحياً يشعر به في أعماق نفسه ، ويدركه ، ويستمع إليه باذن بصيرته ، ويعيه بقلبه ، وأنه كان شديد الحرص على أن لا يفلت منه أي كلمة أو حرف مما كان يوحى إليه قرآناً ، فكان يسارع إلى ترديده وإملائه حتى يبلغه تاماً كاملاً ، لا تبديل فيه ولا زيادة ، ولا نقص ولا تقديم ولا تأخير ، وفيها في نفس

---

(١) هذه هي الآيات التي قبلها مباشرة (كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر . ينبؤ الانسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) وهذه هي الآيات التي جاءت بعدها مباشرة (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة . الى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة) ..

الوقت دليل قوي على أن القرآن إنما كان ينزل باللفظ لا بالمعنى .

- ٧ -

وتناول الخوري الحداد في بحث ثالث (لغة القرآن) وتساءل بدء بدء عما إذا كانت لغة القرآن هي لغة قريش أم لغة الشعر الجاهلي ، وأورد بعض أقوال وردت في كتاب « الاتقان » ، مفادها أن في القرآن كثيراً من الإمالة وهي النطق بالمفتوح نطقاً يقرب من الكسر ، والنطق بالألف المقصورة نطقاً يقرب من الياء ، وأن الإمالة هي من لغة نجد وليست من لغة قريش ، وان الهمز في لغة نجد أكثر منه في لغة قريش ، والهمز كثير في القرآن ، وقفز الشاطر من هذا إلى القول إن ذلك قد حمل بعض المستشرقين على القول بتحريف لغة القرآن القرشية ، وجعلها بلغة الشعر الجاهلي التي كانت لغة العرب الأدبية ، وكانت هي لغة نجد بدليل أن أشهر شعراء الجاهلية هم نجديون . وأخذ هذا بجد وتساءل عما إذا كان القرآن نزل بلغة نجد ، أم جمع بلغة نجد ، أم قرىء بلغة نجد في حين كان محمد قرشياً ولغته قرشية ، ولا بد من أن يكون القرآن في الأصل قد نزل بلغته هذه ، فيكون القرآن المقروء في المصاحف قد حرف من لغة قريش التي نزل بها إلى لغة الشعر الجاهلي التي هي لغة نجد . ثم تساءل عما إذا كان من الأمانة أن يكتب القرآن بغير اللغة التي نزل بها ، وعما إذا كان هــــذا من صنع النبي أم من صنع أصحابه ، أم من صنع قراء الكوفة الذين كانوا ينتسبون إلى نجد ، والذين يكونون بذلك قد تغلبوا على قراء البصرة الذين كانوا ينتسبون إلى الحجاز . وقال : إن هذا ماحير المؤرخ الأديب ، وقد جعل بعضهم يشتبه في صحة لغة القرآن وصحة إعجازها ، لأن أصل اللغة التي نزل بها لم يعد واضحاً .

وكلام الخوري هذيان وسوء أدب ووقاحة أكثر منه أي شيء آخر .

فالقول إن الإمالة والهمز من مميزات لهجة نجد قبل البعثة ، وإن اللغة القرشية كانت تخلو منها هو جزاف متأخر ليس له سند من نص أو رواية وثيقة متصلة بما قبل البعثة ، وحتى لو صح كونهما من مميزات لهجة نجد القديمة ، فلا يمكن أن يعني هذا أن اللغة القرآنية قد أخذتها عنها ، وليس ما يمنع أن تكونا قد تسربتا إلى لغة قريش قبل البعثة في جملة ما تسرب إليها من لهجات ومفردات القبائل في ظرف تصفية اللغة فخرجتا من كونهما من مميزات لهجة نجد ، لأن قريشا تكون قد شاركتها فيهما ، وكون الإمالة والهمز من مميزات لهجة نجد في حد ذاته لايمكن أن يكون سنداً على كل حال للدعاوى الوقحة المخترعة الملفقة التي يسوقها الحوري ، سواء أكان مخترعها وملفقها المستشرقون أم الحوري نفسه ، وتساؤل الحوري عن الأمانة يبلغ الذروة في سوء الأدب والوقاحة والهذيان ، سواء أكان عن النبي ﷺ أم عن أصحابه أم عن القراء .

ولقد شرحنا في مناسبة سابقة[1] ماهية القرآن ومداه في يقين النبي وأصحابه وسائر المسلمين بحيث لا يمكن لعاقل صادق ذي ضمير ودين وحياء أن يصل به الظن والتخرص إلى احتمال أي تبديل وتغيير في ألفاظ القرآن وكلماته وأسلوبه ، لا من قبل النبي ، ولا من قبل أصحابه ، ولا من قبل أي مسلم صادق إلا المارقين الذين لم يرو عنهم مع ذلك في صدد التبديل والتحوير إلا بقصد المعاني والقضايا المذهبية ، وليست ألفاظ القرآن وأسلوبه على كل حال .

ولقد أراد الحوري أن يظهر حسن نيته ، فقال : (وعلى كل حال فإن كل ذلك لا يؤثر في صحة القرآن الجوهرية) ولكن هذه الجملة تدعم ما

(١) انظر النبذه (٨) في الصفحات ١١٤ — ١١٨ .

لمح من سوء نيته وخبث طويته ، لأنه توهم أنه حقق هدفه الذي استهدفه فيما قاله من هراء وهذيان .

ولم ينتبه الخوري إلى ما وقع فيه من تناقض ، فقد رجح بدون مرجح أن القرآن نزل بالمعنى وأن لفظه هو لفظ محمد على ما شرحناه في النبذة السابقة ، وهنا قال : إنه نزل بلغة قريش ، ثم بدل إلى لغة نجد .

والقرآن نزل باللغة التي كان يستعملها النبي ويستعملها قومه الأدنون وهم قريش الذين خوطبوا به لأول مرة ، وهذا مؤيد بالنص القرآني على ما جاء في آية سورة إبراهيم هذه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. ٤) وآية سورة مريم هذه (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا .. ٩٧) وآية سورة الدخان هذه (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .. ٥٨) . وهناك حديث رواه البخاري عن أنس بن مالك في سياق خبر كتابة المصحف في زمن عثمان ، فيه دلالة مهمة في هذا الباب وهذا نصه : (روى أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة خلافهم في القراءة ، فقال لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا الصحف فننسخها ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة ، فأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن هشام ، فنسخوها في الصحف . وقال عثمان للرهط القرشين الثلاثة : إذا اختلفتم وزيد بن ثابت ـ وهذا مدني ـ في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما أنزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف

مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وصحف حفصة هي التي كتبت كمصحف إمام في خلافة أبي بكر مما توفي عنه النبي ﷺ قرآناً مدوناً محفوظاً في الصدور غير منسوخ ، ولا مرفوع في حياته ، وقد انتقلت بعد وفاة أبي بكر إلى عمر ثم حفظت بعد استشهاد عمر عند ابنته وزوجة النبي ﷺ حفصة رضي الله عنهم أجمعين .

وجملة (وإن اختلفتم أنتم وزيد في شيء فاكتبوه بلغة قريش) إنما عنت رسم الكلمات وإملاءها حيث كان بعض الجهات والناس يختلفون في الرسم ، وهذا الاختلاف هو الذي أدى إلى اختلافهم في القراءة ، وهو الاختلاف الذي أفزع حذيفة ، وليس اختلاف ألفاظ وكلمات وآيات . ولقد مثل لذلك بكلمة التابوت ، فقد كان بعضهم يكتبها بالتاء المربوطة . وقريش تكتبها بالتاء المفتوحة .

والدلالة في الحديث هي أن اللغة التي كتبت بها المصاحف هي لغة قريش وأن القرآن إنما نزل بها ، ومصحف عثمان هو المصحف الذي نسخت وما زالت تنسخ عنه المصاحف بدون تبديل ولا تحريف .

وبين أيدينا أحاديث نبوية كثيرة جداً رواها الرواة العدول بألفاظها وسجلها أئمة الحديث في كتبهم ، وكثير منها موصوف بالصحيح والثابت والمتواتر ، وليس بينها وبين مفردات اللغة القرآنية وتركيباتها وقواعدها وأدائها أي خلاف وفرق ، وفي هذا دليل آخر على أن لغة النبي التخاطبية المعتادة هي نفس لغة القرآن ، ولا يمكن أن تكون إلا لغة قريش المعتادة بطبيعة الحال .

وفي القرآن المكي حكاية لأقوال كثيرة كانت تصدر من نبهاء قريش في معرض الجدل والحجاج مع النبي ﷺ ، وليس بينها وبين لغة القرآن

أي فرق وهي منسجمة فيها كل الانسجام ، وهي بطبيعة الحال لغة قريش المعتادة كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قادِرٌ على أن يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ .. [الأنعام : ٣٧] .

٢ - وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ .. [الأنعام : ١٠٩] .

٣ - وَإِذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هَذا إِنْ هَذا إِلَّا أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ . وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هَذا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَليمٍ .. [الأنفال : ٣١ و ٣٢] [1] .

٤ - وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلى الرُّسُلِ إِلَّا البَلاغُ المُبِينُ .. [النحل : ٣٥] .

٥ - بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ .. [الأنبياء : ٥] .

٦ - وَقالُوا مالِ هَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشي في الأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذيراً . أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَقالَ الظّالِمُونَ

---

(١) السورة وإن كانت مدنية فان في الآيات حكاية لأقوال المشركين في مكة .

إنْ تَتَّبِعُونَ إلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً . أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً . . [الفرقان : ٧ - ٩] .

٧ - وَإذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَـذَا إلَّا إفْكٌ مُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إنْ هَذَا إلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ . . [سبأ : ٤٣ و ٤٤] [1] .

- ٨ -

وتناول الحوري في بحث رابع موضوع تأليف القـرآن ، ومع أنه جعل كتاب « الإتقان » سنده الرئيسـي فإنه ركز على قول دون قول حسب مارآه متوافقاً مع هواه وخطته ، ومن ذلك قول بعضهـم (إن القرآن كان ينزل منجماً ، أي : مفرقاً ، كل بضع آيات معاً خمساً خمساً وعشراً عشراً ، وكثيراً ماكان ينزل في مناسبات الأحداث والأسئلة وما كان يقع في حيـاة النبيّ من أمور منـذ بعثته إلى وفاته فكانت الآيات يوضع بعضها إزاء بعض فتكونت السور بذلك) وخلص الحوري من هذا إلى القول (إن ذلك أضفى على القرآن ظاهرة التفكك وعدم ارتباط أجزاء الســور بعضها ببعض وإن الأقدمين من علماء المسلمين لمسوا هـذا التفكك فحاولوا الربط بين أجزاء السورة بما سموه علم المناسبة الذي وضعوا له القواعد العديدة لربط الآيات بعضها ببعض ربطاً موضوعياً أو ظاهريـاً أو باطنياً ، ولم يشعروا أن محاولتهم افتعالية ليس من شأنها ستر ظاهرة التفكك في آيات السور وأجزائها) . ولقد قرأ الحوري في « الإتقان » قولاً

---

(١) في القرآن المكي آيات كثيرة أخرى فيها حكاية لأقوال مشركي قريش فاكتفينا بما أوردناه .

لأحد العلماء جاء فيه (إن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شـــرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض وإنه يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحـــد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط . ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه ، فطار الحوري فرحاً بهذا القول لدعم استنتاجه وأبرزه برغم أن في « الإتقان » أقوالاً عديدة قوية لعلماء كثيرين نبهوا على ما بين آيات وأجزاء السور من ترابط وتناسق وانسجام من حيث الموضوع ومن حيث السبك والنظم ، وأوردوا الشواهد الكثيرة على صحة ما نبهوا عليه بحيث يكون ما استند إليه الحوري وأبرزه شاذاً لا يصح أن يعول عليه مادام جمهرة الأقوال على غيره .

ولقد تصدينا نحن لهذه المسألة في كتابنا (القرآن المجيد) ثم في ثنايا أجزاء تفسيرنا (التفسير الحديث) وانتهينا الى تقرير ما أقره الجمهرة حيث رأينا في معظم سور القرآن وفصولها شواهد قوية على الترابط والتناسب اللفظي والسبكي والموضوعي بما يجعل قول الحوري وما استند إليه قولاً متهافتاً . مع فرق مهم هو أن قول المسلم صدر عن حسن نية واجتهاد خاطىء وعدم ترو وكان هو في قوله سيء النية عامداً متعمداً فيه .

والحوري قرأ كتابنا المذكور وهو ينقل عنه كثيراً ، وكان عليـه أن يقتنع بما أوردناه ، لأن فيه ما لا يصح لعاقل أن يكابر فيه فيما نعتقد ولكن الهوى غلبه على المنطق والباطل على الحق .

والموضوع مهم ، لأن فكرة التفكك في التأليف القرآني تراود أناساً لا يعنون بالقرآن عناية كافية ، ولا يقرؤونه قراءة تبصر وترو ، ولذلك نرى من المفيد إيراد شيء من التفصيل فيه على أن يكون كلامنا على الســور

المكية لحدة والسور المدنية لحدة .

وبالنسبة للسور المكية نقول بوجه عام : إن العهد المكي كان عهد دعوة ، وأحداثه متشابهة ، من حيث كونها مواقف شرح وبيان أهداف الرسالة الإسلامية الايمانية والاجتماعية والأخلاقية والانسانية وحض وترغيب وتبشير وإنذار وترهيب وتذكير ومواعظ من جانب النبي ﷺ ومواقف إنكار وعناد ومكابرة وانقباض وجدل وتحد وأذى من جانب الكفار . والقرآن المكي قد دار جميعه على هذه المواقف المتشابهة ، ولذلك فإن فصول السور المكية المتوسطة والطويلة كانت تتلاحق دون انقطاع ودون فاصل وتتساوق في انسجام تام ، وهو ما يلمس بكل قوة فيها .

وسبع وعشرون سورة منها تبتدىء بحروف متقطعة وهي القلم و ق والأحقاف والجاثية والدخان والزخرف والشورى وفصلت وغافر و ص ويس والسجدة ولقمان والروم والعنكبوت والقصص والنمل والشعراء وطه ومريم والحجر وإبراهيم والرعد ويوسف وهود ويونس والأعراف . وسبع عشرة سورة منها وجلها من القصار تبتدىء بالأقسام وهي العصر والعاديات والتين والضحى والليل والشمس والفجر والبلد والطارق والبروج والنازعات والمرسلات والقيامة والنجم والطور والذاريات والصافات . وتسع سور منها مختلفة الطول تبتدىء بالثناء والحمد والتسبيح وهي الفاتحة والأعلى والملك وفاطر وسبأ والفرقان والكهف والإسراء والأنعام . وتسع سور منها تبتدىء بالاستفهام وكلها من القصار وهي الماعون والفيل والانشراح والقارعة والغاشية والنبأ والإنسان والمعارج والحاقة ، وهذه بدايات متميزة . وتسع أخرى من القصار كذلك تبتدىء بخطاب للنبي نداء وأمراً وهي الناس والفلق والإخلاص والكافرون والكوثر والعلق والمدثر والمزمل والجن ، وهذه بدايات متميزة . وأربع منها تبتدىء

بالدعاء والانذار وهي من القصار . وهي المسد والهمزة والتكاثر والمطففون وهذه بدايات متميزة . وخمس تبتدىء بحرف إذا التنبيهي أو التذكيري وهي الزلزلة والانشقاق والانفطار والتكوير والواقعة وهي من القصار . أي إن ثمانين سورة من أصل تسع وثمانين سورة مكية مجمع على مكيتها ذات مطلع خاص فيه دلالة ما على شخصية السورة واستقلالها ، والتمعن في خواتمها يسوغ القول : إنها أيضاً خواتم متميزة تدل على انتهاء الكلام . أما بقية السور المكية فمنها سبع قصار وهي قريش والقدر وعبس ونوح والرحمن والقمر والزمر يمكن أن يقال عنها أيضاً : إنها ذات طابع خاص بدءاً وخاتمة يدل على شخصيتها واستقلالها ، وأربع طويلة نوعاً ما وهي المؤمنون والحج[1] والأنبياء والنحل . وتلهم مطالعها وخواتمها أيضاً أنها متميزة مستقلة الشخصية .

ولقد أخرج الحاكم حديثاً عن ابن عباس وصف بأنه صحيح جاء فيه (إن النبيّ ﷺ كان إذا جاء جبريل فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم علم أنها سورة جديدة) وروي عن ابن عباس حديث آخر جاء فيه (كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم) وأخرج البيهقي عن ابن مسعود قال (كنا لا نعلم فصلاً بين سورتين حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم) ونعتقد أن المقصود من هذه السور هو السور المكية في الدرجة الأولى . وتفيد الأحاديث أن فصول السور كانت تنزل متلاحقة إلى أن تنتهي دون قاطع بفصل من سورة أخرى . والمرجح أن ذلك بالنسبة للسور الطويلة والمتوسطة الطول والقريبة من المتوسطة ، لأن المتبادر أن السور القصيرة جداً لابد من أن تكون

---

(١) سورة الحج من السور المختلف على مكيتها ومدنيتها . وفحواها يلهم أن فيها فصولاً مدنية وفصولاً مكية ومطلعها مما يلهم أنه هو وفصل طويل بعده من الآيات المكية.

نزلت مرة واحدة ، ولقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود حديثاً جاء فيه (انه سمع من فم رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة) والراجح أنها سور مكية ، وهذا يفيد أن آياتها كانت مؤلفة متناسقة وأن السور كانت معروفة الشخصية .

وهناك مظاهر أخرى تدعم ما قررناه آنفاً من جهة وتظهر تلاحق وترابط فصول كل سورة من جهة أخرى .

فأولاً إن هناك تماثلاً في النظم في السور التي فيها قصص وأمثال يتمثل في فصل أول فيه دعوة للناس وبيان لأهداف الرسالة وتنديد بالجاحدين وإنذارهم وتبشير للمؤمنين ، ثم يعقبه فصل القصص أو الأمثال الذي يستهدف التذكير والموعظة والعبرة ، ثم يعقب هذا الفصل فصل تعقيبي فيه دعوة وإنذار وترهيب وتبشير وترغيب

وهذا التماثل ملموح أيضاً بين يدي فصول الجدل والحجاج بين النبي ﷺ والجاحدين حيث يسبقها فصل فيه بيان بالأهداف وتبشير وإنذار ودعوة يعقبها فصل تعقيبي فيه ترهيب وتبشير . وهذا المظهر عام في جميع السور التي فيها قصص وأمثال وجدل وحجاج . سواء أكانت طويلة أم متوسطة أم قصيرة ، وسواء أكانت الفصول مسهبة أو إشارات مقتضبة ، بحيث يبدو من ذلك تلاحق وانسجام موضوعيان تتساوقان بين فصول السور .

وثانياً إن من السور المكية خمساً وستين سورة مسجعة أو موزونة أو مقفاة ، منها أربع وخمسون قصيرة أو قصيرة جداً ، وهي الفاتحة والناس والفلق والإخلاص والمسد والكافرون والكوثر والماعون وقريش والفيل والهمزة والعصر والتكاثر والقارعة والزلزلة والعاديات والقدر والعلق والتين والشرح والضحى والليل والشمس والبلد والفجر والغاشية والأعلى والطارق

والبروج والانشقاق والمطففون والانفطار والتكوير وعبس والنازعات والنبأ والمرسلات والإنسان والقيامة والمدثر والمزمل والجن ونوح والمعارج والحاقة والقلم والملك والواقعة والرحمن والقمر والنجم والطور والذاريات وق . ووحدة الموضوع في هذه السور بارزة بروزاً قوياً ، فالفرض الصحيح الذي نعتقد أنه لا يصح غيره هو أن كلًا منها نزل دفعة واحدة وكسبت شخصيتها كسور مستقلة . وإذا كان من الممكن أن يكون استثناء ، فهو قليل بالنسبة إلى هذا العدد الكبير من جهة وهو في الوقت نفسه ليس استثناء ينقض الفرض في جوهره من جهة أخرى . وقد احتطنا بهذا الاستثناء أو الاستدراك من أجل ما روي من أن آيات سورة العلق الأولى هي أول ما نزل ، وأنها نزلت متفردة وأن الآيات الباقية من السورة نزلت بعدها بمدة ما مما يسوغه مضمون آيات السورة الذي يدل على أن الآيات التي بعد الآيات الخمس الأولى لا بد من أن تكون قد تأخرت في النزول إلى أن بدأ النبي ﷺ يدعو الناس بدعوته ويصلي صلاته الجديدة فتعرض لمعارضة الطاغية . ومن أجل ما روي من مثل ذلك بالنسبة إلى الآيات الأولى من سور القلم والمزمل والمدثر مما يمكن أن يسوغه أيضاً مضمون الآيات التي جاءت بعد الآيات الأولى ، ثم من أجل ما روي من أن الآية الأخيرة من سورة المزمل مدنية مما يسوغه مضمون الآية أيضاً .

ومن السور المكية المتوسطة في الطول إحدى عشرة سورة مسجعة أو موزونة أو مقفاة أيضاً ، وهي سور ص والصافات ويس وفاطر والشعراء والفرقان وطه ومريم والكهف والإسراء والحجر . والتدقيق فيها يظهر أن فصولها أيضاً بالاضافة إلى تسجيعها أو توازنها أو تقفيتها متلاحقة مترابطة موضوعاً ، ولا تتحمل أي قول بالتفكك وعدم الترابط أو أنها وضعت إزاء بعضها جزافاً . وكل ما يحتمل هو أن تكون فصولها نزلت دفعة

بعد دفعة فكانت توضع وراء بعضها بأمر النبي ﷺ لأن المتأخر منها معطوف على المتقدم موضوعاً بالإضافة إلى التماثل في التسجيع والتقفية والتوازن ، إن لم تكن نزلت دفعة واحدة وفق ما هي عليه من ترتيب . والخمس عشرة الأخرى طويلة نوعاً ما أو طويلة كثيراً وهي الروم والعنكبوت والقصص والمؤمنون والحج والأنبياء والنحل وإبراهيم والرعد ويوسف وهود ويونس والأعراف والأنعام ، ومعظمها ذات مطالع متميزة حيث يبدأ عشر منها بحروف متقطعة مثلاً ، وكلها ذات خواتم متميزة تفيد انتهاء الكلام . والمدقق فيها يجد فصولها متلاحقة ، والتشابه في مواضيعها قائماً ، ولا تتحمل قول التفكك وعدم الترابط بدورها . وكل ما يمكن هو أنها نزلت على دفعات وكان المتأخر يوضع وراء المتقدم لتلاحق الموضوع وتساوق الكلام ، ومعظمها فيه قصص وأمثال وجدل ، والمظهر الأول الذي نوهنا به قبل متمثل فيها بكل قوة وشمول ، والقرآن بين يدي الجميع ، ويمكن أن يتصفح المرء سوره المكية على ضوء هذه الشروح ، ونحن واثقون من أنه سيرى إذا كان ينشد الحق والحقيقة وكان فيه بصيرة وروية وحسن ذوق ما نراه من التلاحق والترابط والتناسب بين فصولها ويتيقن من تفاهة القول بالتفكك وعدم الترابط وهوى القائلين أو غباوتهم .

ومما قاله الخوري الحداد (إنهم ـ وعبارته تفيد أنه يقصد النبي والمسلمين الأولين ـ تركوا السور مفصلة مقطعة ولم يجمعوها في وحدات زمنية تأليفية حتى كثر المفصل فيها) وهو يقصد بذلك كثرة السور القصيرة جداً التي توصف بوصف المفصل . وهذا تواقح منه وتنطع وسوء أدب معاً مع الغباء ، فالمدقق في هذه السور يجد كلاً منها وحدة موضوعية مستقلة ، وفي نظم

متميز بحيث يظهر على حكمة التنزيل في جعل كل منها سورة قائمة بذاتها ليس من محل لجمعها مع غيرها ، وهذا هو التعليل الصادق لهذه الظاهرة .
وقد تلقاها المسلمون عن النبي ﷺ الذي تلقاها عن وحي ربه تعالى بهذا الأسلوب والقدر فوقف النبي والمسلمون عندما تلقوه الذي كان حقاً وحكمة .
والخوري تواقح وتنطع آخر حيث يعمد إلى السور الطويلة بل والمتوسطة .
وسواء أكانت متوسلة الأسلوب أو مسجوعة أو مقفاة ، فيقسمها إلى سور حسب ما يظن من تعدد موضوعات السور وفصولها

وفصول السور وآياتها مرتبة بأمر النبي ﷺ [1] وإلهام الله تعالى ، والمسلمون قد تلقوا ذلك كذلك ، وهم أهل القرآن ، وكل تقسيم للسور إلى سور عديدة تنطع وتواقح وسوء أدب معاً .

ونأتي الآن إلى السور المدنية

فمن هذه السور سورتان قصيرتان جداً وهما النصر والبينة ، وكل منهما وحدة موضوعية ، ولا تتحملان قولاً ما ، ومنها خمس عشرة قصيرة ، وهي التحريم والطلاق والتغابن والمنافقون والجمعة والصف والممتحنة والحشر والمجادلة والحديد والحجرات والفتح ومحمد . وسبع منها ذات موضوع واحد وهي التحريم والطلاق والمنافقون والحشر والصف والحجرات والفتح ومحمد .
والفرض الصحيح أنها نزلت دفعة واحدة أو متلاحقة . ويلفت النظر مثلاً إلى بعضها الذي فيه استطراد أو أحداث متناسبة ، مثل التحريم التي اختتمت بخاتمة استطرادية متناسبة مع الموضوع الرئيسي فيها ، ومثل الصف التي فيها استطراد إلى ذكر موسى وعيسى ومواقف أقوامهم معهم مما

---

(١) في كتابنا القرآن المجيد فصل مطول أثبتنا فيه بالأحاديث المعتبرة والدلائل القرآنية أن ترتيب الآيات والفصول في السور وترتيب السور في المصحف هو بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وفي حياته .

يتناسب مع التنديد الذي بدأت به السورة . وقد ختمت بالدعوة إلى الجهاد وضرب المثل بانتصار الحواريين لعيسى عليه السلام مما يتناسب كذلك مع بداية السورة . ومثل الفصل الذي اختتمت به سورة المنافقون مما يتناسب مع التحذير من أسباب النفاق الذي هو موضوع السورة الرئيسي . ولقد احتوت سورة (الجمعة) معاً موضوعين مختلفين ، ولكن من الممكن أن يلمح بينهما تناسب وترابط ، وهناك حديث رواه البخاري ومسلم يذكر أنها نزلت دفعة واحدة . وسورة (الممتحنة) كذلك احتوت موضوعين مختلفين ، أولها في صدد موقف مغامرة أحد المسلمين قبيل غزو مكة ، وثانيها في صدد فرار مؤمنات من مكة قبيل هذا الغزو أيضاً حيث يكون في ذلك تناسب وترابط بين الفصلين . ويلحظ أن السورة اختتمت بالتحذير من تولي الأعداء ، وهذا ما بدأت به أيضاً حيث يبدو من هذا قصد تحقيق التناسب وربط أول السورة بآخرها

ومها بدا على فصول سورتي (الحديد) و (التغابن) من تنوع فإن الترابط بين آيات كل منها ملموح بقوة بحيث يمكن ترجيح نزولها متلاحقة ، وبحيث لا يصدق القول عليها : إنها متفككتان . وسورة (المجادلة) قد احتوت فصولاً متنوعة أيضاً ، منها ما يلمح بينها ترابط ، ومنها مالا يلمح الآن ، ولكنا لا نسيغ القول : إنها وضعت بعضها وراء بعض جزافاً . ومن المحتمل أن يكون بعضها نزل بعد بعض مباشرة بدون فاصل فكان ذلك سبب تأليفها على النحو القائم .

ومن السور المدنية سورة متوسطة وهي (الأنفال) وجلها في وقعة بدر وغنائمها ومشاهدها وآثارها وأسراها ، وما عدا ذلك غير غريب على موضوع السورة تعقيباً أو تنبيهاً أو تحذيراً أو توضيحاً ، بحيث يمكن أن يقال بكل قوة : إن الترابط والتناسب قائمان بين فصولها . ومن المحتمل أن

تكون نزلت دفعة واحدة ، ومن المحتمل أن تكون نزلت متلاحقة فوضع المتأخر بعد المتقدم لما بينهما من تناسب وترابط .

بقيت السور المتوسطة الأخرى والسور الطويلة وهي الأحزاب والنور من النوع الأول والتوبة والمائدة والنساء وآل عمران والبقرة من النوع الثاني .

وفي الحق ان مواضيع هذه السور وفصولها مختلفة وتلهم أنها لم تنزل دفعة واحدة ولا متتابعة ، وأنها ألفت تأليفاً على ماهي عليه في المصحف بعد تكامل فصولها من دون سائر السور المكية والمدنية ، وأن من المتقدم في ترتيبها في المصحف فصولاً نزلت بعد فصول أخرى في سور متأخرة عنها ، ونرجح أن الكلام في عدم الترابط في القرآن كان بسبب هذه السور وحولها في الدرجة الأولى ، غير أن الخطأ في القول عن قصد من الحوري وعن حسن نية من بعض المسلمين هو تعميمه بحيث يشمل جميع سور القرآن .

والذي لا يجوز الشك فيه هو أن ترتيب آيات وفصول هذه السور على الوجه الذي هو عليه في المصحف المتداول قد كان في حياة النبي وبأمره ... ولعل من الملهمات القرآنية بصحة هذا القول الآية الأخيرة من سورة النساء التي فيها حكم إرث الكلالة بالنسبة للإخوة الذين أجمع المفسرون على أنهم الأشقاء ، فقد احتوت السورة أحكام الإرث ومن جملتها حكم إرث الكلالة بالنسبة للاخوة الذين أجمع المفسرون على أنهم الاخوة لأم ، فلما استفسر المسلمون عن حكم إرث الكلالة بالنسبة للاخوة الأشقاء نزلت آية النساء الأخيرة . ويظهر أن السورة قد رتبت فلم ير الله ورسوله إخلال ترتيبها فوضعت الآية التي فيها هذا الحكم في آخر السورة للتناسب الموضوعي بينها وبين أحكام الإرث في السورة ، وليس من تعليل آخر لوضع هذه الآية في آخر السورة كما هو المتبادر .

ومع ذلك فإن التدقيق في السور السبع المذكورة يجعل المرء يلمح قصد التناسب في تأليفها سواء من حيث التسلسل الموضوعي في كل موضوع أم من حيث السلاسل الموضوعية بعضها بعد بعض .

فالفصل الأول من البقرة إلى الآية ٣٩ سلسلة مترابطـــة متناسبة . والفصل الثاني ٤٠ ـ ١٧٧ في صدد اليهود ودسائسهم ومواقفهم ثم يأتي بعد ذلك سلسلة أسئلة وأجوبة واستطرادات متناسبة معها إلى نهاية السورة .

والفصل الأول من آل عمران إلى الآية ١٢٠ هو في صدد مواقف أهل الكتاب النصارى ثم اليهود . والتناسب قائم بين آياتها وما فيهـا من استطرادات والفصل الثاني في صدد وقعة أحد . ويلحظ أن فصل السورة الأخير عاد إلى ذكر أهل الكتاب ومواقفهم حيث يبدو قصد ربط أول السورة بآخرها . وفي هذا مشهد من مشاهد التأليف التناسبي أيضاً .

والفصل الأول من سورة النساء إلى الآية ٤٣ في شؤون الأسرة أو ما يسمى بالأحوال الشخصية والتناسب قائم بينهـا بكل قوة ، والفصل الثاني في مواقف اليهود ، ويمكن أن يلمح شيء من التناسب بينه وبـــين الموضوع الذي بعده ، والتناسب ملموح أيضاً بين الفصول التالية بعد الفصل الثالث ، ووضع آية الكلالة التي فيها حكم إرث الاخوة الأشقاء في آخرها دليل على قصد تحقيق التناسب والترابط بين مواضيعها .

وسورة المائدة احتوت حقـاً فصولاً متنوعة ، ولكن من الممكن أن يلمح شيء من التناسب في وضع فصولها بعضها بعد بعض إذا ما دقق فيها

والتناسب ملموح بقوة بين فصول سورة التوبة أيضاً ، فأولها في صدد مواقف المشركين وقتالهم ، ثم في مواقف أهل الكتاب وقتالهم ، ثم في الاستنفار لغزوة أجمع المفسرون على أنها غزوة تبوك لمقابلة تجمع قبائل النصارى في مشارف الشام وتأديبها ، ثم في مواقف المنافقـين في مناسبة

هذا الاستنفار حتى لكأنها جميعها موضوع واحد آخذ بعضها برقاب بعض .

وهكذا يمكن أن يقال : إن التناسب والترابط النظمي والموضوعي متحقق على أحسن وجه في السور المكية وفي السور المدنية القصيرة ، وإن السور المدنيه الطويلة والقريبة من الطويلة التي تعددت فصولها ، وألفت بعد تمامها قد روعي في تأليفها التناسب الموضوعي بحيث يبدو ما قاله الخوري وما يقوله غيره من التفكك في نظم فصول السور القرآنيـــة وترابطها جزاماً ومتهافتاً .

ولقـد اهتممنا في أجزاء تفسيرنا « التفسير الحديث » لإبراز هـذا الأمر ونعتقد أن من يقرأ فصلنا هذا ويتصفح أجزاء تفسيرنا يقتنع بما انتهينا إليه .

- ٩ -

وعقد الخوري الحداد فصلاً بعنوان المحكم والمتشابه في القرآن في كتابه رقم ٣ ثم في كتابه رقم ٤ مكرراً ، ونقل من كتاب « الإتقان » تعريفات العلماء لكل من النوعين ، ونقل عن كتابنا « القرآن المجيـد » قولنا (إن القرآن أسس ووسائل وإن الجوهري فيه هو الأسس ، لأنها هي التي انطوت فيها أهداف الرسالة المحمدية من مبادىء وقواعد وشرائع وأحكام وتلقينات مثل وحـدة الله وتنزهه عن كل شائبة وشريك وولد ، واتصافه بجميع صفات الكـمال ، ومطلق تصرفه في الكون ، واستحقاقه وحده للعبادة والخضوع [١] . والوعد والوعيد والترهيب والترغيب والتنديد والجدل والحجاج

---

(١) أهمل الخوري نقل هذه النبذة المهمة الجوهرية مما كتبناه بعد كلمة الخضوع (ونبذ ما سواه والقيام بالواجبات التعبدية ، ومثل المبادىء والأوامر والنواهي والتشريعات والأحكام والتلقينات الكفيلة بصلاح الانسانية وطمأنينتها والتعاون الأخوي العام بينها أفراداً وجماعات من سلبية وإيجابية وأخلاقية واجتماعية وسياسية وحقوقية ـ

والأخذ والرد والتذكير والبرهنة والإلزام ولفت النظر إلى نواميس الكون ومشاهد عظمة الله وقدرته ، ومخلوقاته الخفية والعلنية ، فهو وسائل تدعيمية وتأييدية لتلك الأسس والأهداف وبسبلها . وأبرز قولين قرأهما في « الإتقان » واحداً يقول : إن آيات الأحكام نحو خمسمائة آية وواحداً يقول : إنها نحو مائة وخمسين آية . وعلق على هذا وذاك بقوله : (إنه لا يبقى من القرآن إلا القليل جداً ، وآية آل عمران الخامسة تقول : إنه لا يعلم تأويل المتشابهات في القرآن إلا الله والراسخون في العلم . ويكون تنزيل المتشابهات في القرآن بناء على ذلك ابتلاء عظيما للعباد ، وواقعاً أليماً مدهشاً ، ولا ينسجم هذا مع عقيدة إعجاز القرآن ، لأن معناه أن الله يخاطب عامة عباده خطاباً متشابهاً لا يعلم تأويله إلا هو والراسخون في العلم ، وهذا مثار شبهات مؤلمة للمؤمن وغير المؤمن) .

وفي تعليق الحوري هذا تهويل وسوء نية بقصد التشكيك والتجريح فضلاً عن سوء الأدب .

فمن جهة أولى إن قول من قال : إن آيات الأحكام خمسمائة أو مائة وخمسون لا يصح أن يؤخذ مأخذ الجد ، فالآيات التي فيها أحكام أضعاف العدد الأول فضلاً عن الثاني ، لأن من الواجب أن يدخل فيها كل الآيات التي فيها أحكام وأوامر ونواه ومواعظ وتلقينات ومبادىء وتنبيهات إيمانية وتعبدية واجتماعية وأخلاقية واقتصادية وسياسية وجهادية وقضائية وسلوكية . ولا تقتصر على مسائل الأسرة والشؤون الشخصية والجرائم التي يظهر أن الذين ذكروا العدد المذكور قد قصدوها دون غيرها ، لأن في كل ذلك قواعد وضوابط وحدوداً وخطوطاً من واجب المسلم ومن واجب أولي

ـ وسلوكية واقتصادية ، والنهي عن كل ما يناقض ذلك ، أما عدا ذلك من مواضيع مثل القصص والأمثال) ويأتي بعد ذلك (والوعد والوعيد) الخ .

الأمر من المسلمين معاً أن يلتزموا بها . وهي والحالة هـذه من الأهداف والمحكمات .

ومن جهة ثانية إن التأويل الصحيح الذي يذهب إليه جمهرة المفسرين أيضاً لكلمة (المتشابهات) هو ما يحتمل وجوهاً للتأويل حسب مقتضى ومقام العبارة القرآنية . ولكلمة (المحكمات) هو ما لا يحتمل ذلك ويكون تفسير المتشابهات على ضوء المحكمات ، وبذلك يصان القرآن من التعارض . ومثال على ذلك أن بعض الآيات ذكرت أن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ، وبعض آيات ذكرت أن الله نفخ في فرج مريم من روحه و (نفخ الله فيها من روحه) في حين أن آيات أخرى ذكرت (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وبعضها حكى وصف عيسى لنفسه (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً) وبعضها حكى قوله لبني إسرائيل (اعبدوا الله ربي وربكم) وبعضها يصف الله بأنه (ليس كمثله شيء) وأنه (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) فتكون الآيات الأولى من المتشابهات والثانية من المحكمات ويكون تأويل المتشابهات على ضوء المحكمات لا العكس ولا يصح أن يستخرج من الأولى أن عيسى جزء من الله تعالى والذي يصح تأويلها به هو أن ولادته تمت بمعجزة ربانية وبأمر الله الذي يقول للشيء : كن فيكون وانها بسبيل التقريب والتمثيل . ولقد روي أن آية سورة آل عمران الخامسة قد نزلت في مناسبة المناظرة التي جرت بين النبي ﷺ وبين وفد نجران في صدد حقيقة عيسى عليه السلام ، فإنهم لما أصروا على رأيهم دعاهم النبي إلى المباهلة ، فأبوا وقالوا : ألست تقول : إن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ؟ قال : بلى قالوا . هذا حسبنا . فأنزل الله الآية منددا بهم لتقول : إنهم تركوا المحكم في القرآن الذي ينفي أن يكون شيء مثل الله أو جزءاً منه ويقول : إن مثله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن

فكان، ويقول: إن عيسى عبد الله ونبيه ورسوله إلى بني إسرائيل وانه دعاهم إلى عبادة الله وحده ربه وربهم واتبعوا المتشابه الذي أريد به التمثيل والتقريب وتقرير كون ولادة عيسى تمت بمعجزة ربانية.

ومن جهة ثالثة إن كون القرآن أسساً ووسائل لا يعني أن الوسائل زائدة في القرآن، فإنما دعائم اقتضتها حكمة التنزيل لتدعيم الأساس والمحكم، فهي جوهرية من هذا الاعتبار، فآيات الكون والتكوين وما فيها لفت نظر إلى عجائب خلق الله وبدائعه وما أودعه في مشاهد كونه من نواميس ومنافع، وآيات البعث والحساب الأخرويين وما فيها من ترغيب وتبشير وترهيب وإنذار، وقصص الأنبياء والأمم وما فيها من عبرة وتذكير ومجادلة المشركين والكفار وما فيها من تحد وإفحام، وذكر الملائكة والجن بالأسلوب الذي ذكروا به، كل ذلك فيه تدعيم قوي وحكم بالغة من دون ريب. وكثير منه فيه في الوقت نفسه خطوط وتلقينات عامة تكون نبراساً للمسلمين كالأسس في سيرهم في شؤون الدين والدنيا بصفتهم الفردية والاجتماعية.

ومن جهة رابعة إن كون أنواع الوسائل أكثر من الأسس لا يعبر عن قصور القرآن عن تقرير ما يحتاج الناس جميعاً المخاطبون به والمدعوون إليه والمرشحون للإيمان به. ففي القرآن كل ذلك، سواء أكان من المحكمات أم المتشابهات أو بتعبيرنا من الأسس أم الوسائل. وقد تكفلت السنة والحكمة النبوية بما اقتضاه الحال من توضيح وإتمام وبيان مما هو من المهام الموكولة في القرآن إلى النبي ﷺ كما جاء في آيات عديدة منها هذه الآيات:

١ - كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.. [البقرة: ١٥١].

٢ – وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. [النحل : ٤٤] .

فصارت السنة متممة للتعليم القرآني وأوجب على المسلمين أخذها كما أوجب عليهم أخذ القرآن . والواجب الأول مقرر في آيات قرآنية منها هذه الآيات :

١ – يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ .. [النساء : ٥٩] [1] .

٢ – مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. [النساء : ٨٠] .

٣ – وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. [الحشر : ٧] .

ومن جهة خامسة إن المتشابهات لا تعني أنها مغلقة على الأفهام ،والآية صريحة أن أهل العلم يعلمون أو يلمحون تأويلها وحكمتها ،وعلى هذا مضت سنة الكون من انقسام الناس إلى أهل علم واختصاص وإلى عوام ومن تعلم العوام ما يشكل عليهم فهمه من أهل العلم والاختصاص .

فيكون وصف الحوري بعد هذا الشرح للمتشابه بما وصفه به هواء لا يحصل له إلا قصد التهويل والطعن والتجريح ، وقد خاب فأله ، وأخفق قصده ، وزهق باطله .

– ١٠ –

وعقد الحوري في كتابه فصلاً عن الناسخ والمنسوخ في القرآن ، وفي بداية فصله قال : (إن للنسخ في القرآن تاريخاً مذهلاً ، انفرد به دون

---

(١) العلماء متفقون على رد الأمور المتنازع عليها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى القرآن والسنة النبوية .

سائر الكتب المنزلة ، وقد تم تطور الناسخ للمنسوخ وتصفية المنسوخ بالناسخ حتى بقي منه القليل في القرآن العثماني - يعني المصحف العثماني - على ثلاث مراحل في زمن النبي ، وفي زمن جمع القرآن ، وفي القرآن العثماني الحجاجي الحالي) ثم قال في نهاية الفصل : (إن الناسخ والمنسوخ في القرآن مثل المتشابه مشكل في تاريخه وواقعه بحار فيه المؤمن وغير المؤمن ، وهو أيضاً بلاء من الله عظيم ، خصوصاً في انسجام واقع النسخ مع صحة التنزيل من اللوح المحفوظ)

ولو كان الحوري يعتقد حقاً أن القرآن منزل من الله ، لكان من الممكن مجادلته في ما قاله من القرآن ، ولكنه يقول ما يقول وهو غير مؤمن ، وإنما يقوله على سبيل التهويل وبقصد الطعن والتشكيك مع سوء الأدب ، وليس في ما يقوله حق ومأخذ صادقان .

فتبدل الأحوال وتبدل الأوامر وفق ناموس رباني واجتماعي متسق مع طبائع الأمور ، ولا يقول الحوري الحق حينما يقول : إن النسخ أمر انفرد به القرآن ، ففي أسفار العهد القديم والجديد (كتاب الحوري المقدس) صور عديدة من تبدل الأحكام والأوامر وفق تبدل المواقف والظروف معزوة إلى الله ورسله ، ففي سفر الخروج مثلاً حكاية لأمر رباني لبني إسرائيل بالإتجاه نحو أرض كنعان ، فلما فزعوا من أخبار أهل هذه الأرض ، وتمردوا ، سجل السفر حكاية غضب الله وحكمه عليهم بالموت في سيناء ، وعدم دخول تلك الأرض . وفي الأناجيل مثلاً حكاية عن نسخ عيسى عليه السلام بعض أحكام الشريعة التوراتية مثل حرمة السبت والطلاق[1] . فليس من بدع ولا غرابة أن يكون وقع في القرآن ما يفيد نسخ أحكام بأحكام ، وقد يكون في القرآن ما يفيد وقوع ذلك

---

(١) اكتفينا بهذه الأمثلة ويمكن إيراد عشرات من بابها .

بصورة عامة مثل آية سورة البقرة هذه (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. ١٠٦) ومثل آيات سورة النحل هذه (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .. ١٠١ و ١٠٢) وآية الرعد هذه (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ .. ٣٩) وفي هذه الآية بخاصة رد على تخرص الحوري عن انسجام واقع النسخ مع صحة التنزيل من اللوح المحفوظ حسب تعبيره .

ولقد قلنا : إن في كلام الحوري تهويلا ، ولذلك لم نر بأساً من زيادة في البيان لتفنيد هذا التهويل والإيهام ، فنقول :

١ - هناك حقاً روايات كثيرة مروية عن أصحاب رسول الله في صدد آيات نزلت ، ثم رفعت في زمن النبي ﷺ ، غير أن جل هذه الروايات إن لم تكن كلها غير وثيقة السند ، وقد يكون بعضها صحيحاً فيكون ذلك مما اقتضته حكمة التنزيل في زمن من كان ينزل عليه التنزيل ، وروح آيات البقرة والنحل يلهم أن ذلك كان قليلاً جداً ، وعلى كل حال يكون أمر ذلك قد انتهى وانحسم في حياة النبي فلم يعد للكلام عنها والتهويل فيها محل .

٢ - هناك حقاً روايات كثيرة أيضاً مروية عن أصحاب رسول الله في آيات وفصول كانت تقرأ ثم لم تعد تقرأ في المصحف الذي كتب بعد النبي وصار إماماً ، ويمكن أن نوهم الروايات أو بعضها أن هذه الآيات والفصول أسقطت أو نسخت بعد النبي ، غير أن جل هذه الروايات إن لم تكن كلها غير وثيقة السند كتلك ، ولا يمكن أن يكون شيء منها صحيحاً ، لأن القرآن كتب مصحفه الإمام لأول مرة عقب وفاة

النبي في زمن أبي بكر ، وقد احتوى هذا الإمام كل ما أنزل الله ولم ينسخ ، ولم يرفع في زمن النبي ومات وهو قرآن يتلى ، والمصحف الإمام الثاني الذي كتب في زمن عثمان هو منقول عن مصحف إمام أبي بكر بدون نقص ولا زيادة ، وهو أصل جميع المصاحف المتداولة إلى اليوم ، وكل ما وقع في صدد مصحف عثمان أن إملاء الكلمات ضبط حسب إملاء قريش ، وأمر المسلمون بنقل المصاحف عنه ، وإبادة ما في أيديهم من صحف فيها إملاء يختلف حتى يكون مصحفهم واحداً في إملائه دون تنوع فيه كما كان قبل ، وهناك حديث رواه البخاري ذو مغزى عظيم في هذا الباب حيث روى عن عبد الله بن الزبير قال : قلت لعثمان : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزاواجاً) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها ؟ قال : يا ابن أخي لا أغير شيئاً من مكانه الآيتان المشار إليها في الحديث هما آيتا البقرة ٢٣٤ و ٢٤٠ وأولاهما جعلت عدة إحداد الزوجة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، والثانية أوجبت للمرأة المتوفى عنها زوجها متاع حول ، أي : نفقة حول كامل وعدم إخراجها من بيت زوجها خلاله . إلا إذا خرجت هي من نفسها ولا حرج عليها في هذه الحالة . وقد ظن عبد الله بن الزبير أن في الآية ٢٣٤ نسخاً للآية ٢٤٠ فسأل سؤاله . وهناك حديث صحيح آخر له نفس المغزى رواه أبو داؤد والترمذي والنسائي وابن حبان والإمام أحمد عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال ؟ قال : كان رسول الله تنزل عليه السور ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب له ، فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا ، وكانت

الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وبراءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قضيتها شبيهة بقضيتها ، فظننت أنها منها ، وقبض رسول الله ولم يبين لنا أنها منها ، ومن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم . ويفيد هذا أن الأنفال كانت تدون في المصاحف في زمن النبي قبل سورة براءة مباشرة ، ولم يكن بينهما فاصل أو بسملة ، فأبقيت كما كانت في زمن النبي ، ويفيد بالتالي أن المصحف كان مرتباً في حياة النبي .

والحديثان يفيدان إلى هذا حرص عثمان على إبقاء كل شيء كما كان يتلى ويدون في زمن النبي وأن مصحفه احتوى كل ما كان يتلى ويدون في زمن النبي بدون تغيير في ترتيب أو تقديم أو تأخير أو زيادة أو نقص .

والحوري قرأ هذه الأحاديث بدون ريب ، ولكنه أهملها لأنها لا توافق هواه .

ولقد نقل الحوري عن كتاب « الاتقان » هذه العبارة القوية التي عزاها مؤلف الكتاب إلى أبي بكر الباقلاني : (والذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزل الله وأمر بإثباته ورسمه ولم ينسخه ولم يرفع تلاوته بعد نزوله هو هذا القرآن بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان) ومع ذلك فلم يمنع نفسه من التعقيب عليها قائلاً (وهذا الذي نسخ أو رفعت تلاوته أو أسقطه عثمان ما هو ؟) . ثم أخذ الحوري يورد بعد هذا الروايات التي لا سند لها والتي تذكر إسقاط بعض الآيات الفصول . ومع أن الروايات لا تذكر بصراحة أن هذا الإسقاط كان في سياق كتابة مصحف عثمان ! بل تفيد أكثر أنها تعني ما رفع في زمن النبي ﷺ ، فإنه قال : (وهكذا قد أسقط عثمان من المصحف قرآناً كثيراً ...) وهكذا يستمر الحوري على افترائه وإفكه ويرسل القول جزافاً دون أن

يستند إلى رواية ما مهما كانت رتبتها تؤيده في قوله عن إسقاط عثمان رضي الله عنه قرآناً قليلاً أو كثيراً ، بل وبرغم الأحاديث الوثيقة التي تروي شدة حرص عثمان على عدم تبديل وتغيير وتقديم وتأخير فضلاً عن النسخ .

ولقد أوردنا في كتابنا « القرآن المجيد » جميع الروايات التي أوردها مما ليس له سند وثيق وفندناها ، وقد اطلع الحوري على كتابنا ، ونقل كثيراً عنه ، وكان عليه أن يقف عند حد تفنيدنا ، لأن فيه المقنع لمن يريد أن يقتنع ، بل وبدلاً من ذلك ، فإنه أورد بعض الروايات غير الوثيقة عزواً إلينا دون أن يورد تفنيدنا لها بحيث يجعل قارىء كتابه يتوهم أننا مسلّمون بها !

ولقد جاء في كلامه ذكر لمصحف الحجاج أو ما يسميه أحياناً بالجمع الثالث . وهذا القول منه مجازفة لا يسنده أي سند ، فليس هناك رواية ما تذكر أن الحجاج جمع مصحفاً من جديد ، وكل ما هناك هو رواية غير وثيقة تذكر أنه وضع أو وافق على وضع نقاط على الحروف المتشابهة في الرسم وصحح أو وافق على تصحيح رسم بعض الكلمات ، وقد تم هذا على مصحف عثمان بدون تغيير ولا تبديل ، وليس هناك أية رواية وثيقة أو غير وثيقة تذكر إسقاطاً أو تغييراً ، أو تبديلاً من طرف الحجاج مع ما افتري على الحجاج من افتراءات عظيمة تمس دينه وشرفه . وقد تصدينا لهذه المسألة ومحصناها بما رأيناه الوجه الحق في كتابنا « القرآن المجيد » والحوري اطلع على ذلك وتغافل عنه كما تغافل عن أقوالنا وتفنيداتنا الأخرى ، لأنها لا تتفق مع هواه .. وقد تصدينا لها أيضاً في آخر الفصل الأول من هذا الكتاب [١] .

٣ – لقد ذكر الحوري في فصله أنواع المنسوخ التي ذكرها العلماء

---

(١) انظر الصحف ٧٧ – ٩٣ .

وهي ثلاثة منها المنسوخ حكماً وتلاوة ، والعلماء مجمعون على أن هذا إذا وقع فيكون قد وقع في زمن النبي ﷺ ، وأمر هذا قد انتهى إن كان قد وقع فعلاً ، وهو ما قد تفيده آيات سورة البقرة (١٠٦) وسورة النحل (١٠١ و ١٠٢) التي أوردناها قبل .

ومنها ما هو منسوخ تلاوة لا حكماً ، أي : إن حكمه باق وتلاوته منسوخة ، وأن هذا أيضاً وقع في زمن النبي ﷺ . وتورد آية الرجم للزاني كمثال على ذلك ، ويروى أنها رفعت في زمن النبي ولكن حكمها باق .

ويورد حديث صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن قال : « إن الله قد بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم ، قرأناها ووعيناها ، وعقلناها ، فرجم رسول الله ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : ما نجد الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة ، أو كان الحبل أو الاعتراف » .

وهناك صيغتان مرويتان لآية الرجم وهما (إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم) و (إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة نكالاً من الله والله عزيز حكيم) ومما يُروى أيضاً أن عمر طلب من زيد بن ثابت إثبات الآية في المصحف حينما كلف بكتابة المصحف الإمام في زمن أبي بكر ، ولكنه أبى تدوينها لأن عمر لم يأت بشاهدين عليها حسب الخطة التي تقرر السير عليها في تشديد الحرص على أن لا يدون في القرآن إلا ما كان ثابتاً ثبوتاً قطعياً أن النبي توفي وهو قرآن غير منسوخ وغير مرفوع . وقد محصنا هذه المسألة في الجزء الأول من كتابنا « الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة » وترجح لدينا أن من المحتمل أن تكون آية نزلت برجم الشيخ

والشيخة إذا زنيا ، ثم نسخت في زمن النبي ، ثم اقتضت حكمة رسول الله أن تشدد عقوبة الزنا المذكورة في القرآن وهي مائة جلدة بالنسبة للزناة عموماً ، لأن القرآن قرر هذه العقوبة بدون توضيح ، فجعل النبي عقوبة المحصنين ، عموماً وليس للشيخ والشيخة منهم فقط الرجم وعقوبة غير المحصنين الجلد في أحاديث صحيحة مأثورة عنه وليس للشيخ والشيخة خاصة . ومنها ما هو منسوخ حكماً لا تلاوة ، أي : إنه ظل يتلى قرآناً مع أن حكمه قد نسخ . وهذا هو الذي يدور عليه كلام العلماء على الأكثر ، ومعظم هذا الكلام اجتهادات فردية لا تستند إلى أحاديث نبوية وصحابية وثيقة ، وتتحمل توقفاً وتحفظاً ، ومنها ما تقوم الشواهد على عدم صوابه ، والقليل منه هو الذي يمكن أن يكون صواباً خلافاً لما يريد الحوري أن يوهمه ويهوّل به . وقد نبهنا على ذلك كما نبهنا على ما روي من النوعين الأولين في « التفسير الحديث » وأوردنا من الأدلة والشواهد ما نعتقد أنه مقنع وفيه وضع للأمر في نصابه الحق .

والحوري قرأ في « الإتقان » ما يؤيد ما قلناه حيث جاء فيه (وهذا الضرب أي المنسوخ حكمه دون تلاوته هو الذي كتبت فيه الكتب المؤلفة في الناسخ والمنسوخ ، وهو على الحقيقة قليل جداً وإن أكثر الناس من تعدد الآيات فيه) ولكن الحوري لم يرعو ولم يمتنع عن التهويل والتحريف والتخويف .

ومن الجدير بالذكر أن هناك من ينكر وجود منسوخ حكماً لا تلاوة في القرآن فضلاً عن وقوع نسخ من النوعين الآخرين في زمن النبي ﷺ . ويعلل ما يبدو أنه منسوخ حكماً مع بقائه تلاوة بعلل يراها وجيهة وصواباً ، ومن الأمثلة على ذلك آيات الأنفال (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ . الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) ففي حين أن بعضهم يرى أن الآية الثانية نسخت حكم الأولى يرى بعضهم أن حكم الأولى باق أيضاً بالنسبة لمن لا يستعظم مقاتلة واحد لعشرة من الكفار بقوة الإيمان ، والرغبة في الاستشهاد ، والاعتماد على نصر الله ، وأن التخفيف هو لمن يستعظم ذلك ، فجعل على الواحد من هؤلاء أن يقاتل ضعف عدده على الأقل من عدوه الكافر ، لأنه يمتاز عنه بالإيمان ، والاعتماد على نصر الله على كل حال ، ويعلل الفريق الأول آية سورة البقرة (١٠٦) بأنها في صدد تحويل القبلة عن سمت المسجد الأقصى إلى سمت الكعبة وليست في صدد نسخ آية من القرآن بآية أخرى ، ويعلل آية النحل بأنها ليست في صدد نسخ حكم في آية بحكم في آية أخرى ..

- ١١ -

وعقد الحوري فصلين طويلين عن بديع القرآن وبيانه ، وما نبه عليه علماء القرآن واللغة والبلاغة من فنون ذلك من مجاز وتشبيه واستعارة وكناية وتعريض وحصر واختصاص وإيجاز وإطناب وأقسام وإنكار وتوشيح وتعجب ورعد ووعيد وتبشير وترغيب وجناس وتجنيس وتورية والتفات واستخدام واستدراك واستطراد وإدماج وإبدال واستثناء ومدح في معرض الذم وتلطيف وتدبيج وتبكيت وتجريد وتعديد وترتيب وتضمين وجمع وتفريق وتأليف وتوزيع وعتاب ولف وطي ونشر ، ومشاكلة ومبالغة وتفخيم وتضخيم وإلهاب ، وحجاج وتجميم وتجاهل وبراعة استهلال وإيضاح وإشارة وإرداف وتمثيل وإيغال واحتراس وموازنة

وموازنة وترديد وترسيخ ومغايرة وتعليل وسلب وإيجاب ومماثلة وتوهم وتذييل وإبهام ونفي وتكرار وتهذيب وتعليق وتعقيب وتخلص وتوليد وإتباع وإلجاء وإلزام وتخيير وتنظير وتخريج واستقصاء وبسط وإجمال وإبهام وإثبات في معرض النفي ومقارنة ورمز وإيماء ومناقضة وانفصال وحسن ختام ، وأورد نقلاً عن كتاب «الإتقان» أمثلة لكل هذه الفنون مما لم نر طائلاً في إيراده ، ثم قفز من ذلك إلى ترديد قول لأحد المستشرقين مفاده أن بيان القرآن على كل حال ومهما كان فيه من فنون الكلام هو (بيان حجازي لا عالمي) لأن ما فيه من عناصر وصور بيانية مستمد من حياة ومشاهد أهل الحجاز وبيئتهم الطبيعية والاجتماعية والمعاشية ، وحاول أن يجد تكأة لهذا القول في جملة (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ) في آيتي سورتي مريم والدخان ٩٧ و ٥٨ وجملة (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ) في آية سورة إبراهيم (٤) وفسر كلمة اللسان في كل ذلك باللسان الحجازي ، لأنه لسان قوم النبي الأولين ، وقال : إن القرآن نفسه يشهد أن بيانه حجازي لا يتعدى إعجازه لسان قوم النبي .

وكلام الحوري ومن وراءه من المستشرقين الذين نرجح أنهم مبشرون حاقدون جزاف متهافت . وفيه من سوء النية مع الغباء ما لا يمكن أن يخفى . وقصده الجوهري هو إبطال أو إضعاف دعوى إعجاز نظم القرآن بعد ما ظن أنه أبطل أو أضعف دعوى إعجاز محتوى القرآن بزعمه أن ذلك مما لم يدعه ويقل به الأولون الذين هم الأقرب لعهد القرآن والأفهم لمراميه ...

فاللسان الذي نزل به القرآن ليس لسان أهل الحجاز وحسب ولكنه (اللسان العربي) الذي كان لسان جميع العرب المنتشرين في جميع أنحاء

جزيرة العرب وخارجها معاً بيمنها ونجدها وتهامتها وبحرينها وعمانها ويمامتها وحضرموتها ثم مشارف الشـام ، وصميم بلاد الشام ، وجزيرة الفرات ، وصحراء العراق ، وصميم العراق ، وهذا هو الذي كان يعنيه القرآن حينما وصف لغة القرآن باللسان العربي في آيات سورة الشعراء (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ . بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) وبالعربي في آيات سورة يوسف (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ٢) وسورة طه (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ١١٢) وسورة فصلت (كِتابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّـاً ٣) وسورة الزخرف (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ٣) ولقد ذكر (اللسان العربي) مقابل (اللسان الأعجمي) في آية سورة النحل هـذه (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْـهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) وفي آية سورة فصلت هذه (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُـهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) ويعني هذا بكل وضوح وحسم أنـه ليس هناك لسان حجازي ، ولسـان غير حجازي ، وليس هناك إلا لسان واحد لجميع العرب في الحجاز وغير الحجاز وهو (اللسان العربي) . وكان هذا هو المستقر والشامل من قبل البعثة النبوية بأمد غير قصير ، وليس احتمال وجود تغاير ما في اللهجات وتفاوت ما في مدى الفهم ناقضاً لذلك ، وليست آية الشورى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ٧) ناقضة لذلك لأن الدعوة كانت في بدء أمرها موجهة مباشرة إلى أم القرى ـ مكة ـ ومن حولها ، وقد شرحنا هذه المسألة شرحاً نعتقد أن فيه المقنع لمن أراد أن يقتنع في كتابنا « عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثـة » والخوري قرأ هذا الكتاب ، ونقل عنه كثيراً ، وكان عليه أن يقف عنده ، لأنه لا يستطيع أن ينقضه ، لأنه حقيقة يقينية قطعية .

ولقد كان من المتواتر الذي بلغ حد اليقين أولاً أن النبي ﷺ كان يتصل بمختلف الطبقات والشخصيات المكية ، ثم بمختلف الطبقات والشخصيات والقبائل التي كانت تفد على مكة في المواسم والأسواق ويتحدث إليهم ، ويتلو عليهم آيات القرآن ، ويتفاهم معهم بلغته التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال ، ومن المتواتر أن موسم الحج وأسواقه لم تكن قاصرة على أهل الحجاز وخاصة قبيل البعثة ، بل كان يفد إليها العرب من أنحاء الجزيرة وخارجها . وثانياً ان هذا المشهد ظل قائماً بكل شموله في بيئة المدينة بعد هجرة النبي ﷺ إليها بالنسبة لسكانها ولمن هم في منطقتها . ولقد أخذت وفود العرب مشركين ونصارى ومجوساً يفدون على النبي في المدينة بعد الهجرة ولا سيما بعد انتصاراته وانتشار اسمه ودعوته من اليمن وحضرموت ونجد والأحساء والبحرين وعمان واليمامة ومشارف الشام والشام وفلسطين وجزيرة الفرات فكان النبي يتلو عليهم آيات القرآن ويتخاطب معهم هو وأصحابه الحجازيون المهاجرون والأنصار بلغتهم التي كانت لغة القرآن بصورة طبيعية . وكان يرسل معهم قراء من أصحابه ليعلموهم القرآن ويفقهوهم في الدين ، ويتولوا القضاء بينهم وجباية زكاتهم وتوزيعها ، وكان يكتب لهم الرقاع والعهود والوصايا بنفس هذه اللغة ، ويتلقى من بعضهم الأجوبة بها ، وفي كتب السيرة نصوص كثيرة مما كان النبي يرسله ويتلقاه وهي نفس اللغة القرآنية . وثالثاً إنه كانت اتصالات مستمرة بين أهل الحجاز من ناحية وبين العرب في أنحاء جزيرة العرب الأخرى ، وفي مشارف الشام ، وصميم بلاد الشام ، وجزيرة الفرات والعراق . بدو وحضر قبل البعثة وفي مواسم الحج في الحجاز ، وفي رحلات التجارة وغيرها وكانوا يتفاهمون ويتخاطبون بلغة واحدة . وما دام الحجازيون طرفاً ، فتكون لغة التخاطب هي اللغة العربية التي نزل بها القرآن . ورابعاً لقد روي

كثير من كلام العرب قبل الإسلام ومساجلاتهم وخطبهم وشعرهم وأمثالهم ، منه ما هو منسوب إلى حجازيين ، ومنه ما هو منسوب إلى نجديين ويمنيين وتهاميين وشاميين وعراقيين من البوادي والحواضر مما هو مبثوث في كتب التاريخ والأدب واللغة والتراجم القديمة كالأغاني ولسان العرب والقاموس ومعجم البلدان والكامل والبيان والتبيين وحياة الحيوان والأمثال والأمالي والعقد الفريد والطبري واليعقوبي والبلاذري وابن هشام وابن سعد وأسد الغابة ودواوين الشعراء ومختاراتها وكتب الحديث والتفسير والخراج الخ جاءت بلغة فصحى مماثلة للغة القرآنية في مفرداتها وصرفها ونحوها وسبكها ونظمها ومجازها وبديعها وبيانها وفنونها الأخرى . ومهما كان من ذلك منحول ومصنوع وبخاصة بالنسبة لما قبل البعثة ، فإن فيه على كل حال وباعتراف أشد المتزمتين في ذلك شيئاً غير قليل صحيحاً وبخاصة مما هو منسوب إلى رجال ونساء عاشوا في حقبة المائة سنة التي سبقت البعثة النبوية .

ففي كل هذا أدلة لا تدحض على شمول اللغة العربية الفصحى لأهل جزيرة العرب وخارجها قبل البعثة وهي نفس اللغة القرآنية بحيث يمكن القول بكل قوة : إن كل كلمة جاءت في القرآن ، وكل معنى ورد فيه وكل تعبير واستعمال فيه حقيقي ومجازي وديني واجتماعي وتاريخي واقتصادي ومعاشي وعلمي وفلكي كان العرب في جميع أنحاء الجزيرة وخارجها يفهمونه ويستعملونه قبل نزول القرآن من حيث الإجمال وبقطع النظر عن السعة والضيق .

ويترتب على هذا أن ما في القرآن من مختلف الصور المعاشية والاجتماعية والثقافية والدينية تعبر عما عند الناطقين باللغة العربية القرآنية ، أي : ما عند جميع العرب بصورة عامة . وبكلمة ثانية إن اللغة القرآنية لم تكن لغة حجازية ، وإنما كانت لغة العالم العربي المنتشر في جزيرة العرب وما

بجاورها من بلاد الشام والفرات والعراق : بواديها وحواضرها . ويكون بيان القرآن على نفس الشمول بطبيعة الحال ، وليس بياناً حجازياً كما يزعم الحوري ، ومن وراءه من المبشرين .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هناك أموراً إنسانية يشترك فيها كل إنسان في كل مكان وظرف من عواطف وأحاسيس وغرائز وميول ، ثم هناك مشاهد طبيعية مشتركة في كل مكان من سماء وشمس وكواكب وماء وجبال ووديان وهواء وأنهار وبحار ومعادن وقوى كونية ومظاهر كونية لا يصح أن يقال : إن ما في القرآن في صددها إنما يعبر منها عما كان عند العرب ، أو عند العرب الحجازيين ، لأنها عند جميع الناس في كل مكان . ولكل ذلك في القرآن مئات الصور الرائعة التي ينطوي فيها مختلف فنون الكلام والتي هي في كل ذاك في الذروة في الدقة والروعة والطلاوة والحلاوة ، وحسن الأداء والنفوذ والتأثير يصح أن تكون عالمية التأثير إذا ما نقلت إلى غير الناطقين بالعربية على وجهها ، وتثير الانبهار في نفس سامعيها .

وفي لغات الأمم المتحضرة القديمة والحديثة تعبيرات مشتركة عن مواقف ومشاعر وأحاسيس وحالات إنسانية عامة اجتماعية وأخلاقية وسلوكية وسلبية وإيجابية وفكرية وتمثيلية وجدلية وافتراضية ومجازية وتشبيهية وجدية وهزلية يصح أن تسمى عالمية . وفي القرآن مئات الصور من كل ذلك بأسلوب يفوق أية لغة أخرى حسن أداء ، وقوة سبك ، وبلاغة ونفوذ وعمق وإصابة مما يمكن أن يلمسه المتوسطون فضلاً عن النبهاء والعلماء حين المقابلة والمقارنة .

ومن الحقائق اليقينية أن الإسلام أخذ ينتشر بين غير العرب في زمن النبي أولاً ثم في زمن الخلفاء الراشدين ، والروايات متواترة عن إسلام جماعات من الحبشة على رأسهم النجاشي في زمن النبي ، وأن ذلك كان

نتيجة لما فهموه من فصول القرآن المترجمة إلى لغتهم ، ولا يمكن أن يكون هذا قد وقع إلا من تأثير كلام الله وقوته ونفوذه في نفوسهم ، ثم اتسع نطاق الإسلام في أهل بلاد الشام والعراق ومصر وفارس والترك والبربر والنوبة والروم الخ خلال النصف الأول من القرن الهجري الأول ، والمتبادر أن ذلك كان نتيجة كذلك لما فهموه من فصول القرآن المترجمة إلى لغاتهم ولا يمكن أن يكون قد وقع إلا بسبب ما كان من تأثير كلام الله وقوة نفوذه في نفوسهم ، ثم اتسع نطاق الإسلام أكثر في النصف الثاني من القرن الأول وبعده ، فعم جميع أهل البلاد المذكورة في مشارق الأرض ومغاربها ، ووصل إلى أوروبا بطريق الأندلس . والمتبادر أن ذلك كان نتيجة لسماعهم القرآن ، وتأثرهم به فهماً مباشراً أو مترجماً فصار بيانه بذلك بياناً عالمياً منذ عهده الأول ، وما يزال رغم أنف الحوري ومستشرقيه المبشرين الحاقدين .

ونحن نعتقد أن كل منصف ذي ذوق بالأدب والفن وأساليب الكلام من غير العرب فضلاً عن العرب لا يسعه إلا أن ينبهر من اسلوب القرآن وفنون كلامه على اختلاف أنواعها وتنوع أغراضها ويتأثر به إذا ما تعلم العربية أو ترجمت له . والحقد والغثاثة هما اللذان يمنعان الحوري من ذلك بقصد إطفاء نور الله في كتابه ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

ولقد عقب الحوري على ما جاء في فصله بالإضافة إلى ما قاله وعزاه إلى بعض المستشرقين قائلاً : (إن علماء القرآن رأوا في كل ذلك إعجازاً حيث يبدو أنهم رأوا الإعجاز في صناعته أكثر من روحانيته ، وهم يتكلمون عن الأولى أكثر من الثانية ، وأن التحدي إنما كان للنظم والبيان .)

والحوري لايمل من اجترار أقوال وتكرارها ، ولقد شرحنا هـــذه المسألة في مطلع هذا البحث شرحاً فيه الغناء والإفحام [1] .

---

(١) انظر الصفحة ٣٣٧ وبعدها .

ولم ينتبه الحوري إلى ما وقع فيه من تناقضات، ففي تعقيبه يبرز قول بعض علماء القرآن بأن إعجاز القرآن في بيانه، وطبيعي أن القائلين إنما عنوا بيانه العربي الواسع، وليس بيانه الحجازي الضيق، ومناقضة أخرى وقع فيها وهو يتحمس لإثبات كون بيان القرآن بياناً حجازياً. ففي موقف آخر قال هاذياً: إن لغة القرآن المكتوبة في المصحف هي لغة نجدية وهنا يقول هاذياً: إن بيان القرآن هو بيان حجازي..

ولم ير الحوري ما يمنعه بعد ما كان منه من هواء وهذيان أن يتواقح فيها أكثر فيقول: (إن الإعجاز الحق هو في إنجيل المسيح، لأنه روح وحياة، فالحرف يقتل، والروح هو الذي يحيي، وهو إعجاز لا يضيع في الترجمة كما يضيع إعجاز القرآن إذا ما نقل من لسان إلى لسان، لأنه إعجاز بياني وحسب، بينما ينسجم الإعجاز الروحي مع كل لسان، وتتذوقه كل مؤمن في كل أمة، والبديع والبيان والصناعة اللفظية والمحسنات البديعية حرف وجسد لا تفيد كبير أمر بالنسبة للروح الذي هو حياة العقول والقلوب والدين والإيمان، والأصل في الإعجاز إنما يجب أن يكون في الروحانية لا في البيان ولا في البديع)

والحوري في هذا القول يعود مرة أخرى بدون ملل إلى نغمته السابقة، وإلى بيت قصيده، وهدفه الخبيث الذي فندناه، وأثبتنا زيفه وتهافته. فعلماء القرآن وان اهتم كثير منهم لإبراز فنون البيان والنظم القرآني وإعجاز القرآن من هذه الناحية، فإنهم فعلوا هذا بالإضافة إلى تقريراتهم بالإعجاز الروحاني والمحتوى أيضاً، وهو ماقرره القرآن نفسه ثم رسول الله على ما أوردنا شواهده، وإعجاز القرآن هو بدون ريب لروحانيته أكثر منه لنظمه وفنونه، لأن فنون البيان والنظم هي مظهر من مظاهر ما وصلت إليه اللغة العربية التي نزل بها القرآن من شأو بليغ قبل البعثة في حين

يظل هدي القرآن وروحانيته هما الأصل والهدف والجوهر الذي عبرت عنه الآيات العديدة المكية والمدنية التي أوردناها في مطلع هذا البحث ، وهي من القوة والنفوذ والسطوع ما يخرس الحوري .

ولا يكتفي الحوري بما تقدم منه لأجل الطعن في النظم القرآني ، ونسف ما قيل من إعجازه البياني بقوله : إنه بيان حجازي وحسب وفق الخطة التي ترسمها والتي نبهنا عليها في مطلع البحث خاب فأله ، وزهق باطله .

حيث نقل عن الجاحظ قولاً له جاء فيه : (إن الله سمى كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم على الجملة والتفصيل ، فسمى جملته قرآناً كما سموا جملتهم ديواناً ، وسمى بعضه سورة كما سموا بعض كلامهم قصيدة وسمى مفرده آية كما سموا مفرد كلامهم بيتاً) ثم قال : وفاتهم - أي العرب والجاحظ من جملتهم - أن هذه الأسماء الجديدة منقولة عن العبرانية بطريق السريانية ، فكلمة (القرآن) من (قِرْيا) و (سورة) من (شورا) و (آية) من (يوت) وقد قصد من هذا تقرير كون أسماء القرآن وأوصاف أقسامه ليست عربية أصيلة .

ومن عجيب تهافت الحوري أنه يعرف ويقول في غير موضع من كتبه : إن العبرانية والسريانية والعربية تشترك كلغات سامية في أصول الكلم ، وكان عليه أن ينتبه إلى أن هذه الكلمات لا يمكن إلا أن يكون العرب قد استعملوها وفهموها على مداها قبل نزول القرآن ، فصارت من اللسان العربي المبين ، وكلام الجاحظ إذا كان صحيحاً فلا يمكن أن يؤخذ به كحجة على أن كلمات (القرآن والسورة والآية) تستعمل في القرآن لأول مرة ، ولا نعتقد أنه قصد ذلك لأن علمه وأدبه وعقله أوسع من أن يظن به ذلك ، وما دام أن هذه اللغات مشتركة ، فلا يصح أن

يقال : إن اللغة العربية أخذت هذه الكلمات من السريانية والعبرانية والأصدق أن يقال : إن جذورها موجودة في كل منها ، وانها في صيغتها القرآنية متطورة عن جذرها العربي الأصيل .

- ١٢ -

وعقد الخوري فصلاً طويلاً بعنوان غريب القرآن ، ومصدره الرئيسي فيه « الإتقان » الذي فيه فصل بهذا العنوان متفرع عنه فروع عديدة . ولقد قال في مطلع فصله : (إن في إعجاز القرآن باباً هو أقرب إلى الغرابة والتعجيز منه إلى الإعجاز سماه علماء القرآن بغريب القرآن ، ويعنون ما في القرآن من مفردات وتعابير وتراكيب مستغربة التأويل)

ومع أن العلماء الذين استعملوا كلمة (غريب) ينبهون على أن هذا اصطلاح فقط ، ولم يعنوا أن ما يطلق عليه يصح أن يوصف بالمنكر أو النافر أو الشاذ ، ونزهوا القرآن عن ذلك ومع أنه قرأ بدون ريب استدراكهم وتحفظهم ، فإنه لم يمنع نفسه من بدء فصله بما بدأه به من سوء الأدب والتحريف والوقاحة .

ولقـــد انتقل الخوري بعد تلك البداية البذيئة إلى التفصيل كما يلي بيانه :

١ ـ لقد أورد نقلاً عن « الإتقان » جملة من الألفاظ التي يسميها علماء القرآن بغرائب الألفاظ . وهم يقصدون بذلك الكلمات التي أولها المؤولون في بعض الآيات التي وردت فيها بغير المعنى المتبادر منها لأول وهلة . مثل كلمة (بلاء) التي أولها المؤولون في بعض الآيات بمعنى (النعمة) وكلمة (فوم) بمعنى (الحنطة) وكلمة (أماني) بمعنى (أحاديث) وكلمة (جناح) بمعنى (حرج) وكلمة (خلق الله) بمعنى (دين الله) وكلمة (الجوارح) بمعنى (الكلاب والفهود) وكلمة (العراء) بمعنى

(الساحل) وكلمة (حناناً) بمعنى (الرحمة) وكلمة (تستأنسوا) بمعنى (تستأذنوا) ثم قال : (إن هذا الغريب مشكل في مصادره وفي مدى إعجازه ، والقرآن نزل بلغة قريش فمن أين جاءته هذه الغرائب اللفظية ، وإنه والحالة هذه قد يكون اسلوباً من أساليب التعجيز أكثر منه مظهراً من مظاهر الإعجاز .)

وأورد بعد هذا رواية تعزى إلى ابن عباس أنه قال : إنه لايعرف معاني (غسلين) ولا (حنان) ولا (أوّاه) ولا (رقيم) ورواية تعزى إلى أبي بكر وعمر (أنهما لا يعرفان معنى (أب) ثم قال : (إذا كان اللسان العربي المبين لا يستبينه أهله والمقربون إلى النبي ، فكيف يكون فصيحاً في لسانه بليغاً في بيانه ، وهل يكون هذا إعجازاً في البيان أم تعجيزاً للناس .)

وهكذا يستمر في بذاءته وسوء أدبه مع الغثاثة والغباء في تفصيله كما بدأ بذلك مطلع فصله . فالله سبحانه يتنزه عن قصد تعجيز الذين يدعوهم إليه واستعمال الكلام الغريب الذي يشكل عليهم فهم مداه ، ولقد وصف القرآن في القرآن بأنه (لسان عربي مبين) وأنه (لسان عربي غير ذي عوج) و (أن الله قد جعله عربياً لقوم يعلمون ولقوم يعقلون) ومعنى هذا أن كل ما جاء فيه كان مفهوماً سائغاً ، وليس ما روي عن ابن عباس وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم وثيقاً حتى يؤخذ كأمر مسلم به ، ويبنى عليه حكم ونتيجة ، ويتخذ ذريعة إلى الطعن في لغة القرآن ويسر فهمها ، وليس اختلاف تأويل الكلمات المروي معزواً في كتاب « الإتقان » إلى عهد النبي ﷺ أو عهد خلفائه الراشدين .

والحوري يعرف هذا لأنه ينقل عن « الإتقان » فيكون في ما يقوله سوء قصد وتحريف ، والمتبادر على ضوء وصف القرآن بالأوصاف السابقة

أن هذا الإختلاف هو متأخر عن ذلك العهد . وبعد أن أصبحت اللغة الفصيحة تعلم تعليما بعد اتساع نطاق الإسلام ، واندماج غير العرب فيه ، وفساد السليقة العربية ، وكل هذا بقطع النظر عن أن اختلاف معاني الكلمات في مقاماتها المختلفة ليس شيئاً شاذاً أو بدعاً ، فهو أمر مألوف في جميع اللغات ، ولا يجهله الحوري الذي يبدو أنه يعرف لغات عديدة شرقية وغربية .

ومع كل هذا فالمفردات التي يوردها علماء القرآن تحت اصطلاح غرائب الألفاظ ، والتي يختلف تأويلها حسب اختلاف مقاماتها لاتكاد تصل إلى واحد من خمسمائة من كلمات القرآن حتى لو سلمنا بجميع ما أورده هؤلاء العلماء تحت هذا الباب بقطع النظر عما يصح أن يكون محل تحفظ وتوقف منه ، ولا تتحمل تضخيماً ولا تهويلًا لو لم يكن باعث ذلك سوء نية وأدب .

٢ ـ وأورد الحوري نقلًا عن « الإتقان » كذلك جملة مما قال علماء القرآن بأنه بغير لغة الحجاز وبأنه من لغات قبائل تميم وهذيل وأسد وغطفان وبني حنيفة ونجد وحضرموت واليمن وغسان ولخم وجذام وخزاعة وثقيف وجرهم ومذحج وخثعم وقيس عيلان وكندة وطي وأنمار والأوس والخزرج وتغلب وهمدان الخ ثم قال : (والمشكل الذي يستعصي حله أن القرآن نزل بلسان قريش ، فمن أين جاءت خمسون لغة من لغات العرب ، وأين والحالة هذه إعجاز اللسان القرشي المبين ، وهل هذا من رواسب الأحرف السبعه التي تفرقت في القبائل ؟) .

وهذه الأقوال وما تبعها من أسئلة كسابقاتها تنم عن جهل وسوء أدب ، ورغبة في الطعن والتجريح وحسب .

فنسبة الكلمات إلى القبائل التي تنسب إليها ليست وثيقة السند الممتد

إلى عهد النبي ﷺ وما قبله ، فلا يصح أن تؤخذ كأنها حقيقة ، والقائلون متأخرون ، ويبنون أقوالهم على السماع والتخمينات ، وربما على ما كان راهناً في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة حينما صارت مفردات اللغة تدون في الكتب ، وتؤخذ من أفواه أهل البادية . حتى ولو صح أن بعض هذه الألفاظ كانت مستعملة عند القبائل المعزوة إليها ، فلا يمكن أن يعني هذا أنها وردت في القرآن لأول مرة ، والوثيقة الصادقة المدونة التي وصلت إلينا هي القرآن ، وقد وصف أنه لسان النبي القرشي ، فلا بد من أن تكون هذه الألفاظ قد أصبحت جزءاً من هذا اللسان قبل نزول القرآن ، وأن يكون قوم النبي الأدنون القرشيون قد عرفوها واستعملوها قبل نزول القرآن ، فلما اقتضت حكمة التنزيل ورودها في مقاماتها وردت على هذا الاعتبار .

وتساؤله عن (رواسب الأحرف السبعة) يزيد في كشف سوء أدبه ، وسوء قصده ، وغبائه وغثاثته معاً ، وليس لأحاديث الأحرف السبعة أي محل لمثل هذا التساؤل الوقح ، وقد أوردناها وشرحنا مداها في آخر الفصل الأول شرحاً يغني عن التكرار[1] .

٣ – وأورد الحوري نقلاً عن « الإتقان » جملة مما ذكره علماء القرآن تحت عنوان (ما وقع في القرآن بغير لغة العرب) مما قيل : إنها ألفاظ فارسية الأصل ، أو حبشية ، أو بربرية ، أو قبطية ، أو رومية ، أو هندية ، أو عبرانية ، أو سريانية . وقد بدأ بحثه بهذه الجملة (ومن أغرب ما في غريب القرآن ما وقع فيه بغير لغة العرب) مما فيه مسارعة إلى كشف سوء أدبه وسوء نيته معاً .

ولقد نقل عن « الإتقان » جملة من أقوال العلماء في صحة وصواب ما قيل من وجود ألفاظ غير عربية في القرآن ، وعدم صحته وصوابه

(١) انظر الصفحة ٦٧ وبعدها .

وتعارضه مع وصف القرآن بأنه لسان عربي مبين ، ومن ذلك قول بمنع ذلك ، لأن القرآن تحدى العرب بالإتيان بمثله ، فلا يصح أن يكون تحديهم بما لا يعرفون من لغات ، وقول بجواز ذلك وكون العرب قد عربوا هذه الكلمات بألسنتهم ، وحولوها من ألفاظ أعجمية إلى ألفاظ عربية ، وصدق عليها وصف القرآن للقرآن بأنه لسان عربي مبين ، وان التحدي للعرب لم يبق والحالة هذه بلغة غير لغتهم .

ومع أن الشطر الأول من القول الأخير هو الحق والصواب والواقع والمنطقي في هذه القضية ، فإن الحوري لم يقتنع به ولم يقف عنده ، لأنه لا يطلب حقاً ولا صواباً ولا منطقاً حيث قال معلقاً : (إن الألفاظ دخيلة على العربية ، وليست أصيلة فيها ، والبليغ لا يستعمل الدخيل إذا كان في لغته غنى عنه) ثم تساءل بخبث وسوء نية (عما إذا كان الأمر اقتضى استعمالها ، لأنه ليس من لفظ عربي ينزل بمنزلتها) ثم قال : (عد إلى الألفاظ وقابلها بأمثالها العربية تجد الجواب الحق من سليقتك حيث تجد أنهـــا جاءت من باب التعجيز لا من باب الإعجاز) . ونقل عن « الإتقان » قولاً لبعض العلماء جاء فيه : (إن حكمة ذلك أن القرآن الموجه إلى كل البشر ينبغي أن يكون فيـه من كل لسان حتى يصدق عليه جملة (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ) فعلق على هذا قائلاً : (إن هذا المنطق أغرب من غريب القرآن الدخيل) .

والحوري في تعليقاته يصدر عن سوء نية وسوء أدب مع الغباء أيضاً حين يقول : إن ورود هذه الألفاظ في القرآن من باب التعجيز ، وإن البليغ لا يستعمل الدخيل إذا كان في لغته غنى عنه ، وان هـذا يعني أنه ليس من لفظ عربي ينزل بمنزلتهـا ، وحين يطلب من القارىء أن يقابلها بألفاظها ليجد الجواب الحق من سليقته وهو أنهـا جاءت من باب

التعجيز ، ثم يأخذ ما قاله شخص ما عن حكمة وجود كلمات أعجمية في القرآن كقضية مسلمة ويعلق عليه بكلمته الوقحة مع أنه ليس أكثر من خاطر خطر لواحد من المسلمين المتأخرين اجتهاداً عابراً ، وقائل هذا القول : إما أنه يذهب إلى أن الكلمات الأعجمية تستعمل لأول مرة في القرآن للحكمة التي خطرت لباله فيكون في قوله خطأ ونقض لصفة القرآن بأنه لسان عربيّ مبين ، ويكون قد قرر بأن في القرآن مالايفهم سامعوه الأولون ، ولا يمكن أن يكون هذا من مسلم عالم عاقل ، وإما أن يكون يعرف أنها كانت مستعملة في لسان العرب قبل نزول القرآن ، فيكون منسجماً في ذلك مع القائلين بهذا القول ، ويكون تعليله من باب الاجتهاد الفردي الذي لا يلزم أحداً ولا ينبغي أن يحسب على المسلمين ويتخذ ذريعة إلى الطعن في القرآن وفي عقول المسلمين عامة بسببه .

وبدلاً من أن يوجه الخوري إلى القارىء تلك الجملة الغوغائية التهويشية التي يطلب منه فيها الرجوع إلى سليقته ليجد الحق ويعرف أن هذه الألفاظ جاءت من باب التعجيز وهو كاذب سيء النية والأدب فيها كان عليه أن لا يتغابى عن الحق والحقيقة في الموضوع وهما اللذان سوف يجدهما القارىء إذا ما رجع إلى سليقته وتروى حيث يجد أن الألفاظ الأعجمية التي عربها العرب ، وصاغوها على أوزان ألفاظهم قبل البعثة ، ووردت في القرآن كجزء من اللسان العربي بعد تعريبها هي مدلولات على مواد لم تكن من مستعملات الحياة العربية ، وعرفها العرب من أهلها حينما احتكوا بهم ، فاقتبسوها مع مسمياتها ، وعربوا هذه المسميات ، وأن ذلك لا يمكن أن يكون تم إلا قبل نزول القرآن ، فلما اقتضت حكمة التنزيل ورودها في القرآن جاءت فيه على ذلك الاعتبار ، ولا يمكن إلا أن يكون سامعوا القرآن قد فهموها وتلقوها على هذا الاعتبار لذلك ،

ولم ترد في القرآن للتزيد من البلاغة ، وليس في ورودها فيه ما يسيغ الغمز من بلاغته ، ولا يكون هذا إلا ممن ساء أدبه ونيته ، وتجرد عن الذوق أو غبي أو أحمق .

هذا مع التنبيه على أن هناك اختلافاً على الألفاظ التي يقال : إنها أعجمية حتى إنه لم يثبت عند بعضهم إلا ٢٤ ، وعند بعضهم ، ٢٧ وأكثر ما ثبت بعضهم ٦٠ ومما يمكن أن يكون صحيحاً من ذلك (السلسبيل والسجيل والزنجبيل والكافور والمشكاة والسرادق والسندس والإستبرق والياقوت والقرطاس والدينار والدرهم والقنطار والفردوس والأباريق والبيَع والصلوات والحواريون) ويضاف إلى هذه الألفاظ أسماء كثيرة وردت في القرآن في أوزان عربية ولكن أصلها أعجمية على التأكيد ، وقد عربها العرب بعد أن سمعوا أخبار أصحابها واستعملوها قبل نزول القرآن وهو آدم ونوح وادريس وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى وزكريا ويحيى وداود وسليمان ويونس وأيوب واليسع وجبريل وميكال ومالك وهاروت وماروت وطالوت وجالوت وفرعون وهامان وقارون .

وليس في هذا ما يتحمل التهويل والتهويش ، وليس فيه بدع ولا غرابة ، فكل أمة من أمم الدنيا تتصل بغيرها تأخذ منه وتعطيه ما عند كل منها من مستعملات ليست عند الآخر مع مسمياتها أحياناً ، وليس من لغة من لغات الدنيا إلا وفيها بعض ألفاظ من غيرها تسربت إليها مع مسمياتها ، والمهم في موضوعنا هو أن الكلمات القرآنية الأعجمية الأصل قد عربت وصيغت على أوزان عربية ، واستعملها العرب ، وغدت جزءاً من لسانهم قبل نزول القرآن ، فلم يعد محل للكلام عنها من باب كلام الحوري فضلاً عن غمزه وتهويشه .

٤ - وأورد الحوري نقلاً عن « الإتقان » جملة مما يذكره علماء القرآن تحت عنوان (غريب الضمائر) والمراد بهذا هو التنبيه على ما في بعض الآيات من كثرة الضمائر ، وتباعد مراجعها مثل ما في الآية (أنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ) فالضمير الأول عائد إلى موسى ، والثاني عائد إلى التابوت ، ومثل ما في الآية (لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ..) حيث اختلطت الضمائر بين الله ورسوله ، ومثل ما في الآية (وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً) فضمير فيهم عائد إلى أهل الكهف وضمير منهم عائد إلى المتحدثين عنهم في الآيات السابقة الخ .

ومع أنه ليس في الآيات إشكال على الفهم ، فإن الحوري لم يمنع نفسه من إساءة أدبه ، فقال : إن هذا من باب التعجيز لا الإعجاز ، ويهدف بذلك إلى الخطة التي اختطها وهي الطعن في إعجاز نظم القرآن حتى يتم له حسب ما زين له شيطانه الطعن في إعجاز القرآن نظماً ومحتوى ، وقد خاب فأله وزهق باطله .

٥ - وأورد الحوري نقلاً عن « الإتقان » جملة مما يسميه علماء القرآن (غريب الأفراد) وهو أن يكون للكلمة في مقام واحد معنى غير المعنى المتبادر المعتاد الذي يكون لها في المقامات الأخرى . مثل كلمة (الأسف) التي معناها المعتاد الذي تفيده آيات عديدة (الحزن) والتي جاءت في آية سورة الزخرف هذه (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ) بمعنى (الغضب) . ومثل كلمة (البروج) التي معناها المعتاد التي تفيده آيات عديدة (بروج السماء) والتي جاءت في آية سورة النساء هــذه (أَيْنَ مَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) بمعنى (الحصون المنيعة) ومثل كلمة (نكاح) التي هي عادة بمعنى (الزواج) وجاءت في آية سورة النساء هــذه (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ) بمعنى بلوغ الرشد والاحتلام .

ومع أنه ليس بدعاً أن يكون لكلمة ما معاني مختلفة حسب اختلاف مقاماتها في الكلام وأنه ليس من محل للشك في أن العرب كانوا يعرفون هذه المعاني المختلفة ، ويستعملونها قبل نزول القرآن ، ومع أن المعاني المختلفة ليست متباعدة جداً أو متعاكسة وهي مع ذلك كلمات قليلة ، فإن الحوري علق على هذا متسائلاً عن وجه الفصاحة والبلاغة والإعجاز في هذا ، وسماه شذوذاً . وهادفاً بهذا إلى ما هدف إليه في سابقه من الطعن في إعجاز النظم القرآني على ما زين له شيطانه دون أن ينتبه إلى ما وقع فيه من غثاثة وتفاهة ، بل نعتقد أنه قال ما قال وهو يعرف في قرارة نفسه أنه متهافت متمحل .

٦ - وأورد الحوري نقلاً عن « الإتقان » جملة مما ذكره علماء القرآن تحت عنوان (الوجوه والنظائر) والمقصود من هذا ، تعدد معاني الكلمة في المقامات المختلفة ، ومن الأمثلة على ذلك كلمة (الهدى) التي أولت حسب ما جاءت فيه من مقامات بسبعة عشر معنى أو وجهاً حيث أولت بمعنى الثبات والإيمان والدين والدعاء والنبي والقرآن والتوراة والحجة والتوحيد والشهادة والإصلاح والإلهام والتوبة والإرشاد . ومثل كلمة (الرحمة) التي أولت بمعنى الإسلام والإيمان والجنة والمطر والنعمة والنبوة والقرآن والنصر والمودة والسعة والغفران والمرحمة ، ومن هذا الباب كلمات الروح والفتنة والقضاء والذكر والدعاء .

ومع أن تعدد معاني الكلمات في اختلاف المقامات ليس بدعاً كما قلنا قبل ، ومع أنه لا محل للشك في أن العرب كانوا يفهمون المعاني المتعددة للكلمة الواحدة حينما يكون لها ذلك قبل نزول القرآن ، وأن القرآن لم يأت بغريب عليهم ، فإن الحوري أساء أدبه مع الغباوة ، فقال معلقاً على هذه المسألة : (إن كثرة الوجوه والنظائر أقرب إلى التعجيز والغرابة منها

إلى الإعجاز) وتساءل (ومتى كان الغموض من الفصاحة والبلاغة في البيان والتبين) هادفاً بـذلك إلى ما هدف اليه في سابقه من الطعن في إعجاز القرآن النظمي على ما زين له شيطانه . رغم ما في تعليقه من غثاثة وتمحل ، ورغم ما هو متيقن منه من ذلك في قرارة نفسه فيما نعتقد .

ولقد أورد في سياق كلامه قولاً رواه عن شخص لم يذكر اسمه ، ولا الموضع الذي يرويه عنه جاء فيه (إن الرسول مضى ولم يدر ما الروح) وليس لهـذا صلة بالكلام ولا مناسبة ، وإنما أورده للتنفيس عن حقده بالتطـاول على رسول الله ، فض الله فاه وأخزاه ، والله يقول لرسوله (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) فلم يكن عدم علم رسول الله بحقيقة الروح عن جهل كما أراد أن يوهمه في إيراده ذلك القول ، وإنما هو السر الرباني الذي لا يعرفه إلا الله تعالى ، وما دام أن الله يقرر ذلك ، فلا يمكن أن يكون ذلك القول صـادراً عن مسلم صادق الإيمان ، ولا يصح أن يورد بالتالي كحجة ما .

٧ ــ وأورد الخوري جملة مما سماه علماء القرآن (غرائب التركيب) نقلًا عن « الاتقان » مما يتفرع عنه أنواع عديدة . منها (التذكير في مقام التأنيث والتأنيث في مقام التذكير) كما جاء في هذه الآية (هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) وفي هذه الآية (فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ) وفي هـذه الآية (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) وفي هـذه الآية (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَـةً) ومنها (التعريف في مقام التنكير والتنكير في مقام التعريف) كما جاء في هذه الآيات (اللهُ أَحد . اللهُ الصَّمَدُ) حيث نكر أحد وعرف الصمد بدون مبرر على حد زعمه وزعم من قال ذلك ، وكما جاء في هـذه الآية (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا

الإحسانُ) والإحسان الثاني هو غير الأول فلا يجوز تعريفه على حد زعمه وزعم من قال ذلك ، ومنها (تعارض الخطاب) حيث يكون الاسم محل الفعل وبالعكس كما جاء في هذه الآية (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ) حيث يقتضي أن تكون (رازقكم) حسب زعمه وزعم من قال ذلك ، ومنها (غرائب العطف) كما جاء في آية سورة المائدة (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصارى) حيث يقتضي أن تكون الصابئون في صيغة (الصابئين) على حد زعمه وزعم من قال ذلك ، وكما جاء في آية سورة الروم هذه (وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذيقَكُمْ مِنْ رَحْمتِهِ وَلِتَجْرِيَ الفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) وكما جاء في آية سورة المنافقون هذه (لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحين) ومنها (غرائب الإفراد والجمع) كما جاء في آيات سورة الشعراء هذه (فَمَا لَنا مِنْ شَافِعِينَ . وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) وفي آية الشورى هذه (إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلى ظَهْرِهِ) وفي اية فاطر هذه (وَلا النُّورُ وَلا الظُّلُماتُ) . ومنها (غرائب السؤال والجواب) حيث يأتي الجواب أحياناً متعارضاً أو ناقصاً أو زائداً أو غير المقصود من السؤال كما جاء في اية سورة البقرة هذه (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ) وكما جاء في ايات سورة طه هذه (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يامُوسى . قالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْها . وَأَهُشُّ بِهـا عَلى غَنَمِي . وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى) .

وننبه على أننا لم نورد جميع الأمثلة التي أوردها الحوري لكل هذه الأنواع نقلاً عن « الإتقان » لأننا لم نقصد الاستقصاء وإنما قصدنا استعر ض أقواله وتمحلاته .

ولقد علق على كل ما أورده من أمثلة هذه الأنواع تعليقاً عاماً فقال : (إنهم أحسنوا في تسميتها بغرائب القرآن ، لأنها غريبة في أصول اللغة وفقهها وبيانها ، وقد حسبوها من دلائل إعجاز القران ، وفاتهم أن الدين للعامة من العرب والعجم ، وإن الإعجاز اللغوي البياني لخاصة الخاصة من العرب ، فكيف يهتدي به عامة العرب وجميع البشر وهو فوق طاقة فهمهم ، والانسان لا يهتدي بنور لا يراه) .

وفي التعليق تهويل وتهويش بالإضافة إلى سوء الأدب وسوء القصد ، وقد هدف الحوري به إلى ما هدف بتعليقاته على المواضيع السابقة ، ومما أراد قوله في هذا التعليق : إن هذه الغرائب الأسلوبية مما يجعل القرآن مستعصياً على عامة الناس ، ولا يمكن أن يكون ذلك من وحي الله تعالى الذي إنما يرسل رسله وينزل كتبه لهداية الناس عامتهم وخاصتهم وقريبهم وبعيدهم . فض فوه وخاب أمله ،

فالأسلوب القرآني هو أسلوب اللغة التي نزل بها ، والذي كان أهلها يفهمونه على وجهه ، وبعبارة أخرى إن هذا الأسلوب مما كان أسلوباً سائغاً عند أهل هذه اللغة بطبيعة الحال .

وتسمية الأمثلة بالغرائب هي تسمية متأخرة من أناس تعلموا العربية تعلماً بعد أن فسد اللسان العربي والسليقة العربية ، وربما لم يكونوا عرباً أصلا ، ولا يصح أن يحسب هذا على التنزيل القرآني إزاء ما وصف به هذا التنزيل (بلسان عربي مبين) و(قرآناً عربياً غير ذي عوج) و (هدى ورحمة وذكرى للعالمين) وهذا بقطع النظر عن أنه ليس في الأمثلة التي أوردها الحوري نقلا عن كتاب « الإتقان » محل لطعن صائب في الأسلوب والقاعـــدة ، وعن أن المعاني واضحة سائغة فيهـــا لا تثير حيرة ولا بلبلة ، ولا إشكالاً على أفهام العامة فضلاً عن الخاصة ، وبقطع النظر عن كون الذين سموها بالغرائب لم يقصدوا بتسميتهم التنبيه على شذوذ

وخلل فيها ، وإنما قصدوا التنبيه على ما في القرآن من فنون أسلوبية قد تبدو غريبة لأول وهلة .

ومع هذا فليس مما يسوغ أن يحمل القرآن حرجه إذا أشكلت بعض تراكيبه على أناس متأخرين ، وفي الأدوار التي لم تعد العربية فيها سليقة وليس من تعارض بين ما نقرره وبين أن يتلقى أمثـــال هؤلاء الناس توضيـح ما يمكن أن يشكل عليهم من القرآن من علماء القرآن وخاصة المسلمين ، وليس من شأن هذا أن يخل بقوة الهداية القرآنية ، ويمنع انتشار نورها في كل الأدوار ، وهو ما تحقق فانتشر الإسلام بين جميع العرب ، ثم انتشر ومازال ينتشر في مشارق الأرض ومغاربها ، واهتـدى الناس من مختلف الأجناس والألوان في كل مكان وزمان ، وما يزالون يهتدون بنور القرآن وأنف الحوري راغم ، وكبده يتحرق غيظاً وحقداً .

- ١٣ -

ولقد عقد الحوري بعد الفصل السابق الطويل فصلاً بعنوان (أساليب نظم القرآن وفنونه) وقال فيما قال : إن القرآن بدأ بالسجع الموزون المقفى ، وانتهى بالكلام المرسل ، وإنه على كل حال فريد ، فهو نـثر وليس كالنثر ، وشعر وليس كالشعر ، ومقفى وليس كقوافي العرب ، وموزون وليس كأوزانهم ، وهذا ما جعل العلماء يجمعون على أن إعجازه هو في نظمه العجيب ، غير أنهم ليسوا متفقين على ناحية الإعجاز فيه ، ولا على مدى تحدي القرآن للكفار حينما اتهموه بأنه كاهن لما رأوه يتلو سجعاً كسجع الكهان ، وبأنه شاعر حينما رأوه يتلو كلاماً شبيهاً بالشعر ، وبأنه مجنون لأنهم ظنوا أن الجن يخالطونه ويلقون إليه على ما كان العرب يعتقدون بالنسبة إلى نوابغ الشعراء والكهان والسحرة ، ثم تحـدوه بالإتيان بالمعجزات التي تشهد بصحة دعواه بأنه مرسل من الله ، وموحى إليه منه ، فلم يستطع . وقابل تحديهم بالتحدي بالقرآن ، وقال لهم : إنه

معجزته الكبرى ، وطلب منهم أن يأتوا بمثله أو بشيء من مثله ، ثم أعلن عجزهم عن ذلك ، وقال : (لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . كما أن العلماء لم يتفقوا على أسباب عجز الكفار عن ذلك . ثم أخذ يورد جملة من أقوال العلماء الواردة في كتاب « الإتقان » والتي لا نرى طائلاً في إيرادها ، وأخذ بعد ذلك يذكر أنواع الأساليب القرآنية وسور كل نوع وبخاصة المكيات ، ويركز على ما نبه عليه العلماء من مميزات كل سورة وفنونها وخواتمها وأقسامها وترصيعها ، ثم عاد فقال : إنهم على كل حال أجمعوا على أن إعجاز القرآن بنظمه ، ولم يتفقوا على ناحية بعينها فيها هذا الإعجاز ، ثم قال : (والخلاصة إن أهل العلم اختلفوا في وجه إعجاز القرآن ، وأقوالهم المتعددة المختلفة دليل على ذلك ، وان أقوالهم ثلاثة أنواع واحد يحصر الإعجاز في وجه ، وواحد يجعل الإعجاز في وجوه عديدة ، وواحد يعلن عجزه عن وصف الإعجاز ، وجميعهم ينطلقون من مبدء القرآن كلام الله وكلام الله معجز في ذاته) وأورد قولاً لابن حزم نقلاً عن « الإتقان » جاء فيه : (لم يقل أحد أن كلام غير الله معجز ، لكن لما قاله الله وجعله كلاماً له أصاره معجزاً ومنع من مماثلته ، وهذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره) وأورد قولاً للرافعي جاء فيه (وهل يراد إثبات الإعجاز للقرآن إلا إثبات كونه كلام الله) ثم قال غامزاً : (وهذا من حيث أصول المنطق دائرة مفرغة ، كلام الله معجز ، لأنه كلام الله ، وإعجازه أنه كلام الله .

وغمز الحوري وقاحة وسوء أدب ، فمن حق المسلم أن يقول : إن القرآن كلام الله ، وإن كلام الله معجز ، وينطوي في هذا القول الذي يغمزه الحوري أن الإعجاز ليس في نظمه فقط وإنما في نظمه ومحتواه ، فهو في البيان والبلاغة والأسلوب والنظم وفنون الكلام على أروع وأفصح

وأبلغ ما يكون ، وهو في المحتوى والنورانية والهدى والروحانية والنفوذ والتشريع والمبادىء والأهداف على أسمى ما يكون أيضاً ، فهو معجز في بيانه ، معجز في محتواه ، وتحدي القرآن للكفار هو لهذا وذاك ، وإن كان للمحتوى أكثر منه للنظم على ما نبهنا عليه في مطلع البحث ، وسيبقى التحدي قائماً لكل إنسان ، وسيبقى العجز عن الإتيان بمثله هو الماثل أبد الآبدين رغم أنف الحوري ، وصدق الله العظيم (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) .

ويلحظ أن الحوري عاد في آخر فصله إلى مابدأه به من تكرار القول بأن علماء المسلمين متفقون على أن إعجاز القرآن في نظمه ، وكل أمرهم أنهم يختلفون في وجه هذا الإعجاز .

وقد أثبتنا في الفقرة الأولى من هذا البحث كذب الحوري على علماء المسلمين ، وأقمنا الدليل من القرآن والحديث الصحيح على أن الإعجاز هو في الدرجة الأولى لمحتواه الهادي .

- ١٤ -

ولقد انتقل الحوري بعد هذا إلى المقارنة بين إعجاز القرآن والإنجيل ، فقال : إن اليهود تحدوا المسيح كما تحدى العرب محمداً ، ورد عليهم تحديهم ، ولكن ما بين إعجاز القرآن وإعجاز الإنجيل فارق جوهري . ولقد أجمع القوم - أي : علماء المسلمين وفي هذا تكرار لأكذوبته المتهافتة التي لايمل من تكرارها - على أن إعجاز القرآن في القول الجميل مع أن هذا القول نفسه ليس عالمياً ، وإنما هو بيان حجازي محدود - وفي هذا تكرار لزعمه السابق المتهافت الذي أثبتنا زيفه - في حين أن إعجاز الإنجيل قائم في سحر البيان وسر المعجزات الشاملة معاً ، وفي حين أن

القران يشهد أن إعجازه كله في بيانه وفصاحته وبلاغته ـ وهذا كذب صريح على كتاب الله ـ فإن الإنجيل يشهد بأن إعجازه في القول المعجز والعمل المعجز معاً ، وليس في الإنجيل آيات محكمات وأخر متشابهات . وليس فيه غريب وغرائب ، ولا ناسخ ولا منسوخ ، وكل هذا مما يتميز به الإنجيل وإعجازه عن القرآن وإعجازه .

ويخيل لنا أن هذا هو بيت قصيد الخوري وهدفه في جميع مواضيع بحثه بل في كل كتبه . ولا يسأم الخوري من اجترار وتكرار الكلام مهما صار مملًا وبدا غثاً بسبيل التركيز على ما في نفسه مهما كان كاذباً زائفاً ، وكل هذا ليصد بني ملته عن القرآن ، ونور القرآن ، ورسول القرآن ، ودين القرآن الذي رشحه الله ليكون دين البشرية جميعاً ، وآلى على نفسه أن يظهره على الدين كله ولو كره الكافرون . وليبقيهم مطية يركبها هو وأمثاله وبقرة يحلبونها ، لأنه يعلم من دون ريب أنه أهون وأعجز من أن يؤثر بكلامه على المسلمين .

وإنجيل الله الذي أنزله على رسوله وعبده عيسى عليه السلام ، والذي نحن نؤمن به ونحترمه ليس في يدنا ، وليس موجوداً للمقارنة الموضوعية ، والأناجيل المتداولة هي من أقلام البشر ، وما فيها مما يعزى إلى عيسى عليه السلام متلقى من أفواه الرواة ، وقد اختلطت وصار فيها الغث والسمين والمتناقض والممتنع ، وهي مع ذلك تكشف عن سلبية ومحدودية إلى أبعد حدود السلبية والمحدودية ، بحيث لا يمكن أن ينعقد بينها وبين القرآن أية مقارنة موضوعيه .

ولا نحب أن نتوسع في هذا ، لأن هدفنا في ما نكتب هو الدفاع عن الحق والحقيقة وشرحها بالنسبة للقرآن الذي حاول الخوري بكل قوته وذكائه أو بالأحرى غبائه تجريحه دون مبالاة بما في ذلك من غثاثة ووقاحة

وسوء أدب وسوء نية وإفك وزيف وتهافت وغباء، وندع المقارنة والحكم لكل عاقل منصف. والقرآن والأناجيل بين أيدي الناس، ونحن على يقين بأن الحكم لن يكون كما يشتهي الحوري .

ونحن على يقين تام أن الحوري حينما يقف من القرآن مواقفه إنما ينفس عن عقدة في نفسه، ويفش غلّه بسبب ما يعرفه جميع الناس من الفارق العظيم بين أناجيله وبين القرآن . (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ..) وصدق الله العظيم الذي أنزل هذه الآيات في حق أمثال الحوري في زمن النبي لوقوفهم موقفاً مماثلاً لموقفه، والتي توجه اليوم إلى الحوري، لأنه يحاول ما حاوله أسلافه الذين رد الله عليهم هذا الرد المفحم الفاضح الذي فيه تقرير لتفاهة محاولاتهم وسوء أدبهم وقصدهم .

سابعاً

صفات المسيح وأمه عليهما السلام وعقائد النصارى فيهما في القرآن

- ١ -

يهتم الخوري الحداد اهتماماً كبيراً في مواضع كثيرة من كتبه لإبراز ما في القرآن من أوصاف المسيح وأمه عليهما السلام، ومن ثناء عليهما، وتنويه بهما، واختصاص لهما حتى لكأنه يريد أن يثبت أن القرآن يعترف بلاهوتية المسيح بصورة ما.

ولو كان الخوري يعترف بوحي القرآن، ونبوة محمد ﷺ، لكان يمكن أن يقال: إنه يريد استخراج حقيقة لاهوتية لها للمسيح عليه السلام من كتاب أنزله الله على نبي من أنبيائه، ووصل إلينا كما نزل، غير أن كل كلامه في كل كتبه بعيد عن هذا الاعتراف، وقد تبادر لنا أنه يريد بذلك إثبات نظرية أو فكرة كررها بأساليب مختلفة، وهي غلبة السمة المسيحية على النبي محمد ﷺ، وتأثره بها، واستخراج اعتقاد محمد بلاهوتية المسيح، وتسجيله ذلك في القرآن بتأثير تلك السمة. وهكذا تبلغ فيه الشطارة، أو الصفاقة إلى هذا الحد، من حيث إنه يتغافل عن مدى الآيات المحكمة القطعية في شخصية عيسى عليه السلام، سواء منها المكية أو المدنية، ويتشبث بالآيات المتشابهة، وتأويلها تأويلاً ينسجم مع هواه على ما سوف نشرحه بعد مما هو دأب الذين في قلوبهم زيغ وهوى ومرض.

- ٢ -

ولقد أورد أولاً الآيات الواردة في مريم عليها السلام، وقد رأينا أن

نكتفي بإيراد أسماء سورها وأرقامها وهي آيات آل عمران ٣٣ - ٣٧ و ٤٠ - ٤٧ والنساء ٢٥٦ والمائدة ٧٥ و ١١٦ ومريم ١٦ - ٢٢ والأنبياء ٩١ والتحريم [1] .

ولقد اكتفى الحوري بشرح معاني الآيات شرحاً مربعاً مع إيراده أقوال بعض المفسرين الاجتهادية التي ظنها تتوافق مع ما هدف إليه من إسباغ معانٍ قدسية على مريم ، ثم انتقل إلى تحليل الآيات بأسلوب أبرز فيه ما فيها من هذه المعاني متغافلاً عما فيها من معان أخرى تضع الأمر في نصابه الحق من شخصية مريم وابنها عليهما السلام ، ومتغافلاً كذلك عن أقوال المفسرين في هذه النقطة ، فقال ما خلاصته : إن أم المسيح بنص القرآن آية للعالمين في اصطفائها ، آية للعالمين في ولادتها ، آية للعالمين في حداثتها ، آية للعالمين في طهارتها وقدسيتها ، آية للعالمين في حياتها كلها وفي شخصيتها لحدثها ، آية للعالمين في بشارتها بابنها وحبلها وولادتها ، وإنها ما من امرأة بين الملائكة والبشر أشرف منها ، وإن كل هذا قد قدر لها منذ الخليقة ليتناسب مع عظمة ابنها الفريدة . ومما قاله (إن جملة (وصَدَّقَتْ بِكلماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ) في آية التحريم تقرأ أيضاً (وصدقت بكلمات ربها وكتابه) ويعني هذا أن في الآية شهادة بإيمانها بكلمة الله التي هي كناية عن المسيح ، وبكتابه الذي هو الإنجيل) . وأورد الحديث الذي أوردناه قبل المروي عن النبي ﷺ وجاء فيه : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها » واقرأوا إن شئتم « وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ » كنص نبوي فيه توكيد بأسلوب آخر لما كان من اختصاص الله تعالى مريم وابنها بعناية خاصة دون سائر البشر بسبب تلك العظمة الفريدة

---

(١) يحسن بالقارىء أن يقرأها من المصحف حين قراءة هذا الفصل .

ولقد أورد الحوري كذلك الآيات التي فيها ذكر المسيح عليه السلام ، وقد رأينا أن نكتفي بإيراد أسماء سورها وأرقامها وهي : البقرة ٨٧ و ٢٥٩ وآل عمران ٤٥ - ٦٤ والنساء ١٥٦ - ١٥٩ و ١٧١ - ١٧٣ والمائدة ١٧ و٤٦ و ٧٢ - ٧٧ و ١٠٩ - ١١٩ والتوبة ٣٠ و ٣١ ومريم ١٦ - ٣٧ والأنبياء ٦١ والمؤمنون ٥٥ والزخرف ٥٧ - ٦٥ والحديد ٢٧ والصف ٦ [١] .

وكما فعل الحوري في صدد الآيات التي ذكرت فيها مريم فعل في صدد هذه الآيات ، فشرح معانيها شرحاً سريعاً ، وأورد أقوال بعض المفسرين الاجتهادية التي ظنها تتوافق مع ما هدف إليه .

وقد قال في بدء كلامه : إن القرآن يقرر بصورة عامة أن المسيح آية في مولده ، آية في حداثته ، آية في رسالته ، آية في قدامته وكماله ، آية في شخصيته ، آية في انفراده . وإن هذه الشخصية في القرآن تسمو على جميع الأنبياء ، وإن الآيات بجملها لا يمكن إلا أن تترك في نفس القارىء فكرة عظيمة عن سمو المسيح حتى لتخرج به عن طبقة البشر ، وتترك الباب مفتوحاً لاعتقاد النصارى بألوهيته . ثم أخذ يحلل الآيات ، ويحاول استخراج شواهد منها تسبغ على شخصية عيسى عليه السلام قدسية ولاهوتية ما متوهماً أو موهماً أن ذلك مما تلهمه وتسيغه الآيات متغافلاً عما في الآيات من نصوص محكمة فيها تضع الأمر في نصابه الحق من عبودية عيسى عليه السلام لله ، وكونه رسولاً ونبياً من رسله وأنبيائه ، وأرسل داعياً إلى عبادته وحده ربه ورب الناس جميعاً ، وكون ولادته إنما تمت بمعجزة ، وان مثله كمثل آدم خلقه الله من تراب ثم قال له كن فكان ، ومتغافلاً كذلك عما قاله مفسرون آخرون كثيرون من تأويلات تضع الأمر في نصابه الحق أيضاً .

---

(١) ويحسن بالقارىء أن يقرأها حين قراءته هذا البحث .

وهذا موجز تعليقاته واستنباطاته وأقواله في صدد الآيات نوردها حسب الترتيب الذي أوردناها به :

١ – قال في صدد آيات البقرة ٨٧ و ٢٥٣ التي تـذكر أن الله أتى عيسى البينات وأيده بروح القدس : إن الآيات تحتوي ميزتين اختص بها المسيح دون سائر الأنبياء وهما إتيان الله إياه البينات التي لا مثيل لها ، وتأييده بالروح القدس بما لم يذكر مثله لغيره من الأنبياء .

وقد فسر (روح القدس) بأنه روح الله وذاته . وأنكر تفسير المفسرين بأنه جبريل ، بل قال بسبيل إثبات رأيه : إن التأييد بالروح القدس قد اختص به عيسى وحده مع أن جبريل كان ينزل على محمد ، ولم يذكر القرآن مع ذلك أن الله أيّد محمداً بالروح القدس متغافلاً في قوله عن آيات سورة النحل هـذه (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .. ١٠٠ و ١٠١) مع التنبيه أولاً على أن هـذه الآيات مكية ، وآيات البقرة مدنية ، وبعبارة أخرى : إن روح القدس كان ينزل بالقرآن من الله على محمد أيضاً وبالتالي إن محمداً كان مؤيداً به منذ العهد المكي . وثانياً على أن المفسرين حينما يفسرون روح القـدس بجبريل يستندون في ذلك إلى آية في سورة البقرة تذكر أن جبريل هو الذي كان ينزل بالقرآن وهي (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .. ٩٧) ثم إلى آية في سورة الشعراء تذكر أن القرآن نزل به الروح الأمين وهي (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ

الرُّوحُ الأمينُ . على قَلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ..) وثالثاً على أنه ليس للخوري أن يفسر (روح القدس) حسب ما يريد ، ثم يقول : إن ذلك مستند إلى القرآن . فما دام أنه يذكر أن القرآن قد أيد عيسى بروح القدس ، فليس له إلا أن يقبل ما عناه القرآن من هذا التعبير ، والذي عناه هو ملك الله الذي كان ينزل أيضاً على محمد ﷺ .

أما قوله : إن القرآن اختص عيسى من دون الأنبياء بذكر كون الله آتاه البينات ، فهو غير صحيح ففي القرآن آيات كثيرة تذكر أن الله آتى غيره من رسله وأنبيائه البينات ، وأرسلهم بالبينات ، ومنهم محمد ﷺ كما ترى في الأمثلة التالية :

١ ـ وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالبَيِّناتِ .. [البقرة : ٩٢] .

٢ ـ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهِمْ وَشَهِدُوا أنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ البَيِّناتُ وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمِينَ .. [آل عمران : ٨٦] .

٣ ـ وَلَقَدْ أهْلَكْنا القُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّا ظَلَمُوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّناتِ .. [يونس : ١٣] .

٤ ـ وَما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إلّا رِجالاً نُوحِي إلَيْهِمْ فاسْألُوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ . بِالبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَأنْزَلْنا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِمْ .. [النحل : ٤٣ ـ ٤٤] .

٥ ـ قُلْ إنِّي نُهِيتُ أنْ أعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمّا جاءَنِيَ البَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العالَمِينَ .. [غافر : ٦٦] .

٦ ـ لَقَدْ أرْسَلْنا رُسُلَنا بِالبَيِّناتِ .. [الحديد : ٢٥] .

٧ ـ وَإذْ قالَ عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ يابَنِي إسْرائِيلَ إنِّي رَسُولُ اللهِ

إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .. [الصف : ٦ - ٩] .

٢ ـ وقال في صدد آيات آل عمران ٤٥ وبعدها وآيات المائدة ١٠٩ وبعدها: إن القرآن يقرر امتياز عيسى عن غيره منذ حداثته بالمعجزات ، فتكلم في المهد وعلم التوراة والإنجيل ، والكتاب والحكمة ، ومنح القدرة على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وخلق الطير من الطين ، والتنبؤ بالغيب ورفع الله إياه إليه

٣ ـ ووقف عند جملة (وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) في آية آل عمران (٤٤) فقال : إن الوجاهة هي التقدم في كل شيء في الدنيا والآخرة ، وإنها في الآخرة هي الشفاعة كما قال بعض مفسري المسلمين وانه لم يوصف أحد في القرآن بهذا الوصف ولا محمد ولا إبراهيم ، بل إن القرآن حرّم على محمد الاستغفار للكفار والفاسقين ، وبين أن ذلك عبث ، فتكون الوجاهة للمسيح وحده على كل أحد ، والشفاعة أيضاً في الدنيا والآخرة بنص القرآن وهي مزية انفرد فيها دون غيره وفي هذا الكلام من التمحل وتحميل العبارات القرآنية أكثر مما نتحمل والتعسف في تفسير الوجاهة بالشفاعة ما هو ظاهر لا يخفى على أحد .

٤ ـ ووقف عند آية آل عمران ٤٤ التي تذكر أن الملائكة أعلنوا مريم بأن الله يبشرها بكلمة منه اسمه المسيح ، وآية النساء ١٧١ التي تذكر

أن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ، وآية سورة الأنبياء ٩١ التي تذكر أن الله نفخ في مريم من روحه ، وآية سورة التحريم ١٢ التي تذكر أن الله نفـخ في فرج مريم من روحه ، فقال : إن المسلمين يعتقدون أن كلام الله هو ذاته غير منفك عنه ، وأن روح الله هو ذاته غير منفك عنه كذلك ، فيكون المسيح بشهادة القرآن والمسلمين جزءاً غير منفك عن ذات الله أيضاً ، أو صورة من صور هذه الذات ، متغافلاً في ذلك عن تقريرات القرآن بأن عيسى عبد الله ورسوله ، وإن ولادته تمت بمعجزة عبر عنها بهذه الألفاظ للتقريب ، وان الله وصف نفسه بأنه ليس كمثله شيء ، ورافضاً تأويل المفسرين المتسق مع ذلك الذين قالوا إن جملة (إذا قَضَى أمْراً فإنّما يَقُولُ لهُ كُنْ فَيَكُونُ) هي تفسير لكلمة الله بالنسبة لعيسى .

٥ ــ وقال استنتاجاً من آية (ذلكَ عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الّذي فِيهِ يَمْتَرُونَ) في سورة مريم : إن القرآن لقب المسيح بلقب (قول الحق) العظيم ذي المعنى الفخم الذي انفرد به متغافلاً أو متغابياً عن أن الآية جاءت معقبة على الآيات السابقة التي فيها قصة ولادة عيسى عليه السلام ، وقوله بأنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً ، وأريد بها أن ما ورد في الآيات السابقة لها هو الحق في ما هم فيه يمترون ، محرفاً بذلك الكلام عن موضعه الحق برغم أن مدى الآيات واضح ليس فيه إشكال ولا خفاء ، ولقد جاء بعد الآية هذه الآية (مَا كانَ لله أنْ يَتّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إذا قَضَى أمْراً فإنّما يَقُولُ لهُ كُنْ فَيَكُونُ .. ٤٠١) التي فيها دليل حاسم على أن القصد منها هو ما ذكرناه .

ولقد وقع الخوري في تناقض وتخبط ، فهو من جهة يثبت هذه الآية ويستند إليها ليحملها غير ما تحمل ، وليقول : إن القرآن يلقب المسيح

بلقب قول الحق ، وهو من جهة أخرى وفي نفس الصفحة ينكر هـذا النص ، ويقول : إنه مقحم ومزيد ، فض الله فاه ، لأن هذه الآية وما بعدها تندد بمن انحرف عن حقيقة عيسى عليه السلام ولادةً ورسالةً التي احتوت الآيات تقريرها واختلفوا .

٦ - وقال في صدد آية سورة مريم (١٩) التي تذكر قول الملك لمريم : إنه رسول ربها ليهب لها غلاماً زكيا ، وفي صـــدد آية سورة مريم (٢١) التي تحـكي قول عيسى عن نفسه : إن الله جعله مباركاً أين ما كان ، وفي صدد آية آل عمران (٣٦) التي تحكي قول أم مريم (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) : إن القرآن ذكر ذنوباً لعدد من الأنبياء والمرسلين بما فيهم إبراهيم ومحمد ، وأمرهم بالاستغفار من ذنوبهم ، وحكى عنهم الدعاء بغفران خطيئاتهم ، ولكن المسيح وحده هو الذي وصف بالمبارك وبالزكي الطاهر الذي لم يذكر له إثم ، ولا علاقة بإثم ، ولم يكن للشر عليه من سلطان على الإطلاق

٧ - وقال في صدد آية سورة الأنبياء (٩١) التي أوردناها قبل ثم في صدد آيات جاءت بعد قليل منها وهي (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . ١٠٣) إن في الآيات تعليا رائعاً عن شخصية المسيح ، فهو روح الله نفخه في مريم ، فصار مع أمه بهذا الحمل والميـلاد العجيب الفريد آية للعالمين من الإنس والجن والملائكة ، ولم يقل القرآن مثل هذا في أحد من الأنبياء والمسلمين ، وإنه هو وأمه من الأمة المصطفاة بالنبوة على العالمين ختام الذرية النبوية المصطفاة وهم مبعدون عن جهنم يردهـا ما يعبد من دون الله ، وإن لهم

الحسنى في الآخرة أيضاً حيث لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة .
مما فيه تحميل للكلام غير ما يحمله ، واستخراج معان لا تفيده الآيات ،
وتخصيص لما هو عام لجميع الأنبياء والصالحين من عباد الله الذين ذكروا
في الآيات السابقة ، والذين جاء ذكر مريم وابنها في عـدادهم وحسب ،
ولقد جاء بعد هذه الآيات عن النبي محمد ﷺ هذه الآية (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) فتغافل عنها .

٨ ـ وقال في صدد آية سورة المؤمنون (٥٠) : إن القرآن يعتبر
المسيح النبي الوحيد الذي جعله الله بين الأنبياء آية للناس وللعالمين جميعاً ،
مما فيه تحميل للكلام غير ما يحمله ، وتعسف في التأويل .

٩ ـ وقال في صدد آيات الزخرف ٥٧ ـ ٦٥ : إن الآيات تقـرر
أن لعيسى مجيئين الأول كان فيه مثلاً لبني إسرائيل ليهـديهم ، والثاني
يكون قبل يوم الدين علماً للساعة ليهدي العالم أجمع . وكل هذا مما انفرد
به عيسى من بين الأنبياء ، وما يسبغ عليه معنى خاصاً .

١٠ ـ ويقول الحوري في صـدد آيات سورة النساء ١٥٧ — ١٥٨
التي تنفي صلب عيسى وقتله وتقر رفعه إلى السماء : إن الآيات إنما تنفي
ظن اليهود بأنهم صلبوه وقتلوه بمعنى أنهم قضوا عليـه قضاء مبرماً ولاشوا
ذكره إلى الأبد ، فتقرر أن هذا هو الذي شبه لهم وتخيلوه ، والذي
خيب الله أملهم فيه ، لأن الله أحياه في الحال ، ورفعه إليه ، ورأى أن
هذا التأويل يتوافق أكثر من آية آل عمران (٥٥) الـتي تقول (إِنِّي
مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) حيث تقرر أن الرفع هو بعد الوفاة ، ثم يعقب
على ذلك بقوله : إنه مهما يكن من مسألة موت المسيح التاريخية في القرآن
فالقرآن الكريم يشهد بأن آخرة المسيح على الأرض ختمت بمعجزة ، كما
بدأت حياته بمعجزة ، سواء أمات وقام أم لم يمت ، بل ظل حياً إلى

الأبد ، فهذا لا يقلل شهادة القران للإنجيل والمسيح ، فالمسيح حي وقد رفعه الله إليه ، ولا يزال حياً عند الله ، وتلك ميزة انفرد بها المسيح على جميع البشر ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، والقول : إن المسيح لم يمت أو لم يذق طعم الموت الأكبر كسائر البشر المحكوم عليهم بالموت لا يستثنى منهم أحد أعظم من الاعتراف بموته وقيامته لو فطنوا . إنه ينقل عيسى من صف البشر الميتين إلى صف غير البشر الخالدين ، وعلى كل حال فالقران يشهد أن واحداً لاغير بين البشر ودون الأنبياء والمرسلين بلا استثناء وكان أقوى من الموت ، فلم يكن له عليه سلطان وهو عيسى بن مريم ، وإنه بعد أن قرب ذبيحته عن الخطايا جلس عن يمين الله إلى الأبد ، وإن القرآن بعد الإنجيل يشهد أن المسيح حي في السماء يشفع في العالمين .

وفي قول الحوري : إن القرآن يشهد أن عيسى ظل ويظل حياً إلى الأبد افتئات على القران ، فآية ا ل عمران (٥٥) صريحة بأن الله قال لعيسى : إِنّي مُتَوَفِّيكَ . وآية المائدة (١١٧) صريحة بأن عيسى قال لله (لَمَّا تَوَفَّيْتَني) وآية مريم (٣٣) صريحة بأن عيسى يعرف أنه ولد كبشر، وسوف يموت كبشر، وسوف يبعث كبشر . (والسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً) .

كذلك فإن الحوري يفتئت على القرآن حين يقول : إنه يشهد أن عيسى حي في السماء يشفع في العالمين ، فليس في القرآن ما يفيد هذا صراحة ولا ضمناً .

وفي تأويل الحوري لآيات النساء تعسف ومخالفة لما أجمع عليه تفسير المسلمين أهل القرآن دون أي شذوذ ، ونفي الصلب والقتل معاً يظهر التعسف أكثر ، حيث كان يكفي أن ينفى القتل أو الموت ، ولكن الآيات

نفت ما كان متداولاً من الصلب ، ثم الموت، وقررت ان هذا إنما كان أمراً مختلفاً فيه قائماً على الظنون .

أما التوفيق بين آية آل عمران وآيات النساء ، فإنه ممكن بدون هذا التأويل التعسفي ، فيصح أن يكون رفع الله لعيسى بعد توفيه بصورة عادية وبغير طريق الصلب والقتل ، ويلحظ أن عيسى يقول لله في آية المائدة (١١٧) (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي) وليس في هذا التعبير أية إشارة إلى قتل وصلب ، وإنما هو تعبير عن حالة أو حادث وفاة عادية .

ورفع الله لعيسى المذكور في آيتي آل عمران والنساء يصح أن يكون روحياً أو معنوياً ولا يقتضي حتماً أن يكون جسمانياً ، ولقد ذكر القرآن حادث رفع تكريمي لنبي آخر هو إدريس عليه السلام في آيات سورة مريم هذه (وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً . وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً) .

ولقد خلص الحوري من أقواله التي فيها افتئات وتعسف إلى القول : إن مولد المسيح الخارق قد استحوذ على أفكار نبي القرآن ، وملك عليه مشاعره ، فهو يذكره في كل مناسبة ، وهو كيفما نظر إليه وجد فيه الآية الكبرى التي ترفع المسيح فوق سائر البشر ، فهو مسيح الله ، وهو كلمة الله ، وهو روح الله ، وهو آية الله ، وهو رحمة الله ، وهو المبارك أينما كان .

وهذا من بيوت قصائد الحوري في كل ما يكتب ويقول .

- ٦ -

ومهما يكن من أمر ، فالقول الحق في موضوع عيسى وأمه عليهما السلام هو أن القرآن احتوى آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، وأن المحكمات هي المبادىء والأصول التي لا تتحمل تأويلات عديدة ، ولا يشتبه على المرء فهمها ومداها ، وهي الفيصل في ما احتواه

القرآن من أمور ومسائل ، وأن المتشابهات هي ما تتحمل تأويلات عديدة ، وقد يشتبه على بعض العقول إدراك مداها ، وقد تكون بقصد التقريب والتمثيل ، وينبغي أن تفهم وتفسر على ضوء المحكمات ولا يجوز العكس في حال . وما لم يمكن لعقل امرىء فهمه منها يفوض أمره إلى الله منزل القرآن دون أن يتمحل فيه بعقله الذي يمكن أن يكون عدم فهمه لها من قصور فيه ، أو من عدم العلم والاطلاع ولا يفعل خلاف هذا ويتبع المتشابه دون المحكم إلا ذو قلب زائغ ، وعقل سقيم ، وهوى مغرض بقصد الفتنة وتحريف الكلام عن موضعه ومداه الحق المحكم ، وما ورد في القرآن في صدد عيسى وأمه عليهما السلام ينظر إليه في نطاق ذلك . ومنه ما هو محكم ، ومنه ما هو متشابه ، ومن المحكم ما قررته آيات كثيرة من الآيات التي أوردناها ومفادها أن عيسى بشر مخلوق ، وعبد من عباد الله ، وأمه صديقة ، وأنه نبي ورسول من أنبياء الله ورسله ، وأنه دعا إلى الله وحده ، وإلى مكارم الأخلاق ، وحذر من الشرك ، ومن الانحرافات الأخلاقية والدينية والاجتماعية ، وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة ومبشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، وأن ولادته تمت بمعجزة إلهية ، وأن مثله كمثل يحيى الذي ولد بمعجزة[1] من أم عاقر وأب طاعن في السن ، وكآدم

---

(١) من الجدير بالتأمل أن قصة ولادة عيسى في القرآن يسبقها إشارة إلى قصة ولادة يحيى في كل سورة وردتا فيها كما ترى في ما يلي :

١ ـ هُنالِكَ دَعا زَكَرِيّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ . فَنادَتْهُ المَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصّالِحِينَ . قالَ رَبِّ أَنّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ـ

خلقه الله من تراب ، ثم قال له كن فكان ، وأن الله سبحانه ليس كمثله شيء ، وأنه منزه عن التعدد بأية صورة ، وعن التجسد ، وعن التجزء ، وعن انتقال

– مَا يَشَاءُ . قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ . وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .. [آل عمران : ٣٨ - ٤٧] .

٢ – كهيعص . ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً . يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً . قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً قَالَ رَبِّ اجْعَلْ –

جزء منه إلى خلق من خلقه ، وأن ما عدا ذلك هو من المتشابهات التي لا يصح استخراج شيء منها ، ولا تأويلها بما يتناقض مع باقي المحكمات

- لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا . يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا . وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا . وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا .. [مريم : ١ - ٢١] .

٣ - وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ . وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ .. [الأنبياء : ٨٩ - ٩١] .

وهذا التلازم يفيد أن ذكر ولادة يحيى بمعجزة جاء كتمهيد لذكر ولادة عيسى بمعجزة أيضاً أو للمقارنة أو للمماثلة أو للتنبيه على أن هذا لا ينبغي أن يثير حيرة ولا أن يترتب عليه عقيدة منحرفة تؤدي إلى عقيدة أن المسيح جزء من الله أو صورة عنه .

من صراحة وقطعية وفصل ، وأن الحق والنص ملزمان كل ناظر في القرآن مسلماً كان أم غير مسلم أن يقف عند المحكمات ، ويلتزم بها ، لأن القرآن يقول : إنها هي أم الكتاب ، وإن على المسلم أن يعتقد أنه لا بد من أن تكون حكمة ربانية في ما ورد في القرآن من آيات متشابهة بالأسلوب الذي وردت به ، وأن يحاول فهمها على ضوء المحكمات بالتدبر المأمور به ، أو بسؤال الراسخين في العلم ، والقادرين على التدبر والاستنباط ، وأن التمسك بالمتشابهات والتركيز عليها وتأويلها بما يتعارض مع المحكمات ، كما يفعل الحوري هو زيغ عن جادة الحق ندد بـه القرآن ، كما جاء في آية سورة آل عمران هـذه التي بينت كون المحكمات هن أم الكتاب وأن الذين يتبعون المتشابهات دونهـا هم الذين يكون في قلوبهم زيغ (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ .. ٧) .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الآية نزلت كما روي في مناسبة متصلة بالخلاف على شخصية عيسى عليه السلام حيث جاء وفد من نصارى نجران اليمن ، فتناظر مع النبي ﷺ في عيسى ، فلما قرأ عليهم الآيات المحكمات

— ومن الجدير بالذكر في هـذه المناسبة أن بشارة مريم بعيسى سبقت بشارة زكريا بيحيى في الأناجيل المتداولة حيث جاء في الإصحاح الأول من إنجيل لوقا الذي انفرد بذكر ذلك (إن مريم سألت الملك مستغربة كيف تحبل وقد لم تعرف رجلاً فذكر لها خبر حبل زوجة زكريا وهي عاقر وزوجها طاعن في السن وقال لها : إن قدرة الله لا يعجزها شيء .

في حقيقة شخصية عيسى ورسالته كما ورد في سورة مريم ، أبوا أن يذعنوا فدعاهم إلى المباهلة ، أي : ابتهال الطرفين إلى الله بأن يلعن الكاذبين منهما ، فأبوا وقالوا : ألست تقول إن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الله نفخ في فرج مريم ، فحبلت به ؟ فقال : بلى ، فقالوا : هذا حسبنا ، فأنزل الله الآية لتقول لهم : إنكم تمسكتم بالمتشابهات التي تحتمل وجوهاً عديدة في التأويل والتي قد تكون في معرض التقريب للأذهان والتعبير عن كون ولادة عيسى تمت بمعجزة ربانية ، وتركتم المحكم الذي فيه القول الفصل في شخصية عيسى في كونه عبد الله ، وكون مثله كمثل آدم قال له كن فكان ، وأنه رسول ونبي من رسل الله وأنبيائه وداع إلى الله وحده ربه ورب جميع الناس .

ومن الجدير بالتأمل أن الخوري الحداد يكرر صنيع ذلك الوفد ، ولا يعتبر بجواب القرآن له ، ويريد أن يلبس على أبناء ملته بالقول : إن القرآن يقرهم على عقيدتهم في المسيح ، وأن يصدهم عن الإسلام وما فيه من الحق ، وقد يتوهم أنه إلى هذا يستطيع أن يلبّس على بسطاء المسلمين ويشككهم في قرآنهم ، ويصرفهم عن محكماته . .

وهو وأمثاله يفعلون هذا في نصوص الأناجيل التي يعترفون بها ، فبالرغم مما ذكرناه من هنات وثغرات في هذه الأناجيل ، فإن فيها عشرات الآيات التي تحكي أقوالاً لعيسى عليه السلام عن شخصيته ورسالته وعن ذات الله تعالى تتطابق مع المحكمات القرآنية[1] فيتمحلون في تأويل هذه

---

(١) هذه أمثلة مما ورد في الأناجيل الأربعة من ذلك :

١ — في إنجيل متى : (أراه إبليس جميع ممالك العالم ومجدها وقال له : أعطيك هذه كلها إن خررت ساجداً لي . حينئذ قال له يسوع اذهب ياشيطان ، فإنه قد كتب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد) و (لا يستطيع أحد أن يعبد ربين) و (اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره) و (ليس كل من يقول يارب يارب —

الآيات ، ويتمسكون بما في الأناجيل من آيات متشابهات مع تعارضها معنىً ومدىً مع تلك المحكمات القرآنية ، بل ومع آيات محكمات في الأناجيل

ـ يدخل ملكوت السموات . لكن الذي يعمل إرادة أبي الذي في السموات) و (لا تدعوا لكم أباً على الأرض فإن أباكم واحد وهو في السموات) و (طوبى لصانعي السلام فهم أبناء الله يدعون) و (أما أنت فإذا صليت فادخل مخدعك وصل إلى أبيك في الخفية ، وأبوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك) و (أنتم صلوا هكذا أبانا الذي في السموات تقدس اسمك . ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك في السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمن أساء إلينا ، ولا تدخلنا في تجربة ، ولكن نجنا من الشرير آمين . فإنكم إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم) و (لا تتشبهوا بهم ، لأن أباكم عالم بما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه) و (لأن كل من يعمل مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي) و (أجاب يسوع وقال : اعترف بك يا أبت رب السموات والأرض) و (لكي تعلموا أن ابن البشر له سلطان على الأرض أن يغفر الخطايا) وتعبير (ابن البشر) تكرر كثيراً في هذا الإنجيل والأناجيل الأخرى والمقصود به على ما يفيده السياق أنه يعني نفسه . و (فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحاً . إنه لا صالح إلا الله وحده) انظر هذه الآيات في إنجيل متى في الاصحاح ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٥ و ٢٣ .

٢ ـ في إنجيل مرقس : (من قبلني فليس مقبلاً لي بل للذي أرسلني) و (أول الوصايا أن إلهنا رب واحد) انظر الاصحاحات ٩ و ١٠ .

٣ ـ في إنجيل لوقا : (فقال لهم : إنه ينبغي أن أبشر المدن الأخرى بملكوت الله لأني لهذا أرسلت) و (إذا صليتم فقولوا : أيها الأب لتقدس اسمك) انظر الاصحاحات ٤ و ١١ .

٤ ـ في إنجيل يوحنا (الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بمن أرسلني له الحياة الأبدية ولا يصير إلى دينونة لكنه قد انتقل من الموت إلى الحياة) و (أعطاه سلطاناً أن يجري الحكم بما انه ابن البشر) و (أما أنا فلي شهادة أعظم من شهادة يوحنا ، لأن الأعمال التي أعطى لي الأب أن أتممها هذه الأعمال التي أنا أعملها هي تشهد بأن الأب قد أرسلني) و (فقالوا ماذا نصنع حتى نعمل أعمال الله . أجاب يسوع وقال لهم : هذا هو عمل الله أن تؤمنوا ـ

نفسها كما يستفاد من الأمثلة الـــتي أوردناها في الذيل وبخاصة بما أورده الإمام ابن القيم الجوزية عزواً إلى نسخة مفقودة من إنجيل يوحنا ، لأنهـا

– بالذي أرسلني) و (ما من أحد يقدر أن يقبل إلي ما لم يجتذبه الأب الذي أرسلني وأنا أقيمه في اليوم الآخر) و (فأجابهم يسوع وقال : إن تعليمي ليس هو لي بل للذي أرسلني) و (فقال لهم يسوع : إذا رفعتم ابن البشر فحينئذ تعرفون أنا هو وإني لست أفعل شيئاً من عندي ، ولكن كما علمني الأب كذلك أقول) و (صاح يسوع وقال من آمن بي فليس بي يؤمن بل بالذي أرسلني) و (إني لم آت من عندي لكن الذي أرسلني هو محق ، وأنتم لا تعرفونه ، أما أنا فأعرفه لأنـه هو الذي أرسلني) انظر الإصحاحات ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ وننبه على أن في الأناجيل الأربعة آيات كثيرة أخرى من باب هذه الأمثلة .

ونعتقد أن في الأناجيل التي ضاعت أو أبيدت والتي يقال : إنها منحولة ومزورة ، آيات كثيرة أكثر صراحة وقوة . وفي كتاب دليل الحيارى للإمام ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ فقرات عديدة منقولة من الأناجيل . منهـا ما هو نفس ما أوردناه ، ومنها ما لم نقرأه في الأناجيل الموجودة تحت يدنا ، ونعتقد أنه صادق في نقله ، وتكون النسخ التي نقل عنها الفقرات التي لا توجد في الأناجيل الموجودة قد بادت أو أبيدت ، وهي أقوى وأصرح في بابها . من ذلك عزواً إلى إنجيل يوحنا عن لسان المسيح : (إن الحياة الدائمة إنما تجب للناس بأن يشهدوا أنك أنت الله الواحد الحق . وأنك أرسلت يسوع المسيح) و (تريدون قتلي وأنا قلت لكم الحق الذي سمعت الله يقوله) و (إن الكلام الذي تسمعونه مني ليس من تلقاء نفسي ، ولكن من الذي أرسلني) و (لست أدين العباد بأعمالهم ولكن الذي أرسلني هو الذي يلي ذلك منهم) و (يارب قد علموا أنك قد أرسلتني وقد ذكرت لهم اسمك) و (إن الله معاني وأرسلني وأنا عبد الله وأنا أعبد الله الواحد ليوم الخلاص) و (إن الله ما أكل ولا يأكل ، وما شرب ولا يشرب ، وما نام ولا ينام ، ولا ولد له ولا يلد ولا يولد ، ولا رآه أحد) ولما ســأل ربه أن يحيي الميت قال : (أنا أشكرك وأحمدك لأنك تجيب دعائي في هذا الوقت ، وفي كل وقت ، فأسألك أن تحيي هذا الميت ليعلم بنو اسرائيل أنك أرسلتني وأنك تجيب دعائي) .

متسقة مع أهوائهم وعقائدهم التي أقرتها مجامعهم المقدسة التي أخذت تنعقد في القرن الرابع الميلادي وبعده على ما سوف يأتي شرحه بعد .

وإنه ليتبادر لنا أولاً أن تعبير (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) الواردة في آيات النساء (١٧١) وتعبير (ونفخنا فيها من روحنا) و (ونفخنا فيه من روحنا) الواردة في آيتي سورة الأنبيـــاء (٩١) والتحريم (١٢) هي تعبيرات اسلوبية عن الإعجاز الرباني في ولادة عيسى عليه السلام من أم عذراء بدون مس رجل بلغة البشر ، وقد يدعم هذا أن بعض هذه التعبيرات قد ورد في القرآن في صدد خلق الإنسان الأول مثل آيات سورة السجدة هذه (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ .. ٧ - ٩) وآيات سورة ص هذه (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .. ٧١ و ٧٢) وروح الله هي ذاته ، والله منزه عن التجزء وانتقال جزء منه إلى خلقه ، وقد حسمت هذه النقطة آية سورة آل عمران (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ..) .

وثانياً إننا نلمح من حكمة الله التي انطوت في الآيات المتشابهات التي أسبغ فيها على المسيح وأمه عليهما السلام ما أسبغ من رعاية وعناية واختصاصات وتنويهات وصفات ، قصد تأنيس النصارى الذين كانوا يؤلفون أكثرية الكتابيين في مكة ، والأكثرية الساحقة من قبائل مشارف الشام وسكان بلاد الشام ومصر والحبشة والعراق العربي ، وشمال افريقية ،

وقطاعاً كبيراً في اليمن ، وتقريبهم إلى الإسلام ، وإشعارهم بالوحـــدة الفكرية والدينية ، والتقارب العقائدي بينهم وبين الإسلام ولا سيما أنهم كانوا إجمالاً دمثي الأخلاق ، حسني النوايا ، ليسوا قساة قلوب ، ولا شديدي الأنانية والعصبية والمآرب كبني إسرائيل .

ولقد تحققت حكمة الله تعالى فعلاً حيث استجاب النصارى في مكة إلى الدعوة الإسلامية ، وانضووا إليها ، وآمن بهـا وفود جـاءت من خارج الجزيرة إلى مكة ثم إلى المدينـة ، ثم أقبل أهل تلك البلاد على الإيمان بها والانضواء اليها حينما حررتهـا جيوش الفتح الإسلامي بعد النبي ﷺ من سلطان الروم على ما شرحناه في نبذة سابقة .

ولقد كان جلهم من اليعاقبة والنساطرة الذين يعتقدون بأن المسيح ذو طبيعة واحدة مزيجة من الناسوتية واللاهوتية ، وليست ألوهية كاملة ، ولعل ما كان من الآيات القرآنية المتشابهة ما جعلهم يرون فيها تقارباً مع ما كانوا يعتقدون فاعتنقوا الدعوة الإسلامية بحافز من ذلك وكان ذلك مظهر من مظاهر تلك الحكمة الربانية في الأسلوب القرآني .

– ٧ –

ولا يقف الحوري عندما تقدم ، فقد عقد فصولاً عديدة في أكثر من كتاب من كتبه في صدد ما جاء في القران من عقائد النصارى بالمسيح والتثليث وتكفير القائلين بها ، وأورد كثيراً من الآيات الواردة في الأناجيل الأربعة التي ينسبها كتابها إلى المسيح للمقارنة وساق كلاماً كثيراً ملخصه أو نتيجته (أن تقرير القران بكفر من يقول : إن الله هو المسيح بن مريم ، وإن الآلهة ثلاثة ، وإن الله ثالث ثلاثة ، وإن هناك من كان يتخذ مريم إلهاً مع ابنها ليس موجهاً لجميع النصارى ، وإنما هو لبعض طوائفهم ، وقد استدل على ذلك بجملة (وإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عمَّا يَقُولُونَ

لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ..) في آية سورة المائدة (٧٣) التي تقرر كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة والتي سبقتها آية تقرر كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، ثم يقول : إن نصارى العرب في الحجاز لجهلهم انحرفوا عن العقيدة النصرانية الصحيحة ، فقالوا : إن الآلهة ثلاثة وهم الله والمسيح ومريم ، وإن اليعاقبة في بلاد الشام انحرفوا عن تلك العقيدة بدورهم وقالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، أما العقيدة الصحيحة التي ليس من موجب لتكفير القرآن لأصحابها ، ولا يشملهم التكفير الوارد فيه بالتالي ، فهي أن الله ثلاثة بمعنى أنه واحد ذو صفات ثلاثة ، أو أقانيم ثلاثة هي الأب والأبن وروح القدس ، وترمز إلى الله وعلمه وحياته . ويمكن أن يعبر عنها بتعبير آخر فيقال : إن الأب هو الكلمة ، وإن الابن هو الفكر أو العقل ، وإن روح القدس هو المحبة أو الصلة بين الكلمة والعقل ، وإن من الممكن أن يقاس ذلك على ما جاء في آية سورة آل عمران (اللهُ لا إلهَ إلّا هوَ الحَيُّ القَيُّومُ) فالله واحد لا إله إلا هو وهو حي وهو قيوم ، ويستمر الحوري فيقول : إن القرآن والحالة هذه على حق حينما قال (لقدْ كَفَرَ الَّذينَ قالُوا إنّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ..) لأن القائلين عنوا أن المسيح إله آخر غير ذات الله ، وإن القرآن على حق حينما قال (لَقدْ كَفَرَ الَّذينَ قالُوا إنّ اللهَ ثالثُ ثلاثَةَ) لأن القائلين عنوا أن الذات الإلهية متعددة وهي ثلاثـــة ، وإن القرآن على حق حينما ندد بالذين يقولون : إن الآلهة ثلاثة ، ووصف قولهم بغير الحق وطلب منهم الانتهاء منه في آية النساء (١٧١) لأن هؤلاء قصدوا بذلك الله والمسيح ومريم ، وإن القرآن لايفهم – كبرت كلمة تخرج من فيه وفض الله فاه – البنوّة إلا تناسلية جسدية من زوج وزوجة

وهو ما نفاه عن الله في سورة الأنعام هذه (بَديعُ السَّموات والأرضِ أنّى يَكونُ لهُ وَلدٌ ولَمْ تكُنْ لهُ صاحِبةٌ) وفي سورة الجن هذه (وَأنَّهُ تعالى جدُّ ربِّنا ما اتخذَ صاحبةً ولا ولداً) . وان كل ما جاء في القرآن من نفي للولد عن الله هو منصب على هذا المعنى وحسب ، وان القرآن على حق في حملته على نسبة الولد لله على هذا المعنى ، ولكن القرآن يجهل — كبرت كلمة تخرج من فيه وفض الله فاه ثانيـة — مدى مفهوم الولادة المجردة العقلية التي ينسبها الإنجيل إلى المسيح ، وكون بنوّته هي بنوّة روحية محضة من ولادة عقلية محضة ، وكون نسبة البنوّة إلى الله هو من نوع التفاعل الجوهري والتسلسل العقلي وحسب ، وانه ليس في العقيدة النصرانية الصحيحة تعدد آلهة ، وانه على ضوء ذلك يظهر معنى كون الكلمة هو الله الأب ، وهو الله الابن ، وهو الله روح القدس ، وان الألوهية التي ينفيها القرآن عن المسيح ليست هي التي يثبتها الإنجيل له ، والبنوّة التي يسندها الإنجيل إلى المسيح ليست هي التي ينفيها القرآن عنـه ، وان كل ما ينكره القرآن ويسنده إلى النصارى يمثل الانحراف الذي كان عليه نصارى العرب ، وانه ليس من خلاف جوهري بين القرآن والعقيدة النصرانيـة الصحيحة ، وأن النبي لم يكن يعرف هذه العقيدة — كبرت كلمة تخرج من فيـه وفض الله فاه ثالث مرة — ولم يكن يعرف من العقائد النصرانيـة إلا ما كان عليه نصارى العرب الذي كان فيـه انحراف عن تلك العقيدة ، وان تعليم الإنجيل لو وصل سالماً إليـه لكان اعتنقه ودان به ، ثم أورد آية الزخرف (قُلْ إنْ كانَ للرَّحْمنِ وَلدٌ فأنا أوّلُ العابِدينَ) كأنما يوردها كدليل على قوله أو بالأحرى على هذيانه المتسم في نفس الوقت بسوء الأدب والصفاقة ، وقد أهمل الحوري كعادته الآية التي بعد هـذه الآية مباشرة والتي فيها وضع للأمر في نصابه الحق

وهي (سُبْحانَ رَبِّ السَّموات والأرض رَبِّ العَرْش عمَّا يَصِفُونَ) لأن فيها جواباً مفحماً مخرساً ، فهي تنزه الله عن الولد ، وتفيد أن الآية السابقة لها أسلوبية بسبيل استنكار القول ونفيه ، وهو ما أجمع المفسرون عليه في تأويلها .

وفي أقوال الحوري السابقة كثير من التمحل والمفارقة والتناقض بالإضافة إلى ما فيها من سوء أدب نحو كتاب الله تعالى ورسول الله ﷺ .

ومهما تمحل فإنه مقر بأن (المسيح) حتى في ما زعمه من مدى العقيدة النصرانية الصحيحة هو الله نفسه ، فلا يكون القرآن مفارقاً لواقع أمر هذه العقيدة حينما ذكر أن هناك من يقول : إن الله هو المسيح ، وان المسيح هو الله ، وحينما قرر كفر من يقول ذلك .

والحوري مع تمحلاته لم ينكر أن مريم حبلت بالمسيح وولدته ، وأنه عاش كإنسان وتعذب وأهين وصلب ومات من أجل فداء البشرية من خطيئتها الأولى على زعمه . وهذه ولادة جسدية تناسلية على كل حال ، وليست ولادة روحية عقلية محضة كما يقول ، ولم يفسر الحوري كيف يمكن أن يكون ذلك والمسيح هو ذات الله ، واسمه صفة من صفاته ، أو أقنوم من أقانيمه كالعلم أو الحياة أو الفكر والمحبة ، ولا كيف تجسدت هذه الصفة ، وانفصلت عن ذاتيتها العقلية التصورية المحضة جنيناً في بطن مريم ، ثم ولدته إنساناً بين الناس ، وعاش وأكل وشرب ، ودعا إلى طريق الله القويم ، وجادل وندد ببني إسرائيل وتعذب وأهين ، ثم صلب ، ودفن بزعمه دون أن يكون كل هذا متناقضاً مناقضة صارخة مع القول : إن بنوّة المسيح لله هي بنوّة عقلية محضة ، وان الله هو المسيح ، وان المسيح هو الله ، وان الله هو الأب والكلمة ، وان المسيح هو الله وهو الابن ، ولا مع فكرة كون ظهور الله الأب في صفة المسيح الابن في الدنيا كان

لأجل فداء البشرية من خطيئتها الأولى حتى يغفرها الله ، ولم يكن رسالة كرسالات الأنبياء تدعو إلى الله ، وتندد بالمنحرفين عن طريقه ، لا سيما وانه لم يقل : إن قصة البشارة بالمسيح وحبل مريم به وولادتها إياه ، وحياته في الدنيا ورسالته ، وجداله مع بني إسرائيل وعذابه وصلبه وموته على زعمه من أولها إلى آخرها تخييل في تخييل ليس لها أصل من واقع ولا حقيقة . وطبعاً نحن نعرف أن المذهب الذي عليه الحوري هو أن المسيح إله كامل ، وإنسان كامل ، وأنه ظهر في الدنيا بصفته الثانية مع احتفاظه بصفته الأولى أيضاً ، ولكن هذا يزيد الأمر تعقيداً ، ولا يفسر ما تقدم ، ولا يجيب عليه ، لأن الانفصال والتجسد والتعدد والحبل بعيسى وولادته يظل قائماً وحقيقة واقعة . وطبعاً نحن نعرف أيضاً أن الحوري سوف يعمد إلى القول : إننا لم نستطع أن ننفذ إلى السر الفلسفي الكامن في هذا المشهد ، ولكن هذا يكون منه تهرباً ولا يغير تلك الحقيقة والواقع في شيء .

وقد وقع الحوري في تناقض ، وهو يسيء أدبه ، ويقول : إن النبي لم يكن يعرف من العقائد النصرانية غير عقائد العرب الجاهلين الذين كانوا منحرفين عن العقيدة النصرانية الصحيحة ، فمن جهة انه لم يكن في مكة ، بل في الحجاز نصارى عرب إلا أفراد ، وهؤلاء كانوا علماء ، ومنهم ورقة بن نوفل الذي ذكرنا خبره في مناسبة ثانية ، ومن جهة إن النصارى الذين كانوا في مكة واتصل بهم النبي كانوا نازحين إليها من بلاد الشام والروم والحبشة ، حتى إن منهم من لم يكن يجيد العربية وما يزال لسانه أعجمياً . وكان فيهم أهل علم وثقافة ، وهو ما تفيده آيات القرآن المكية وما تمسك به الحوري وقال استناداً إليه : إن النبي كان متأثراً بهم يتلقى هداه عنهم وكان كأنه واحد منهم على ما شرحناه سابقاً وقد أطنب الحوري في

التنويه بعلمهم وثقافتهم بسبيل تدعيم رأيه ، وكان عليه أن يفطن ويذكر أن النبي ﷺ لا بد من أن يكون عرف منهم مختلف العقائد النصرانية ، وتعدد أحزابها ومذاهبها في بلادهم التي كانت النصرانية سائدة فيها ، ولقد كان هـذا مما أشارت اليه الآيات القرآنية التي أوردناها في مناسبات سابقة ومنها ما جاء ليذكر ما كان من اختلاف الأحزاب بعد رسالة عيسى عليه السلام (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ .. الزخرف : ٦٣ - ٦٥) .

ومن تناقضات الحوري أنه بينما يقول : إن النبي لا يعرف إلا عقائد العرب الجاهلين المنحرفة يذكر في نفس الوقت اليعاقبة ويقول : إنهم هم المقصودون بالتكفير القرآني لأنهم كانوا يقولون : إن المسيح هو الله ، واليعاقبة هم غالبية نصارى أهل الشام ومصر ، ومن بابهم النساطرة الذين هم غالبية نصارى العراق ، والعرب الصرحاء منهم أقلية ، وغالبيتهم من الأصول الآرامية والكنعانية والفينيقية ـ الكنعانية والعمورية والآشورية والكلدانية والقبطية المصرية . وهذا يفيد باعتراف الحوري أن القرآن عناهم ، ولا بد من أن يكون النبي ﷺ عرف أحوالهم وعقائدهم ، ولقد كان إلى جانب هـذه المذاهب في بلاد الشـام ومصر أيضاً مذهب يعرف بالملكاني يعتقد معتنقوه الذين منهم الروم أصحاب السلطان في هذه البلاد وجماعات أخرى من أهل البلاد موالون لهم بأن الله المسيح إله كامل وإنسان كامل ، وهم الذين عناهم الحوري على الأرجح بأنهم أصحاب العقيدة النصرانية الصحيحة التي هو وطوائف أخرى من النصارى عليها . ومهما تأول الحوري وتمحل ،

فإنه لا يمكن أن ينكر أنه هو وأصحاب مذهبه يعتقدون بألوهية المسيح بحيث يبدو من ذلك حقيقة كون القرآن قد احتوى صور العقائد النصرانية جميعها والتي تشترك جميعها على اختلاف في المدى والتأويل في عقيدة بنوّة المسيح وربوبيته وألوهيته معاً ، وفي عقيدة الأقانيم الثلاثة التثليثية التي يكون الله على كل حال والمسيح أحدها ، وبحيث يبدو من ذلك حقيقة كون النبي ﷺ قد عرف جميع المذاهب والعقائد النصرانية ، وبحيث لا يكون أية مفارقة في القرآن حينما كفّر من قال : إن الله ثالث ثلاثة ومن قال : إن الله هو المسيح بن مريم ، ومن قال : ان الآلهة ثلاثة ومن اتخذ مريم إلهاً أيضاً .

ونحن نعتقد أن تأويلات (الأب والابن وروح القدس) بالفكر والمحبة والعلم والحياة وتشبيه ذلك بما في الآية (اللهُ لا إلهَ إلّا هوَ الحيّ القيُّومُ) هي اجتهادات متأخرة التجأ إليها الخوري وأمثاله بسبب ما يبدو في العقائد النصرانية من عقد وشذوذ وغرابة واستحالة وتناقض ، وتهرباً مما يقال : إنها عقائد وثنية تسربت إلى النصرانية بعد اعتناق الأوروبيين هذه العقيدة في القرون المسيحية الأولى ، وليس من شأنها مع ذلك أن تفسر التناقض الصارخ بينها وبين مشهد ظهور المسيح في الأرض ورسالته كإنسان على ما شرحناه آنفاً .

- ٨ -

وإنه لمن الحقائق المستفادة من المصادر المسيحية القديمة التي لا يستطيع الخوري المكابرة فيها أن النصارى الأولين كانوا مختلفين في شخصية المسيح عليه السلام ، وفي تأويل النصوص الإنجيلية ، وهو ما أشارت إليه آيات سورة الزخرف أيضاً ، وكان منهم فرق ومذاهب تنكر ألوهيته ، وتقرر أنه إنما كان بشراً نبياً ورسولاً ، وتستند في ذلك إلى نصوص إنجيلية

كانت في يدها ، وتقول عن النصوص التي يستند إليها مخالفوها في عقيدة ألوهية المسيح : إنها محرفة ، وتجد في القول بألوهيته ، ولاهوتيته ، أو كونه صفة من صفات الله ، أو أقنوماً من أقانيم الله شذوذاً عن العقيدة الكتابية التوراتية الصحيحة التي هي وحدة الله بدون شائبة والتي كان المسيح يلتزم بها ، ويدعو إليها في بشاراته ، وهذا ما يفيده بخاصة آية إنجيل متى (اذهب ياشيطان فإنه قد كتب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد) . وكان الخلاف يؤدي إلى مهاترات ومنازعات بين الفرق . ولقد كانت هذه الاختلافات كثيرة وواسعة حتى لقد ذكر المطران الدبس في المجلد الرابع من كتابه « تاريخ سورية » أن مطران سلمينا في قبرص ألف في القرن الرابع كتاباً فيها منذ بدء النصرانية إلى أيامه ، وممن ذكرهم التاريخ من زعماء هذه الفرق والمذاهب في القرن الأول الميلادي كرنتوس الذي كان يقرر أن يسوع إنسان ولد كعامة الناس ، وحل عليه الروح القدس بشبه حمامة عند تعميده في الأردن ، وايبون الذي كان يقرر أيضاً أن المسيح بشر أحرز الفضائل ، فاختاره الله ابناً له ، وإن أمه حبلت به بروح القدس ، ومنهم في القرن الثاني كربوكرات الإسكندري الذي كان يقول : إن يسوع ولد من مريم ويوسف كسائر الناس ، ثم فاقهم فضيلة ، ومنهم مرقيون الذي كان ينكر أن المسيح ولد من مريم العذراء وكان له إنجيل مختزل من إنجيل لوقا بإسقاط فصول عديدة منه ، وكان ينكر صحة سفر رسائل بولس ، وسفر أعمال الرسل ، وسفر رؤيا يوحنا وهذه الأسفار من جملة أسفار العهد الجديد . ومنهم والتينوس الذي كان يدعو إلى مذهب مزيج من العقائد المسيحية والوثنية الرومانية ، والذي كان يحاول به التوفيق بينه وبين الأسفار . ومنهم تاسيان الذي كان له إنجيل مختزل من الأناجيل الأربعة مسقطاً منها ما فيها من نسب المسيح إلى داود

ومنهم منتانوس الذي ادعى أنه البارقليط ومنهم توارطوس الذي كان يقول بإنسانية المسيح وعدم تولده في الأزل من الأب . ومنهم في القرن الثالث بولس السميساطي الذي كان بطوكاً لأنطاكية وصاحب مكانة عند ملكة تدمر ، وكان مذهبه أن ابن الله لم يكن من الأزل ، ولم يكن قبل مريم ، بل حل فيه كلمة الله وحكمته عندما ولد من العذراء ، وأنه كان في المسيح اقنومان لله أحدهما بالطبيعة ، والآخر بالتبني ، وكان ينكر الثالوث الأقدس . ومنهم بريل أسقف بصرى الذي كان له مؤلفات كثيرة شاهدة بحذقه وطول باعه ، وكان مذهبه أنه لم يكن ليسوع قيام قبل أن يتجسد ، وأنه ابتدأ أن يكون إلهاً بعد أن ولدته العذراء ، ولم يكن إلهاً إلا لأن الأب كان حالاً فيه حلوله في الأنبياء ، ومنهم سياخوس الذي كان على مذهب إبيون القائل : إن المسيح ليس إلا إنساناً ولده يوسف ومريم ، وكان يقول : إن إنجيل متى محرف ، وكان له إنجيل خاص ، وهو من مترجمي الأسفار إلى اليونانية . ومنهم براكسيا الذي كان مذهبه إنكار الثالوث الأقدس والاعتقاد بأقنوم واحد وذات واحدة لله تعالى ، وقد نشأ هذا ودعا الى مذهبه في الأناضول واعتنق مذهبه رجل دين في الاسكندرية اسمه سابيليوس ودعا اليه ، غير أن هذا كان يقول فيما يقوله أيضاً : إن الأقانيم الثلاثة في الله متساوون ذاتاً وجوهراً ، ومنهم أبولينار أسقف اللاذقية ، ومن كبار ومشاهير النصرانية السوريين ، وكان مذهبه أن المسيح أخذ جسد البشر ، ولكنه لم يأخذ نفساً بشرية ، لأن اللاهوت ناب عنها .

ولقد ظلت هذه المذاهب والمقالات تجد أتباعاً في كل مكان فيه نصارى في القرنين الثاني والثالث ، وفي أوائل القرن الرابع ظهر في مصر رجل دين وعلم كبير اسمه أريوس الذي كان ينكر ألوهية المسيح ويقول :

إنه مخلوق ونبي ، وقد صار صاحب مذهب له أتباع كثيرون في مصر وخارجها ، واصطدم بمذهبه مع بطرك الاسكندرية الذي كان على رأس الفريق القائل بألوهية المسيح ، فشكاه إلى الامبراطور قسطنطين الذي كان انتسب حديثاً إلى المسيحية ، ودافع أريوس عن مذهبه ، فرأى الامبراطور عقد مجمع للأساقفة للنظر في الخلاف ، وانعقد المجمع في سنة ٣٢٥م في نيقية [١] وشهده نيف وألفان منهم ، وكانوا مذاهب متعددة لكل مذهب رأي في الأناجيل والمسيح ومريم والرب والشريعة يخالف قليلاً أو كثيراً الآخر ، وكان نحو سبعمائة منهم متوافقين مع أريوس الذي ناضل في المجمع لإثبات رأيه من نصوص إنجيلية كانت لديه . وقد وصف النصوص التي كان يستند إليها مخالفوه بالتحريف ، ولم تستطع أكثرية المجمع أن تحل الخلاف ، وحينئذ اختصره الامبراطور ، فاختار من الأساقفة ٣١٨ كانوا متقاربين أو متوافقين مع رأي بطرك الإسكندرية الذي كان متأثراً بالفلسفة اليونانية التي كانت تمت في نفس الوقت إلى الوثنية اليونانية وكان الامبراطور أيضاً متأثراً بذلك ، فمنح الأساقفة المختارين سلطة شرعية فقرروا في صدد المسيح هذه الصيغة (إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شيء ، أو من يقول : إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الأب ، وكل من يؤمن بأنه خلق ، أو من يقول : إنه قابل للتغير ويعتريه ظل دوران) ، وظاهر من هذا أنه قرار أقلية ضئيلة من العدد الكبير من الأساقفة المجتمعين ، كل مزيته أنه مؤيد بالسلطة الزمنية الحاكمة ، ولم يكن من شأنه أن يكون حاسماً مزيلاً للخلاف الذي استمر

---

(١) مما ذكره المطران الدبس في كتابه تاريخ سورية خبر انعقاد مجمع قبل هذا المجمع ، ويظهر أنه لم يكن بدعوة السلطات أو تحت رعايتها فرأت هذه السلطات أن تعقد مجمع نيقية بدعوة منها .

بين أصحاب المذاهب المختلفة ، يشتد حيناً ويخفت حيناً ، وظل أريوس وأتباعه من بعده من الجملة ينشطون في سبيل تثبيت ونشر مذهبهم ، وقد تساجل النصر بينهم وبين مخالفيهم ، حيث كان كلما استطاع الأريوسيون إقناع الجالس على عرش الامبراطورية ، وجلبه إلى ناحيتهم يعلو مذهبهم كما كان يخفت ويعلو المذهب الآخر كلما استطاع مخالفوهم كسب الامبراطور وجذبه إلى جانبهم .

ولقد كان خلاف بين المذاهب النصرانية في صدد الروح القدس حيث كان بعضها يقول : إنه مخلوق ، وبعضها يقول : إنه صفة من صفات الله أو صورة من صوره ، وكان على رأس الفريق الأول عالم اسمه مقدونيوس ، فانعقد من أجل ذلك مجمع في الآستانة سنة ٣٨٧ فقررت أكثريته (أن روح القدس هو روح الله ، وأنه غير مخلوق ، وأن من يقول خلاف ذلك ملعون) ، ثم ثبتت أكثرية هذا المجمع عقيدة الأقانيم الثلاثة بهذه الصفة (الإيمان بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن مسجود له ومتمجد ، وأن الأب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم ، وثلاثة وجوه ، وثلاثة خواص ، وحدية في تثليث ، وتثليث في وحدية ، كيان واحد في ثلاثة أقانيم ، إله واحد ، جوهر واحد ، طبيعة واحدة) ولم يحسم هذا القرار الخلاف ايضاً ، فظل مستمراً في شأن روح القدس كما ظل في شأن المسيح ، وظلت الفرق متعددة متنازعة فيما بينها .

ثم تبلورت الخلافات في صدد شخصية المسيح بخاصة في القرن الخامس وبعده في ثلاثة مذاهب : الأول مذهب النسطورية نسبة إلى نسطور بطرك الآستانة الذي كان ينكر نعت مريم بأم الله ، ويقرر أن المسيح إنسان متحد مع الله بالمحبة ، وانه ابن الله بالموهبة ، وليس في الحقيقة ، وان مريم لم تلد إلهاً ، لأن الجسد لا يلد إلا جسداً ، ولا تستطيع الخليقة أن تلد

الخالق ، بل ولدت إنساناً هو آلة الله. وكان مجال انتشار هـذا المذهب الأوسع جزيرة الفرات والعراق العربي . والثاني مذهب الأوطاخيين ثم اليعاقبة والاسم الأخير هو الأشهر نسبة إلى رجل دين كبير اسمه يعقوب البردعي الذي كان يقرر وحـدة الطبيعة في المسيح ناتجة عن امتزاج اللاهوتية والناسوتية فيه بحيث لا يعد إلهاً كاملاً ولا إنساناً كاملاً . وكان مجال انتشار هـذا المذهب الأوسع بلاد الشـام ومصر . والثالث مذهب الملكانيـة ، وكان يقرر أن المسيح ذو طبيعتين ، فهو إنسان كامل وإله كامل ، وحينما ظهر في الدنيـا ظهر بصفته إنساناً كاملاً دون أن تتعطل صفته الثانية أو ألوهيته الكاملة ، وكان هذا المذهب مذهب السلطات الرومانية الحاكمة في أكثر الظروف ، ومجال انتشاره الأوسع الامبراطورية الرومانية خارج بلاد الشام ومصر والعراق وجزيرة الفرات مع اعتناق جماعات من أهل هذه البلاد له بالإضافة إلى جماعات الجاليات الرومانية فيها من المنتسبين إلى السلطة والممارسين لها ، أو من المقيمين في البلاد على حسابهم .

والمصادر النصرانية تذكر خبر انعقاد مجامع في القرنين الخامس والسادس لمعالجـة الخلافات التي كانت مستمرة ، وكانت تؤدي إلى الصدام الدموي بين أصحابهـا من حين لآخر ، ولكنها لم تستطع إزالة هذه الخلافات ، وظلت المذاهب الثلاثة قائمة في مجالاتها المذكورة يناوىء بعضها بعضـاً ، ويضطهد بعضها بعضاً إلى زمن البعثة النبوية ، وهذا بالإضافـة إلى صور عقائدية خلافيـة أخرى حيث كان هناك طوائف تعتقد بألوهيـة مريم ، وعرفت نحلتها باسم المريمية ، أو بكون الآلهة ثلاثة متمثلين في الأقانيم الثلاثة ، أو بكون الله واحداً منهم ، والاثنان أقل رتبة منه في الألوهية ، أو بكون المسيح هو الله ، أو أن الله هو المسيح مما حكاه القرآن الذي كان يحكي ما كان قائماً قبل نزوله .

ويبدو مما تقدم أن العقيدة التي يقول الخوري : إنها الصحيحة ليست هي المجمع عليه عند النصارى في الأصل ومنذ البدء ، وإنما هي بنت قرارات مجمعية غير مجمع عليها ، بل غير صادرة وغير مؤيدة بأكثرية ، وإنما فرضت بقوة السلطان ، وظل جمهور كبير من النصارى خارجاً عنها رغم ما كان يتعرض له الخارجون عنها من اضطهاد السلطان الرومي وأنصار مذهبه ، وكانت أكثرية نصارى بلاد الشام ومصر والعراق الساحقة في القرون الخامس والسادس والسابع من هؤلاء الخارجين وعلى مذهبي اليعقوبية والنسطورية ، وكان يصل الأمر بينهم إلى الاقتتال على ما حكاه القرآن في آية سورة البقرة هذه (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَهُ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ . وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)[1] .

وهذا بقطع النظر عن كون العقيدة التوراتية التي كان المسيح يلتزم بها ويدعو إليها هي وحدة الله تعالى بدون شائبة ، ووحدة ربوبيته مما هو متطابق مع تقريرات القرآن .

وبقطع النظر عن أنه كان من النصارى الأولين فرق عديدة يعتقدون هذه العقيدة ، وينكرون ألوهية المسيح ، ويقررون نبوته ورسالته .

---

(١) انظر بتفصيل لما في هذه النبذة في «تاريخ سورية» للدبس ، «ومحاضرات في النصرانية» للشيخ أبي زهرة «ودليل الحيارى» للامام ابن قيم الجوزية .

وبقطع النظر عن أن العقائد المسيحية المستقرة في صدد لاهوتية المسيح التي تنطوي آيات القرآن على صور منها إنما استقرت مؤخراً وفي المجامع التي صارت تنعقد بعد القرن الثالث الميلادي نتيجة للخلافات التي نجمت بين فرق النصارى في شخصية المسيح ولاهوتيته ، وفي النصوص الإنجيلية وفهمها على ما شرحناه بإيجاز قبل .

وبقطع النظر عما في تأويل نصوص الأناجيل المتداولة تأويلاً متسقاً مع هذه العقائد المستقرة من تجوز وتمحل .

ثم بقطع النظر عما يقرره كثير من الباحثين من أن العقيدة التثليثية التي تكون العقيدة المسيحية المستقرة من صورها هي عقيدة وثنية قديمة ظهرت في أشكال متنوعة في أقطار متعددة في القرون القديمة وتسربت إلى المسيحية بعد المسيح بمدة ما[1] مما لا نحب التوسع فيه ، لأننا كل ما أردناه في كتابنا هو تفنيد تخرص الحوري الحداد وأمثاله عن القرآن والنبي محمد ﷺ والرسالة الإسلامية

ومع كل ذلك فما دام أن الحوري ومن على مذهبه يقررون أن العقيدة النصرانية الصحيحة هي توحيد الله وتنزيهه عن الحدوث والتجزء والتجسد والتعدد الفعلي الحقيقي ، ويشبهون الأقانيم الثلاثة بمدى ما في آية آل عمران (اللهُ لا إلهَ إلا هوَ الحيُّ القيُّومُ) ويقولون : إنه ليس من خلاف بين هذه العقيدة والعقيدة الإسلامية بالنسبة لذات الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وما دام أن جماعات من النصارى فيهم أولو علم وقسيسون ورهبان الذين التقوا مع النبي ﷺ ، وسمعوا منه القرآن قد عرفوا أن دعوته موجهة إليهم وقد رأوا في ما سمعوه ورأوه ما جعلهم يرون فيه الحق والنور والهدى والتطابق مع

---

(١) انظر إذا شئت كتاب «دليل الحيارى» للامام ابن قيم الجوزية، وانظر كتاب «عقيدة الفداء والصلب» والمقال الملحق المطبوع في مصر سنة ١٣٥٣ مثلا .

ما يجدونه في كتبهم من صفات وبشارات ويؤمنون بالرسالة المحمدية القرآنية وإن جماعات عظيمة من نصارى الشام ومصر والعراق وشمال إفريقية تابعتهم على ما شرحناه قبل ، فإن الحجة تكون قد دمغت الحوري ، ومن يقف موقفه ، ويكون موقفهم والحالة هذه متصفاً بالتمحل والعناد والمكابرة والصد والتعطيل ، ومماثلا لذلك الموقف الذي حكاه القرآن عن أمثال لهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) بقصد إطفاء نور الله بأفواههم فرد الله عليهم قرآناً (وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ) .

ثامناً

في صدد حالة اليهود والنصارى في القرآن والاسلام

- ١ -

لقد حاول الحوري الحداد في أكثر من مناسبة وموضع من كتبه وفي سياق التعليق على آيات قرآنية عديدة إبراز كون الخلاف بين اليهود والنصارى من جهة وبين النبي ﷺ من جهة أخرى هو خلاف سياسي وطائفي للزعامة في الحجاز ، وليس دينياً ولا عقائدياً ، وليس على الإسلام والتوحيد ، لأن الوحدة الدينية كانت قائمة بين الكتابيين والمسلمين طيلة العهد المكي والعهد المدني معاً يجمعهم التوحيد والاسلام . ومن أقواله : (إن القرآن يرفع إلى الله ما قد يكون بينهم من خلاف عقائدي ليفصل فيه يوم القيامة أو يدعوهم إلى كلمة سواء دون إلزام لهم باتباع محمد ، وإن أهل التوراة والانجيل والقرآن كلهم مسلمون ، أي : موحدون يؤمنون إيماناً واحداً بالله واليوم الآخر ، وإن القرآن أقر التوراة والانجيل وأحكامها بنفس القوة التي أقر بها القرآن وأحكامه دون إلزامهم بأحكام القرآن ، وإنه أقر أمة موسى على شريعتهم ، وأمة عيسى على شريعتهم ، وأمة محمد على شريعتهم في آيات المائدة ٤٣ - ٤٨ وختم ذلك بمبدء جامع مانع شامل كامل أولي ونهائي - وهذه تعابير الحوري - وهو (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ .. الآية

٤٨) وإنه أثنى على المستقيمين الصالحين منهم ثناء فيه إقرار لهم على أمورهم وليس فيه ما يجعلهم مطالبين بالتحول عنـه إلى الدين المحمدي أو يجعل ذلك ضرورياً لنجاتهم في الآخرة) .

وهذه خلاصة موجزة لأقواله . ولقـد تطرقنا لشرح بعض ما فيها في المباحث السابقة ، وبينا وجه الحق في الأمر ، غير أننا رأينا أن نفرد لذلك بحثاً خاصاً حتى يتضح الأمر ، ويكون الكلام فيه متلاحقاً .

ونقول أولاً : إن القرآن قـد أقر أهل الكتاب الموادين والمسالمين والمعاهدين الذين كانوا يعيشون مع المسلمين وفي سلطانهم على أديانهم وحرياتهم الطقسية والمدنية وجعل القضاء في أمورهم لأحبارهم ورهبانهم على ما تفيده آيات عـديدة أوردناها قبل ومنها آية سورة الممتحنة (٨) وآيات سورة المائدة (٤٠ - ٤٧) فلم يبق سبب لاصطدام وخلاف طائفي بينهم وبين النبي ثم بينهم وبين الإسلام والمسلمين إلا ما كان بالنسبة لمن كان يستجيب لتحريك أعداء الإسلام من الدول النصرانية التي طردها الإسلام من المشرق وظلت تطمع في العودة إليه ، وتحرك بعض العناصر النصرانيـة المغامرة للتشويش على الدولة الاسلامية ، ولا يعد ما كان من هذه الدولة من تنكيل وتأديب لهذه العناصر خلافاً طائفياً .

وثانياً : إن الحوري يستند في أقواله إلى الآيات استناداً فيه تعسف وتجوز وتمحل ، وبدون ملاحظة سياق الآيات وظروف نزولها ومداها مع إهماله لآيات أخرى فيها تصحيح أو تعديل أو توضيح ، ثم بدون ملاحظة كون القرآن متكاملاً يجب أخـذه جميعه ، وتدعيم بعضه ببعض ، وربط بعضه ببعض ، وعطف بعضه على بعض .

يستند الحوزي فيما يستند إليه أولاً إلى هذه الآيات :

١ ـ إنَّ الَّذينَ آمَنُوا والَّذينَ هادُوا والنَّصارى والصَّابِئينَ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صالحاً فلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِم ولا خَوْفٌ عليْهِمْ ولا هُمْ يَحزَنُونَ .. [البقرة : ٦٢] .

٢ ـ إنَّ الَّذينَ آمَنُوا والَّذينَ هادُوا والصَّابِئُونَ والنَّصارى مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صالحاً فلا خَوْفٌ عليْهِمْ ولا هُمْ يَحزَنُونَ .. [المائدة : ٦٩] .

٣ ـ إنَّ الَّذينَ آمَنُوا والَّذينَ هادُوا والصَّابِئينَ والنَّصارَى والمجُوسَ والَّذينَ أشْرَكُوا إنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامَةِ إنَّ اللهَ على كُلِّ شيْءٍ شَهيدٌ .. [الحج : ١٧] .

ويلحظ أن آية سورة الحج جمعت الملل الكتابية وغير الكتابية أو المؤمنين والموحدين مع المجوس والمشركين ، وكل ما فيها إيذان بأن الله تعالى سوف ينظر في أمرهم يوم القيامة ، ويقضي على كل منهم حسب موقفه في الدنيا ، وليس فيها إقرار لأهل هذه الملل على مللهم ، أو إبطال لدعوتهم إلى طريق الحق والهدى وتبشيرهم وإنذارهم ، وليس فيها بالتالي ما زعمه الحوزي من أن القرآن يؤذن بأن ما بين الكتابيين والمسلمين من خلاف عقائدي مرجعه إلى الله يوم القيامة ليفصل فيه وحسب ، والآيات التي بعدها تحتوي تفصيلاً لذلك الفصل الموعود ، وتقريراً بأنه سيكون مستنداً إلى موقف كل فريق في الدنيا من الإيمان والكفر كما ترى فيها وهي (هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا في رَبِّهِمْ فالَّذينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الحَميمُ يُصْهَرُ مَا في بُطُونِهِمْ والجُلُودُ . ولَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَديدٍ . كُلَّما أرادُوا أنْ يَخرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعيدُوا فيها وذُوقُوا عَذابَ الحَريقِ . إنَّ

اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ .. ١٩ – ٢٤) .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال : إن المؤمنين المقصودين في الآيات ، ثم في الآية ١٧ هم الذين آمنوا بالقرآن والرسالة المحمدية ، وإن الكافرين هم الذين جحدوها من أهل سائر الملل المذكورين في الآية إذا ما ظلوا على جحودهم ومن جملتهم اليهود والنصارى .

وينطوي في هذا أن الدعوة لهم إلى الإيمان بالقرآن والرسالة المحمدية قائمة ، ويبدو من هذا زيف تمحل الحوري وغثاثته في قوله : إن القرآن يأمر بترك كل ملة وشأنها إلى يوم القيامة ليفصل الله في حالتها .

ولقد اقتصرت آيتا البقرة والمائدة حقاً على الموحدين صراحة أو تأويلاً وهم المؤمنون بالرسالة المحمدية واليهود والنصارى ، ثم الصابئين الذين يراد بهم فيما نعتقد الذين تركوا دين الشرك والوثنية وتقاليد الجاهلية ، واتجهوا نحو عبادة الله وحده قبل الإسلام من نبهاء العرب ، أي : صبأوا عن دين آبائهم على ما فصلناه في كتابنا « عصر النبي ﷺ ، وبيئته قبل البعثة » وأوردنا دلائله . وقررتا ـ أي الآيتين ـ أن من عمل صالحاً ، فلهم أجرهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، غير أن جمهور المفسرين يقررون أن الآيتين إنما احتوتا حكم الله قبل بعثة النبي محمد بالنسبة لغير الذين اتبعوه بعد بعثته ، وأنهم صاروا بعد بعثته مدعوين إلى اتباعه ، وأن ما احتوته الآيتان من تطمين وتبشير هو بالنسبة لمن كان مستقيماً على دين اليهودية الحق قبل عيسى ، وعلى دين النصرانية الحق قبل محمد ، ولا يشمل المنحرفين . ومن المفسرين من قال : إن الآيتين منسوختان بالنسبة لما بعد بعثة النبي بالدعوة القرآنية إلى جميع الناس بما فيهم اليهود والنصارى والصابئين للإيمان بالقرآن

والرسالة المحمدية ، والانضواء إليها ، وأنه لا يجزىء عند الله أن يبقى اليهود والنصارى والصابئين على مللهم بعد بعثة النبي وأنهم يعدون كافرين مستحقين لعذاب الله إذا لم يؤمنوا بها ، واستدلوا على ذلك بآيات عديدة محكمة النص والمدى منها هذه الآيات :

١ - يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ .. [البقرة : ٤٠ و ٤١] .

٢ - وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. [البقرة : ٨٩ - ٩١] .

٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً .. [النساء : ٤٧] .

٤ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

حقّاً وَأعْتَدْنا للكافرينَ عذاباً مُهينا . والَّذينَ آمَنُوا باللهِ وَرُسُلِه وَلَمْ يُفرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أولئكَ سَوفَ يُؤتيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحيماً .. [النساء : ١٥١ و ١٥٢] .

٥ – يا أهلَ الكتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثيراً مِمّا كُنْتُمْ تُخفُونَ مِنَ الكتابِ وَيَعفُو عَنْ كَثيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبينٌ . يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذنهِ وَيَهْديهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ .. [المائدة : ١٥ و ١٦] .

٦ – يا أهلَ الكتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أن تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشيرٍ ولا نَذيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشيرٌ وَنَذيرٌ واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ .. [المائدة : ١٩] .

٧ – قُلْ يا أَيُّها النّاسُ إنّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ جَميعاً الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَواتِ والأرضِ لا إلَهَ إلّا هُوَ يُحْيي وَيُميتُ فَآمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ النَّبيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يُؤْمِنُ باللهِ وَكَلِماتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .. [الأعراف : ١٥٨] .

٨ – لَمْ يَكُنِ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ أهلِ الكتابِ وَالمُشْرِكينَ مُنفَكّينَ حَتّى تَأتِيَهُمُ البَيِّنَةُ . رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً . فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ . وَما تَفَرَّقَ الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ إلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ . وَما أُمِرُوا إلّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخلِصينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤتُوا الزَّكاةَ وَذلِكَ دينُ القَيِّمَةِ . إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ أهلِ الكتابِ وَالمُشْرِكينَ في نارِ جَهَنَّمَ خالِدينَ فيها أولئكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ . إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ أولئكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ . جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ خالِدينَ

فيها أبداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ .. [سورة البينة] .

ففي هذه النصوص وضع للأمر في نصابه الحق بحسم بحيث يكون أهل الكتاب وغير أهل الكتاب من سائر الملل مدعوون إلى الإيمان بالقرآن والرسالة المحمدية ، ويكون أخذ آيتي البقرة والمائدة لحدتهما دون هذه الآيات ، والتمسك بهما غير سليم من وجهة النظر القرآنية .

ولقد فهم اليهود والنصارى وغيرهم من آيات القرآن المكية والمدنية أنهم مدعوون إلى الإيمان بالقرآن والرسالة المحمدية ، وسجل القرآن المكي والمدني إيمان طوائف كثيرة منهم ، وبنوع خاص شهادة أهل الكتاب بأن القرآن ورسالة محمد من الله ، وأنهما حق عرفوه على ما شرحناه في المناسبات السابقة فغدا الأمر محسوماً .

وسورة البينة بخاصة مهمة في هذا الباب ، فقد انطوى فيها تقرير لما كان عليه الذين كفروا برسالة النبي ﷺ من أهل الكتاب والمشركين من انحراف بصورة عامة عن طريق الله القويم ، وتقرير بأنهم كانوا يعلقون التحول عما هم عليه إلى أن تأتيهم بينة من الله ، فنبههم إلى ذلك على لسان رسول يتلو عليهم كتاباً منه فيه بيان لطريقه القويم ، وبيان لواقع أمرهم بعد ذلك . فقد جاءتهم البينة التي ينتظرونها وعلقوا عليها اهتداءهم وتحولهم عما هم عليه عليها متمثلة بالقرآن ورسول الله محمد ﷺ ، ولكنهم ظلوا على حالتهم من الاختلاف والانحراف بعدها أيضاً مع أن الذي أمروا به هو عبادة الله وحده حنفاء مستقيمين على ذلك غير منحرفين عنه ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وهذا هو الطريق القويم ، والدين الحق ، وبناء على ذلك ، فالذين يظلون على كفرهم بالرسالة الجديدة من أهل الكتاب والمشركين يكونون شر البرية ، ويكون لهم في الآخرة الخلود في نار جهنم خلافاً

للذين آمنوا بها وعملوا الصالحات ، فإنهم هم خير البرية ، ولهم في الآخرة الخلود في الجنان . وهذا هو مصير كل من يخشى ربه .

- ٣ -

ولقد زعم الخوري أن المقصودين من أهل الكتاب في سورة البينة هم اليهود ، بل إنه يحلو له أن يزعم أن حملات القرآن وإنذاراته على أهل الكتاب هي في اليهود وحسب ، وهو زعم لا يستند إلى دليل في السورة . ولا ندري ما يريده بهذا الزعم ، ولعله يريد أن يتشاطر ويقول لأهل ملته إن القرآن لا يتعرض للنصارى دعوة ولا إنذاراً ولا تكفيراً ، فإذا كان هذا مراده ، فهو فيه مخادع مضلل ، وإذا كانت آيات عديدة في القرآن قصدت حقاً بتعبير (أهل الكتاب) اليهود وحملت عليهم وأنذرتهم ، فإن في القرآن آيات عديدة فيها تنديد بالنصارى المنحرفين عن العقيدة الصحيحة في عيسى عليه السلام ، ونعتهم بالكفر وإنذارهم إذا لم ينتهوا بعذاب الله الأليم ، ودعوتهم إلى التوبة إلى الله واستغفاره ، والانتهاء من غلوهم وانحرافهم وآيات أخرى فيها خطاب موجه لليهود والنصارى معاً بأن محمداً رسول الله قد جاءهم يبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب ، وما نسوه من أوامر الله ، وأنه جاءهم بكتاب مبين ونور يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه مما أوردنا نصوصه في مناسبات سابقة[1] . وهو يعرف هذا ، ويعرف أيضاً أن وفداً من نصارى نجران جاء إلى المدينة ، وناظر النبي وبقي مصراً على كفره بالرسالة المحمدية ، ودعاه النبي إلى المباهلة والدعاء إلى الله أن يلعن الكاذبين مما شرحناه كذلك في مناسبة سابقة ، وهناك حديث رواه مسلم عن أبي هريرة عن

---

(١) آيات سورة النساء ١١١ و ١١٢ و ١١٣ والمائدة ١٢ - ١٩ و ٦٥ - ٧٧ و ٨٣ - ٨٥ والتوبة ٢١ - ٢٤ ومريم ٣٠ - ٤٠ والزخرف ٥٧ - ٦٦ والصف ٦ - ٩ .

النبي ﷺ قال « والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت بـه إلا كان من أصحاب النار » والحديث متساوق مع مضمون السورة ، ولم يكن إذ ذاك دعوى من نوع دعوى الحوري وأمثاله حتى يقال : إن الحـديث اخترع للرد عليهـــا .

– ٤ –

هذا . ولقد أراد الحوري الشـاطر أن يظهر تناقض القرآن بزعمه – كبرت كلمة تخرج من فيه – فقال : إن القرآن جعل اليهود شر البرية في السورة ، وكانوا قبل خمس سنين خير البرية حيث وصفهم بقوله (إني فضلتكم على العالمين) .

والحوري في هذا يكرر زعمه الكاذب الذي فندناه ، وهو أن اليهود هم المقصودون في جملة (أهل الكتاب) في سورة البينـة ، ويتغافل عن كون جملة (شر البرية) ليست للذين كفروا من أهل الكتاب فقط ، أو حتى على زعمه لليهود فقط ، بل هي « للذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين عامة » .

وإلى هذا فإنه يغالط أيضاً ، ويسيء أدبه عن قصد في الموضوع الذي ينتقده حينما يريد أن يوهم أن القرآن أورد جملة (إني فضلتكم على العالمين) جاءت في معرض الثناء على اليهود ليبرز تناقض القرآن في قوله عنهم على حد زعمه (شر البرية) . فجملة (إني فضلتكم على العالمين) لم ترد بسبيل الثناء على اليهود ، وإنمـا وردت في آية من سلسلة طويلة في سورة البقرة استغرقت نحو مائة وست وثلاثين آية (من الآية ٤٠ إلى الآية ١٧٦) فيها تنديد ببني إسرائيل المعاصرين للنبي ﷺ والموجودين في المدينة ، لكفرهم برسالة النبي والقرآن المصدقين لما معهم ، ودعوة لهم إلى الانصياع للحق ، وتذكير بما كان من نعمة الله السابقة على آبائهم ، وإنذار رهيب لهم بلعنة

الله وغضبه، وربط بين انحرافاتهم الأخلاقيـة والدينية، وانحرافات آبائهم الأولين أيضاً، وهذه بداية السلسلة التي فيها جملة (وأني فضلتكم على العالمين) (يَابَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ . وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ . أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ . الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . يَابَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ . وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ . وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ . وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . ٤٠ - ٥١) .

ومما في السلسلة أيضاً هذه الحلقات :

١ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي

السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ .. [٦٣ – ٦٦] .

٢ – ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهَا الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .. [٧٤ و ٧٥] .

٣ – فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ .وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ .. [٧٩] .

٤ – وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ . بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ

العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. [٨٧ - ٩٣] .

وسلسلة سورة البقرة التي أوردنا هذه الحلقات منها ليست الوحيدة في وصف انحراف بني إسرائيل السابقين والمعاصرين ، وأخلاقهم وكفرهم ، والتنديد بهم ، وتسجيل لعنة الله عليهم وغضبه بسبب مواقف الكيد والمكر والعصيان والدسائس التي وقفوها ، ففي سورة آل عمران والنساء والمائدة والأعراف سلاسل أخرى في ذلك أيضاً نكتفي بذكر أرقام آياتها تفادياً من التطويل وفي الآيات ٨٦ - ١١٢ و ١١٨ - ١٢٠ و ١٨٦ - ١٨٨ من سورة آل عمران و ٤٤ - ٥٦ و ١٥٣ - ١٦١ من سورة النساء و ١٢ - ١٣ و ٤١ - ٨٣ من سورة المائدة و ١٦٠ - ١٦٩ من سورة الأعراف بحيث يبدو من كل هذا أن معظم ضمائر المخاطب عائدة إلى أسلاف بني إسرائيل المعاصرين ، وانه ليس من تناقض بين تقريرات القرآن ، وأن جملة (إني فضلتكم على العالمين) التي يوردها الحوري لإبراز التناقض ، والتي ما في معناها في آيات أخرى مكية مثل آيات سورة الدخان هذه (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ . مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ المُسْرِفِينَ . وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ .. ٣٠ - ٣٣) وآيات سورة الجاثية هذه (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرائيلَ الكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ . وآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ..

١٦ و ١٧) ليست في حق بني إسرائيل المعاصرين للنبي ﷺ ، أو في حق أجيال عـديدة قبلهم ، وإنما هي في حق بني إسرائيل في ظرف قـديم استقاموا فيه لفترة قصيرة حين بعثة موسى عليـه السلام ، وهو ما عبرت عنه آية سورة الأعراف هذه (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُـهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ .. ١٣٧) وآيات سورة السجدة هذه (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُـدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ .. ٢٣ و ٢٤) ثم انحرفوا خلقياً ودينياً على مـا ذكرته آيات سلسلة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأعراف حتى لقد بدأ انحرافهم عقب نجاتهم من فرعون على ما حكته آيات في سورة البقرة وآيات في سورة الأعراف ، ثم استمروا في انحرافهم إلى زمن النبي ﷺ ، فاستحقوا على ذلك حملات القرآن التي منها ما فيه تأذن الله تعالى (ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العـذاب) كما جاء في آية سورة الأعراف (١٦٧) ، وصاروا بإصرارهم على الكفر بالرسالة المحمدية والقرآن من شر البرية مع أمثال لهم أصروا مثلهم على الكفر ، وإن ضمير المخاطب ليس إلا أسلوبياً أريد بـه ربط حاضر انحراف بني إسرائيل المعاصرين للنبي بانحراف أسلافهم الذي حكته الآيات مما هو بارز بقوة فيها ، وبحيث يبدو من كل ذلك أن الحوري إنما اقتطع جملة من آية من سلسلة طويلة متغافلاً عن قصد حتماً عن بقية السلسلة ، وعن آيات أخرى فيها وضع للأمر في نصابه الحق ، وهو ما اعتاده هو وأمثاله لإبراز ما في نفوسهم من ضغينة وهوى ، وما أرادوه من كيـد وتجريح مهما كان فيه من زيف وتحريف وتخريف وسوء أدب وطوية لا يمكن أن يخفى .

- ٥ -

ولقد قال الحوري فيما قاله : (إن موقف الإسلام النهائي من أهل الكتاب هو إخضاعهم للدولة الاسلامية لا للدين الاسلامي ، وأورد آية التوبة هذه كدليل على صحته هذه (قَاتِلُوا الذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالله وَلا بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَـةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ..) .

وفي هذا مغالطة ، فأولاً إن المأمور بقتاله وإخضاعه منهم هم المعتدون ، وليسوا جميع أهل الكتاب على ما شرحناه قبل ، وثانياً إن الآية لا تعني أن أهل الكتاب غير مدعوين إلى الإسلام ، وإنما جاءت لتقرير موقف المسلمين من الأعداء منهم ، وهو قتالهم إلى أن يخضعوا ويؤتوا الجزية إذا شاؤوا الاحتفاظ بدينهم ، لأن القرآن والنبي لم يهدفا من حيث المبدأ إلى إخضاع الناس للإسلام بمعنى إكراههم عليـه بالقوة ، سواء أكانوا كتابيين أم غير كتابيين ، والدعوة قائمة لهم جميعاً ومستمرة في نطاق مبدأ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن دون إكراه مع التبشير والإنذار ، ولم يجعل الله ورسوله سبيلاً للمسلمين على من لا يستجيب إلى الدعوة إذا كان كافاً يده ولسانه عن الإســلام والمسلمين ، فهؤلاء يتركون وشأنهم مع بقاء الدعوة لهم للإنضواء للإسلام بحرية وبدون إكراه قائمة مستمرة .

- ٦ -

ومن الآيات التي يسوقها الحوري آيات سورة آل عمران هذه (لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ

الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ .. ١١٣ - ١١٥) .

وقد قال : إنها في صدد رهبان النصارى ، وإنها أفضل مديح لرهبان عيسى ومتابعيهم .

ويجوز أن يكون قوله صحيحاً ، ويجوز أن لا يكون ، فمن الجائز أن تكون حكمة التنزيل اقتضت ذكر حالة رهبان النصارى ، أو طائفة من النصارى لتقارن بينها وبين انحرافات اليهود الأخلاقية والدينية التي حكتها سلسلة طويلة قبل هذه الآيات عدد آياتها أربعون أي من الآية ٦٩ إلى الآية ١١٢ ، ومن الجائز أن يكون أريد بها استثناء فريق من اليهود أنفسهم كانوا صالحين مستقيمين ، وقد قال هذا غير واحد من المفسرين ، ومما جاء في تفسير ابن كثير في صدد ذلك : « والمشهور عند كثير من المفسرين التابعين نقلًا عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في من آمن من أحبار اليهود » وقد يدعم هذا آية في آخر السلسلة التي سبقت الآيات هذا نصها (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ..) . ويلحظ أن الآيات التي نحن في صددها وصفت الطائفة المستثناة المنوه بها بأنهم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وهذه الآية أثنت على المسلمين ، لأنهم يفعلون ذلك مما فيه توافق يقوي ذلك التدعيم .

هذا من جهة عائدية الآيات ، وفي من عنته ، وإذا صح ما رواه المفسرون عن ابن عباس ، وما تقوم القرائن على صحته ، فلا يكون إشكال ، لأنها تكون احتوت ثناء على جماعة من أهل الكتاب من اليهود آمنوا بالنبي والقرآن وانضووا إليها ، وإذا لم يصح ، وأريد أخذ الآيات على ظاهرها ، أو حتى على ما قاله الحوري الحداد من كونها ثناء على رهبان عيسى ،

وبسبيل المقارنة بينهم وبين اليهود ، فانها تكون قد نزلت المقارنة بين المستقيمين والمنحرفين وحسب في ظرف خاص ، ولا تصح أن تكون دليلاً على كون النصرانية وحدها مجزئة عن النصارى بعد بعثة النبي ، وعلى أنهم غير مدعوين وغير مطالبين بالإيمان به والانضواء إليه ، فهذا أمر محسوم بالآيات العديدة المكية والمدنية التي أوردناها في الفقرة (٢) من هذا البحث ، والتي تدعو جميع الناس ومن جملتهم أهل الكتاب إلى ذلك وتقرر كفر غير المستجيبين واستحقاقهم الخلود في النار .

وفي سورة النساء آيات مهمة يحسن سوقها في هذا المقام وهي (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا .. ١٥٠ و ١٥١) ومحمد رسول من رسل الله وأنبيائه وخاتمهم ، وقد حكت آية الصف السادسة أن عيسى بشر به ، وحكت آية الأعراف ١٥٧ أن اليهود والنصارى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، ونوهت بالذين يتبعونه ويؤمنون بـه ويعزرونه وينصرونه ، فلا يصح ليهودي ولا نصراني أن يقول : إن ديني مجز لي عند الله في العهد الإسلامي من وجهة النظر القرآنية التي يريد الحوري أن يستند إلى بعض النصوص القرآنية لمخالفتها .

– ٧ –

ولقد وقف الحوري عند آيات سورة آل عمران هذه (إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .. ٥٦ و ٥٧) فقال : إن في الآيات شهادة بأن الذين اتبعوا عيسى إلى يوم القيامة هم ناجون ، وفوق الذين كفروا به ، وإن الحكم يوم القيامة بينهم هو على الإيمان بالمسيح وعدمه .

وظاهر الآية يفيد أنها في صدد من آمن وكفر في مواجهة عيسى عليه السلام وحسب ، وقد يدعم هذا الآيات السابقة لهذه الآيات وهي (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ) .

على أن من المفسرين من فرضوا أن يكون مدى الآيات مستمراً أيضاً ، فقالوا : إن الذين وعدهم الله بأن يكونوا فوق الذين كفروا ، هم الذين اتبعوا عيسى ، واستقاموا على رسالته الصحيحة قبل بعثة النبي محمد ، ثم آمنوا بالنبي محمد ، لأن هذا من مقتضى واجب اتباع عيسى ، لأن القرآن حكى قوله : إنه جاء مبشراً برسول من بعده اسمه أحمد ، كما جاء في الآية السادسة من سورة الصف ، ولأن صفات محمد الرسول النبي الأمي مكتوبة في التوراة والانجيل ، وأهلها مدعوون إلى اتباعه حينما يبعث كما جاء في الآية (١٥٧) من سورة الأعراف .

وهذا التفسير سائغ وسديد في حالة صحة الفرض ، وليس من مانع لذلك . ولقد اطلع الحوري عليه ، فلم يعجبه ، وأنكره ، وقال : إنه مغرض ، وقوله هو المغرض ، لأنه لا يصح تفسير غيره للآيات إذا ما جعل حكمها مستمراً ، والقرآن متكامل يوضح بعضه بعضاً ، ويتمم بعضه بعضاً ، ويعطف بعضه على بعض ، والاستناد إلى بعضه والاحتجاج به دون مراعاة ما فيه من توضيح وإتمام غير سليم ، ولا يجنح إليه إلا المتمحلون ، وهذا

ديدن الحوري . ولقد فهم النصارى القرآن على وجهه ، فآمن جمهرة من لقوا النبي ﷺ منهم ، وسمعوا القرآن في مكـة ، ثم في المدينة على ما حكته آيات عديدة ، ثم اتسع نطاق هذا الإيمان فيهم حتى شمل معظمهم في بلاد الشام ومصر والعراق بعد النبي على ما شرحناه قبل لزهق باطل دعوى الحوري .

- ٨ -

ومما يستند إليه الحوري آيات سورة آل عمران هـذه (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ إِلاّ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ . فَإِنْ حاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ واللهُ بَصِيرٌ بِالعِبادِ .. ١٩ و ٢٠) ويقول : إن كل ما طلبه محمد من أهل الكتاب هو إعلانهم الإسلام ، وكون دينهم الإسلام ، وليس اتباع دينه وشرائعه ، والآيات تقرر أنهم يكونون مهتدين بهذا الاعلان المطلوب منهم ، ولقد كان أنبياؤهم وآباؤهم وهم أنفسهم مسلمين بنص القرآن .

وفي هذا مغالطـة من الحوري ، ففيه أولاً إغفال لما في القرآن من دعوة صريحة لأهل الكتاب إلى الإيمان بالنبي والقرآن على ما مر شرحه ، وحينا يؤمنون بالنبي والقرآن يكونون بطبيعة الحال من أتباعها ، وملتزمين بشرائعها . وفي الآيات نفسها صراحة بأن أهل الكتاب كانوا مختلفين في مدى الإسلام الواجب عليهم التزامه تبعاً لاختلافهم في تأويل ما عندهم من كتب بسبب ما كان من مآرب لهم وبغي فيا بينهم ، وحينا يأمر الله تعالى رسوله إذا ما حاججوه بأن يعلن أنه قد أسلم وجهه هو ومن معه لله ، وبأن يسألهم هل هم مستعدون لأن يفعلوا مثله ، فإنما يكون ذلك دعوة لهم إلى الإسلام الصحيح الذي جاء هو ليصحح الانحراف الذي ارتكسوا

فيه ، وبالتالي ، فإنها يكون ذلك دعوة لهم إلى اتباعه ، لأنه هو الذي جاء بالإسلام الصحيح المبرّأ من الانحراف الذي وقعوا فيه .

— ٩ —

وقول الحوري : إن الخلاف بين النبي واليهود والنصارى ليس دينياً ولا عقائدياً متهافت من نواح أخرى أيضاً .

فأولاً : إن القرآن يقرر نبوة النبي ورسالته ، وصدق الوحي القرآني ، وكونه رسولاً إلى أهل الكتاب ، ويدعوهم إلى الإيمان به وبالقرآن كما جاء في آيات كثيرة أوردناها في مناسبات سابقة .

فعدم الإيمان بالنبي محمد ورسالته ، وبالقرآن المنزل عليه من الله تعالى هو خلاف ديني وعقائدي .

وثانياً : إن القرآن يقرر أن عيسى عليه السلام نبي ورسول من أنبياء الله ورسله ، وأن الله آتاه الإنجيل فيه هدى ونور ، وأن أمه طاهرة صديقة نشأت برعاية الله ، وبُشرت بابنها تحبل به بكلمة الله وبدون مس رجل ، واليهود ينكرون ذلك ، ويكفرون برسالة عيسى وإنجيله ، ويقذفون أمه ويبهتونها كما حكى ذلك القرآن ، فصار الخلاف بينهم وبين الرسالة الإسلامية القرآنية خلافاً دينياً وعقائدياً .

وثالثاً : إن القرآن يقرر أن اليهود قالوا إن عزيراً ابن الله ، ونفى ذلك ، وقال عنهم بسبب قولهم هذا (يُضاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا) في آية سورة المائدة ٣١ فصار الخلاف بينهم وبين النبي والقرآن خلافاً دينياً وعقائدياً .

ورابعاً : إن القرآن يصف بالكفر من يقول : إن الله هو المسيح ابن مريم ، أو ان الله ثالث ثلاثة ، وينهى عن القول إن الآلهة ثلاثة ، وينفي ذلك ، كما ينفي كون المسيح ابن الله بأي معنى ، ويقرر أنه عبد من عباد

الله ، ونبي ورسول من أنبيائه ورسله ، وأنه دعا إلى الله وحده ربه ورب الناس جميعاً ، وحذر من الشرك به ، وأنذر المشركين بالنار ، كما جاء في آيات عديدة أوردناها في مناسبات سابقة . فكل من يقول بتلك الأقوال وكل من لا يؤمن بما يقرره القرآن بالنسبة لشخصية عيسى ورسالته ، وبما يحكيه عن لسانه ، ومن جملة ذلك تبشيره برسول من بعده اسمه أحمد ولا يؤمن بهذا الرسول يكون من وجهة النظر القرآنية الإسلامية على خلاف ديني وعقائدي مع المسلمين .

خامساً : إن النصارى يعتقدون اليوم بعقيدة صلب المسيح كفداء لخطيئة آدم التي تسلسلت في ذريته ، ولتخليص البشرية من آثارها ، والقرآن يقرر أولاً أن الله تعالى قد تاب على آدم من خطيئته كما جاء في هذه الآيات :

١ - ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ .. [البقرة : ٣٧] .

٢ - ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ .. [طه : ١٢١ و ١٢٢] .

وثانياً : إن القرآن ينفي صلب عيسى وقتله كما جاء في آيات سورة النساء هذه (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ..) [1] .

---

(١) الخوري يتمحل في هذه الآيات ليستخرج منها كونها في صدد نفي ملاشاة ذكر عيسى وليست في صدد نفي قتله وصلبه وقد تصدينا لتمحله وفندناه في مناسبة سابقة .

وثالثاً : إن القرآن يقرر أن وزر كل ذنب لا يكون إلا على مقترفه فردياً فحسب كما جاء في آيات عديدة منها آية سورة الأنعام هذه (وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) وآيات سورة النجم هذه (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى .. ٣٦ - ٤١) .

وفي كل ما تقدم ينطوي نفي استمرار خطيئة آدم والتصاقها وتسلسلها في ذريته ونفي عقيدة الفداء وصلب المسيح التي يعتقدها النصارى . ويكون الخلاف بينهم وبين النبي والقرآن والمسلمين دينياً وعقائدياً .

وهذا بقطع النظر عما يقرره كثير من الباحثين المحققين من أن فكرة الفداء لتخليص البشرية فكرة وثنية قديمة تسربت إلى العقيدة النصرانية مؤخراً ، ثم بقطع النظر عما يلاحظه كثير من الملاحظين من عقد وآراء غريبة في هذه الفكرة على الوجه الذي يعتقده النصارى مما لا يمكن أن يفهم له أية حكمة ربانية ، ومما يتمثل كما يقوله بعضهم في سكوت الله سبحانه ورضائه عن اندماغ أجيال البشرية من لدن آدم إلى عهد المسيح بما فيهم الأنبياء والرسل بالخطيئة . وتفكيره مؤخراً في وسيلة يجمع بها صفة العدل التي يتصف بها والتي توجب معاقبة المخطىء وصفة الرحمة التي يتصف بها والتي تجعله يعفو عن المسيئين والمخطئين ، واهتدائه بعد أمد طويل إلى أن يكون ذلك في تقديم ابنه الذي هو ذاته بطريقة حلوله في بطن امرأة من ذرية آدم وتجسده بجنين في رحمها وولادته كولد معصوم من جميع معاصي بني آدم وعيشه زمناً مع الناس إنساناً يأكل ويشرب ، ويتلذذ ويتألم كسائر البشر ، ثم يسخر لنفسه أعداء ليصلبوه ويقتلوه أفظع

قتلة بعد أن يهينوه ويعذبوه أشد إهانة وعذاب حتى لم يمنع نفسه من الفزع والحزن والضراعة بأن لا يشرب كأس هذه الإهانة ، ولا يتعذب هذا العذاب إن أمكن تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وإنه يتجه سؤال في هذه المناسبة من الخوري وأمثاله عن حالة البشر بعد الفداء المزعوم ، فهل أصبحوا متطهرين من الخطايا بالمرة ؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب ، فهل يكون الناس جميعهم في ذلك سواء ؟ وما هي جدوى الإيمان والعمل الصالح ، أو ضرر الكفر والعمل السيء والحالة هذه . وإذا كانت البشرية تظل مسؤولة عن خطاياها فما هي جدوى عملية الفداء ؟ ثم ما هو معنى وحكمة ومحصل ما امتلأت به الأناجيل المتداولة من أخبار نشاط المسيح عليه السلام في التبشير ، داعياً إلى الله تعالى والإخلاص له حاضاً على الأخلاق الكريمة ، والأعمال الصالحة على مختلف أنواعها ، جاعلاً خلاص الناس ورضاء الله عنهم ودخولهم في ملكوت السموات منوطاً بذلك محذراً من الانحرافات الخلقية والدينية ، منددا بالمنحرفين من رجال الدين وغيرهم ، منذراً إياهم بسخط الله والشقاء الأبدي ما دام هدف ظهوره هو فداؤه جميع البشر بدمه وتخليصهم من الخطيئة ؟..

ولا ينقض ماتقدم ما يقوله الخوري وأمثاله : إن حادث الصلب وقيام المسيح بعد موته حياً وكون ذلك وقع لأجل فداء البشرية وتخليصها من الخطيئة قد ورد في الأناجيل المتداولة ، فهذه الأناجيل قد كتبت بعد عيسى تسجيلاً للروايات والأقوال المتداولة ، وليس ما يمنع أن يكون ما سجل فيها خلافاً للوقائع والحقائق . والكيفيات والظروف المذكورة فيها متناقضة متباينة ، وفيها ما يدل على أن الأوهام والخيالات قد لعبت دوراً كبيراً فيها بما يمكن أن يلمحه كل من يتمعن فيها ويقابلها مع بعضها ، وليس ما يمنع أن يكون طرأ عليها تبديل وتحوير ، وليست هي بعد كل

ما كتب عن حياة عيسى . وقد ثبت أنه كان هناك أناجيل كثيرة بادت أو أبيدت ، كما رويت أقوال عن رجـــال المذاهب الأولين بتحريفات وقعت في ما كان متداولاً منها وهـذا ما أدى إلى تعـدد المذاهب في شخصية عيسى وحياته ورسالته ، وقد بقي أو أبقي ما فيـه انسجام مع العقـائد المستقرة في المجامع مؤخراً ، وهـذا فضلاً عن أن في الأناجيل المتداولة عبارات قد تفيد أن رؤية عيسى وهو مصلوب وحينما قام لم تكن يقينية ، وفضـلاً عن أن عبارات الفداء والخلاص في هـذه الأناجيل قابلة لتأويلات أخرى حينما ينعم النظر فيهـا وفي سياقها . ولقد كانت بعض المذاهب والمقالات النصرانية القديمة تنكر صلب المسيح على ما يستفاد مما جاء في المجلد الرابـع من تاريخ سورية المطران الدبس استناداً إلى بعض المصادر النصرانية القديمة ، كما كان بعضها ينكر أن خطيئة آدم وحواء سرت إلى ذريتهما ويقول : إنها لم تضر إلا نفسيهما وحسب على ما جاء في المجلد نفسه .

والقرآن يقول : إنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه ولم يقتلوه يقيناً ، وإنما شبه لهم ، وإن الناس في هذا الأمر في شك وخلاف ، وأكثرهم يصدرون عن الظن دون اليقين كما جاء في آيات سورة النساء هـذه (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً . بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً .. ١٥٧ و ١٥٨) حيث ينطوي في الآية إلماع إلى أن مسألة صلب عيسى عليه السلام ليست يقينية عند جميع النصارى في زمن نزول القرآن ممتداً إلى ما قبل ذلك بطبيعة الحال وإن منهم من كان يشك فيها أو ينفيها .

وفي هذا نقطـــة أخرى في الموضوع يبدو بها الخلاف بين الرسالة الإسلامية القرآنية وبين العقيدة النصرانية المستقرة ديناً وعقائدياً أيضاً .

ولقد حاول الحوري أن يستخرج من آيات النساء هذه أنها ليست نافية لحادث الصلب ، وإنما هي نافية لما كان اليهود أرادوه من صلب عيسى وقتله وهو ملاشاة ذكره في الوجود ، وان هذا هو الذي شبه لهم . وقد ذكرنا محاولته هذه في نبذة سابقة ، وفندناها وبينا ما فيها من تمحل .

- ١٠ -

ويستند الحوري في كون القرآن أقر التوراة والإنجيل وأحكامها ، وأنه لم ينسخها إلى الآيات ٤٢ - ٤٧ من سورة المائدة ويهمل ما جاء قبلها وبعدها وله صلة بالقضية والموقف الذي نزلت الآيات فيها ، لذلك رأينا أن نورد السلسلة كاملة وهي هذه (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ . وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالمُؤْمِنِينَ . إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً

وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۝ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ [1] فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا

---

(١) مما قاله المؤولون والمفسرون في مدى جملة (ومهيمناً عليه) أنها في معنى الشهيد والرقيب والضابط بالنسبة للكتب المنزلة السابقة التي يتداولها أهل الكتاب ، وهذا مستلهم من فحوى الجملة أيضاً ، ويكون القرآن والحالة هذه من وجهة النظر الاسلامية ضابطاً ورقيباً على ما يتداوله أهل الكتاب من كتب ينسبونها الى الله تعالى . فاجاء فيها من أسس ومبادىء وتلقينات مطابقاً لما جاء في القرآن من ذلك أو غير متناقض معه فيجوز أن تكون نسبته إلى الله صحيحة ، وما كان غير متطابق أو ما كان متناقضاً ، فلا تكون نسبته إلى الله صحيحة ، ويكون قد طرأ على الكتاب الذي فيه ذلك تبديل أو تحريف . وما جاء في القرآن ولم يكن في الكتب المتداولة في أيديهم المنسوبة الى الله تعالى فيكون ما جاء في القرآن هو الحق ، والعقيدة الإسلامية هي الإيمان إطلاقاً بما أنزل الله من كتاب ، وبوحدة المصدر والأهداف الرئيسية التي تجمع بين كتب الله المنزلة على أنبيائه وبين القرآن كما جاء في آيات سورة الشورى هذه (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا

أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهواءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .. المائدة : ٤١ – ٤٨) .

فِيهِ كَبُرَ عَلى المُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَما تَفَرَّقُوا إِلّا مِنْ بَعْدِ مَا جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعمالُنا وَلَكُمْ أَعمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ المَصِيرُ .. ١٤و١٥)

وآية سورة العنكبوت هذه (وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الكِتابِ إِلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنا وَإِلَهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .. ٤٦) وآية سورة البقرة هذه (قُولُوا آمَنّا بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . ١٣٦) .

وهـذه السلسلة نزلت على ما اتفق عليـه الرواة وتلهم صحته فحوى الآيات في قضية رفعت إلى النبي ﷺ ليقضي فيها ، وكان لليهود يد أو ضلع في الموقف ، أو كانوا طرفاً في القضية على اختلاف الروايات ، وفيها من حيث الإطلاق إقرار لليهود والنصارى بأن تكون أحكامهم في قضاياهم الخاصة وفاقاً للتوراة والانجيل إذا شاؤوا مع التنويه بما في التوراة والإنجيل من نور وهدى ، أما إذا أرادوا أن يتحاكموا لدى النبي فحكمه يجب أن يكون وفاقاً لما أنزل الله عليه وحسب [1] .

وظاهر من هذا أن القضية التي نزلت فيها الآيات هي في صدد حالة كان اليهود فيها محتفظين بديانتهم نتيجة للمبدإ القرآني العام الذي يسمح لمن يريد أن يحتفظ بدينه ويعيش مع المسلمين بسلام ما دام لا يعاديهم ولا يمد يداً ولساناً بأذى إليهم . وقـد جاء ذكر الإنجيل وأهله من قبيل الاستطراد والتعميم في الموقف المشابه . وبعبارة أخرى إن الآيات نزلت في صدد قضية قضائية إن صح التعبير وقعت وتقع أمثالها مع اليهود والنصارى الذين يكونون في كنف السلطان الإسلامي وليست كما توهمـه الحوري أو أراد أن يوهمه في صدد إقرار لليهود والنصـارى وكتابيها في عهد الإسلام وعدم نسخها على اعتبار أن ذلك مجزٍ لهم عن الإسلام ومنج لهم في الآخرة عند الله ديناً وعقيدة ، ويظل اليهود والنصارى مدعوون إلى

---

(١) نصوص الآيات صريحـة أولاً أن على اليهود والنصارى أن تكون أحكامهم في قضاياهم إذا تحاكموا فيما بينهم وفاقاً للتوراة والانجيل وحسب . وقد يعني هذا أن السلطان الاسـلامي ان يلزم الذين في كنفه منهم بأحكام التوراة والانجيل وعـدم السماح لهم بالخروج عنها . وثانياً إن المسلمين مقيدون بالشريعة الاسلامية التي يمثلهـا القرآن وسنة النبي وحسب وليسوا ملزمين بشرائع الكتب السابقة وإن ما ذهب اليه بعضهم من قول (إن شرع ما قبلنا شرع لنا) غير سديد ، بل هو منقوض بصراحة الآية الأخيرة من السلسلة . والله أعلم .

الإيمان بالنبي والقرآن ، والانضواء إلى شريعتها إذا ما أرادوا النجاة الأخروية ديناً وعقيدة من وجهة النظر القرآنية والإسلامية على ضوء الآيات التي أوردناها في الفقرات العديدة من هذا البحث وغيره .

وفي سورة المائدة التي وردت فيها الآيات التي نحن في صددها آيات فيها توضيح أكثر لهذه النقطة وهي هذه (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ . يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ .. ٦٥ - ٦٨) .

وجمهور المفسرين يفسرون جملة (وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ) وجملة (وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) في الآيتين ٦٦ و ٦٨ بأن ذلك يعني القرآن ، فهو منزل لجميع الناس ومن جملتهم أهل الكتاب ، والشطر الأخير من الآية الأخيرة يدعم ذلك التفسير .

ومحصل الآيات والحالة هذه دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بالقرآن والرسول المنزل عليه بالإضافة إلى التزام ما في التوراة والإنجيل من مبادىء ، وإقامتها على وجهها الحق ، وإيذان لهم بأنهم ليسوا على شيء من الحق والهدى وضمان النجاة عند الله ما لم يفعلوا ذلك ، فإن فعلوا كفر الله عنهم سيئاتهم ، وأدخلهم جنات النعيم ، ويسر لهم أسباب الرزق من كل صوب .

والآية الأولى تؤيد أيضاً صحة تفسير المفسرين ، وصحة هذا المحصل ، حيث تطلب منهم أن يؤمنوا ليكفر الله عنهم سيئاتهم ، ويدخلهم جنات النعيم ، والمقام لا يتحمل معنى للإيمان المطلوب منهم إلا الإيمان بالقرآن والرسول المنزل عليه .

وبعض المفسرين يذكرون بالإضافة الى ذلك التفسير وجهاً آخر للجملتين وهو أنهما قد تعنيان ما في التوراة والإنجيل من مبادىء انحرفوا عنهـا وحقائق أنكروها ، ومن جملة ذلك صفات النبي ﷺ التي ذكرت آية سورة الأعراف ١٥٧ أنها مكتوبة في التوراة والإنجيل ، وتطالبانهم بالتزام تلك المبادىء والحقائق ، ولا يخلو هذا من وجاهة ، ولا يخرج محصله عن المحصل السابق كما هو واضح .

وظاهر من هذا أن الآيات تقرر أن الخلاف بين النبي وأهل الكتاب ليس سياسياً وطائفياً كما يزعم الحوري ، وإنما هو ديني وعقائدي أيضاً .

وفي الآية الأخيرة تنبيه للنبي ﷺ إلى واقع كثير من أهل الكتاب ، وهو أن ما أنزل الله إليه قد زادهم غيظاً وكفراً ، وتوعز إليه بأن لا يهتم بموقف الكافرين منهم . وقد يكون هذا هو مما استند إليه الحوري في قوله : إن الخلاف كان سياسياً ، ولكن هذا ليس هو كل شيء ، فانحرافهم عن مبادىء التوراة والإنجيل وأحكامها ، وإنكار ما فيها من حقائق هما متصلان بالدين والعقيدة على كل حال .

وعلى كل حال فإن أهل الكتاب المدعوين إلى الإسلام والإيمان بالقرآن وبرسالة محمد إذا ما استجابوا وانضووا إليها يصبحون ملتزمين بالقرآن والسنة ، أو بكلمة أخرى بالشرائع والأحكام والقواعد الإسلامية المنبثقة عنها كالمسلمين ، ولا يبقون محتفظين بصفتهم الدينية السابقة .

ولقد قلنا : إن آيات المائدة (٤٣ - ٤٧) قد أجازت لأهل التوراة والإنجيل الذين يحتفظون بدياناتهم ، ويكونون في كنف السلطان الإسلامي بالتقاضي وفاقاً للتوراة والإنجيل إذا شاؤوا ، وان ذلك هو نتيجة المبدإ الإسلامي العام بأن لا إكراه في الدين ، وبجواز حسن التعامل والتعايش بين المسلمين والذين يريدون الاحتفاظ بدينهم من غير المسلمين ومن جملتهم أهل الكتاب إذا ما كانوا كافّين عن الإسلام والمسلمين أيديهم وألسنتهم . وهذا يسمح بالاستطراد إلى حالة مماثلة ألمع إليها القرآن وهي إجازة تبادل الطعام بين المسلمين وأهل الكتاب ، وإجازة تزوج المسلم بالكتابية حيث جاء هذا في آية سورة المائدة هذه (اليَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعامُ الَّذِينَ أوتُوا الكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِناتِ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبلِكُمْ . إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مسافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بالإيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ .. ٥) .

والمقام لا يتحمل إيراد ما روي وقيل في أسباب وظروف نزول الآية ، ولا إيضاحات أخرى حول مداها ، ونكتفي بالتنويه بحكمة التشريع البليغة فيها فنقول : إن القرآن ما فتىء يقرر وحدة المصدر والهدف والمبادىء التي تجمع بين المسلمين وأهل الكتاب ، ويوجب على المسلمين احترام كتبهم المنسوبة إلى الله وأنبيائهم ورسلهم فجاء هذا التشريع الخاص بهم دون المشركين والوثنيين المستمد من كون الكتابيين مؤمنين بالله ورسله على كل حال خطوة مهمة في سبيل توطيد التآنس والتوائق والتعايش والتعامل والتقارب عملياً بينهم وبين المسلمين .

وما جاء في هذا البحث بما في ذلك النقطة التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة يظهر عناية القرآن الكبيرة بأهل الكتاب ، وحرصه الشديد على هدايتهم للإسلام ، وتصحيح ما وقعوا فيه من انحراف وشقاق ، وجمعهم مع المسلمين تحت راية كتابية جديدة مصدقة لما بين يديها . ولقد علم الله أن هذا مطلب حق وصدق ، وواجب التحقيق وممكن التحقيق معاً . ولتحقيقه فوائد عظيمة للإنسانية جميعها التي احتوت الدعوة الإسلامية كل أسباب خيرها وسعادتها ورقيها ونجاتها وكرامتها في الدنيا والآخرة .

ولقد ألممنا بهذا الأمر في الفقرة (١٠) من النبذة أولاً من الفصل الثاني ، وشرحنا ما كان من حالة اليهود والنصارى قبل الإسلام وما هناك من أسباب وموجبات ميسرة لاندماجهم فيه ، وما كان من فوائد عظيمة محتملة لانتشار الاسلام دين الله بذلك وما احتواه القرآن من دعوتهم إليه ، وما كان من استجابة كثير منهم في حياة النبي ﷺ إلى الدعوة ، وما كان من استمرار استجابة معظم من كان منهم في بلاد الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيه والأندلس بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . وما كان من رغبة بعضهم في الاحتفاظ به فكان له ما أراد ، وكون تلكؤ من تلكأ إنما كان المآرب والمنافع التي غلبت على أحبارهم ورهبانهم ، فانبروا إلى الصد عن الإسلام في زمن النبي كما ذكره القرآن . وقد استمر هذا أيضاً في مختلف حقب التاريخ لنفس الدوافع والحوافز ، فنكتفي بهذه الإشارة دون التكرار .

وتظل الدعوة القرآنية موجهة بكل مداها وأهدافها إلى اليهود والنصارى لفلاحهم وخلاصهم ، ثم لقيام جبهة كتابية موحدة تحت راية الإسلام ، وقرآن الإسلام ، وسنة نبيّ الإسلام لتحمل مشعل الهداية والأخوة والسلام ،

والطمأنينة للإنسانية جميعها ، ولا سيما في هـذا الظرف الذي يدير جماهير الناس ظهورهم للدين ، ويستشري فيهم الالحاد والفساد الخلقي والاجتماعي ، وتطغى المادة والتفكير فيها على المشاعر والأفكار مما لن يكون له علاج ناجع إلا بذلك .

وإنه لما يحز في النفس ، ويثير فيها بالاشمئزاز أن يتكرر ما وقع في زمن النبي ﷺ وبعـده ، فينبري الخوري الحداد وأمثاله من الأحبار والرهبان من آن لآخر ليناوئوا هذه الدعوة ، ويصدوا مللهم والإنسانيـة عن الاستجابة إليها بمـا يثيرونه من شبهات باطلة ، ويثيرونه من مسـائل زائفة ، ويرسلونه من أقاويل كاذبة ، ويعمدون إليه من تمحلات ومماحكات متهافتة ويجرؤون عليه من افتراءات وتنطعات وسوء أدب حكى القرآن ما وقع مثلها من طواغيت المشركين والكتابيين في مواجهة النبي ﷺ ، وردها عليهم بردود قاصمة قارعة مفحمة ، بقصد إطفاء ما في هذه الدعوة من هدى ونور ، وحق ومبادىء ، وأحكام وخطوط ، وتلقينات وحلول مرنة تستجيب لكل مطلب ، ولكل جنس ولون ونحلة في كل ظرف ومكان ، وتضمن للانسانية جميعهـا السعادة والسلامة والطمأنينة والأخوة والحرية والمساواة[١] فيعطلون ذلك العلاج الناجع لما استشرى في الناس من الالحاد والفساد ، ويكونون بذلك كأسلافهم موضع تنديد القرآن .

ولن يحققوا ما أرادوه ، لأن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، ولأنه هو الذي أرسل رسوله بالهـدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

والحمد لله رب العالمين

---

(١) فصلنا كل ذلك في الجزء الأول والثاني من كتابنا الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة .

تنبيه واعتذار

قد نكون استعملنا بعض الألفاظ القاسية في ردودنا على الحوري الحداد، وتفنيدنا لمزاعمه، وحقاً لقد أمرنا الله تعالى في القرآن أن نجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ولكنه استثنى الذين ظلموا منهم كما جاء في الآية (٤٦) من سورة العنكبوت هذه (وَلا تُجَادِلوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلا بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ) وأي ظلم أشد على المسلم من زعم الحوري وأمثاله منهم أن القرآن غير موحى من الله، وزعم وقوع تحريف ودس وزيادة عليه، ونسبة ذلك إلى الرسول وأصحابه لمآرب سياسية، ثم من الإيغال في تجريح رسالة محمد الالهية والقرآن الالهي وصدقه وتدوينه وحفظه تجريحاً فيه الوقاحة والصفاقة والكذب بدافع من الحقد والهوى والعمالة، والتصميم على الصد عن الإسلام، وقرآن الإسلام، ونبي الإسلام وهدمهم. وفضلاً عن هذا فإن الحوري لا يتورع في ثنايا كتبه عن توجيه كلمات قاسية بذيئة إلى علماء المسلمين ومؤلفيهم حينما يراهم يسوقون أقوالاً وأفكاراً تخالف مزاعمه وأفكاره ودعاويه الزائفة المتهافتة.

كتب للمؤلف

١ – التفسير الحديث
٢ – القرآن المجيد
٣ – الدستور القرآني
٤ – عصر النبي
٥ – سيرة الرسول
٦ – المرأة في القرآن والسنة
٧ – الاسلام والاشتراكية
٨ – القرآن واليهود
٩ – القرآن والضمان الاجتماعي
١٠ – حول الحركة العربية الحديثة
١١ – تركية الحديثة
١٢ – بواعث الحرب العالمية الاولى
١٣ – مختصر تاريخ العرب والاسلام
١٤ – دروس التاريخ العربي
١٥ – دروس التاريخ المتوسط والحديث
١٦ – دروس التاريخ القديم
١٧ – دروس في فن التربية
١٨ – مشاكل العالم العربي
١٩ – تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم
٢٠ – الوحدة العربية
٢١ – عروبة مصر قبل الاسلام وبعده
٢٢ – تاريخ الجنس العربي
٢٣ – العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي
٢٤ – مأساة فلسطين
٢٥ – جهاد الفلسطينيين
٢٦ – الجذور القديمة لاحداث بني اسرائيل
٢٧ – القرآن والملحدون